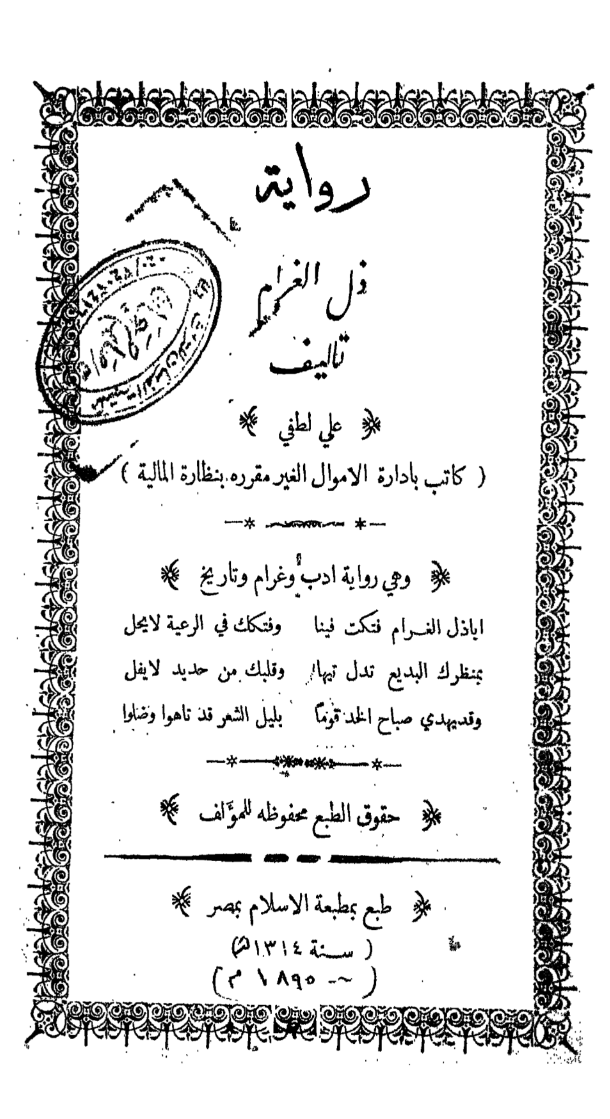




رواية

ذل الغرام

تأليف

﴿ علي لطفي ﴾

(كاتب بادارة الاموال الغير مقرره بنظارة المالية)

﴿ وهي رواية ادب وغرام وتاريخ ﴾

اياذل الغرام فتكت فينا وفتكك في الرعية لايحل

بمنظرك البديع تدل تيها وقلبك من حديد لايفل

وقديهدي صباح الخد قوماً بليل الشعر قد تاهوا وضلوا

﴿ طبع بمطبعة الاسلام بمصر ﴾

(سنة ١٣١٤ هـ)

(~ ١٨٩٥ م)

اهداء الرواية

لصاحب المقام الاسمى والشرف الرفيع

« سعادة »

الفاضل قليني بك فهمي الافخم

اليك يا سيدي بيد الخضوع اقدم هذه الرواية · وليس لي من وراء تقديمها غاية · سوى فوزها بطالع اسمكم السعيد · و يرضى عنها القريب والبعيد · وتجر ذيل فخارها بين يدي ابناء هذا العصر · وتعود مكللة بالظفر والنصر · فافتح لها وحقك من القبول اعظم باب · ودعها تهنئ نفسها بحسن الاياب ·

الداعي

علي لطفي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي احسن خلقنا بصنعته · واولانا جميل الصنيع بحكمته · والصلاة والسلام على من سار تحت أمرتهِ السحاب · سيدنا محمد وعلى أله واصحابه الأنجاب · وبعد فيا اخواني الفضلاء · واحبابي الاعزاء · ها انا قمت بما طالما دعوتموني اليه · واشرتموا لي عليه · واقتصدت من نومي · وراحة جسمي · وابرزتها لكم عروساً ترفل في خدر الصيانة والعبق · مكسوَّة بثياب السهر والارق · فاسدلوا عليها من القبول حجاباً مستوراً · لتعلو على اترابها علواً كبيراً · فالصفح لا يصدر الا من قلب سليم · واللوم لا يبديه الا كل معتدٍ اثيم ·

الفصل الاول

مدينة حلوان

يعجز قلمي و يقف الفكر متحيراً كلما اخترت الكلام على هذه المدينة التي بلغت شأواً عظيماً من كمال الانتظام في هذا العصر سيما حماماتها المعدنية التي شهد بفضلها واقر بجميل فوائدها كل طبيب حاذق وهذه المدينة واقعة في جنوبي القاهرة يقصدها الوطنيون والاجانب من جهات شتى ولا سيما في فصل الشتاء فمن اواخر شهر يونيو الى اواخر يوليو يشتد الحر فيها اكثر من اشتداده في القاهرة ولكن تخف وطاته في الليل وتهب فيها الرياح المنعشة للارواح والابدان و يزيد النسيم في الصباح لطفاً لان الحرارة تنخفض بعد الزوال في الصحراء اكثر من انخفاضها في الاماكن الرطبة المكسوّة بالخضرة وحينما يأخذ النيل في الارتفاع في اواخر يوليو و يغمر الاماكن المنخفضة تتصاعد الابخرة من جوف الارض في العاصمة ونحوها من المدن اما تلك المدينة فبمعزل عن ذلك لانها في صحراء تعلو عن سطح الارض التي يغمرها النيل عند بلوغه اعلى فيضانه نحو ٣٦ متراً وهي اعلى من العاصمة بتسعة وثلاثين متراً وارتفاعها عن سطح البحر ٥٨ متراً مع ان ارتفاع الازبكية عن البحر ١٩ متراً فقط . ولم يوجد احدٌ من سكان هذه المدينة يشكو الرطوبة . ناهيك عن ان مبانيها قصور متفرقة لاازدحام فيها وشوارعها واسعة منتظمة تجري الرياح فيها وتنقي هواءها . وفيها ينابيع كبريتيه كانت معروفة منذ سنة ٦٩٠ للميلاد ولكن

الخديوي الاسبق اسماعيل باشا وساكن الجنان الخديوي النس
بذلا الجهد في تمميرهذه المدينة وتنظيمها حتى يسهل الانتفاع
فقصدها ذوو العاهات المختلفة من بلدان شتى ونالوا فيها الشفاء

وقد سهل الذهاب اليها بعد ان انتظمت سكة الحديد وكثرت ا
التي تسير اليها · وبها اماكن كثيرة لنزول المسافرين وقد ابيح للاهالي
يزرعوا فيها الاشجار والرياحين لتزيد خضرتها وتكثر نضارتها ولولا خوفي من
اللوام لقلت انها ساوت تلك المدائن الاروبية التي يتباهي بها اهلوها وملأوا
اسماعنا بمدحها في حين اننا نراهم يهجرونها ويأتون سراعاً اليها · ويعلم الله ان
لا شيء ينقصها عن تلك المدائن سوى المعامل والمتاحف وهذا ليس بعيب
تتمسك به اللوام لوجود مصر بين يديها تتناول منها كلما احتيجت اليه

وقد يجد الداخل من المحطة حديقة يتخللها اشجار متناسقة مرصوف بعضها
ببعض برسم هندسي يشوق الناظر ويروق الخاطر · وفي وسط تلك الاشجار
متكا آت يأوي اليها السائر والحائر وفي احدى زواياها كشكاً مرتفعاً عن
الارض تشغله الموسيقى العسكرية ومنها يتخلص الزائر الى حديقة اخرى محاطة
بسور من حديد داخله بناء عظيم الشكل معدّ لتشخيص الروايات العربية

وكلّ من يقصد تلك المدينة خصوصاً في فصل الشتاء يري ازياء مختلفة
الاشكال والالوان ما بين القبعة والطربوش والحبرة المصرية والخمار التركي
والكل مابين غادٍ ورائح يسرّحون الطرف في احاسن تلك المحاسن · ولا تسل
عن الوجوه الناضره · التي هي على قتل الناظر قادره · وبالجملة فان تلك المدينة
صارت مركزا لا يباري ومنافعها لا تجاري ولنا وثيق الامل ان سمو مليكنا
المعظم وخديوي مصر الافخم عباس الثاني لا يحرم هذه المدينة من التفاته السامي

غايته جريا على خطة المرحوم والده

الفصل الثاني

كامل

في بداية سنة ١٨٩١ كان شاب يسير الهوينا في وسط حديقة هنالك وهو مرتد باثواب تدل على انه من اعظم ابناء الموسرين ذو وجه لطيف يظلله الاصفرار ويعلوه الفهم والذكاء وبيده عصا يتوكأ عليها تارة وينبش بها الارض طورا وهو مطرق الرأس وعلامات الفكر والاضطراب بادية على وجهه المندي بالعرق اما عمر هذا الشاب فيبلغ الخامسة والعشرين وبعد ساعتين قضاها في الذهاب والاياب وفد عليه خادم صغير يبلغ التاسعة من عمره وحينما رآه اسرع لملتقاه بحركة غريبة واخذ بناصيته حيث لا يراها احد وتناول منه ورقة بيدين مرتجفتين وما اخذ يتلوها حتى انحدرت الدموع من آماقه كان الذي ابكاه في عنوانها وبعد الفراغ منها اخرج محفظة صغيرة كان اعدها في جيبه لكل شيء يودّ صيانته وما كاد ينتهي من وضع تلك الورقة حتى اقبل عليه رجل ابيض العارضين ضخم الجسم اسمر اللون مربوع القامة تظهر عليه شيمة الوقار والكمال وخاطبه قائلاً ما هذه الهواجس التي تنتابك يا كامل والافكار التي تنازعك الم يأن لك ان ترجع عن هذه الوساوس وترضخ لاحكام القضاء والقدر فارني ما الذي اجابتك به تلك القاسية الظلومة فقال له ها هو يا سيدي ابراهيم . وناوله ذلك المكتوب وطالعه فاذا فيه ما يأتي

الم اقل لك يا عزيزي غير مرة انك لن تستطيع الوصول الينا ولو اصبحت

وقبلاً اشيري للخادم بالدخول عليّ من غير بطيء لحاجة في نفسي اروم قضاها وعليك ان لا تغيبي عني حتى اساررك في امر دون اباحته خرط القتاد ولكوني اعهد فيك صيانة الاسرار منذ نشاتي رايت ان لا ابخل عليك بما يجول في خاطري · فخرجت الجارية بعد ان وعدتها بصون امرها ولو كان دونه نفاد حياتها · وعادت عزيزة مضطجعة على وسادة الافكار وقالت آه يا الهي انت اقرب اليّ من حبل الوريد فخذ بيدي ونجني من ظلم ابٍ غشومٍ لا يرحم وام عاتية أرضعت من صغرها البان القساوة وكدت اشق عصا طاعتها لكونهما فرّطا في حقوق التربية ولم يحسناها واطلقا لي عنان التنزه والرياضة وعلماني علماً ليتهما لم يعلمانيه اذ هو سبب البلوى لمخالطتي النساء الغربيات واقتباسي من عوائدهن وحريتهن ورايت كثيراً من زميلاتي الشرقيات يجارينهن في ميدان التفرج ليس الا وليتنا علمنا منهن رشداً · ولكن ما بالي الآن ومن المستحيل ردّ الفائت وقد وقعت في اسر شاب باع حياته رخيصة في هواي وهو من خيرة شبان هذا العصر · فما عليّ الآن ان اكاشفه بغرامي واعده وعد احسنا باني اجتهد في الاقتران به ولو حالت دون ذلك اهوال واخبره بسفري غداً · فعندها دخل الخادم عليها وقال لها ها انا ياسيدتي حضرت طبق اشارتك فقالت له قف خارج الباب حتى ادعوك وتناولت قلماً وقرطاساً من على طاولة امامها واخذت تسطر العبارات الآتية

حبيبي كامل

تمنيت لو اعطيت فصاحة الخنساء او بلاغة ليلى الاخيلية لاقوم بتعبير شدة عواطفي نحوك فان الذي اشعر به لجهتك هو ميل طبيعي دون تكلف سري في فؤادي ويميل بي الى ما يشاء كما يستميل الريح اغصان الشجر ثم انني اشعر دواماً

بقوة تجذبني اليك ونار تتأجج في قلبي لايطفئها الاّ ذكراك · ولا يسوءنك تنصلي من هواك في الكتاب الماضي فذلك لاقف على كنه غرامك ومنتهى انفعالاتك واني مخبرتك ياحبيبي بان والدي رغب السفر باكرا الى الاسكندرية طبقاً لاشارة عمي الذي عزم على زيارة دار السعادة واراد ان يصطحبني ووالدتي وعموم الخدم « وهنا خارت قواها وانحدرت الدموع على القرطاس وصاحت بصوت كاد يصل مسامع والديها · آه · ما اتعس حظي واشقي عيشتي حيناً لااراك فيه ايها الحبيب » ثم عاودت اتمام كتابتها · للاقامة هناك بضعة ايام واني موصيك يا كامل بالعهد خيراً وحفظاً فارع زمامي ولا تدعني ذليلة بعد ما كنت »

﴿ عزيزه ﴾

وعندها طوت الكتاب وسلمته للخادم وقالت له دونك ياسعد واطلاع الغير عليه لئلا توقعني في وهدة عميقة من الظنون وقيل الواشين وسلمه لحبيبي يدا بيد · فقال لها ياسيدتي ها انا ذاهب وتعرينني اضعه بين جفني فلا يخطر هذا الامر على بالك .

—**﴿ ** ﴾**—

الفصل الثالث

ضياع الامل

وهنا سار الخادم ليتمم مأموريته ومكثت عزيزة تنتظر دخول جاريتها وتناولت مجلدا من خزانة آدابها لتقتل الوقت بمطالعته وبينما هي تقلب صفحاته دخلت عليها الخادمة وسلمت فاومات لها بالسلام وامرتها بالجلوس قريباً منها وقالت لها ما وراءك من اخبار والدي ياحليمة واين تركتيها فقالت تركتهما في غرفة النوم ياسيدتي يتسامران في امورشتى لا حاجة لك بها والآن جئت لتعلميني عن غوامض اسرارك لاشاطرك في احزانك . فقالت آه ياحليمة ان هي الاَّ اسرار اورثتني حزناً وكادت تذهب بعنفوان صباي — فاعلمي ياحليمة اني وقعت في حبائل شاب صادني بقسيّ حواجبه ونبال عيونه

عرفت هواه قبل ان اعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وهو من اعظم ابناء العائلات في قطرنا .. فقاطعت الجارية عليها الحديث وقالت — اظنه ياسيدتي سيدي كاملاً ابن المرحوم — .... فصرخت عزيزة وقالت . هو . هو . يا الله — حتى الخادمات لاتنكرنه . فقالت لها نعم وكل الناس تعرفه وهو شاب جميل الطلعة معتدل القامة ذو عينين سوداوين يصيب بهما من يشاء . فقالت عزيزة ولكني لم اصرح في اول الامر باسمه ولم اذكر لك بعضاً من صفاته فمن اعلمك يا ترى بانه هو بيت قصيدي من الحديث . فقالت لها ياسيدتي علمت ذلك من اليوم الذي خرجنا فيه للتنزه على

سفح الجبل ووجدت بعض السيدات يهمسن في اذان بعضهن حين مرورنا وتقول احداهن للاخرى مشيرة اليك هذه هي التي يهواها كامل وحرّم من اجلها لذة الوسن ومذاق الطعام وكان هو اذ ذاك اما منا على بعد فلاح لي انه يترقب الانفراد بك ليكاشفك بما في ضميره ولولا خوفي من غضبك وتغير دمك لكنت اعلمتك بما سمعته وحاولت كثيراً معرفة الاسر منك فما نجحت والآن يا سيدتي كشفت غطاء الكتمان عنى فلما سمعت عزيزة هذه الجملة امتقع لونها واطرقت براسها الى الارض وبكت بكاءً مراً وقالت بعد ان تنهدت تنهدات تقدّ الصخر

خاض العواذل في حديث مدامعي　　لما رؤا كالبحر سرعة سيره

فحبسته لاصون سر هواكم　　حتى يخوضوا في حديث غيره

· آه · كيف العمل يا حليمة ومن يتبع قلبه الهوى لا يصعد من درجة الى اخرى بل ينزل من درجة الى درجة حتى يبلغ هاوية المذلة والمسكنة بحيث يتعذر عليه الصعود · فقالت لها والى اين يا سيدتي وصلت مع هذا الشاب في غرامك وما الذي علمه عنك وعلمتيه عنه حتى هذه الساعة · قالت لم يعلم عنيّ شيئاً ولم يرمني انعطافاً الا قبيل حضورك الآن ببضع ثوانٍ حيث بعثت له بكتاب مع سعد ابنت فيه شكواى من نار تلتهب بين جوانحي وشواظ من تلك النار تتقد في فؤادي كلما هبت عليّ ريح محبته وعسى ان يعود سعد مزوداً بسلسبيل من الفاظه يخمد هذا اللهيب واجد راحة في نفسي فقالت لها رفقاً يا سيدتي بنفسك واطردي عنك جيوش الافكار ودعي الامر لمن ترجى رحمته وتنفذ مشيئته وعسى بعد عودتنا سالمين من سفرنا يقضي الله امراً فيه نجاحنا · وقبل ان تنتهي من حديثها دخل الخادم وقال اوامر سيدتي تمت

فهل عندها شيء آخر · نخاطبته مسرعة واين الذي جئت به من عنده

لم يعطني شيئًا

لم يعطك شيئًا ولا جوابًا شفاهيًا

نعم سوى ان اخذ الكتاب وفض ختامه وبعد تلاوته اومأ اليّ بالذهاب · فقالت يا ويلاه مالي ارى السماء امطرت عليّ غضبًا · فقالت خادمتها سكني روعك ياسيدتي وخفضي من اضطرابك واخلعي ثياب الاكدار وادخلي في فراشك لعل في الامر سرًا يظهره الغد قبل سفرك ولا تسلمي جسمك لتيار الافكار وتلقي بروحك في مهاوي الاكدار فتصبحي ضئيلة مهزولة · كل ذلك وعزيزة فاقدة الرشد لا تعي قول خادمتها فنبهتها فلم تنتبه فرفعتها على سريرها وقالت يارب ارسل عليها سنة من النوم فتستريح من هذا العناء · رخرجت واغلقت باب الغرفة عليها وتناولت المفتاح من موضعه كي لا يدخل عليها احد والديها وهي على هذه الحالة فيرتابا في امرها واوصت الخادم بمراقبة الغرفة وان ينام خارجها حتى الصباح وذهبت الى حجرتها · وبعد سويعة انتبهت عزيزة من غفوتها فوجدت المكان خلوًا من الخدم والباب مغلوقًا عليها من الخارج فجلست امام النافذة تراقب سير النجوم وتعد ساعات الليل وظلت كذلك تتاوه وتنتحب حتى دقت الساعة الاولى بعد نصف الليل فقامت وانطرحت على فراشها وهي تنتفض كعصفورة بللها القطر الى ان غفلت عيناها · وبعد طلوع الفجر اتت الخادمة وايقظت سعدًا وسالته عن حالة سيدته بعد ان تركتها فقال لم اسمع لها حركة بعد · ففتحت عليها الباب ونبهتها بلطف قائلة لها هيا اصلحي من شانك ياسيدتي وادخري لا تحتاجينه في سفرك اذ والداك في انتظارك · فقامت عزيزة بحالة لاتقوى

معها على الوقوف مما نابها بالامس واحضرت شنطتها ووضعت فيها ما تحتاج اليه وما كادت تفرغ من ذلك حتى اقبل والدها يدعوها للخروج لان العربة في انتظارها ـ وخرجوا جميعاً بعد ان اغلقوا غرف المنزل للباب العمومي وركبوا وساروا الى المحطة حيث كان الوابور على اهبة المسير فاحضر الخادم لهم التذاكر وبعد ركوبهم ببضع دقائق دق الجرس للسفر فدقت حلقات قلب عزيزة وقام الوابور يشق دخانه عباب السحاب وكان ذلك في اليوم السادس من شهر يناير وفيه كانت الامة القبطية تحتفل بعيد ميلادها

واما كامل فبعد ان ذهب الى اللوكاندة ومعه صديقه ابراهيم حضر امامهما طعام العشاء فاحس بثقل في راسه منعه عن تناول الطعام ولكنه تعاطى قليلاً من المروقات البدنية فلم تفد فأثر ذلك في نفس ابراهيم واعادا الطعام كما جيء به وانقدا صاحب اللوكاندة ثمنه وصعدا حيث غرف النوم وما وصل كامل الى احداها حتى انكب على وجهه فرفعه ابراهيم بقوة هرقلية ووضعه على السرير لاحراك به فاشتد الغم عليه وضغط باصبعه على الجرس فحضر خادم لايدري من العربية شيئاً وتظهر عليه حداثة قدومه من بلاد اوربا وكان ابراهيم لا يعرف من اللغات الاجنبية غير اسمها ولكنه يتكلم بالتركية جيداً لكونها لغة بلاد نشأ فيها فدق جرساً ثانياً فحضر صاحب النزل وقبل ان يقترب منه قال له عليّ بطبيب تعرفه بالمهارة فاستدعى له طبيباً وطنياً كان في الدور الاسفل مع فريق من اصحابه فتقدم الطبيب نحو كامل وجس نبضه والتفت الى ابراهيم وقال لا خوف عليه فان المرض عرضيّ وقريباً يزول . ففتح كامل جفنيه وطلب قليلاً من الماء فامر له الطبيب بكوبة فيها جانب من عصير الليمون وناوله اياها فجرع منها جزءاً صغيراً وحاول الجلوس فلم يجد شيئ

نفسه قوة فاجلسه الطبيب واخذ يسأله عما يشعر به من الالم فقال له لم يكن بي ثمّ من حاجة سوى اني شعرت بنوبة اخذت بناصيتي وذهبت معها قواي وانقطع لها صوتي . والحمد لله على ذلك وشكرا لك ايها الطبيب على حسن مروءتك . فعندها جلس الطبيب واستدعى اصحابه للحضور فحضروا الاّ واحداً اعتذر لاشغال خصوصية ومكث هذا الجمع يتناوبون الحديث و ينتقلون من موضوع الى آخر وكامل مشغول عنهم بافكاره و يحسب الف حساب فيما عساه ان تجاوبه به مالكة قلبه ففطن لحالته الطبيب وهمس في اذن ابراهيم قائلاً اني ارى بصاحبك افكارا تسوقه سوق الراعي لغنمه الم يك ذلك يا سيدي . فقال له نعم فالقول ما قلته . فعندها اخذ الطبيب يسأل كامل عن حالة مصر الحاضرة ليشغله عن افكاره فجاوبه بما يناسب مقام الحال الى ان افضى بهما الحديث لذكر النساء فارتعدت فرائص كامل وقال له دعنا من ذكرهن ـ وحاول التخلص من هذه السيرة اذ فيها شتات باله وضياع عقله وخاف ان يفتضح امره للحاضرين فاستأذن من الطبيب واظهر رغبته في النوم فلباه والتفت لمن حوله وقال ليقم كل منكم حتي ياخذ المريض راحته فقاموا وانصرفوا مودعين من كامل وابراهيم و بعد ان هدأ روع كامل وسكن جاشه قال له ابراهيم ما هذه التخيلات التي تمر على فكرك ومتى تعود اليك مادة الثبات الم تركيف فعل الغرام بذويه وانت للآن لم تبلغ عشر معشاره فان لم ترعو لنصيحتي فاستعد لسيف عذابه فحول كامل وجهه واخذ يسدل الستار على سريره و يقول يارب غرام وعذل يهدمان ركناً قوياً من يابس الصخر فاصرف بفضلك عني ثانيهما وانطرح على فراشه فتنهد ابراهيم وقال انا لله . أمحال نصيحة في فؤاد يولعه شدة العذل فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ثم قام وخلع ملابسه ولازم

مضجعه اما كامل فاستمر طول ليله يتقلب على جمر الغضى وكان نومه اخف من نوم القطاء وما صدق ان راى ضوء النهار من النافذة حتى اسرع وايقظ ابراهيم واحضر لهما خادم الفندق فناجيل القهوة فتعاطياها واستأذن صديقه في الذهاب حيث يرى رسول حبيبته وانصرف ميمما نحو الطريق المؤدي الى منزلها ووقف على مقربة منه عساه يجد خيالاً يدنو اليه من دار غرامه واستمر على تلك الحالة وهو يغدو يمنة و يسرة على برزوق الطريق حتى وافت الساعة الحادية عشر ولم يرَ شبحاً وقد اكات الشمس جسمه وخطفت بصره فاقترب من المنزل واتكأ على سور حديقته واصاخ باذنيه جهة الداخل فلم يسمع منه سوى دوي اصوات العصافير فوجف قلبه ولم يتمالك من مقاومة تيار الافكار التي كانت تجذبه رغما عن ارادته وجلس يترقب خروج احد من الدار او مما جاورها فلم يظفر بتلك الامنية وقام بصفقة المغبون ونار الغرام تستعر في فؤاده وصعد على قمة الجبل ليتمكن من رؤية قادم يهديه سواء سبيله فراى على بعد قدوم شخص فظنه سعدا يبحث عليه ونزل قاصده فوجده بربريا يخدم احدى المنازل قريباً من منزل اماله فاستوقفه وسأله عن سعد خادم جار سيده فقال له اني رايته مسافرا صباح اليوم مع جميع مخدوميه فانصدع فؤاد كامل من هذه الفاجعة التي نزلت به وقال للخادم الم تعلم الى اي جهة قصدوا فلم يجبه بغير لا وتركه ودخل منزل خدمته . اما كامل فحدث عنه ولا حرج فقد خرج هائماً على وجهه تحت سفح الجبل وهناك سقط من قامته على التراب والحصى ولبث غارقاً في بحار الهواجس الى ان ارتدى ثوباً جديدا من الغبار وفاق من غشيته وهو يقول . آه . اوّاه . مافات ليس بعائد وما في زوايا القلب ليس بنافد فانظر اليّ يارب برحمتك فقد اتعستني الايام والقى عليّ الغرام عصاً من حديد .. — نعم نعم . —

انا الذي اوردت حتفي بظلفي وسلمت جسمي لمن لا يرحمني ولو لم يحصل لي ما حصل لكنت امضيت حياتي بهدوٍّ وعرفت ما هي ايام المرء السعيدة فأسالك يارب ان تستأصل من جسمي عروق الجهالة وتصرف عني كيد من لا تعرف غث الهوى من سمينه انك احكم الحاكمين

الفصل الرابع

انقلاب سريع

وبينما هو يسخط على الدهر تارة ويؤنب نفسه على وقوعها في هذا الشرك اخرى سقطت على راسه ورقة مظروفة فتناولها وفض ختامها فاذا هي بقلم حبيبته فصرخ صرخة دوى لها الجبل واخذ يتلوها ويعيد كل كلمة مثنى وثلاث ورباع وبعد الفراغ منها ردت له الحياة وسرى دم القوة في شرايينه وقام منتصباً على قدميه وقال الحمد لله الذي سخر الريح لحبيبتي حتى تبعثه اليّ رسولاً فسأتبعها واسلك من اجلها طريقاً في البحر يبساً ثم سار بعد ان حيّا منزلها الف تحية وقد تذكر اخيرا ان المكتوب لم يدله على مقر حافظة وده فاخذ يتعزى بالابيات الآتية

هو البين حتى لاسلام ولا رد	ولا نظرة يقضي بها حقه الوجدُ
لقد نعب الوابور بالبين بينهم	فساروا ولا زمّوا جمالاً ولا شدُّوا
مرى بينهم سير الغمام كانما	له في تنائي كل ذي خلة قصدُ
فياسعد حدثني باخبار من مضى	فانت خبير بالاحاديث ياسعدُ

لعل حديث الشوق يطفىء لوعة — من الوجد او يقضي بصاحبه الفقد
هو النار في الاحشاء لكن لوقعها — على كبدي مما الذ به بردُ
لعمر المعالي وهي عندي عزيزة — بسا كنها ماشاقني بعدها عهدُ
لكانت وفيها ما ترى عين ناظر — واضحت وما فيها لغير الاسى وفدُ
وما كنت لولا الحب اخضع للتي — تسبي ولكنّ الفتى للهوى عبدُ
فيا قلب صبرًا ان اضر بك النوى — فكل فراق او تلاق له حدُّ

وظلّ سائرا في طريقه الى ان رأى صديقه ينتظره طول يومه وما كاد يقع نظره عليه الاَّ وبادر للقياه فرأى عليه من التراب حملاً ثقيلا فسأله عن سبب غيابه فاخذ كامل يقص عليه الامر حتى بلغ لذكر الورقة وناولها الى صديقه ففضها ووقف على ما فيها فاخذه العجب لهذه الصدف الغريبة وقال حقًا ان الدهر ابو العبر لا يفرغ وطابه من العبر والقصص لا تنفد ما دامت الدنيا •

فقال له كامل اني استودعك الله فقد عزمت الآن على السفر الى الاسكندرية لاقتفاء اثر حبيبتي عساي بدقة البحث اقف على محط رحالها وهناك امتع نفسي بذاك الوجه اللطيف واتزوّد منها بنظرات تقيني شر الحوادث • فقال له ابراهيم ان شرّ الحوادث لا يبرح عنك ما دمت محوطًا بافكار تذهب بحياتك الى القبر خصوصاً اذا قرت مبادىء الغرام في ضميرك وترى قلبك كسهل ترتع فيه الشهوات • فغضب كامل وقال الم اقل لك يا صديقي العزيز غير مرة ان عذلي مثلي حرام وان النصيحة لا تفيد عقلا فاقد الادراك وجسما معدوم الحياة واعلم بان رغبتي في السفر قد رسمتها في ذاكرتي وها انا مودّعك قبل قيام القطار من المحطة فقال ابراهيم ان كنت لا ترى

بدءًا من سفرك فلا مناص لي من الانصياع لا وامرك فقم على بركة الله وسلامته
وسار معه الى المحطة وهناك ودّعه وهو يذرف الدموع على ضياع شاب في
ريعان صباه وكان يعدّه من اولى العزم والحكمة ۰ واما كامل فلما قام الوابور
كبرت لديه حالة صديقه فبكي وقال

فارقته طلباً لما هو كائن   والمرء طوع تقلب الازمان
فليهنأ الدهر الغيور برحلتي   عن مصر ولتهدأ صروف زماني
فلئن رجعت وسوف ارجع واثقاً   بالله اعلمت الزمان مكاني

اما عزيزة فقد وصلت الى الاسكندرية وهي سكرى من خمرة الهوى
وقد لا حظ عليها والدها كثرة الشواغل لسقم تولاها ونحول تزايد عليها
فسالها عن حالتها فقالت له ولسانها يتلعثم في النطق ذلك من عوامل السفر
يا والدي وليس سبب غيره فصار يخفف آلامها ويحوّل نظرها الى كل شيء
يمرون عليه حتي وصلوا الى منزل متسع الارجاء يظهر على جدرانه اقتدار
صاحبه محاطاً بحديقة غناء تمرح في وسطها الغزلان وتسيل فيها جداول الماء
وهو على مقربة من البحر فوقفت بهم العربة وقابلهم على الباب خصيّ ورجل
من الخدم علاه الشيب بكلكله فتناول ما معهم من معدات السفر واخذ
الخصيّ بيد عزيزة وسار بها الهوينا في وسط الحديقة وهي لا تقوي على السير
حتى وصلوا جميعاً الى باب السلم المؤدي للدور الاعلى فلم تستطع عزيزة الصعود
عليه الاّ رويداً ووصلت حيث تجلس سيدة المنزل فقابلتها بالترحيب
واجلستها وحيتها تحية القرابة وسالتها عن سبب ضعفها وامتهان قوتها فجاوبتها
بما جاوبت به والدها قبلاً وبعد هنيهة احضرت لها الماء واماطت عن وجهها
وعثاء السفر

اما والديها فاشتغلا بالسلام على رب المنزل وهو عم عزيزة حيث كان جالساً في صدر غرفة مطلة على الحديقة يطالع بعض الجرائد التركية التي وردت مع البريد الاخير من دار السعادة · وبعد قليل تقدمت اليهم مائدة الغذاء ودعيت عزيزة اليها فامتنعت الا انها تناولت قليلا من الكمثرى على غير ارادتها وبينما هي جالسة على مقعد قرب النافذة ترسل النظر في وسط الحديقة اذ دخل عليها شاب اشقر اللون متوسط القامة وعلى عينيه نظارة مسترسل خيطها الذهبي على صدره ويريد الدنو منها ليسلم عليها فابتعدت عنه وغطت وجهها حياء منه والتفتت لمن حولها فوجدت الخدم قمن له تعظيما لقدره فقالت لها احداهن لا تفزعي يا سيدتي هذا ابن عمك فريد فقامت اليه وادت له ما يجب عليها من الاحترام نحوه واسفرت عن وجهها ونظرت اليه نظرة تمكنت من فؤاده فخرج وقلبه يضطرب ودخل على والده بحالة ذهل منها عقل الحاضرين ومن شدة هذا التاثير الفجائي غفل عن تادية رسوم التحية لعمه وزوجة عمه فانكر عليه والده تلك الحالة ونبهه للسلام عليهما فقام من فوره وتدارك خطأه وادى لهما واجب السلام معتذراً بغلبة الدروس عليه فاخذ عمه يساله عن حالة التعليم والتهذيب في مدرسته فقال له انها في درجة قصوى وقد يصعب عليَّ مبارحتها والسفر مع والدي الى الاستانة فقال عمه نعم وذلك دليل على دقة فهمك وكثرة نجابتك وحبك لوطنك والتفت الى اخيه وقال الم ترَ في العدول عن السفر صواباً وتكتفي مؤنة التعب والنصب فقالت زوجته وانا الرأي عندي ان يرجع اخيك عن عزمه هذا وليتدبر في امر عروس لولده تشاركه في افراحه واتراحه وتصرف عنه سوء العزلة والانفراد في خلوته وهو الآن في حاجة الى من تواسيه و يواسيها فقال والد فريد نعم الرأي ما قلتماه وقد دعوتكما في

الغالب لهذا السبب عينه واني ارى رأياً عساه يرضيكما وتقبلاه مني وهو زواج عزيزة بولدي فريد فما الذي تقولاه فحملق فريد عينيه ومدّ اذنيه عله يسمع رايا يخفف لوعته . فجاوباه بالايجاب على شرط ان يروا رغبتها في الصباح بعد اخذ راحتها من عناء السفر فما كاد هذا الجواب يصل مسامع فريد حتى نهض مسرعاً وخرج يدك الارض بقدميه تيهاً وعجباً ونزل يطوف في وسط الحديقة يهنئ نفسه بهذا الفوز المبين

اما عزيزة فقد رغبت الانفراد في غرفة النوم طلباً للراحة فدعت زوجة عمها احدى الخدم وقالت لها اذهبي بسيدتك الى الغرفة البحرية المطلة على الشارع فقامت عزيزة ومعها خادمتها وما وصلت فراش النوم حتي امرت الخادمة بغلق الباب من الداخل واستلقت على ظهرها وقالت . آه . من ياخذ بيدي غيرك يا عالم السر والنجوى . كنت قبلاً لا اعرف للغرام طريقاً والآن صرت تحت قيادته وبين مخالبه لا أجد رفيقاً في خلوتي سوى افكار وتخيلات تحوطني ساعة الرقاد واحس بنار الحب تضطرم في فؤادي . آه . اوّآه . ماذا جنيته عليك ايها الدهر حتى تحكم بتفريق الشمل على غير علم وروّية فمتى تنقض احكامك وتسير على قانون العدل والمساواة وتعطي كل ذي حق حقه . فقالت لها الخادمة مهلاً يا سيدتي فاني اسمع اقداماً تقصد غرفتنا واذا بوالدتها طرقت الباب ففتحت لها الخادمة . واسرعت عزيزة واندرجت في فراشها وتناومت فدخلت والدتها وكشفت الغطاء عن وجهها فرات آثار الدموع على خديها وفرائصها ترتعد فتولاها الذهول وترددت عليها نوبات الاغماء فلاطفتها الجارية حتى سكن جاشها وقامت الى عزيزة وايقظتها من نومها وقالت لها ما هذا الحال وما هذا العارض الحديث الذي لا نعرف له اصلاً ولا فرعاً فحاولت

عزيزة اظهار الثبات امام والدتها ولكن انىّ لها ذلك وظواهر الاشياء تنكرها الحقائق . فطرقت والدتها كفاً بكف وقالت يارب لم تجد الاكدار محطاً لها سوى صدورنا ولم يلحقنا الضر الاَّ في سفرنا واوشكت امالنا تقف عند هذا الحد فاصرف عنا بفضلك عوامل البأساء والضراء ونجنا من صروف الايام والليالي وكانت عزيزة قد جمعت بعض حواسها وقالت لوالدتها لا تخافي يا اماه ولا تحزني ان لقينا من سفرنا هذا نصباً فلا يلبث ان يزول والحمد لله فاني اشعر بصحة تجذبني نحوها فهدأ روع والدتها وخرجت بعد ما اوصت الخادمة بالانتظار في خدمة سيدتها . . كل ذلك وفريد يحوم حول الغرفة ليتمكن من رؤيا عزيزة وفاته ان الباب مغلوق والقلب مشغول بغيره

اما والد فريد فانه قام وسارر امراته في امر زواج ولدها بعزيزة ابنة اخيه فقالت له هل اعرضت على والديها هذا الامر ورغباه قال نعم اجابا على شرط ان ياخذا رايها في الصباح فتنهدت زوجته وقالت وا اسفاه قلدنا الاجانب في عوائدهم وعما قليل نري رجال قطرنا عن بكرة ابيهم ينقادون لاهواء نسائهم ويصير هذا الامر ملكة فيهم و يندب الخدر ضياع شرعه واستئصال فرعه فما هذه العادة التي تمسك المصريون باهدابها الم يعلموا ان للحجاب حقوقاً يسال عنها كل حر يغار على شرفه ومذهبه ولم لم تراجع اخيك في هذا الامر الذي ربما يوجد في نفس ابنته عزة وكبرياء و يقودها جهلها الى الاباء و يتعذر تحويلها عنه و بسبب ذلك يذاع الامر و يتحدث به كل مقيم على عهد آبائه واجداده وتصيروا احدوثة بين الناس ومحلاً للاعتراض . فقال لها زوجها ما بالك قد اطلت الحديث على غير جدوى ولم تصيبي كبد الحقيقة وفاتك ان هذه العادة ليست قبيحة كما تزعمين بل هي عين الصواب واعلمي

يا زينب ان اطلاق الحرية للبنات امراً محموداً في الزواج ليس دونه فاذا تزوجت احداهن على غير ارادتها عاشت مع زوجها كصخرة لا تزحزحها رياح المعيشة وهناك تكون الطامة الكبرى وضربة قاضية على صفاء البال وانتظام رحى المعيشة واما انا فمن الذين ينتصرون لهذه العادة المحمودة العواقب ولا اجاريك على زعمك الفاسد . فقالت ليس ما قلته زعم فاسد بل حقائق مقررة في الاذهان وانتم معشر الرجال لا تدرون من امور النساء الا ظواهرها الم تعلم يا سيدي ان الحجر على البنات في العموميات من الضروريات اذ الواحدة منهن كالغصن الرطيب ان قوّمته اعتدل وان تركته مال وقل لي بالله لو بلغ الحجر عليهن حدّه المطلوب ولم تر الواحدة منهن الا من يعرضه عليها والداها وقت الرغبة في الزواج أهل يكون هناك ثمّ امتناع منها او رفض طلب زواجها . لا . قل معي لا . ما دامت لا تعرف من امر الزواج شيئاً غير ارادة والديها فلا مناص لها من الانصياع برغبة شديدة . فالواجب عليكم ايها الرجال ان لا تنقادوا لظواهر الاشياء بل اسلكوا غوامضها لتصونوا اعراضكم من الخطل والطوارىء التي تأتينا كل يوم بنبأ جديد ولا يتخلص الانسان من شاغل حتى تداهمه شواغل اكبر منها .. فقال لها زوجها ما لنا الآن والامر تقرر في هذه الساعة ولا سبيل لنا غير انتظار ما ياتينا به الغد والسلام

اما والد عزيزة فقد مكث يتذاكر مع زوجته في وصف محاسن فريد ولطف آدابه وطلاقة لسانه و يقول لها اني حمدت الله على اتصال حبل الاخاء قبل انصرامه وكنت اغار على ملك اخي يتولاه من لا يستحقه لكونه بلغ من الكبر عتيّاً والآن قد آمنت طوارق الحدثان وايقنت ان الماء سيجري في عوده . فقالت له زوجته هذا ما دبرته قبل قيامي للسفر وحفظته في ذاكرتي حتى جرى

بيتنا الحديث كما سمعت واتت المقادير بما نهوى . فقال لها عليك الآن استرضاء عزيزة وترغيبها في هذا الشاب واذكري لها ما تعلمينه من صفاته عساها لا ترفض الطاب فهزت كتفيها علامة السخرية بعبارته وقالت له صه فلا تخاطبني في هذا الصدد مرة اخرى قال وكيف لا اخاطبك في هذا الموضوع وهو اجل امالنا ومنتهى قصدنا وماذا نفعل معها لو امتنعت عن رغبة هذا الشاب قالت وكيف تأبي امراً عقدنا النية على ابرامه ان هذا اعدّه رابع المستحيلات

اما فريد فكان يحادث نفسه وهو غادٍ ورائح في وسط الحديقة و يقول يا حسرتي ان لم تسمح بالرضا عني فتكون قد جلبت عليَّ ذلاً لا ينفد وأكون قد عرضت نفسي للخطر الذي اشعر بابتداء سرعته نحوي ولكن . لا . كل ذلك شذرات مكذوبة تمر على فكري فقد آنست منها ميلاً طبيعياً حال نظرها اليَّ ورات عذوبة لفظي ورشاقة قدّي والفيت فيها عقلا ورزانة يلوحان على وجهها المملوء هيبة وجمالا . فيارب قربني من هذا الملك الطاهر واجعل حظي منه عظيماً ولا تدعني طريد رحمتها فاموت اسى ولوعة

وفي الاثناء خرجت عزيزة من غرفتها تتوكأ على خادمتها لتصرف آلاماً واوهاماً يجتمعان عليها وقت الخلوة فرأت السكينة سائدة على عموم من في المنزل ولا تسمع من نحو الغرف الاَّ همساً فرابها هذا الامر وقالت . آه . ياحليمة ان القلب يحدثني بخطر يحدق بي فدعيني اعود الى سريري او

دعيني اطوف في البلاد لعلني اصادف حبي او اموت فاعذرا

. أوّاه . يارب ما هذه الاسرار التي يتخافتون بها اظن ولا ريب ان انفرادهم في الغرف لامر يقررونه بشأني فقالت لها الخادمة اكتمي امرك ياسيدتي

واطرحي الافكار ظهريًا فقالت ياحليمة ان ماترينه رغمًا عن ارادتي واعلمي ان تزايد خوفي من امر يرونه صالحًا ويكون لي في الحقيقة طالحًا اذ هم يجهلون حالتي ولا يدرون لوعتي • فعندها دخلت خادمة المنزل وقالت ياسيدتي ان والدك يدعوك للرياضة في المدينة مع جاريتك لترويح افكارك وها هي العربة في الانتظار قالت لها نعمت الدعوى وعساه لايدعوني لاكبر منها وقامت وأتزرت بأزار يخطف الابصار لمعانه ونقاب ابيض ناصع زاد ملاحتها رونقًا وبهاء ونزلت حيث ركبت العربة مع خادمتها وسارت بهن الخيل تركض في الشوارع وتمر على الحدائق والمتنزهات حتى اقتربن من عمود السواري فقالت الجارية وما فائدة هذا يا سيدتي حيث لا ارى له وظيفة في مكانه فقالت لها يا حليمة ان هذا من آثار القدماء اقامه رجل يوناني تذكارا لاحد الامبراطورة وهو من بقايا عمد كانت في هيكل كما يقال من اعظم الهياكل واجملها واعلمي ان هذه المدينة كانت في سابق ايامها مرتعًا للقياصرة والبطالسة وقد بناها ملك يقال له الاسكندر تغلب على المسكونة وطبقت شهرته الآفاق وحفظ التاريخ له اسمًا عظيماً وطالعت بعضاً من اعماله فوجدتها تستحق ان تكتب بماء الذهب على جدران كل قصر في هذه المدينة • وما زلن في حديث غير هذا حتى وافت الساعة السادسة بعد الظهر فرجعت بهن العربة الى المنزل وكانت عزيزة قد رات بعض راحتها في البعد عن منزل عمها وودت لو تقيم في الخلوات وتغيب عنها رؤية فريد لكثرة تردده بالزيارة ومروره على غرفتها وقد خطر على خاطرها بلاد نشأت فيها وهناك كعبة آمالها وميبد سقامها فانحدرت الدموع من آماقها والقت براسها في احدى زوايا العربة الى ان وقفت امام المنزل ونبهتها الخادمة فقامت وهبطت من العربة وصعدت على السلم بقوة لم تكن تعهدها

فوجدت والديها ينتظرانها للعشاء ودعونها للمائدة فجلست وتناولت منها ما وافق خاطرها وبعد الفراغ من الطعام قامت الي حجرتها وتركت الخادمة تشتغل بخدمة ساداتها واغلقت الباب عليها من الداخل وصعدت على فراشها وما لبثت ان نشر النوم عليها ذوائبه حتى انبلج الصباح وقامت خالية من اوصاب الكدر لايشوبها عارض جديد فدخلت عليها والدتها رافعة ثناياها عن ابتسامات وهمية وقالت لها دمت كذا في كل صباح ياعزيزتي والحمد لله على زوال عوارض الامس عنك فاجلسي لاخبرك بما قررناه بالامس وهو ان عمك حفظه الله لما شاقه جمالك (هنا اضطرب قلب عزيزة واسندت راسها بكفيها) — ورای موارد الادب والكمال متوفرة فيك رغب ان يزوجك بولده فريد وهو كاسمه فريد فلبيناه ووعدناه لهذا الصباح حتى نعرض عليك الامر علما منا انه طبق ارادتك واعلمي ياعزيزة ان هذه الآمال طالما كنا نضرع بها لله فجاوبتنا المقادير فما كادت تتم كلامها حتى اغرورقت عيني عزيزة بالدموع وصرخت بصوت عال اوّاه . هذا ما كنت توقعت حدوثه بالامس وانطرحت على ركبتي والدتها مغمى عليها فانقضت الام عليها وعانقتها الى صدرها بوجل شديد وكانت هذه هي المعانقة الاولى التي عانقتها اياها في سني حياتها وما زالت تلاطفها حتى انتبهت من اغمائها وعيناها متقدتان كالجمر وقالت لها ما الذي اصابك يا عزيزة أهل ساءك كلامي وعوّلت على نقض زمامي ام هذا حالك في بعض الاحايين فلم تجاوبها على كلامها وقد اصطكت اسنانها وعيناها تبصر ولسانها لاينطق غير انها كانت تتحرك بالمحبة الطبيعية المغروسة في فؤادها فقالت لها والدتها افيقي من جهلك ياخبيثة واعلمي ان عين الرضى خير من عين السخط فهي ادعى الى الراحة ونعيم البال ورغد العيش من عين السخط التي تكدر صفاء صاحبها ولا تريه من

الدنيا وما فيها الا المصائب والاحزن • حين ذاك دخل والدها ليهنئ نفسه باجابة ترضيه فوجدها صرعي لاتعي قول والدتها فراعه هذا المنظر وقال لزوجته ما هذا الحال الذي اراه قالت هو كما ترى من حين فاتحتها بما عولنا عليه امس وغابت عن صوابها وللآن لم يعد ادراكها لحنق عليها وغضب غضباً شديدا ولكنه اجتهد في تخفيف روعها حتى استجمعت قواها ونظرت لوالديها شزرا وقالت لهما الى هنا وصلت حيلتكما يا والديّ وجئتما بي الى حيث تكره نفسي وابديتما لي حنوًّا فيه شقاء عيشي ونكد طالعي ولم تراقبا في حالتي من ولاّ كما على زمامي وجعلكما الامرين الناهيين في امور مستقبلي فمن ذا الذي يرضى دونكما بالقهر والغلبة ومن ذا الذي تسلمانيه الاخذ بناصيتي وانا للآن لا اعرف من واجبات الازواج شيئاً ولا اود ان امسى خادمة لزوج واولاد وافقد حريتي فدعنا يا والدي من اضطرابكما وعودا بنا حيث اتينا • فما كاد والدها يسمع منها تلك الكلمات حتى عض على نواجذه وهاج في عروقه دم الغضب والتفت لزوجته قائلا يجب علينا الآن كسر ارادتها واذلالها واحتقارها حتى لاتنقاد لفكرها الذي صار محطاً لرحال الانذهال • وفي الحال اخذ زوجته وانتقل بها الى غرفة ثانية وقال لها قد انعكس الامل فدبريني ما العمل واذا سألني اخي عما تم فماذا يكون جوابي اليه فقالت له لاتيأس ياسيدي من رحمة الله فلا ييأس من رحمة الله الا القوم الكافرون

الفصل الخامس

افراح لاتتم

«وتعارف غير منتظر»

لاتحسبن القصد دام لمترفٍ هيهات ليس على الزمان دوام

ولبث والدي عزيزة تلاطمها امواج الافكار تارة وتقذفها على شاطئ الامل اخرى اذ دخل عليها والد فريد وقال لها خيرا ما فعلتماه فاطرق والد عزيزة خجلاً وقال يا اخي قاتل الله البنات فانهن يورثن اباءهن عارا عرضنا عليها الامر فركبها شيطان الاباء ولم ترضخ لاحكامنا والراي عندي انا نشرع في معدات الزواج ولا ننتظر منها رضاء ونساومها الخسف والذل حتى تنصاع للامر كرها ولا اخالك الاّ موافقني على هذا الرأي قال صواباً يا اخي تفعل وقم من الآن نتم عزمنا وننفذ قصدنا . وانصرفوا على هذا التدبير واشتغل كل من الوقت بتهيئة نفسه

اما عزيزة فحين تركها والداها ارسلت الخادمة تقف اثارها وتسترق السمع وتعود فتخبرها بما يتآمران فيه وبعد قليل عادت وقد سمعت من الجميع قرارهم النهائي وحافظتها مشحونة بما دار من الحديث وافرغت امام سيدتها ما ادخرته فيها فانكسر قلب عزيزة وانقض عليها نسر الافكار فخطف فؤادها وقالت . آه . كيف العمل يا الهي ولم يكن لي نصيراً سواك فاصرف عني كيد من كادني ونجني من القوم الظالمين . فما اتمت كلامها حتى دخل عليها سعد

وعلائم الفرح بادية على وجهه فقالت له ما وراءك ياسعد قال ما يسرك ياسيدتي ويسوءني فاضطرب قلب عزيزة عند ما سمعت هذه العبارة وقالت عجل بالخبر وادن مني يا سعد وقص عليّ بشراك وما يصيبك من الاذى فعلي دفعه باذن الله فقال يا سيدتي بينما اطوف في شوارع المدينة اذ وجدت سيدي كامل (فاندهشت عزيزة عند سماعها اسم مالك فؤادها وصاحت بصوت اهتزت له زوايا غرفتها · كامل · كامل · حبيبي · اتى · ما اوسع كرمك ياعالم السر والنجوى · اتم حديث سعدي يا سعد ففيه غاية الامل و بلوغ القصد) فواصل كلامه وقال · يناديني على بعد و يعدو خلفي مسرعاً فنكرته لتغير حالته ونحول جسمه وقبض على يدي واستوقفني وقتاً عرفته في خلاله وقال اين انت يارسول هدايتي وكمال بغيتي واين الآن من اودعتها قلبي وسلمتها لبي فقلت له هي يا سيدي كما تهوى ولا يعوزها شيء سوى بقائك على عهدك فقال خذ هذه التذكرة مسطرة بماء دموعي وسلمها اياها وهذا موقفي حتي تعود وهاهي رسالته ياسيدتي واما ما يسوءني من هذا السرور فهو · · · ·

قل يا سعد ولا تخف سوءًا

هو انني لما اخذت رسالتك الاخيرة وخرجت لتوصيلها الى سيدي كامل صعدت على سطح الجبل طوعاً لحكم الضرورة وعند هبوطي منه يممت طريق مهمتي و بالبحث على مكتوبك فلم اجده فغاب عقلي وضاع رشدي وعاودت التنقيب عليه في كل طريق سلكته فلم اهتد اليه ورجعت بخفي حنين واخبرتك بتوصيله كذباً لكوني خفت عاقبة بطشك · هذا هو ذنبي قد اعترفت به فان شئت عفواً فانت له اهل وان اردت غيره فانا خادمك على كل حال فتعجبت عزيزة من هذا الامر وقالت لك عفوي يا سعد وسأجزيك خيراً فانصرف

الآن حتى اطالع مكتوباً فيه حياتي واقتربت من النافذة واخذت تتلوه فاذا فيه ما يأتي

عزيزتي وساكنة قلبي

لو فتحت باباً لذكر الشوق لانهالت عليّ عوامله فلم اجد لشرحه سبيلا فحررت هذه الكلمات لتنبئني عن يد خادمك بكامل اخبارك وان شئت مقابلتي ليخمد لهيب غرامي فاضيف تلك النعمة لما يحويه قلب محبك

❋ كامل ❋

وبعد ان فرغت من تلاوتها تناثرت دموع الفرح على خديها وامرت سعدا باحضار عربة واستئذان والدها في الخروج لرياضة جسمها وبعد قليل وقفت العربة امام المنزل واتى الخادم يدعوها للركوب وقال لها ان والدك خرج مع عمك ليبتاعا بعضاً من مهمات الفرح ويطبعا تذاكر الدعوة على ما قيل لي من خادم البيت واما والدتك فقد سمحت لك بالرياضة على شرط عدم التاخير . ولم يكن كلام الخادم ليشغل عزيزة عن التزين بافخر ملبوسها وقد ارسلت على ظهرها شعراً كالسلاسل او عناقيد جلاها الوابل وزات تخطر في حليّ جمالها الذي اعاده وعد ملتقى الحبيب وركبت العربة وامرت الخادم ان ينبه السائق الى مقر فؤادها وظلت في سيرها ترسل نظرها في الشارع علها يقع على حبيبها الى ان وقفت بهم في ميدان فسيح الجوانب مملوء بالذاهب والآيب والتاجر والمشتري فانزلها الخادم وانقد السائق اجرته وسار بها قليلاً وحين نظرها كامل على بعد انتفض جسمه وارتجفت ركبتاه لقدوم ذيالك الجمال البديع فخاف فضيحة الرقباء واشار لسعد يتبعه وظل سائراً حتى وقف خلف قصر مهجور لاحد الامراء يمرّ بجانبه نهراً يصب في المحيط فتقدمت عليه حبيبته

رو يدا والشوق يهزّها كما يهز الريح عالي الشجر وعند الملتقي سكرا بلذة الهوى زمنا كان فيه سعدا يراقب الصادر والوارد الى ان انتبها واخذ الحديث بينهما مجراه و بث كلّ ما عنده للآخر وقص عليها كامل ما عاناه من الشدة بعد سفرها وما كان من امر مكتوبها الذي سقط عليه من الجبل فقالت له ان الخادم لم يعترف بذنبه الا قبيل حضوري اليك حينما القي عليّ بشرى قدومك فعفوت عنه اكراماً لهذا النبأ العظيم · ومكثا على هذا الحال يتبادلان شكوى الغرام حتى اذنت الشمس بالمغيب فهما بالانصراف متواعدين على اللقاء في غد و بينما هما يتودعان اذ وفد عليهما شاب و بيده غدارة يصوبها جهة كامل يريد الفتك به فاسرع واختفى في احدى زوايا القصر حتى اقترب الشاب من عزيزة التي جمد الدم في عروقها حينما تاملته ووجدته فريد خطيبها المزعوم وقال لها تعساً لك يا خائنة العهد يا ناكرة حقوق القرابة واراد ان يعدو خلف كامل فخرج عليه من زاوية القصر وقبض على عنقه بيد من حديد وقال له تبّالك يا مفرق الاحبة فماذا يعنيك من موقفنا هذا حتى تقدم على قتل نفسين بريئين من اوضار الدنايا فمن يخلصك من يدي الآن يا فاجر ومن تراه يشفع لك في هذا الطريق المحفوف بالمكاره · فقالت له عزيزة دعه يذهب يا سيدي هذا ولد عمي وهو الذي عقدوا النية على زواجي به امس واليوم · فالتفت اليه كامل قائلاً سلم آلة غدرك واستقم في طريقك واياك واذاعة ما رأيت فتصبح رهين رمسك واعلم باننا من الآن لا يرانا احد من عائلتك ولو ينقطع منا حبل الوتين · فسكن غضب فريد وقال عفواً يا سيدي فما هي قصتك مع هذه الطاهرة التي تبرؤها ذمتي من ميل الشهوات فقال له لا تسالني عما ليس لك به علم ان العفاف والشرف ينزهان الفؤاد والبصر عن ان يلم بهما غواية الشيطان

من زمن الحداثة لحد هذا الموقف . عندها بكى فريد والتى بغدارته في وسط النهر وقال اني ابرأ الى الله من حولي وقوتي فسيري يا عزيزة الى مقرك ومني اليك عهد الله وميثاقه ان لا افوه بما رايت واسعي سيف طريق هناك بهذا الشاب كريم الاصل والفرع الذي عرفته معرفة سرّ بها فؤادي وهو كان معي في ايام الدراسة الابتدائية واني من الآن تنازلت عن الرغبة فيك اكراماً لعفو هذا الشاب عني بعد ان رأى عزمي على الفتك به وعلمت انكما متحابين من زمن طفوليتكما فدوما على عهدكما ما دامت الحياة لكما . فتفرس كامل في وجهه فعرفه وعلم صدق قوله وانه كانت تجمعه به جامعة المدرسة بالاسكندرية في سنة ١٨٨٥ فتعانقا معانقة الاخاء وقبلا بعضهما بعضاً والتفت كامل الى عزيزة وقال لها قد زال يا حبيبتي ما كنا نتوجس منه خيفة فهيا الى منزلك . وعليك يا صديقي العزيز ان لا تحدث باجتماعنا هذا ولا تسعى في شيء من قصدنا لئلا يرتاب احدى العائلات في الامر وتقع بنا الظنون الفاسدة ومن الصواب ان تدع المقادير تجري كيف شاءت والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا مابانفسهم واما انت فتتخلص من امر الزواج بما تراه مناسباً . والى هنا تودع كامل من فريد بعد ان اعيدت القبلات الودية وسارت عزيزة وانظر كامل يشيعها حتي توارت عن حجاب نظره ثم عاد الى النزل واختلى بهيامه .

اما فريد فحينما اقترب من المنزل تأخر عن عزيزة وقال لها تقدمي وانا اتبعك بعد ان تاخذي مجلسك خوفاً من أن يرانا احد والدينا . فسارت عزيزة والوجل يمرح في قلبها مما راته من اهوال الغدر والتعارف الغير منتظر الى ان وصلت غرفتها وخلعت ثيابها دخلت عليها والدتها فوجدتها طلقة الوجه منشرحة الصدر فاخذت تسالها عما سرّها في المدينة فقالت لها بهدوّ لم تره منها قبل هذه

الساعة انها يا اماه على ما يرغبه فيها سكانها وقاصدوها ولكنني اشعر بهبوط في جسمي من عهد زيارتي لها ولم ادر لذلك سبباً فقالت يا عزيزة تلك مقرك ان شاء الله بعد حصول الاقتران بابن عمك و بعد تعدى نفسك في صفوف السعداء • فكان قولها يقع على قلب عزيزة كالصواعق المحرقة ولكن الامل فيما رأته يعيد في قلبها كرة الصبر على مضض هذه الآلام وقالت لها يا والدتي رفقاً بحالتي فيكلما عاودتني الصحة تطرديها عني باوهامك فاطرحي هذا العزم جانباً حتى ياخذ القضاء حدّه وان اردت حفظ ناموسي وعدم تخديش ذهني فلا تفاجئيني بما يكدر صفو عيشي فقالت لها ما بالك ياعزيزتي نبذت حقوق طاعتنا وقابلت راينا بما لم يكن في الحسبان وها والدك قد اقبل ومعه من معدات الزفاف مانقربه عينك و ينشرح له صدرك • عندها دخل والد عزيزة وقال لامراته قد استحضرنا ما خف حمله وغلا ثمنه من لوازم الفرح وقد اشترطنا مع الفراشين والطهاة على تقديم ما يطلب منهم ليلة الزفاف وانقدناهم جانباً من المال عربونا على ذلك • و بينما هو يقص عليها ما وصل الاتفاق عليه اذ اتت خادمة اخيه تدعوه لمقابلته فقام على الاثر وحين دخوله وجد عينيه تنذر بالدموع وفريد مطروحاً على ظهره يئن و يشتكي فقال له ما الذي طرأ عليك يا اخي وما هو مصاب فريد قال انه لخطب فادح انهدمت له اركان امالنا فقد عدل فريد عن الزواج ولم ير في نفسه ميلا يدعوه الى الاقتران وهو في سني دارسته وصار كما تراه طريحاً يشكو مرضاً بقلبه والا ما تنهال عليه انهيال الغيث فما رايك يا اخي بعد ان فقدنا مزايا ادبية ومادية خصوصاً وقد آنسنا من الطرفين امتناعاً لا نقوي على صد هجماته • فحوقل والد عزيزة وقال لا تعجب يا اخي من مصادمة الدهر لنا فتلك عادته في اهله والليالي منه حبالي تلدن كل عجيبة والآن يجب

علينا الانقياد لهذه الاحكام التي علمتنا سوء عقبي التسرع في الامر قبل الروية فيه وها انا قد عولنا على السفر قبل ان تثور زوابع الافكار على ابنتي ونحط رحالنا في مدينتنا الزاهرة ونلقي عن عواتقنا رداء البسنا اياه دهر غشوم لا يوقر كبيرا ولا يرحم صغيراً . فقال اخوه وانا من الآن لا تحاولي الاقامة هنا ورايت صواباً في السفر الى دار السعادة هرباً من العناء وتخلصاً من افاعي الامراض التي تنتاب ولدي . وانتهى بينهما الحديث على هذا العزم وقام كل يقصد وجهته ودخل والد عزيزة عليها مقطب الحاجبين منكس الراس فسألته زوجته عما يجول في خاطره فقال . آه .

انكرت طارقة الحوادث مرة ثم اعترفت بها فصارت ديدنا

قد دهمتنا كوارث الايام بخيلها ورجلها وتقوضت اركان آمالنا ولم نستطيع لها طلباً فقد عدل فريد عن الزواج ما دام في سني الدراسة وتناوبته الاحزان من حيث لا يدري لها سبباً وقد رجع اخي عن عزمه الاول وهو السفر الى الاستانة وانا عقدت النية على العودة لمقرنا فهنيء نفسك يا عزيزة وقري عيناً فلا ترين من الازواج احداً ما دمت على وجه البسيطة فقالت له ثبت نفسك يا والدي فالثبات فضيلة يقوي بها الانسان على احتمال النوائب ولا تحتفل بالحوادث فتصير لك عادة تصد بها هجمات الدهر واعلم ان فريدا قد راى بذكائه ان لا يغبط نفسه على نعمة يسود بها على اقرانه ولا يودع مستقبله وهو في ابان تعليمه عند رغبة دروسه وهذا ما كنت اعددته لنفسي امس وانت ترسل عليّ سهام غضبك . فقال لها قضي الامر الذي كنت تفزعين منه ولم يبق لدينا سوى الاستعداد للسفر غدا . حينذاك طلبت عزيزة الطعام واستعاضت منه بقدر ما فاتها في ايام كدورتها و بعد خروج والدها جلست على

مقربة من النافذة زمنا حتى ان فرغت معدتها من اداء وظيفة الهضم قامت وطرحت نفسها على السرير ونامت تلك الليلة خالية من اوصاب الكدر وفي الصباح لبست ثيابها واستدعت خادمها وامرته بحمل مكتوبها الى مالك قلبها واخذت تسطرله ما يأتي

غاية مرادي ونهاية ودادي

بعد ان ودعتك بالامس والغرام يقودني حتى وصلت دار همومي وبعدا علمت ان فريدا رفض عقد زواجي واعتذر لوالديه بانه يود التفرغ الى تحصيل المعارف التي تشغله عنها عوامل الزوجية وعلى اثر ذلك تمارض فوافقاه والديه على رايه واخذهما الحنوّ عليه واحاطا والديّ علماً بذلك فرضخا لاحكام القدر وتقرر بينهما السفر غدا صباحاً واني مخبرتك ياعزيزي الوحيد ان تتأهب للسفر معنا بحيث لا يراك احدهما فتنعكس آمالنا و يكبو جواد سعينا والسلام

﴿ اسيرة هواك ﴾

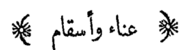
(عزيزة)

وسلمت المكتوب للخادم فوضعه بين جسده وملابسه وسار يقصد كامل في موضع الامس فوجده يتمشى على ضفاف النهر يتامل لجماله الطبيعي ولما راى خادم حبيبته وقف عن سيره حتى وافاه وسلمه المكتوب ففضه و بينما هو يرسل نظره في خلال سطوره انكب عليه صديقه ابراهيم واخذ يعانقه عناق ام ارضعته لبان تربيتها فنظر اليه كامل نظراً مملوءًا بالدهشة والعجب وقال له ما الذي جاء بك الى هنا يارفيقي الكريم وكيف حال والدتي واخوتي الذين تركتهم طوعاً لغرامي فقال يا كامل عيونهم تدمع وقلوبهم يندلع منها لهيب النار ووالدتك المسكينة هجرت لذة الوسن وابيضت عيناها من الحزن وحام فوق راسها

غراب بينك واقسمت عليّ بصداقتك ان اتبعك في موضعك واعود بك اليها ليرتدّ طرفها وتروى غلتها بالنظر الى وجهك فسعيت اجلالاً لهذا القسم وهو عندي عظيم واتيت هذه المدينة ولي فيها ليلة امس وانا اجوس شوارعها واتفقد اعظم النزل فيها حتى هداني الله اليك في هذا الطريق فحمدت ربي على هذا الملتقى المقصود من رحلتي · فما كاد يتم كلامه حتى اغرورقت عيني كامل بالدموع وقال · آه · يارب هداية منك ورضواناً يخمدان من قلبي ناراً يذكيها الغرام والتفت الى الخادم وقال له اقرأ سيدتك السلام واخبرها باني فاعل ذلك غدا ان شاء الله ولا اتحول عنها حتى استرد حياة وقفتها رهن ارادتها · عندها انصرف الخادم وبارح كامل هذا المكان وهو يقص حكايته على ابراهيم حتى وصل الى المكتوب الاخير فقال له واي واسطة الفيتها تجمع شملكما بعد هذا العناء قال لاحول ولا قوة لي يا صديقي على انتقاء اعظم الوسائل للحصول على هذه الامنية اذ الامال تدنيني وتبعدني وارى والدها الان لايحسن مثواي و ينظر اليّ بعين المكاره فبغيتي منك ان تتدبر فيما هو صالح بقوة عقلك الراجح لاني عهدتك مصدرا لكل خير وقلبك مفعم بمحبتي · فاستولى الصمت على ابراهيم قليلاً وقال له انني يا كامل حافظاً جرثومة حبك في السراء والضراء ومن شأني حفظ كرامة الاخاء وهذه سليقتي ورثتها عن ابائي واجدادي فعليك ان تتمسك بعرى الصبر حتى تعود الى مصر وهناك نرى ما تفعله العناية الكبرى · وما زالا في هذا الحديث حتى وصلا الفندق وتناولا من الطعام ما طاب لهما ولازما غرف النوم

—*** —

الفصل السادس



عناء وأسقام

وفي صباح اليوم الثامن من شهر يناير قام كامل وابراهيم وارتديا ملابس السفر ونزلا يقصدان المحطة ولما اقتربا منها الفيا سعد بانتظارهما على الباب فقال له كامل من بصحبة سيدتك من المودعين وكيف حالها اليوم · قال ياسيدي بعد ان تركتكما امس وبلغتها رسالتك الشفاهية اتاها والدها في الساعة الحادية عشر حيث كانت في غرفتها تتأهب للنوم وقال لها ان فريد اشتد عليه المرض واتت له الحكماء وقرروا ان مرضه احتقان كلوي واستحضروا له ادوية كثيرة ولذا قد انحلّ عزم السفر حتي يتقدم الي الصحة فامرتني بانتظارك هنا قبل ان تسفر الشمس عن لثامها وافادتك بذلك · فتنهد كامل وقال لصديقه تامل يا سيدي ما تضمره لنا الليالي وتتفضل به الايام ولكن

اذا اعتاد الفتى خوض المنايا فاهون ما يمرّ به الوحول

فسأثابر على خطة الصبر واقابل عناد الدهر بجنان ثابت · فقال ابراهيم صبرا يا عزيزي فلطالما عودنا الصبر خيراً وعد بنا ندخل المدينة لنروّح افكارنا في ميادينها الشاسعة والله غالب على امره · وفي الاثناء امر كامل سعد بالعودة لسيدته مزوّدا بالعواطف الودية وسار مع صديقه حيث يريد

اما عزيزة فقد ساءها مرض فريد كما ساءها تاخير سفرها وصارت تراقب عود الصحة اليه يوماً بعد يوم حتى اقبل اليوم السابع عشر وقام فريد من فراش

مرضه وشمل السرور جميع من في البيت واخذت المهنئين تفد على والده وفي صباح اليوم الثامن عشر قامت العائلتان تودع بعضها بعضاً وسار والدي عزيزة الى المحطة حيث كان هناك كامل وصديقه طوعاً لاشارة حبيبته بالامس وكان الوابور على جناح السفر فركبوه وسار الى ان وصل بهم عاصمة القطر ونزل والدي عزيزة على منزلهما بجهة الظاهر للاقامة فيه بقية الصيف وعرج كامل في طريقه على والدته ومعه صاحبه فوجدها حزينة القلب مجروحة الفؤاد فناداها لاشمت بك سوءاً يا اماه وركع على ركبتيه يقبل يديها وراسها ويستمنحها الرضاء حتي عانقته معانقات متوالية يتخللها الحنو والشفقة وكذا فعل مع اخوته القاصرات وقد حكي لهن ما هو كامن في فؤاده اذهن لم يكن يعلمن من امره للان شيئاً فاخذت والدته تصرفه عن هذا المرتع الوخيم ولكنها عبثاً حاولت فالتفتت الى ابراهيم وقالت له اهذه وصية المرحوم يا ابراهيم فقال لها كثيراً نصحت فلم تفلح نصيحتي فدعيه حتى يبلغ قصده او يورده الغرام حتفه اذ لاتنفعه هدايتنا فالله يهدي من يشاء الى ما يشاء

اما عزيزة فما كاد يستقر قدمها في البيت حتى ارسلت خادمها ليسال كامل عن صحته فطرق الباب عليه وكان اذ ذاك بين يدي التأنيب والتعذيب للعدول عن عزمه فقام مهرولا ينظر من الطارق فاذا به خادم غرامه فاخذه وسار به تحت اشجار الحديقة الى ان فرغ من الحديث وبلغه رسالة حبيبته فخرج الخادم وعاد هو الى والدته فوجدها على شواظ من نار فجلس يلاطفها ويستعين بصديقه على تهدئة بالها وقال لها يا اماه ليس الامر بيدى فمن ذا الذي يرضى ان يكون اسيراً لارادة غيره فقالت له لو اندمجت في سلك العقلاء وخالفت هواك وعلمت ان لظى الحب قبل الزواج يضعف ويضمحل وبعد ان

يكون اشبه بزهرة جميلة المنظر فتتساقط اوراقها بعد الزواج ولكن من الان قد ضعفت امالنا فيك وسلمنا زمامك لقادر على ان يهديك صراطاً مستقيماً ·
فاتقدت نار الغضب في جوانح كامل وقال لها ان عاطفة الحب يا والدتي لن تموت من كل قلب سليم ولست اول من طرق الحب قلبه · فكم امات غيري واوردهم موارد الهلكة فدعيني من هذا العذاب الاليم حتي ياخذ القضاء حده و ينفذ سهمه

والى هنا انتهى الاخذ والرد بينهما وخرج ابراهيم من المنزل وقام كامل لغرفته حيث ياخذ راحته من متاعب السفر · وفي صباح اليوم التالي مكث ينتظر رسول حبيبته فلم يره طول نهاره فقلق لذلك واضطرب باله وصار يوطد نفسه على دعائم الامل يوماً بعد يوم حتى فقد مزية الشعور وبقية الادراك وتوسد الفراش ضئيلا لا يقوى على النهوض من مكانه وقد بكته والدته واخوته وعاده الاجانب وصار هذا زائرا وهذا طبيباً وكل لا يعرف من حالته غير المرض الظاهري الذي لم تهتد الحكماء لتشخيصه ولسوء الطالع ان حالته لم تكن ليعرفها احد سوى صديقه الذي انقطع عن زيارته تلك المدة ولم يعلم بمرضه لبعد منزله · وهكذا مكث اسبوعين

اما عزيزة فكانت اشد بلاء منه لمرض خادمها وانقطاع اخبار الحبيب عنها وعادت اليها الهواجس وانهالت عليها الامراض واشتغلت بها افكار والديها وهجرا النوم من اجلها وتولاها اليأس من حياتها وقد اشار على والدها بعض عارفيه بالسفر معها الى قرية من اعمال الغربية حيث هناك مزروعاته ويقيم فيها شهرا عساها تتنصل من هذا المرض فانقاد لهذا الراي وفي الصباح اخذها مع الخادمة وهي لا تقوي على الامتناع او الرضاء ولا تدري اين يقصد بها وترك

الخادم طريحاً وقد اوصى عليه والدة عزيزة وامرها بالبقاء في المنزل حتى يعود قرير العين بشفاء ابنته ووعدها بمتابعة اخبارها اولاً فاولاً ثم انتهز فرصة مرور عربة فاستوقفها وسلم السائق ما ادخره لسفره وحمل عزيزة على كتفيه واركبها العربة وهي سارت بهم تخترق الشوارع حتى وصلت الى المحطة وهناك نزلوا في قاعة المسافرين حتى ان ميعاد القطار فركبوا وقام يتبع السحاب في سيره وقد مرت تلك الحركات امام عيني عزيزة وهي لا تتصور شيئاً مما جرى وقبيل وصول القطار الى طنطا افاقت من غشيتها فهالتها تلك المناظر وانتفتت يمنة ويسرة وقالت اين انا ياحليمة والى اين مصيري قالت الى قرية والدك ياسيدتي فصرخت بصوت غلب على حركة الوابور وشقت ثيابها فقمن لها نساء كن معها في العربة ولاطفنها بحلو الكلام حتى سكن هياجها والقت بظهرها على مقعدها فظنن ان بها جنة او مساً وسالن خادمتها عن حالتها فقالت لهن ان بها مرضاً عضالاً يثور عليها احياناً فيفقدها احساسها فتاسفن لحالتها وبكين لبكائها وآثرن البقاء معها حتى يرونها والصحة تعاودها الى ان وقف القطار على المحطة فودعنها وداعاً خامرته المحبة الطبيعية وجاء والدها وانزلها من عربة القطار وامتطوا مطايا اوصلتهم لقرية حديثة النشاة قليلة السكان تحتاط بها الخضرة وتحفها الاشجار يرى الداخل فيها منزلا مرتفعاً عن سطح الارض بعشرة امتار تقريباً مزخرفاً من الداخل وهناك دخلت عزيزة وجاريتها تحدوها حتي اجلستها على مقعد قريباً من النافذة وهي في اسوء حال واشتغال بال وبعد قليل عاد والدها ومعه غلامان من ابناء تلك القرية لاداء ما يلزمهم من الخدمة زمن اقامتهم وامرهما ان يبتاعا له بعض الخضروات واللحوم من بلدة تجاورهم آهلة بالسكان وعامرة بحوانيت التجارة وجلس يخفف عن عزيزة بعض آلامها ويسالها حاجة في نفسها

وهي تشير بطرفها علامة الامتناع وكانت صورة كامل ترتسم في ذهنها فتثور فيها عواطف الاشجان وتصرعها على الارض حتي ذهبت قوة والدها من كثرة العناء بسببها ودارت على راسه رحى الهموم وظل يضرع لله وقت السحر بان يصرف عن ابنته السوء ويقيها غوائل الامراض وكانت اذ ذاك قد تغيرت صورتها ونضب ماء جمالها

اما كامل فلم تكن البلايا والمحن لتصرف عنه انتظار رسول حبيبته وكان الغرام يدور في راسه ويلعب في صدره حتى بعثه على الخروج والاستظهار بالشجاعة فلم يفلح في ذلك لفقدان قوته فجلس في صحن الدار ورفع طرفه للسماء وقال يارب هجم الغرام عليّ وانا وحدي وليس معي آخر وحار بني بعيون اسرتني وكادت تعدمني حياة طيبة فارحمني يا قدير اذا اضطرب فؤادي وعصفت به رياح الهوى · وبينما هو كذلك اذ دخل عليه صديقه ابراهيم فحين رآه ارتد اليه عقله وقال له بلهجة شديدة ما عهدتك يا سيدي تجفوني وما شمت منك هجرًا طويلاً فارجع على عقبيك

وخبر عن عزيزة اين حلت ... وما فعلت بها ايدي الليالي

فقد انقطع عني رسولها زمنا صرت فيه كما تراني · فاستاء ابراهيم لما رآه وخرج ليمرّ على بيت عزيزة فوجد خادمها سعدا آتيا على غير الصورة التي كان يراه عليها قبلا فاستوقفه وساله عن سيدته فقال له انها سافرت مع والدها من نحو اربعة ايام بقصد ترويح النفس ليزول ما بها من المرض وها انا ذاهب لسيدي كامل لاحيطه علما بذلك فعاد به ابراهيم الى بيت كامل الذي رجعت له الحياة حينما راه وقام يعدو نحوه وقال له ما سبب انقطاعك عني اهل سمحت سيدتك حتى ارسلتك اليّ فما ذنبي معها يا ترى حتى تستبيح عذابي وذلي

تخبرني يا سعد عن حالتها واسالها علها تسمح لي برؤيتها · فقال يا سيدي انني مرضت مرضاً صيرني كما تراني سليب القوة وهذا نحول جسمي يدلك على حالتي ولما رات سيدتي انني لا اقوى على مواصلتك باخبارها ومضى على ذلك خمسة عشر يوماً وهي لا تراك ولا تراها انطرحت في فراشها وكنت في شكواي اسمع نجواها وحنينها اليك الى ان خاف والداها عاقبة مرضها وهالها ضيرورتها الى الضعف بعد القوة والاصفرار بعد الجمال فاشار على والدها بعض اصدقائه بالسفر معها الى قريته من اعمال بلاد الغربية فانصاع للامر وانقاد لعواطفه الابوية وصبح مبكرا على المحطة وسيدتي كما علمت غائبة الرشد لا تدري موقعها من هذه الامور ولما تفضلت عليّ العناية وانقذتني من مخالب مرض كاد يذهب بحياتي اتيت لاعلمك بالامر قياماً بحقوق خدمتي · فتاوّه كامل وتنفس الصعداء وقال · صبراً · فقد قضى علينا ان نسام الخسف والذل في حياتنا وسارت حبيبتي حيث صارت بين يدي من لا يرعون لها ذمة ولا ميثاقاً ولا يعلم وجهة مرضها احد · آه · رفع الدهر اقواماً واناخ باخرين فتبت يداه ثم تبت يداه · ثم قال له الم تعرف اسم القرية التي قصدتها حبيبتي او لم يصلك شيئاً من اخبارها قال اما القرية فلا اعرف لها اسما ولكن قد وصلنا خطاب من والدها اليوم واظنك تعرف اقامتها منه اذا رايته فاندهش كامل وقال · نعم · نعم · ارني يا سعد هذا المكتوب على عجل فتركه وسار في الطريق يدبر امراً يتحايل به على اخذ المكتوب من والدة عزيزة وقد وصل الى البيت ومعه هذا الفكر حتى دنا من غرفة سيدته فوجدها سابحة في بحار النوم من جرّاء ما اصابها حين تلاوة هذا الخطاب وعلمت منه اشتداد المرض على ابنتها فانتهز تلك الغفوة وتناول المكتوب من على الطاولة وخرج مسرعاً حتى

وجد كامل على احرّ من الجمر فناوله المكتوب ففضه ووقف على ما فيه والتفت الى صديقه قائلا لا بد يا سيدي من اقتفاء اثارها واسلك في سبيل حبها وعراً وسهلا حتي استحق رضاءها عني واكون قد اديت ما يفرضه عليّ شرع الغرام اذ لا خير في المرء ما دام يكفر بنعمة حبيبه . فقال له الهذا الحد بلغ جهلك واوصلك اليه عقلك حتي تخاطر بنفسك في بلاد لم يطأها احد من ابائك واجدادك ولم تعرف عامرها من غامرها وعلى ظني ان لا طعام في تلك القرية ولا مأوى وساكنوها قليلوا العدد فاوصيك يا بني ان ترجع عن هذا العزم ولا تلق بيدك الى التهلكة وانظر لمن حولك تجدوا لدة حزينة وقاصرات لا يعولهن احد غيرك . فقال له كامل لا موعظة يرتجي تاثيرها عندي الآن ولا شيء يثنيني عن عزمي ما دمت وما دامت حبيبتي على وجه البسيطة فدعني وشأني فعذل مثلي تحرمه شرعة العدل والانصاف

وما كاد يتم كلامه حتى اسرع الى غرفته وارتدى بثياب تخفيه عن اعين عارفيه واخذ ما يسد به رمقه في السفر وخرج من منزله لا يلوي على شيء كأنه انطلق من حبسه او فارًا من اعدائه وقد وصل الى المحطة ومنها ركب القطار الذي قام منها مؤخرا ولم يفارقه الاضطراب الا بعد ان راى نفسه بمحطة طنطا فنزل عليها و بحث على حمار فلم يقبل احد جوز هذا الطريق المخيف في وقت كان الليل سادلا حجابه الكثيف على الارض ولما لم يجد صبراً لانتظار الصباح تساءل عن الطريق واستقام في سيره حيث كانت الساعة التاسعة مساء وبعد مضيّ هزيع من الليل سمع عويل الذئاب وهي تمرح في الحقول فاقشعر جسده واستولى عليه الخوف وهبطت قوته من التعب ولكنه تجلد وتابع وجهته حتى اهتدى الى قرية يمر عليها طريقه فآوته خفراؤها بعد ان سالوه عن حالته

فاخبرهم بانه خادم لاحدى العائلات في القرى المجاورة لهم وقبيل الفجر قام وحمد مسراه الى ان اقترب من دارحبيبته فهبت عليه ريح من الجنوب احيت منه الامل بعد مواته واجتمع باحد غلمان القرية فهداه الى الدار التي فيها كعبة آماله فجاء تحت الجدار ليأخذ راحته من العناء وبعد قليل وصل اذنه صوت ينادي باسمه فتحققه واذا هو صوت ما لكة قلبه تلهج بذكره فانصدع فؤاده وكاد يجيبها لولا ان سمعها تقول لجار يتها اخبري والدي ليعود بي الى مصرفها قد زال ما بي ولم يعد لي مصطبر على البقاء هنا . فانتعش فؤاده وعاودته القوة وصار يبتعد عن الجدار ويرسل نظره للنافذة ليرى الحبيبة او تراه فكان يراها وهي لاتلتفت اليه لكونها كانت تعده من عملة المزارع واستمر على هذه الحالة وهو يقرب من النافذة تارة ويختفي بالجدار اخرى حتى سمع صوت والدها من داخل الدار فوجل من ذلك وانتقل الى الجهة الغربية من القرية وهناك جلس مع بعض اهاليها حتى دنا وقت الظهر واستوت الشمس في الافق فجاؤا اليه بطعام وكانوا قوماً كراماً فأكل بقابلية عظيمة ومكث يتسامر معهم الحديث وينتقل بهم من موضوع لآخر الى ان قال لهم ومن يك صاحب تلك الدار المشيدة التي اراها في هذه البلدة فقيل له تلك دار ..... وقد اتى بابنته لتغيير الهواء وله هنا اسبوعان وعزم على السفر في غدٍ

فلما سمع كامل هذه الكلمة الاخيرة لم ير بدّاً من الاقامة مع هؤلاء حتى صباح ذلك اليوم وخاف لو تركهم لم يجد من يأويه سواهم وما لبث هذا الظن يجول في خاطره حتى انفرط عقد الجمع وقام كلّ يقصد اشغاله فسار لجهة حبيبته يندب سوء حظه عله يسمع صوتها فيكون له منه تسلية على هذه الشدائد ولما اقترب من النافذة وجد الهدوّ شاملاً غرفتها فخامره الشك وداخله الوهم من [illegible]ـراء

ذلك وجلس خلف الجدار كسابق عادته الى ان وافت الساعة السادسة مساء واقتربت الشمس من الارض قام يتمشى رويداً وهو يقول متمثلا بقول المجنون

امرّ على الديار ديار ليلى   اقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي   ولكن حب من سكن الديارا

وصار يفكر في موضع يقضي فيه ليلته وما زال يروح و يغدو حتى آذنت الشمس بالافول وغابت عن الابصار فانزوى خلف الجدار وفضل البقاء تحت نافذة عزيزة للصباح على نوم اخر الفراش فغلب عليه سلطان النوم وانقاد لمشيئته

اما عزيزة فقد دخل عليها والدها وهي ثملة من خمرة الهوى وناداها ان لاتحزني فقد عولت على السفر غدا طوعاً لارادتك · فهبت من موضعها وشكرته على ذلك وهبطت نارا تستعر في فؤادها لبعد الحبيب عنها وجلس يطارحها الحديث في مواضيع شتى الى ان شاهد امراة من النافذة على بعد تقود جملاً وتحمل حطباً فقال لها تأملي يا عزيزة لصبر النساء في هذه البلاد واحتمالهن الاذى في سبيل معيشتهن مع ان النساء في الحضر ناعمات مطمئنات تأنف ايديهن ان تمس شيئاً من اعمال منازلهن ولا تعرف الواحدة منهن سوى التبرج والزينة وتزجيج الحواجب وتكحيل العيون وصبغ الوجه لتبديل خلقة الخالق وتجرّ ذيول التيه والدلال وتصرف ثروة زوجها على امور ما انزل الله بها من سلطان · فقالت له اعلم يا والدي ان المرأة قصيرة الباع قليلة الاطلاع في هذه الحياة الدنيا وان ما تراهن فيه هو من افراط الرجال لهن وعدم التبصر في امورهن · الا ترى ان الرجل اذا كان يميل لاهواء زوجته و يطلق لها العنان في ميادين الجهالة فهي لقصور مداركها تنقاد لاميالها وتتابع اهوائها وتخرج منها ذرية ضعاف التربية يتخلقون

باخلاقها و يتابعونها في سيرها و بعدئذ تتصرف به تصرف المالك بملكه والسيد بعبده . نعم ان بعض الفلاسفة يصف المرأة بانها ملك كريم و بعض الشعراء يرى انها شيطان رجيم وفي الغالب ان جميعهم مصيبون اذ القول الاول يصدق على المراة التي صلح منبتها وحسنت تربيتها وضرب الحجر عليها وهي في سن الطفولية فتخرج من مدرسة والديها الابتدائية حافظة لحقوق العفة والصيانة وتدخل في مدرسة زوجها النهائية فيلقي عليها دروس الشرف والشهامة وتنال تحسن داخليته و يسر قلبه بانتظام معيشته والا فيصدق عليها القول الثاني وتتوفر فيها شروط وصفك اذا حرمت من نعمة التربية واهملها والداها وغفل عنها زوجها وساقها اما بفساد عقله او لميله لها الى الملاهي والمجتمعات وسلمها زمام هواها فتسوء العاقبة عليه كما تقدم شرحه و بالجملة فقد قيل يا والدي ان المرأة التي تهز السرير بيمينها تهز الكون بشمالها

فقال لها لله درك فتلك ضالتي المنشودة التي كنت انتظرها منك وما بالك يا عزيزة وقد احسنت تربيتك و بلغت من الكمال والرزانة والعلم والادب مالم يبلغه احد من اترابك في عصرنا نبذت تلك الحقوق خلف ظهرك وكاد يصدق عليك القول الثاني واظن امتناعك عن زواج ابن عمك فريد لم يغب عن ذهنك لحد الآن

فقالت حاشا يا والدي ان ينطبق عليّ شيء من القول الثاني وان كنت اعلم ان العصمة والكمال للخالق وحده وان بعض المزايا الحميدة لاتتكامل في شخص الا و يضعف فيه البعض الآخر ولكن انت تعلم حفظك الله ان كل حيّ بحكم الطبيعة ينقاد لهداية عواطفه فمنها ما يكون صالحاً فينفع ومنها ما يكون طالحاً فيضر وقد قلت لك في اول حديثي ان جنسنا الضعيف قصير الباع لا يعرفن من

امور الدنيا غير ما ورثه من ابائهن وتعلمه من ازواجهن فان كان حسناً ما ورثه وحميدا ما تعلمه فزن بعيشة راضية . والضد بالضد . وها انا من الفريق الاول ورثت منكما حسناً واختبرت زمني فعرفت خله وخمره وصرت لا اميل طبعاً الاَّ للقوة والرجولية وانتظار زوج يحمي دياري، و ياخذ بثاري وافضل الاديب على السفيه والعالم على الجاهل وهذا من اقوى وسائط الانتظام في المعيشة واما فريد فلم يخرج من سني" الدراسة بمعنى انه لحد الان لم (يتعلم) وكفاك مني هذا الايجاز . فقام والدها وقال دعيك يا عزيزة من الخوض في هذا الموضوع الذي ينطوي الليل معه ولا ينتهي ونحن في حاجة الى النوم والراحة. وقصد غرفته وقامت عزيزة الى فراشها ونامت وقبيل طلوع الشمس وقفت مطايا السفر امام الباب فامتطوها وواظبت السير بهم الى المحطة ومنها ركبوا على اكسبريس الصباح الى العاصمة

—*** —

الفصل السابع

خطر وهوان

اذا لمْ يكن غير الاسنة مركباً فلا يسع المضطر الاّ ركوبها

اما كامل فظل ّ نائمًا خلف الجدار حتى نبهته الشمس بحرارتها فقام واسنانه تصطك من شدة الرطوبة وجعل قبلته الانتظار لميعاد سفر حبيبته ومكث يتوقع رحيلها ساعة بعد اخرى حتى استقرّت الشمس في كبد السماء وهو لا يسمع صوتاً ولا يرى احداً فابتعد عن الدار قليلا ومدّ بصره لنوافذها فوجدها مغلقة واستقبل الباب فرآه كذلك فاومضت بروق الاكدار امام عينيه من كل الجهات وثارت عليه عواصف الافكار فزجته على رجل من جلسائه بالامس وسأله عن صاحب تلك الدار فقال انه سافر قبل الصباح مع عائلته فرجع يهرول كمن يتخبطه الشيطان من المس وسلك طريقاً غير الطريق المقصود وودّ لو كان له من العيون الوفا فيراهم او من الاجنحة بعضاً فيطير اليهم وقد انتهى به الطريق الى نهر يتخلل الحقول و يخترق البلدان فوقف على شاطئه يزرف الدموع و يقول يا رب ضلت المسعى وركبت متن طريق لاهادي فيه سوى صروف يصرفها الزمان ونبال يفوّقها نحوي سوء الطالع ولا ادري ما سيؤول اليه امري فافتح لي بحقك طريق الهداية واولني نعمة الصبر على هذه النوائب · وسار حتي وصل الى قرية وقد انهك قواه التعب فالقى فيها عصا السير حيث كانت الساعة الرابعة بعد الظهر وكادت المخمصة تذهب

ببقية حياته وبعد ان اخذ راحته واهتدى الى الطريق من بعض اهليها قام وواصل سيره الى ان جن عليه الظلام وانقطعت سبل المارة وما زال بجد السير والغرام قائده والوله سميره حتى انتهى الى ايكة سمع من بينها صوتاً يقول له قف مكانك ايها السائر واعقب ذلك خروج جماعة من تلك الايكة واحاطوا به احاطة السوار بالمعصم وقالوا له من انت والى اين تقصد فانذهل كامل حينما رآهم شاكي السلاح تلوح عليهم سيما الغدر والخيانة لكنه تجلد وقال لهم يا قوم انا عابر سبيل ضلّ المسلك ولعلّ اجد من بينكم شفوقاً يرق لحالتي و يرحم بلوتي فيهديني الطريق او يكون لي خير رفيق حتى آتي مدينة طنطا مقر عشيرتي ومنتهى رحلتي فيلقى برا و يغنم شكرًا واجرًا · فقال احدهم سلمنا ما معك وسر آمناً في طريقك فقال · آواه · يا حبذا لو كان معي ما يرد السائل لما رايتموني في هذا الطريق المحفوف بالمكاره وهذه ملابسي ان شئتموها وليس معي سواها واظنها لا ترضيكم لكونها رثاء بالية فاخذ احدهم يفتش ثيابه واخرج مافيها من النقود وقال له سر حيث شئت · فانطلق كامل من بين ايديهم كالسهم في جوف السماء ومن شدة الرعب كاد يضل عن الطريق لولا ان هداه الله وتجلت له مدينة طنطا واهتدى لمصابيحها التي كانت تشق حجاب الظلام بشدة ضيائها فهدأ روعه وسكن جاشه وحمد الله على لطفه في قضائه ورفع بصره للسماء قائلاً · لطفت يارب بعبدك الذي اهانته الليالي وعذبته الايام فلا تحرمني من عين عنايتك ووفقني لما تحبه من الامور وترضاها وقرّبني ممن يودها قلبي و يهواها ولا تدعني في مهامه النوائب حائرًا وانت يا دهر كفاك عذابي فلا تعاندني و يا غرامي رفقا بفؤادي فهو رهن اشارتك وعليك يا شوقي إن تخبر حبيبتي بحالي في بلاد زرتها فيها فهجرتني وتقربت

منها فابتعدت عني وقتلت لذة الوسن تحت جدارها وهي نائمة في فراشها وسلكت كل وعر في سبيل هواها · آه · اين انت الآن يا عزيزة وكامل حظي ناقص لبعادك

ثم سار حتى استوى على سطح قنطرة يمر عليها القطار الحديدي وهي في احدى اطراف المدينة من الجهة البحرية فجلس على رصيفها وقد اخذ التعب منه حده واذهب الجوع رشده وليس لديه ما يسد به رمقه سوى خاتم من الياقوت تذكره في اصبعه وغفلت عنه قطاع الطريق لشدة الظلام فاراد بيعه ولكن انى له ذلك وقد مضى هزيع من الليل وانقطع البائع والمشتري ومكث يناجي ضميره ويقول اين سابق مجدي وغابر عزّي عادوا لله المجد ذلا وانقلب العز هوانا وحفت بي النوائب من كل جانب وصرت في حالة يرثي لها العدوّ و يرق لها الشامت · فصبرا صبرًا اللهم صبرًا · ساقتحم الاخطار ولو طالت الاسفار حتى اصل لمحبوبي وافوز بمرغوبي او اقضي نحبي شهيدًا في هذا السبيل ولكن · آه · اخاف ان اكون كمن يزرع ولكن لسواه وغيره يجني مما قد غرس ولا يذوق جناه · لا · عهدي بثباتك يا عزيزة ان يكون لي استثمار ما غرست وجني ما زرعت

فان كانت الاجسام منا تباعدت   فان الولا بين القلوب متين

وبعد ذلك قام يتمشى في وسط المدينة يتفرس في شوارعها عساه يجد موضعًا ياوي فيه الى الصباح فرأى دكة من الخشب امام حانوت مغلوق لاحد الباعة فصعد عليها وتهيأ للنوم فجاءه الخفير وقال له ان النوم ممنوع هنا ورجال الشرطة يحرمون ذلك فقال كامل واين يأوي الغريب يا اخي في هذه المدينة قال هنا محلات كثيرة معدة للنوم فاذهب لاحداها فقال له ومن لم

تكن لديه مصاريف النوم ماذا يفعل فحنق الخفير عليه وقال له قم ولا تنازعني والا فادعو رجال الشرطة ليأخذوك فقام كامل وهو يقول لا حول ولا قوة الا بالله قد رضيت بالهوان وهو لا يرضاني فاكشف يارب عني حجاب التضييق وافتح لي من فضلك باب الطريق وكفى هواني فانظر لحالتي وزحزح غراب البين من فوق هامتي ٠ اه ٠ الى متى يكون اقتحام المخاطر وغيري ناعم البال طيب الخاطر

ثم سار ورياح الافكار تلعب بفؤاده حتى وصل الى محطة السكة الحديد وهناك وجد الباب مهيئاً لنزول مسافري القطار الصعيدي فولجه وقصد الرصيف القبلي ونام على احدى المقاعد بعد ان تعوذ بالله من شرّ الرقيب فغابت عيناه في النوم و بعد ساعة قام مذعوراً يتنفس الصعداء و يقول ٠ آه ٠ يا عزيزة

قولي لطيفك ينثني عن ناظري وقت الوسن
كي استريح وتنطفي نار تاجج في البدن

و بعد ان تاوه مراراً من قلب مكلوم عاوده النوم بسرعة لاحتياج اجفانه للذة الكرى وظلّ كذلك حتى بزغ قرن الغزالة وايقظه المسافرون بوقع اقدامهم فقام وجعل وجهته بيع الخاتم فسال عن محلات بيع الحليّ والجواهر فارشد الى رجل اجنبيّ في وسط المدينة فحث نحوه مطية عزمه حتى وقف على دكانه واخرج الخاتم من اصبعه وناوله اياه قائلا اني اريد بيع هذا الك ان تشتريه ٠ وما كاد يتم كلامه حتى قبض عليه الرجل وقال له اين الذي سرق مع هذا ايها اللص الخائن واشار في الحال على احد رجال الشرطة وكان واقفاً في الطريق وقال له دونك هذا اللص فقد عثرت معه على بعض مسلوبات لاحد اصدقائي فلما سمع الشرطيّ قوله ساق كامل الى دار الحكومة وقد نزلت عليه عوامل الاضطراب

جسداً وعقلاً وانعقد لسانه عن النطق ولم يفه ببنت شفة الى ان وصل امام رئيس الشرطة فتقدم اليه التاجر وخلع قبعته وادى بها واجب التحية وقال له ان احد معارفي اتاني بالامس واخبرني عن سرقة ملبوسات وحليّ واحجار كريمة من منزله و بين ذلك ثلاث فصوص من الياقوت واوصاني اذا وقفت على شيء من تلك المسروقات ابذل وسعي في الحصول عليها والقبض على حاملها وفي الساعة حضر هذا واراد بيع خاتم من الياقوت فوجدته شبيها بالخاتم الذي تركه معي ذاك الصاحب للاهتداء بشكله ومقارنته بمثله فاحضرت السارق والمسروق امامكم حتي ادعو صاحب العين المسروقة وها انا ذاهب في طلبه . فاستوقفه رئيس الشرطة وكان عاقلاً ذكياً وقال له ان دعواك لصاحب الشأن لا تدخل في دائرة بحثي الآن بل الذي يهمني هو سؤال المتهم اولاً عما عزى اليه و بعد نستدعى صاحب الشيء المفقود اذ من الصعب ادراك الحقيقة اجمالاً وقبلاً ارني هذين الخاتمين حتى استعمل المقارنة بينهما فناوله اياهما و بعد بحث طو يل التفت الى كامل وقال له من اين لك هذا ايها الشاب وحالتك تنبئنا بسرقة هذا الخاتم على كل حال . فقال اعلم ياسيدي انني من بيت كريم في العاصمة ليس للجواهر فيه قيمة وقد حضرت هنا لاشغال خصوصية ولسوء حظي رزقت ببعض الاشقياء فسلبوا ما كان معي من النقود . وهذا السبب الذي دعاني لبيع خاتمي ولا تغرنك ظواهر حالتي فلذلك اسباب لا يهمك الوقوف عليها با كثر من اهتمامك في موضوعنا هذا . وان كان هذا التاجر يقول ان الشبه مقارناً لخاتمه فليقل لنا ما يساو يه القيراط الواحد من حجر خاتمه وخاتمي و بعدا كذبه ببرهان تساعدني عليه الحقيقة . فقال البائع ان القيراط من هذين الحجر ين يساوي ما يتان وخمسون غرشاً ولا فرق في

الشبه والثمن بين هذا وذاك · فقال له كامل عبثاً سعيك في التجر بهذه المعادن اذا كنت لا تعرف منها الاّ ظواهرها واعلم بان ثمن القيراط من حجر خاتمي يساوي عشرون جنيها وهو من الاحجار المتوسطة في القيمة والقيراط من هذا المعدن الحقيقي يساوي مائة جنيه والحجارة الخالية من الشوائب نادرة جداً واعلم يقينا اذ التجارب دلتني بان حجر خاتمك ليس بياقوت بل احد الاشباه ولو وضعته في النار لذهبت حمرته واما خاتمي فان حجره من المعادن الحرّة اذ لو نفخ عليه في النار ازداد حسناً وحمرة وعليك يا حضرة رئيس الشرطة باختبار تلك الادلة وان كنت ترى ان الوقت يطول في اختبارها فاليك دليل آخر يمكنك اختباره بمجلسك هذا وهو ان تقارن بين الوزن النوعي للحجم الواحد من هذين الحجرين فما زاد وزنه عن الآخر مع اتحادهما في الحجم كان انفس قيمة واعز مكانة ومتى ثبت لحضرتكم اختلافهما من هذه الجهة لا يبعد عليكم كشف النقاب عن حقيقة صدقي وبعد تلك المظنة عني · عندها تفرس رئيس الشرطة وقلب هذين الخاتمين بين كفيه فرأى بينهما تفاوتا في الزي والصنعة لا يقف عليه من لم يدقق النظر فقال لذاك التاجر ان فراستي اوقفتني على اختلاف دقيق بين هذين الخاتمين يتزايد وضوحاً لمن كرر النظر اليهما وامعن الفكر في بديع صنعتهما فأتني بما يؤيد حجتك والاّ سلمت الخاتم لهذا الشاب ونفوت عنه الظن والارتياب او احضر لنا صاحبك ليكشف عن هذا الامر المعمىّ · عندها خرج التاجر وعاد بعد قليل يرافقه رجل تجلله الهيبة و يعلوه الوقار وقال هذا صاحب الشيء المسروق فاعطه الخاتم لينظر فيه فذمته تأبى ان كان لغيره ان يدعيه فسلمه اياه رئيس الشرطة و بعد ان قلبه ظهرا لبطن قال ان هذا الشاب براء مما نسب اليه اذ هذا ليس من مسروقاتي ولم يدخل

دائرة مملوكاتي · هنا كان القول الفصل وظهر الصدق من المين وتبين ان الخاتم ملك كامل وان تعريضه للبيع لضيق ذات يده فساومه ذاك التاجر فيه و بعد اخذ وعطاء ومنع ورضاء انقده ما اتفق عليه من الثمن وانصرف كامل راضياً من تلك التهمة بالاياب ودخل حانوت كان يجاوره ليقتل الجوع قبل ان يقتله وفيه دفع عنه هذا العدوّ الالد و بعد ان فرغ من تناول الطعام قام لينقد صاحبه الثمن فشاهد امراة تبكي بين يديه والدمع ينهمر من اجفانها وهو مجهد النفس في تخفيف ما عندها و يودّ الوقوف على ما اصابها فتاخر ومكث يترقب ما وراء هذا النحيب و بعد قليل جفت دموع تلك المرأة ودخلت خباء الطاهي وكشفت اللثام عن وجنتان كالأرجوان اثرت فيهما الدموع ونظرت اليه نظرة اغفلته عن مذاق ملح طعامه وقالت له لم يعد لي الآن مصطبر على البقاء معك في دار اخيك الذي طالما يدعوني لسوء غايته ولم يرمني غير اعراض علمنيه خدري وكنت اغتفر له خطأه واعدّه في ميدان الصبية لا غير ولكنه اتاني اليوم ممتطياً جواد الغضب وقال لي اما اجتماع بك او فراق لك من اخى ولو بايعاز بعض المقربين اليه فيوقعوا بصيانتك وتذم لديه مغبتك فانظري اي الامرين تشائين فقابلته يا سيدي بحلم وكرم سجية ولاطفته كثيرا والقيت عليه نصائح اخطأت مراده ولم يتنازل عن عناده فقلت له كيف تكفر بنعمة الاخاء وهى ابقى لك في السراء والضراء فضجر من كلامي وخرج يعض على شفتيه و يتوعدني سوءا فرايت طول الكتمان عنك يوقعني في باس شديد واخطار ربما تذهب معها حياتي فاسرعت اليك بالخبر واني من الان ذاهبة للاقامة عند والديّ حتى تختر لنفسك موضعاً غير هذا وتأمن شرور اخيك بحيث لا تذكر له سيئاته واياك واذاعة الامر فتساء بنا الظنون وتذهب الناس

فيه مذاهب شتى . وما كادت تفرغ من كلامها حتي ثارت بزوجها ثائرة الغضب وتقطب وجهه وقال الهذا الحد بلغت قحة اخي حتى تطرق الى خيانتي نسب ماء الحياء من وجهه نعم قد يجوز ولله در القائل

لا تأمنن على النساء ولو اخاً ... مافي الرجال على النساء امين

فاذهبي ايتها المصونة الى منزلك وفي الاصيل اتدبر في عزلتك فخرجت وتركتة يزكي نار الطعام بلهيب انفاسه و يقول تالله لافتكن بهذا الوغد اللئيم واضحيه على هيكل العفة والصيانة كي يسلم منه ناموس الشرف . و بينما هو يضمر السوء لاخيه خرج عليه كامل وقال له رو يدك ايها الطاهي خفف قليلا من غضبك فمن تأني اصاب او كاد ومن استعجل اخطأ او كاد

ولا تقطع اخاً لك عند ذنب ... فان الذنب يغفره الكريم

ولا تجزع لهذا القول واصبر ... فان الصبر في الدنيا سليم

ولا تغرنك دموع النساء فاكثرها خداع ورياء ومن اجلهن قتل قايبل اخاه هابيل فعليك ان تتدرع بسلاح الصبر حتى تعرف حقيقة الامر واسبرغور التهمة قبل ان تقع في الخطل وتندم ولات ساعة مندم . فسكن غضب الطاهي قليلاً و بعد ما علم ان كامل غريباً اخذ يقص عليه جريمة اخيه وفي الاثناء دخل عليهما شابان و بعد السلام جلسا على مائدة الطعام فراى كامل تغيرا سريعاً فى وجه الطاهي الذي كان ينظر شذرا لاحدهما وما لبث ان خرج وقبض على عنقه بيد الفتك وقال له و يلك ايها الخائن الكافر بحقوق الاخاء كيف تود ثلم عرض من اختلط دمك بدمه واجتمعت واياه على ثدي واحد . فقام كامل وتداخل بينهما لما علم ان هذا الشاب هو موضوع تلك القضية واما الشاب فقد طاش عقله وامتقع لونه واخذ يسأل اخيه عن سبب هذه الحملة المنكرة فقال له كيف تسألني

عن ضلال انت خالقه ونفاق انت سيده الم يكفك هتك اعراض الخوارج حتى تودّ من لا يودّه الجبناء وتهدم صروح المجد والشرف وتتعدى على حقوق اخ يشاركك في همومك و يقاسمك شطر المعيشة وتركن لابن عم يساعدك على اثمك و بهتانك (يعني الشاب الذي دخل معه) وكم اتجاوز عن سيئاتك وانت تعمه في ضلالاتك . فقال مهلا يا اخي فالحقيقة بنت البحث وعار عليك ان تعاملني بخشونة يستهجنها الذوق السليم وتمجها الآذان الصحيحة من قبل ان تسرد عليّ خطيئتي وتسمع مني اجابتي فاذكر الآن ما ارتكبته من الدنايا بغير تعقيد وابهام ودع هذا الغريب يحكم بما يراه . عندها اخذه الطاهي ودخل خباءه وقال له على مسمع من كامل كيف تؤديك الجهالة الى مراودة زوجتي عن نفسها غير مرة وهي تعرض عنك اعراض الكريم عن السفيه ولما لم ترها لينة الجانب توعدتها بالاذى ماديًا وادبيًا . فما كاد الطاهي ينتهي من تلك النبذة حتى لطم اخيه على خده وشق ثيابه وقال خسرًا وهلاكًا لمن ارادت الفتك بي على غير جريرة اقترفتها سوى اني تغافلت عن خطاياها مرة بعد اخرى وكنت انظر اليها بعين ربتها التجارب وهذبتها شرعة الانصاف فترى الحسنة والسيئة ولكنها تذيع الحسنة وتباهي بها وتكثر من ذكرها وتنظر الى السيئة من طرف خفيّ وتقيل العثرة وتلتمس لها سبعين عذرا اللهم الا اذا كثرت السيئات وعم ضرها ولم يبق احتمالها عزمًا ولا السكوت عنها حزمًا وهذا الذى ساءها مني ولم ترض بتضييق الحجر عليها وها انا من الان مفارقك ايها الاخ لابتعد عن عين ترى الحسن قبيحًا والرديء مليحًا . عندها هدأ روع الطاهي وسكن جاشه وعاد باللائمة على نفسه بعد ان ارسل فكره فيما كانت تلقيه عليه زوجته من التمويه والافك واعتذر لاخيه وشكر كامل على كرم سجاياه وحسن عواطفه

وبعد تودع منهم وهو يتعوّذ بالله من شر النساء اللواتي يخلعن عذار الحقيقة وتبارح قلوبهن الشفقة فتحل مكانها القساوة ويتخذن المكر والحيل فراشاً والكذب والخداع غطاء وقصد المحطة حيث كان الوابور على عزم السفر فركبه ويود لو استعار اجنحة القطاء فينزل على دار حبيبته

الفصل الثامن

مزاحم جديد

اما عزيزة فقد وصلت الى العاصمة وبلغت منزلها وكلها عيون تترقب شخص سعد خادمها الى ان راته واقفاً امام الباب فدفعها تيار الشوق لسؤاله عن حبيبها فقال لها لم اره من عهد سفره — فاخترقت هذه الكلمة اذن عزيزة وافقدتها حاسة السمع وعصفت عليها رياح المصائب والبلايا وفي الحال دخلت غرفتها وهي خائرة القوى واتت والدتها للسلام عليها فوجدتها محاطة بنوب الاغماء فاستولى عليها الوهم وكاد يطحن جسمها ولكنها قاومت تلك العوامل وبذلت الجهد في تخفيف مصابها فكانت كل كلمة تتردد في اذن عزيزة ثم تمحى باسرع من لمح البصر ولم تلبث طويلا حتى عادت اليها عاطفة الادراك واستنارت ظلمة الهواجس التي كانت تخبط فيها فقالت لها والدتها ما بالك يا عزيزة قد وهبت جسمك لطوارئ صارت تتهدد راحتك في كل آونة وقلما اراك هادئة البال مطمئنة الخاطر . قالت لها عفوا يا والدتي فان عقلي لم يكن موجودا ليتدبر الاسباب والنتائج سوى انى اشعر احياناً بعارض يختطف مني الحواس ويحدث

تأثيرا في نفسي بل و يذهب بامور كثيرة حسية وعقلية وتريني يا اماه قد عيل صبري وضاق بهذا الحال صدري والآن احسّ بشوك ينخس جانبي كان الدهر اصرّ على عنادي وحسدني على بسطة العيش التي كنت فيها ولكن

سأصبر حتى يعلم الناس انني صبرت على شيء امر من الصبر

فقالت لها والدتها رفقاً بنفسك حتى اخبر والدك ليدع طبيباً يعرف هذا الداء و يقتله بالدواء فتنهدت وقالت دعيني يا اماه من الطب وذويه فان دائي اعرف من يداويه (عندها ادركت خطأها في كلامها ثم غالطت وقالت) فمنذ الان ترين الصحة تتقدم نحوي اذا داومت الخروج في الخلوات لاستنشاق الهواء فسكن روع والدتها وخرجت لتنظر بعض شؤونها ودخلت الخادمة عليها فعاينت على وجهها علامات الاكدار ودلائل الاصفرار فقالت لها يا سيدتي ما الذي جاء على بالك مضادّ لافكارك فقالت ياحليمة ان هي الا افكار تدور بخلدي وخيال حبيبي يرافق ذهني الليل والنهار فاينما كنت وأينما سرت اراه ازاء عيني و بفروغ صبر انتظر قدومه من سفره وقلبي يناديه من مكانه . . آه .

كلفت اسفاره عيناً مؤرقة اليه لولاه لم تكحل بتسهيد

والان اشعر بقوة خفية تقاومني وتصد ارادتي فكأن حبالاً تربطني اومادة مغناطيس تجذبني . نعم . في نار غرامه ولا يطفئها الا لقاه فعليّ بسعد ياحليمة حتى ابعثه ليستطلع اخباره فخرجت ولم تلبث ان عادت ومعها الخادم فقالت له اذهب يا سعد الى منزل كامل واسال والدته عنه عساها تنبئك بشيءٍ من حاله وعد على الاثر ولا يشغلك امر اسف طريقك فلباها وخرج يطوي الارض بسرعته وقالت لها الخادمة اني ارى من الحكمة يا سيدتي ان تجتهدي في مقاومة

احزانك رغما عن هذه الظروف اذ ربما والداك يسعيان في اكتشاف اسباب تلك الحيرة التي تبدو احياناً على جبهتك و يقفان على غوامضها فتوضع العقبات في سبيلك و يرفرف حولك غراب الاحزان و يسجن الغرام في قلبك وهناك تعم البلوى وتكثر الشكوى . فقالت لها حقاً تقولين يا حليمة ولكن . آه . كيف اقوي وانا مكسورة الجناح على قهر سلطان الغرام ولقد نازلته كثيرا فانتصر على قلبي واستولى على فؤادي وعساه يرحم ضعفي و ياتي زمن تنجلي فيه الحقائق وتضمحل الاوهام وتتبدّد عني تلك التصورات فيكون شأنها كشأن الاحلام وارى سبيلا لانتقالي من عيشة علقمية الى عيشة الراحة والسرور ومن الآن لا تلوميني يا حليمة واعلمي ان في المحبة اسرار وغوامض صعبة التفسير والادراك . فقالت لها الخادمة اني اتمنى يا سيدتي ان تخضع اليك طوالع السعد وتجري المقادير حسب املك و يدنو زمن الاجتماع بحبيبك حتى تكوني سعيدة معه في حياتك . ثم استاذنت منها وخرجت تقصد خدمتها ومكثت عزيزة تنتظر عودة سعد وقد عاد اليها الخفقان الباطني واستولى عليها الحزن بكامل انواعه وكاد يفعل في فؤادها فعل الحسام و باطلاً حاولت الوصول لازالة اسبابه وفي الحين دخل عليها الخادم عبوس الوجه وشمائر الاضطراب قد شملته فبادرته بالسؤال عن حبيبها فقال لها يا سيدتي ان والدته فاجأتني بفظيع القول وقد وجدت عيناها تدمي بالدموع فانثنيت راجعاً منقبض الصدر مما رايته في حالتها . عندها انقلب حال عزيزة وصار وجهها الذي كانت حمرته كالورد مصفرّا وانكسر جفنها واحاطت بعيونها هالة زرقاء وصارت تهتز كالمصباح الذي ادى وظيفته ونفد ما في جوفه او كبدر هجم عليه السحاب وقد سالت الدموع على خديها ولكنها كانت تخفي في زوايا القلب عظم

ما بها من حركات الوله التي تدفقت عليها كامواج البحر وخافت ان يرها والدها على هذه الحالة فياخذها الى قرية ثانية وهناك يزيد خطبها ويفدح امرها وبعد قليل اقبلت الخادمة تدعوها لتناول الطعام مع والديها فاجتهدت في جمع قواها وسارت كقصبة تحركها الرياح وتميل يمنة ويسرة بحسب العوامل التي كانت في قلبها حتى جلست على المائدة وسالاها والداها عن صحتها فقالت لله الحمد فاني ارى عافية تقودني نحوها ومكثت تطارحهما الحديث تصريفاً لظنيهما وكانت تتظاهر بوجود قابلية عظيمة في نفسها لتناول الطعام فسرّا من انتظام حالتها وهكذا ظلوا يتخطون مواضيع الحديث حتى فرغوا من الطعام ورفعت من امامهم المائدة فقالت لهما عزيزة اني اراني محتاجة للرياضة على ضفاف البحر فاسمحا لي بذلك فاجابها والدها وامر الخادم باحضار عربة وخرجت عزيزة الى غرفتها وأتزرت بثياب الخدر والعفة وما لبثت ان وقفت العربة على باب المنزل فركبت ومعها الخادمة وجلس سعدا بجانب السائق وامره بالعدوّ الى الجزيرة ورسم له طريقاً يمر على بيت كامل فاطلق للخيل عنان السرعة حتى اقترب من الدار فادلى سعد رأسه من مقعده واشار لسيدته عليها فرمقته بعيون باكية وتزودت منه بنظرات احيت في قلبها نار الوجد والهيام وعادت الى حالتها التمثالية بدون حركة ولا صوت وسقط النقاب عن وجناتها فوثبت الخادمة واسدلت ستار النافذة واخذت تخفف دهشتها حتى احدقت بنظرها وهي ترتجف وقلبها يزداد خفقانا وانتبهت بعد قليل وقد صبغ الاصفرار لونها فقالت لها الخادمة قوي عزمك يا سيدتي وانظري لموضعك الان وانت في طريق مملوء بالرقباء . وظلت تلاطفها حتى استجمعت قواها واشتغلت بتاملاتها الى ان تجاوزت بهم العربة كوبري قصر النيل ومرت

في طريق الجزيرة فرات عزيزة بعض راحتها وكان لطف النسيم يزيدها صحوا ومكثت تحادث خادمتها حتى قطعوا الطريق ورجعت بهم العربة الى المنزل حيث كان والدها بانتظارها ليطمئنا على صحتها وحينما راياها على هذه الحالة هدأ روعهما ودخلت هي الى غرفتها وانطرحت على فراشها وساقها التعب الى النوم فاستسلمت لارادته وقامت في الصباح ساكنة البال واشتغلت بتطريز بعض ثيابها الى وقت الظهر استدعت الخادم وامرته بالسؤال عن حبيبها ولو يراقب شخصه من شبك الحديد المحاط بسور حديقة منزله فجاوبها على طلبها وخرج يقصد هذا المنزل فوصله ولم ير فيه شخص انسان فعاد واخبرها بذلك وما كاد يتم كلامه حتى دخل والدها وقال لها ان الدهر يا عزيزة قد حنث في يمينه وطلع نجم سعدك فقد اتاني في هذا الوقت ... بك ... وانا جالس امام الباب وطارحني حديثاً عرفت من خلاله انه يرغب زواجك بولده ... فاعطيته جانباً ليناً لعلي انه من بيت كريم عريق في المجد والشرف واظنك يا عزيزة لاتمتنعي عن قبول هذا الشاب الذي يكون معه سعدك وعسى ان لا ياتي هذا الامر مضادًا لافكارك . عندها تجلدت عزيزة لهذه الفاجعة خوفاً من ان يرتاب والدها في امرها ولكنها لم تتمالك من حجز دموعها التي جرت على خديها وقالت اعلم يا والدي ان هذا الشاب وغيره سيان عندي في امر الزواج وقد اخبرتك قبل هذا ان زواجي الان يهدم الاساسات التي بنيت عليها آمالي ومستقبلي وما بالك مهتما بسرعة زواجي وانا لم ابلغ حده المطلوب اهل اردت ان تذهب صحة طالما رجوتها فمن الآن يا والدي لا ارى لزوماً لتوجيه افكارك لهذا الموضوع . فانقلب حال والدها وارغى وازبد وقال لها يا فاجرة الى متى يكون اصرارك على هذا العناد حتى نبذت امرنا قصياً وصرت لا اعرف كيف دخلت عقلك هذه الافكار

بغتة • فقالت له من الواجب يا والدي امعان النظر والتبصر جيدا قبل الاقدام على زواجي لان عليه سعادتي •• اذا [illegible] وجه الارض سعادة •• فلا تغتظ من كلامي وخذه على جناح الصدق اذ لا بد لي من التأني قبل السقوط في تلك الهاوية وبعد الامر لا يفيد الندم • فقال ويل لك يا عاصية كم يكون خجلي بين الناس بسبب امتناعك • قالت مهلاً يا والدي فتكدير الاقارب شهرا او الاجانب حولاً فيما يتعلق بامر الزواج اقل شرا من احتمال الاكدار طول الحياة والاولى اختيار اصغر الشرين لان الزواج الذي يحصل على غير رضاء يكون فيه تتمة العذاب • عندها دخلت والدتها وقالت لها ما بالك اليوم يا عزيزة وما جرى لك واي شيطان نفخ في عقلك روح الاباء حتى تمتنعي عن الاقتران بشاب يشغل وظيفة عالية وهو حسن الاخلاق لطيف المعشر يأنف النظر الى النقائص والدنايا • فقالت ما بالكما يا والدي اكثرتما من الالحاح عليّ في قبول امر تصدني عن الرغبة فيه امور كثيرة فاعلما ان امتناعي عن الاقتران بهذا الشاب بل وغيره لا ينقضه عزم احد ولا تغرنني علو المناصب فغيره تولاها ورتع في مراتبها السامية وقد جعلت على بصره غشاوة حتى نسي اجداده واباءه واصله ولم يعد يفكر الا في تنفيذ غاياته وقضاء مآربه واضطهاد الضعفاء فان كنتما تودان لي عيشة ضنكى وتعاسة الى الابد فنفذا ما تشاءا ولا تنتظرا مني قبولا او رفضاً • فلما سمع والدها هذا القول عاد كالاخرس وخرج غضبان اسفاً يكاد يتميز من الغيظ • اما والدة عزيزة فلم تدع حيلة الا واستخدمتها للحصول على مرضاتها ولكن محالا طلبت وعبثاً حاولت فتركتها وفي قلبها نار موقدة ومكثت عزيزة وقد استولت عليها المصائب والبلايا وشملها الحزن وكاد يحرق فؤادها سعير الغرام ونادت ربها ان يصرف عنها السوء ويعطف قلب والداها

و يحولها عن هذا القصد وقالت . آه . الم تخافا يا والديّ من يوم الحشر وساعة الحساب وقد ماتت من قلبيكما عواطف الحنان واستعملتما نفوذ فرعون لاذلال فتاة كانت تعدكما لشدتها وتدخر حياتكما لعيشة راضية تأملها . اواه . عفوا ايها الدهر ان كان ذنبي لديك عظيما وكفاك ما فتحته عليّ من ابواب العذاب والشقاء . نعم . كل ذلك هين في سبيل حبك يا كامل وليتك تدري بحالي وتحجب عني خيالك لحظة لاستريح من هذا العناء . لا . استغفر الله بل دعه يشاركني في همومي و يؤانسني في خلوتي فهو نعم السمير . و بينما هي على هذه الحالة تختبط بها امواج التصورات وتقذفها على شواطىء اليأس اذ دخلت عليها خادمتها وقالت لها اني جئتك يا سيدتي لاقص عليك حديثاً عجباً دار بين والديك في هذه الساعة فارعني سمعك حتى اتم حديثي لان بعضه بل جله يهمك . فتنهدت وقالت لا اود ان اسمع كلاما فيه تعاستي وحرماني من الخلود في نعيم العيش وراحة البال ولكن تقدمي يا حليمة وانبئيني عن هذا الحديث فليس الكدر عليّ بجديد . فقالت يا سيدتي ان والدك لما خرج من غرفتك وهو حاقد عليك ارسل سعدا ليدع احد اصحابه وجلس في غرفة الزائرين حتى اقبلت عليه والدتك فقال لها الى اين وصل اجتهادك مع ابنتك التي بلغت الى الدثار الادبي وهبطت الى آخر درجة من درجات الجهالة وصارت تأبى كل امر نعرضه عليها وتسفه رأينا دواماً . فقالت له انها يا سيدي كما تركتها على اصرارها وعنادها والذي اراه صالحاً ان لانعرضا عليها امرا ولا ننتظر منها رأيا بعد الذي رايناه منها وعليك ان تاخذ ميعاد الاقتران من والد الزوج وعندها يتم القصد رغم ارادتها فقال لها والدك ها انا ارسلت سعداً في طلبه حيث تواعدنا على الاجتماع في هذه الساعة والى هنا فرغ بينهما الحديث يا سيدتي . فتنهدت

عزيزة وانحدرت الدموع من آماقها والقت برأسها على وسادتها وقالت دعيهما يا حليمة يتدبران في عذابي واسالي الخالق ان يفك اسري و يصرفهما عن هذا العزم الذي يهددني في كل لحظة وكاد يوقعني بين اشراك تحجبني عن الوجود ·
فقالت لها مهلاً يا سيدتي فاني ارى سعدا يقصد غرفتنا على عجل واذا به قد دخل عليهما فقالت له عزيزة ما وراءك يا سعد والى اين بعثك والدي · قال لادع ······ بك ·· وقد حضر وجلس يتحادث معه واتفقا على اقامة الافراح في اليوم الثالث والعشرين من شهر مارث اي قبل ليلة نصف شعبان بيوم واحد فقالت · آه · وفي هذا اليوم تباد حياتي و يفتح عليّ بركان العذاب ووالديّ لايحسبان للعواقب ولا ينظران لما عساها تكون نتائج اعمالهما و يريا السعادة في اقتراني وفاتهم ان المصائب كامنة تحت طياته وفي دسمه سم قتلى

وهكذا مكثت حتى اقبل الليل ونشر ذوائبه على نوافذ غرفتها فقامت وانطرحت على عرشها وسلمت اجفانها للكرى رغما عنها فتركتها الخادمة وذهبت لتهيء طعام العشاء لساداتها حيث كانا جالسين يتباحثان في سبب امتناع عزيزة عن كل زوج يعرض عليها وكان والدها يؤنب زوجته على افراطها في عدم غرس مبادئ الطاعة في قلب ابنتها و يقول لها ان المرأة قادرة على تحويل وجه البسيطة بمعنى ان الامهات اذا اتخذن مبدأ حسناً كان او قبيحاً وادخلنه في عقول ذريتها فيبقى هذا المبدأ مهماز حياتهم وهيهات ان يتغير فالام هي المدرسة الاولى و بيوت العلم مدرسة ثانية والمعاشرة مدرسة ثالثة وظروف الزمان وطوارق الحدثان المدرسة الرابعة وقد ثبت لي الآن من اختبار اخلاق عزيزة في هذه الايام انها لم تحصل على شيء من تلك الفوائد حتى ولا على مبادلة الحب بيننا فقالت له يا سيدي ان السبب في ذلك هو ثمرة حنوّنا عليها ومخاطبتنا اياها بعذوبة

الكلام في الهزل والجد واغتفارنا لكل هفوة تبديها ومع هذا فان عزيزة والحمدلله لم تحرم من نعمة التهذيب والتربية فهي من حين تركتها تبكي وتأسف على حالها واظنها ترجع غدا الى طاعتنا وتطرح عنها هذه الحالة المحزنة وتعود الى صفاء الحياة والذها وتعيش خالية من الهموم والاكدار التي لاتشعر الآن بشيء منها الا بعد مراجعة ضميرها . فقال لها لعمرك قد سمعتها في غير هذا المكان تعترف بفضل تربيتها وحسن مبدئها ورايتها تبحث في كل امر بفكرة وقادة وقريحة دلت على سمو مداركها وكثرة اختبارها ولكني وجدتها وقد تغيرت تلك المبادىء وذهبت طوع شيطان هواها وذلك امر كانت تعيب فيه اترابها فعسى ان الغد يأتينا منها بنبأ جديد وان غدا لناظره قريب.

وبعد الفراغ من الحديث وضعت امامها المائدة وسألا على عزيزة فوجداها كما قدمنا نائمة في غرفتها فأكلا حتى اكتفيا ورفعت من امامها المائدة وبعد ساعتين قضياها في حديث آخر قام كلّ وتوسد فراشه .

اما عزيزة فقضت تلك الليلة بين تيقظ وهجوع وبكاء ونحيب حتى بدّد ضوء الصباح حجاب الظلام قامت واستدعت الخادم وقالت له دونك واستطلاع اخبار الحبيب عساك تزف اليّ نعيم قدومه لأتزوّد منه بنظرة تدفع عني مصائب كثيرة ونوائب جمة فتنهد سعد وقال اني اودّ وأيم الله يا سيدتي ان اعرف مقرّه واجوب الارض في طلبه لأعدّ نفسي في صفوف الخدم حقيقة ولأفوز بنعمة راحتك فقالت له بورك فيك يا سعد فهكذا الاخلاص وحسن الطاعة . عندها خرج واراد ان يستقيم في طريقه فرأى كاملا خلف سور الحديقة يترقب خروجه ويروغ بنظره يمنة ويسرة وما كاد يقع نظره عليه حتى التقى به كما يلتقي الغريق بصاب من النجاة وصاح بصوت

تساقطت منه اوراق الشجر • علي" علي" • يا سعد فها من تسأل عليه حبيبته واقف بباب رجائها طول يومه وليله ينتظر رؤيتها فخبرني عن حالها بعد ان تركتني بين يدي الخطوب والاهوال فقال له انها يا سيدي محاطة بصنوف الاكدار لبعادك وخاضعة لنكبات تنهال عليها كل ساعة بسبب قضية سمعتها من والديها امس وهي زواجها بـ ... وكانت هذه ضربة قاضية على صفاء بالها وقد ارسلتني للسؤال عنك غير مرة فكنت اعود اليها بعوامل اليأس والقنوط ولا تسل الآن يا سيدي عن حالها منذ سمعت بتلك القضية المشؤومة التي تقاعست عنها وقالت لوالديها ان دون قبولها شيب الغراب وصيرورة القار كاللبن الحليب ولكنهما اتفقا على اقامة الافراح قبل ليلة نصف شعبان بيوم واحد • فما اتم حديثه حتى خرّ كامل صعقاً على الارض ودقت نوب المصائب على رأسه ووقف السائر لحالته ولبث سعد يلاطفه حتى قام من غشيته وهو ينتفض كمن خرج من تحت عوالي الرماح وتنهد قائلا كلما فرغنا من شيء ناب منابه آخر فيارب متى يقصر الدهر عنانه و يلوي عنا بنانه و يمنع مزاحمي في غرامي • اوّاه •

رويدك يا ذا المزاحم امسك عن اذانا كم جهد ما نتكبد

ما علينا اضر منك فياما كان احلى الوجود لو كنت تفقد

فاذهب اليها يا سعد وادعها تحافظ على العهد وها انا باق على عهدها من عارض يغيره او هاز مشاء يسبره ولننتظر عفو المقادير او سخطها فلا مندوحة لنا من الانقياد لصروفها والصبر على مضض آلامها • و بينما هما اذ رأيا والد عزيزة آتياً على بعد فاختفى سعد عن نظره وذهب كامل الى منزله والخطوب تحاربه في طريقه حتى التقى بصديقه ابراهيم وكان قد علم بحضوره من سفره

فجاء ليطمئن على صحته فعانقه معانقة الاخاء وساله عن رحلته فقال له دعني يا سيدي حتى تغفل جيوش الهموم عني وآخذ راحتي لاني شعرت الآن بضعف كلي مما قاسيته من العناء اثناء سفري كأن نتائجه قد ظهرت في هذه الساعة فاخذ ابراهيم يواسيه حتى وصل الى المنزل ودخل غرفته والقى بنفسه على السرير وقال يا للتعاسة يا للشقاء من غرام صار للهيئة الاجتماعية ذئباً خاطفاً . كيف العمل يا صديقي في مزاحم جديد ارسله اليّ الدهر ليقتلني واعلن ميعاد قتلي في يوم تتجدد فيه الاعمار ويكتب السعيد سعيداً والشقيّ شقياً . فجلس ابراهيم يلاطفه ويخفف عنه مصابه حتى القى عليه التعب اثقاله وغابت عيناه في النوم فخرج واغلق باب الغرفة عليه

الفصل التاسع

※ اتراح وافراح ※

بذا قضت الايام ما بين اهلها   مصائب قوم عند قوم فوائد

اما عزيزة فقد دخل عليها الخادم وهي تناجي ربها وتساله كشف الضر عنها فتقدم وفاجأها ببشرى قدوم حبيبها فانحدرت دموع الفرح على خديها وعادت اليها الحركة واستنار وجهها وتلألأ جماله الطبيعي فصارت كوردة يفوح عطرها الذكي ومكث يقص عليها ما دار بينه وبين كامل من الحديث وكيفية سقوطه في الارض عند ذكر مسالة الزواج له فبكت عزيزة واذرفت الدموع مدرارا وقالت . آه . لابد لكما يا والديّ من يوم او ساعة تندمان فيها

على اعمالكما القاسية حينما يزف عليّ الموت في يوم سروركما الوهمي وفي الدار الآخرة أطالبكما بذنبي يوم تاتي الناس للحساب زمرا ويسئل كل عما قدمت يداه وتذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها . وما اتمت كلامها حتى امرت سعدا بالانتظار خارج الباب كي تسطر مكتوبا الى مالك قلبها فخرج وتناولت ورقة من دولاب في احدى زوايا الغرفة وكتبت ما يأتي

سيدي وبيت قصيدي

كم احاول القبض على عنان القلم وهو يتقاعس عن التحرير . وكم اعصر الفكر فلم يساعدني على شرح ما في الضمير . فمكثت انتظر من الله فتحا وفرجا . ودعوته حتى لا يكون في التعبير عوجا . وما لبثت ان عاد اليّ سعد بنبأ عظيم . فعادت له حافظتي وقلت بسم الله الرحمن الرحيم . وابتدأت في تسطير هذا وقد انفرجت عني ازمة التضييق . وانهالت عليّ عوامل التحرير من كل فج عميق . ولكن من الاسف ان ذكر شوقي اليك امر عسير . وليس في استطاعتي شرحه وما ينبئك مثل خبير . واعلم فدتك نفسي بان والدي اصرا على عنادي . ونصبالي شركا كما علمت على غير مرادي . ولكن انيّ لهما ذلك وجسمي وما يحويه في ابعد رمس . وحياتي ومماتي بعتها لغرامك بثمن بخس . فكن واثقا بعهدي اليك ايها الحبيب . فليس لي سواك من لذة الدنيا نصيب .

عزيزة

وبعد اتمامه احسنت ختامه وكان من مسك وسلمته للخادم وامرته بشدة الحرص عليه فاخذه وخرج على اطراف اصابعه لئلا يراه احد والديها فيوقفه عن مأموريته وما كاد يصل الى الطريق حتى انطلق يطوي الارض بقدميه ووصل الى المنزل ودخل غرفة كامل بحيث لم تره والدته واخوته فوجده مطروحا في

السرير يتقلب على جنبيه باكياً حزيناً لايعرف الداخل من الخارج فناداه فلم يجبه فوقف يترقب يقظته و بعد قليل فتح جفنيه والتفت يميناً وشمالاً فرأى سعدا ينتظر قيامه فحاول الجلوس فلم يستطع ادراك ذلك فاستمر في مضجعه وقال ما وراءك يا سعد فقال له كتاب اليك من سيدتي وناوله اياه فنهض قائماً ونزل من سريره وفض المكتوب بسرعة واخذ يتلوه ثم تنهد وقال . عجباً . تقول حبيبتي ان ليس لها سواي من لذة الدنيا نصيب مع ان الامر على غير اختيارها وزواجها معلق بارادة غيرها وحق عليّ الرضوخ لذل غرامي والتزوّد من عيون هي سبب سقامي قبل ان ياخذها المزاحم مني و يغيب بدر جمالها عني . آه .

لها مقلة يرشق القلب سهمها ولكنه رشق يزال به الهم
على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم

ثم قام واخذ يسطر لها ما يأتي

حبيبتي العزيزة

كتابك وايم الله قد اعاد اليّ آمالاً كادت تزول وتمحى ودفع عنى اوهاماً كانت تتهدد حياتي وصرت

اقلب فيه اجفاني كأني اعدّ به على الدهر الذنوبا

ولا ريب فلولاه كنت ودعت لذة العيش وسلمت نفسي لعوامل اليأس واما الآن فقد رجعت للحياة الدنيا وعاودني الرجاء ولكن

قد وهن العظم مني واشتعل الراسُ شيبا

وعزّ عليّ ادراك ما ياتي به الزمن من الحوادث بعد ما فات فاصبري يا حبيبتي على هذه الخطوب واعلمي ان عهدك عندي في البعد والقرب

كامل

و بعد الفراغ منه ناوله للخادم فاخذه وسار حيث كانت عزيزة على قدم انتظاره فتناولت المكتوب وما كادت تفض غلافه حتى دخلت عليها والدتها وفاجأتها بقولها ها والدك قد ابتاع لك ثوباً ثميناً منسوجاً بخيطان الذهب والفضة عربوناً على انصياعك لامر الزواج · فتنهدت عزيزة وهزت راسها قائلة حقيقة ان الدنيا غرّارة تضحك على عقول ابنائها وقلب الانسان خفيف فدعيني يا والدتي واطرحي ثوب مرضي ظهرياً وانظري لثوب حياتي قبل ان يخامنيه عزمكما القاتل · فرجعت والدتها على عقبيها ولم تجبها بشيء وحملت ذلك الثوب الى زوجها واخبرته بالامر ولكن بتلطف حتى لا ياخذه الغضب على ابنته وقد قال لها دعيها وشانها فرضاءها لا قيمة له عندي الآن ولم يعد في امكانها الخروج من المنزل حتى يتم عقد زفافها

وعلى هذا المنوال جرى الاخذ والرد وكثر الهجر والصد وعزيزة لا ترى من حبيبها سوى رسائل ودية وهو لا يرى منها الا الفاظ عسجدية وقد استعد كليهما للموت وتواعدا على الانتحار ليلة الزفاف · وهكذا توالت عليهما صنوف البلايا وصار كل لا يترك فراش مرضه حتى دنا ميقات الافراح واخذ والد عزيزة يرتب معداته ووقف في صحن الدار مع الفراشين يرسم لهم مواضع الزينة وفي التو شعر بصداع والم في الاطراف فترك الجمع بعد ان وعده باتمام الامر في اليوم الثاني ودخل غرفته ولازم فراشه وبعد قليل اشتدت عليه الحرارة وكثر القيء والاسهال واستلقى على ظهره غائب الوعي فتسلط الوهم على زوجته وامرت سعدا باحضار احد الاطباء فخرج ولم يلبث قليلا حتى عاد ومعه الطبيب فدخل عليه واخذ يبحث في مرضه طويلا وبعد ذلك قرر انه مصاب بالحمى التيفويدية وامر بنقله الى غرفة فسيحة تفتح نوافذها على الدوام لتجديد

الهواء مع نزع الكلة (الناموسية) عن السرير حتى لا يتعرض شيء لنقاوة الهواء . وفي الحال حرر تذكرة بالدواء وامر الخادم باحضاره من بعض الصيدليات ولم تمض بضع دقائق حتى حضر الدواء فاخذه وناوله للمريض واوصى ان لا يطعم الا باللبن الحليب ومسح جسده بالماء البارد كل ساعتين او ثلاث ثم خرج و بعد قليل اشتدت الاعراض على المريض وكثر الاسهال والنزف الدموي . وهكذا مكث اسبوعاً حتى صارت لحيته قريبة من صدره وترددت عليه الحكماء واختلفت الادواء ولكن لم تنفعه حكمتهم ولم يمهله المرض غير تلك المدة واختطفته المنون في الساعة الاولى بعد نصف الليل وكانت عزيزة اذ ذاك تحت سريره فشقت ثيابها وتبعتها والدتها وقد احترقت قلوبهما لهذا الخطب العظيم والرزيء الجسيم وما انتشر خبر وفاته حتى توافدت الناس على ذلك المنزل وفي الصباح احتشدوا بتشييع الجنازة باحتفال دلّ على علوّ منزلته في القلوب وقام كامل حينذاك من فراش عذابه وزاحم القوم في حمل سرير الجنازة حتى وصل الى مقبرة الامام الشافعي رضى الله عنه وظل هنالك حتى واروه التراب ورجع الى بيته وخلع ملابسه وارتدى بغيرها اخفت زيه عن اعين الرقباء وعاد الى منزل حبيبته واندمج في سلك الفراشين والخدم وصار يؤدي معهم خدمة العزاء حتى ظهر اليوم التالي تفرس فيه سعدا فعرفه وقال له ما هذا الحال يا سيدي ولم تتنازل الى هذا الحدّ فقال وكيف لا اتنازل لأقل مما رايت وحبيبتي الآن اكثر مني ذلاً وقد اردت ان اقاسمها في احزانها واخدم الوفود في الخارج وهي تقابل المعزيات في الداخل حتى لا تسبقني بشيء من الاكدار والمتاعب وفي الحال دخل الخادم على عزيزة واخبرها بحالة حبيبها فدخل قلبها حزن على احزان ومصائب على نوائب

واستمر الحال على هذا المنوال حتى انقضت ايام العزاء ورجع كامل الى منزله وظلّ الحزن شاملٍ بيت الفقيد نحو الستة شهور كان كامل وعزيزة يحسبان في خلالها للمستقبل الف حساب ومرّ عليهما عيد الفطر وهما في واد والعالم في واد آخر كل ذلك وعزيزة لاتجسر على مكاشفة والدتها بما في ضميرها خوفاً من غضبها وسخطها الى ان دخلت عليها وصارت تخفف عنها صروف الاحزان وخافت عليها ان تلحق بابيها وهي لاتعلم ان في قلبها احزان وليس بحزن واحد وقالت لها افيقي لنفسك يا عزيزة فكلنا في هذا الميدان متسابقون وانا لله وانا اليه راجعون · واني من الآن عدلت عن زواجك بهذا الزوج المشؤوم الذي انقلبت افراحه اتراحاً ولبسنا من الحزن ثوباً جديدا ويهمني يا عزيزة ان اعرف علة اضطرابك كلما يعرض عليك زوج جديد وبصريح العبارة فقد يكون قلبك مشغولاً باحد الشبان · عندها صبغ الاحمرار وجه عزيزة وركبها الخجل وبعد صمت طويل قالت ومن اين علمت ذلك يا والدتي فقالت لها علمني الدهر يا عزيزة فهو احسن استاذ وقد اوصلتني المراقبة لمعرفة هذا الامر فان المراقبه ترى الانسان امور كثيرة يجهلها فاخبريني يا عزيزتي عما يخالج افكارك فكل انسان حرّ في ضميره وعسى ان يكون الشاب الشاغل لك شريف النفس طيب العنصر فيعول امرنا ويحمل همنا · فتنهدت عزيزة وقد رأت من والدتها اخلاصاً في القول وسلامة في القصد وقالت لها ان بيت آمالي وسبب سقامي هو حبيبي ....

من هو ياعزيزة ولا تخافي شيئاً

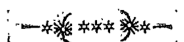
هو كامل يا والدتي العزيزة

عندها ظهرت علائم السرور على جبين والدتها وقالت نعم الزوج يا عزيزة

ولماذا كتمت الامر عنا كل هذه المدة ووالدك رحمه الله كان يعز هذا الشاب و يعظم قدره لطيب اصله وحسن فرعه وكان صديقاً حميماً لوالده فعليّ بسعد حتي ابعثه في طلبه واحادثه ملياً . فقامت عزيزة على قدميها وقد خرجت الاحزان من قلبها والقت رداء الاكدار عن كاهلها وكادت تطير فرحاً كأن والدها عاد من قبره وطلبت سعداً فلم يلبث ان حضر وارسلته والدتها في طلب كامل وخرجت تنتظر قدومه في غرفة الزائرين حتى اقبل يسابق الريح ودخل عليها مرفوعاً على اكف السرور فقابلته بالاكرام واجلسته بجانبها . و بعد قليل التفتت اليه قائلة ما بالك يا كامل قد انقطعت عن زيارتنا في هذا الزمن بعد وفاة المرحوم والدك فقال لها والاضطراب يكاد يوقف لسانه ان الظروف لم تساعدني يا سيدتي والدواعي عليّ كثيرة وارجو منك العفو على قصوري فقالت عليك الآن بمداومة زيارتنا لتنظر شؤون بيت عدم ربه — عندها سالت الدموع على خديها ومكث كامل يلاطفها حتى رجعت الى سكونها واما هو فلم يمهله غرامه ريثما تتم حديثها حتى جثى على ركبتيه اما مها قائلا الك في انقاذ حياة شاب كاد والله يموت اسى ولوعة فاسرعت واجلسته على متكاء وقالت له ما هذا الحال يا كامل فقال يا سيدتي غرام اوردني موارد الهلكة فارحميني وحقك باطفاء ناره واجمعي بيني و بين سيدتي عزيزة التي سهرت لاجلها اشهرا واعواما وعرفت ما هو الذل في غرامها وارتكبت متن الاخطار في سبيل هواها . فقالت مرحبا بك يا كامل وانت في حل من ذلك فمثلك من تصان به الاعراض وتتشرف به المنازل فطب نفساً وارتح ضميراً و بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم يكون اقترانك بها ليعمر المنزل بوجودك . فما اتمت كلامها حتي انقض كامل يقبل رأسها وخرج يطير فرحاً وزف على والدته

واخوته تلك البشرى واما عزيزة فكأنها ملكت مفتاح السماء بيديها ومكث كل منهما وقد نسي اتراحه يعد الايام والساعات حتى انقضت تلك المدة وطلع نجم سعدهما وجرت صيغة العقد بغير احتفال مراعاة للحداد ودنت ساعة الاجتماع فدخل عليها وتمتع بنور محياها وقد ثمل كل منهما بخمرة محاسن الآخر كأن لا رجال ولا نساء في العالم سواهما

تمت



تقاريظ

قد تفضل علينا فريق من حضرات العلماء الفضلاء والكتاب الادباء بتقريظ روايتنا هذه ولضيق المقام اكتفينا بنشر البعض منها اثباتاً لفضلهم

وهذا ما سطره يراع حضرة الكاتب الفاضل والمنشىء البليغ محمد افندي ابو المجد مدرّس اللغة العربية بمدرسة النحاسين الاميرية

اشموس قد تجلت للانام ام بدور قد اضاءت في الظلام
ام رياض في الروابي ازهرت مذ سقاها سيب مدرار الغمام
فنسيم الصبح ان يرد بها ينعش الارواح بل يبري السقام
ام لآل رصفت حتى بدت كالدراري في صفاء وانتظام
ام عروس في حلاها جليت في جمال وبهاء وابتسام
ام معان قد كساها بهجة حسن لفظ شبه درّ في انسجام
اعربت عن منهج الحب وقد اوضحت عقبي التصابي والهيام
صاغها الشهم «عليّ» من سما ورقى مرقي المعالي في الانام
وحباها اللطف من افضاله فهو «لطفي» خير من يرعى الذمام
يا لها سحراً حلالا راقنا وكفانا حشو كاسات المدام
وازاح الشك عن فعل الهوى واماط الستر عنه واللثام
سرّح الانظار في ارجائها وتامل فعل ابناء الكرام
تابعوا اهواءهم حتى غدوا في قيود الاسر او «ذل الغرام»
وانظر العقبى وهذا شرحها تلق شمساً قارنت بدر التمام
وجميل الطبع طبعاً يشتهي وجمال الشيء يحلو في الختام

وهذا ما ورد لنا من حضرة الفاضل النجيب والشاعر الناثر اللبيب الشيخ محمد حامد بمدرسة دار العلوم الخديوية

اني وعهد غرامي لم ازل اشدو	ولست انسى الهوى ما زاد بي الوجد
لي في الزمان اصطبار والحبيب له	في الوصل ذلّ ولو والهجر والبعد
(ذل الغرام) وان زاد الهيام به	لكنه العز والعلياء والمجد
اعد عليّ حديث الحب ان له	عندي اريجاً شذاه العطر والند
وكيف لا و « عليّ » الفضل اتحفنا	بدر نظم نضيد نعم ذا العقد
اهدى المحبين طرّا حسن فكرته	وقد اتى بمعان كلها القصد
رواية تستميل القلب بهجتها	وتستحق ثناءً ماله حد
لو اطرقت سمع سحبان انثني خجلاً	وقال منشيء هذي انه الفرد
فليهنأ العشق ما لاقى المحب أسى	من الحبيب ولو افضى به الصد
وانني حامد بالفضل معترف	وحق بالطبع مني الشكر والحمد

وهذا ما تفضل به علينا خدن النثر وسيد الشعر حضرة الفاضل العالم احمد افندي سالم مدرس اللغة العربية بمدرسة محمد علي الاميرية

هيّا لراوي الهوى يروي لنا خبراً ذل الغرام له قد كان مبتدآ

فاحسن ما يعيه سمع الاديب ويحفظه لب الاريب واحلى ما يتباهى به اولى اليراعة ويتسامى له ذو البراعة الفكاهات الادبية والملح الغرامية مما يتسلى به العشاق ويتمسك باهدابه الرفاق من حسن الوفاء وجميل العزاء على مناوات البين لنفوس المحبين وما يتجرعه المحب من مرارة الصبر الذي هو احرّ من الجمر وان اسمي ما يستفز الالباب من هذا الباب المستطاب

الروايات التهذيبية وما حوته من النفائس التأديبية لما لها من التأثير على النفوس الابية بالخضوع لاحكام الهوى . والرضوخ لذل الجوى، عند شرح الحال وما كان من المآل وما يتخلل زمان الوداد مما يصدع الفؤاد وتصطك له الاسماع عند ذكرى الوداع في موقف يستميح العذول عذراً ويستمنح الهائم صبراً ويسترق الاحرار لرقيق مغانيه ولطف معانيه ويهدي الخالي الى البعد عن شراك الغرام ولوعة الهيام ويسترحم الرفيق لمساعدة الصديق عند الشكوى وبث البلوى كما قيل

ولابدّ من شكوى الى ذي مروءة　　　يواسيك او يسليك او يتوجع

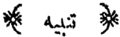
وناهيك ما يسر النفوس ويطرب القلب العبوس من اللقاء بعد الشتات ومعانقة اللذات وشكوى المحبين ونثر عقود البين وتذكار العهود والمحافظة على الحدود وجرّ ذيول العفاف ومجانبة الخلاف وصدق الولاء بين الاوداء ومما يتحلى به صدر الزمان ويتجمل به بال الانسان واسمى ما يسمو له الانام رواية (ذل الغرام) من ابكار افكار الاديب والزكي الاريب من لا يحيط به وصفي الهمام علي افندي لطفي فياله الله من مؤثر على القلوب القاسية والنفوس القاصية فانه حفظه الله هدانا بمؤلفه النفيس واهدانا به غصناً يميس في روض الاداب مما لذ وطاب واكل القارىء لسلامة ذوقه وصحة عقله في تأييد ما حققته وتعزيز ما سطرته عند ما يسرّح نظره في رياض مجانيها ومغاني غوانيها وتصل به الغاية وتسمو به النهاية الى معانقة المحبين وقطع حبل البين ويتمثل له لسان الحال بحسن المقال

فيابرد اللقاء على فؤادي　　　اجرني اليوم من حرّ الفراق

وهذا ما ورد لنا من حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد محمد الشربتلي محرر جريدة النهج القويم

احمد باسط الجمال على مظاهره و [illegible] ذليل مصدره واصلي على مادّته ومنظره واسلم عليه وآله وتابعيه ومن هو في مرآة الكمال مستجليه ﴿ اما بعد ﴾ فقد ساقني القدر الى ان نظرت في رواية سطرها يراع مجيد بطرس حميد وفكر سنيد لجمع الشريد من غزال معنىً طريد او قوام مبنىً قعيد فاستمالت عواطفي نحوها بسحر بيان واسحر عرفان فعنّ لي ان اتصفح بعضها او جلها فما اتممت بعضها حتى افاد كلها فعلمت ان الصانع محمود وفي سمط اللطف مسمود فسألت عنه اذ سالت من عيون ضميري عيون الوله لكن لم اكن بمن كلمه الضد الاسمى عن المقابل العلى (فاسمها ذل الغرام وهي عز الاقلام ووجهة الافهام) كيف لا ومنشؤها الوحيد والفاضل الوحيد ابن الادب وابوه وحميم العلم وحموه ولسان الفضل وفوه وعنوان هذا المشتمل الجامع المتبادر الى ذهن السامع وان كان هو الموفي الفاضل علي افندي لطفي احد الكتاب المهرة بنظارة المالية حفظه الله ومنّاه بحسن المستقبل ومناه

وحاصل الامر فهكذا تكون الخدمة الادبية وهكذا يكون بناء المنشئآت العلية عن العواطف القلبية فنقدم لحضرته شكرا على هذا الصنع الجميل اذ لسنا ممن يبدي نكراً عليه وهو جليل ونرجوه صفحاً عن ايجاز توخيناه في تقريظ قدمناه وما التوفيق الاّ بالله



﴿ تنبيه ﴾

نستميح القراء عذرا فيما فاتنا سهواً في التصحيح

رواية

معاناة الغرام

لمؤلفها

الفقير اليه تعالى

نجيب كنعان

طبعت بالمطبعة الوطنية وجريدة السرور بالاسكندرية

نقولا عبد المسيح

مقدمة

الحمد لله الذي جعل الروايات ينبوعاً ترشف من ذلال ماءه الفكاهات والآداب . وبحراً تمخر في عبابه جواري الافكار فتدرك بعض اخبار من تقدم في سالف العصور والاحقاب . امابعد فيقول الفقير الى رحمة مولاه المنان نجيب بن درويش بن كنعان اني اذ رايت اكثر شبان عصرنا الحميدي الطالع المتلالي بنور سمو عباسه الجلي الساطع . منصبين على تاليف الروايات الادبية او ترجمة بعضها من اللغات معانين الاتعاب في تلبيسها اثواباً قشيبة من منسوج لغتنا العربية . غير مبالين بما يعانون او يبذلون . لان افادة ابناء وطنهم وجلدتهم هي جل ما يقصدون . وتفكهة خواطرهم هي المحجة التي اليها يتجارون ويتسابقون فاقتفاء لآثار هولاء الافاضل الكرام . قد عنيت في تاليف روايتي هذه وسميتها مشأناة الغرام . سالكاً بها مسلك الروايات الافرنجيه متخذاً اسماء اشخاصها المنسوبة اليهم من اللغة الافرنسية وابرزتها من حيث الفكرة الى عالم الوجود . فجاءت والحمد لله باكورة فكر وافية بالغرض المقصود . هذا مع اعترافي باني لست ممن يحسنون الخوض في مثل هذه الاعباء واني لقاصر عن ادراك شأو الادباء

(الفصل الاول)

في الرسالة المفرحة

انه في صبيحة احد الايام كان شاب طويل القامة جميل الوجه يتنزه على شاطي احدى بحيرات غابة بولونيا اليانعة الكائنة بالقرب من مدينة باريز الزاهرة وكان مرتدياً بثياب فاخرة جميلة وعلى راسه قبعة سوداء وعلامات الكآبة والحيرة بادية على وجهه . فكان تارة يجلس على احدى المقاعد المصفوفة حول البحيرة واخرى يقف متحيرًا ناظرًا الى الطريق المؤدية الى المدينة كانه ينتظر قدوم احد اليه . وفيما هو كذلك اذا بامرأة تناهز الخمسين سنة تخللت تلك الاشجار الكثيفة واقبلت تهرول اليه فلما راها تهلل وجهه فرحا وقام لاستقبالها وقلبه يخفق خفوقا عظيماً فادركت المرأة شدة قلقه وفرط اشتياقه لاستطلاع اخبار سيدتها التي بعثتها اليه ولكنها قبل ان تبادئه بالكلام اخرجت من جيبها رقعة مختومة ودفعتها اليه قائلة ان سيدتي تقرئك السلام وترجوك عدم التاخير عن مقابلتها هذا المساء لانها لم تذق بالامس مناماً لشدة تاثرها من مقابلتك الغير اعيادية في الحديقة وكادت ان تهتك من اجل حبك لو لم اتدارك ذلك واحذرها شر العاقبة

— آه يا جرتريد اخبريني ناشدتك الله هل اطلع احد على ما نحن به

— كلا ياسيدي ولكن . . . ولكن ماذا فهل جد لها ما كدرها

لم يجد شي من ذلك غير اني ارجوك ان تاخذ لنفسك الحذر عند قدومك لئلا يراك احد من الخدم فيخبر والدها فينفضح امرنا ونقع في ورطة وخيمة . وفوق ذلك فانك لا تعود تتمكن على ظني من مشاهدتها مرة اخرى لانك اخبرتني بان طبع سيدي الكونت مازار والدها استودعك الله اذا وعهدنا باللقاء قريب ان شاء الله

ليس اللقا بقريب ياجرتريد ولكنه صعب وبعيد المنال اما انا فاني مستعد لبذل روحي في سبيل هواها ولا ابالي بوعيد والدها او تحذيره وكل من تصدى أو عارض في هذا الامر اوردته موارد العطب وفيما هو يتكلم سقطت الرقعة من يده لشدة افتعاله فالتقطتها جرتريد ووضعتها في جيبه بدون ان ينتبه اليها او يشعر بها وقالت له اقرا اولاً الرسالة ياسيدي وافعل بعد ذلك ما تريد فان الامر مسلم اليك وسيدتي طوع امرك وما ثم موجب لهذه الانفعالات النفسانية فسكن جاشك اذًا والمناء قريب

اني ساتجلد بقدر استطاعتي واسعى جهدي وراء بغيتي ولكني بحاجة كلية لمساعدتك فانك انتِ العارفة بدخيلة امرنا دون سواك ويمكنك ان تبلغيني اربي اذا شئت فقومي اذًا بحق هذه الخدمة احسن قيام ولك مني اوفر الجزاء

اني خادمتك المطيعة يامولاي وامر سيدتي يهمني اكثر مما يهمك لانها ولية نعمتي وكلما تامرني به فاني افعله عن طيب خاطر اكراماً لذاتها فارجوك اذًا ان تسمح لي بالانصراف لئلا تقلق سيدتي لغيابي وانا رهينة امرك ما حييت ثم انها احنت له راسها تادية لواجب التحية وانصرفت تهرول من حيث اتت وعينا الفتى تتبع خطواتها حتى توارت عنه بحجاب تلك الغابة الغناء وبعدها جلس على مقعد واخذ يتامل فيما سيؤول اليه حاله اذا لم تتمكن الصبية من مقابلته حسب وعدها وما هي الوسائط الواجب اتخاذها بعد ذلك للوصول الى الغاية المقصودة . وكانت الشمس اذ ذاك في كبد السماء تخترق اشعتها عباب تلك الغابة وانبسطت على سطح مياه البحيرة فاكسبت لجينها طلاوة تسر الناظرين ثم ادخل الشاب يده في جيبه لياخذ منديلاً يمسح به عرقه المنصب على جبينه

الوضاح فمدت يده على الرقعة التي اتته بها الخادمة فتردد اولا في فتحها لئلا يرى بها ما يزيده قنوطاً عن الوصول الى مالكة لبه غير انه تجلد اخيراً وشرع يخاطب ذاته بذاته قائلا · ويحك يا ادوارد اما انت المشهور بين شبان باريز بالبسالة والاقدام فما الذي تخشى وقوعه او ما الذي يمنعك عن فتح هذه الرسالة العزيزة على اذا كانت ليونتين غير راضية عنك وان حبك مالك قلبها لما كانت تراسلك فما الذي تخشاه اذاً أوعيد والدها ام عدم رضا والدتها باقترانك بها مهما كان الامر صعبا والموقف حرجا فلا بد من الفوز بالمرغوب فما هذه التخيلات اذاً ·· وعقب ذلك فتحها بيدين راجفتين ولم يكد نظره يقع على امضاء حبيبته حتى سالت دموعه وصاح لشدة وجده واحبيبتي ليونتين

حتى متى هذا الصدود ومهجتي كادت تذوب وادمعي تتدفق

جسمي براه الشوق من الم النوى فتاملوا حال المشوق وحققوا

ثم انه شرع في تلاوتها واذا مكتوب فيها العبارة الاتية

عزيزي الوحيد ادوارد انى كلما تاملت محاسنك وعظيم شهامتك اهتز طربا واكاد اطير اليك شوقاً واذ كنت لا اقوى على بعادك ارسلت اليك خادمتي بهذه الرسالة استعطف بها خاطرك لزيارتي هذه الليلة عند الساعة التاسعة حيث اكون بانتظارك في الجهة الغربية من الحديقة ولي كلام ابديه لك عند المقابلة واني اقبلك بلهفة زائدة واهديك خالص ودادي عزيزي اسيرة حبك ليونتين

فلما اتمها وراى خلاف ما كان يتصوره امتلا صدره سروراً وشرع يقبلها ويراجعها المرة بعد الاخرى قائلاً · هذا المساء ··· الساعة التاسعة ·· نعم ·· نعم

حان اللقا بحبيبتي فلي الهنا ان المساء وحقها لقريب

ثم قام لوقته وخرج من الغابة وعوامل الافكار تشاغله فصادف عربة مقبلة من داخل الغابة واذ كان ليس بها احد ومعدة لركوب العامة بادر الى امتطا صهوتها امرًا السائق بان يذهب به الى منزله الكائن بشارع بولفاردي مادلين وعند وصوله نقد الاجرة للسائق ودخل قصره واذا به يسمع صوت والدته قائلة ·
اين كنت للان يا ادوارد وقد خرجت في باكرة النهار دون ان تتناول افطارًا

— لا يقلق فكرك لذلك ياوالدتي فاني ارقت هذه الليلة ارقاً عظيماً · فخرجت الى غابة بولونيا استنشق ريا ازهارها الباهرة لعلي اتمكن من النوم بواسطة هذه الرياضة بعد مناولة الغذا

— ولما ذهبت ماشيا ومنفردا فلو انك ايقظتني لصاحبتك في هذه النزهة الجميلة على ظهر عربتنا الخصوصية

عفوًا ياوالدتي فاني لم اكن اعلم ذلك ومع كل فالايام بيننا والذي فاتنا اليوم لا يفوتنا في الغد

هلم الى المائدة الان فان الوقت قد ازف واني على يقين بانك ستنام بعد ذلك نوماً هنيئاً

ثم ذهبا وتناولا الغذاء ودخل كل حجرته لاخذ الراحة في النوم · غير ان ادوارد لم يكد يستقر به الحال حتى قام ولبس افخر ثيابه وتفوق بالروائح اللطيفة ورتب شعره وخرج يقتل الوقت في مطالعة الجرائد باحدى القهاوي القريبة من منزله منتظرًا بفروغ صبر حلول الساعة التاسعة المعينة لمقابلة محبوبته

﴿ الفصل الثاني ﴾

في المقابلة

لا بد ان يكون القاري اللبيب متشوقاً لمعرفة هذا الفتى وكيفية عشقه لهذه الفتاة فنقول . ان ادوارد المذكور كان من عائلة عريقة في المجد بباريز وكان والده واسع الثروة طائر السيط يدعى الكونت فورت دي جاك ولكونه ممن احسن والداه تربيته هذباه تهذيباً حسناً حتى شب على مكارم الاخلاق وعلو الهمة . وكان لهذا الكونت صديق حميم يدعى الكونت مازار يماثله في الثروة والغناء وله ابنة حسناء تخجل البدر ليلة تمامه معتدلة القوام رشيقة القد قاعدة النهد نجلاء العينين قاعدة النهدين حمراء الوجنتين تفتن كل من رآها واسمها ليونتين ولم يكن عمرها اذ ذاك يتجاوز الثالثة عشر سنة

وكان ادوارد يتردد كثيراً الى بيت والد الصبية مع والديه عند الزيارة وفي اثناء تلك الزيارات تحمر وجنتاه عند ما يقع نظره على ليونتين الفتانة ويشعر بميل وانعطاف كليين الى تلك الغانية الجميلة ويود ان لا يفارقها طرفة عين شان المحب الولهان . ولم يزل شغفه بها يزداد يوماً فيوماً حتى صار لا يقوى على مفارقتها دقيقة واحدة ولم يكل ليعلم والده بكل ذلك خشية ان ينهاه وينهره بدل ان يسعى في اقترانه بتلك المحبوبة وضاق لذلك صدره وعيل صبره وتحير في امره ولم يعد بامكانه كتمان هواه فصار يغافل والده ويتردد الى بيت الكونت ليشاهد فاتنة لبه واستماع حديثها ويرجع الى بيته مبلبل الافكار نشواناً من خمرة الغرام

اما ليونتين فلم يكن شغفها به باقل من شغفه بها وكانت كلما ارادت ان

يادله عبارات الغرام يمنعها الخجل وطالما اجهدت نفسها لتقتناص من الوقوع في شرك الافتضاح فلم تقدر بل كان حبها له ينمو من وقت الى اخر نمواً سريعاً فلما راى والدها ذلك استدعي لها الطبيب فاعطاها بعض مقويات غير انها لم تات بفائدة . وكانت مع ذلك صابرة على مضض الغرام غير مكاشفة احداً على اسرارها ولما طال بها الامر ورأت محبوبها قد انقطع عن زيارتها دعت اليها خادمتها جرتريد وقالت لها بصوت يقطعه الانين . اعلمي ياجرتريد اني ارغب ان اعرض عليك امرا اعياني كتمانه فان كنت تساعديني على السعي في الوصول الى الغاية المقصودة جازيتك احسن الجزاء ولو لم تكن ثقتي بامانتك ومحبتك لي عظيمة لما كنت اطلعك على ما ساطلعك عليه

— وما عساه ان يكون هذا الامر ياسيدتي فافصحي لي به وانا لا اتاخر عن بذل مهجتي في سبيل الحصول عليه وانت اخبر بحال خادمتك جرتريد التي تربيت على ذراعيها وسبرت غور امانتها وكتمانها الاسرار فبوحي اذا بسرك ياسيدتي ولا تخافي في اذاعته فاني احرص منك عليه

— ليس الامر مما يعسر عليك نواله ياجرتريد ولا هو بموجب لبذل روحك او خلافها ولكنه . . . آه . . . فياليت والدتي تجيبني اليه فانه هو هو وحده الذي جلب لجسمي هذا النحول ولوجهي هذا الاصفرار فاخبريني الان هل تساعديني على نواله .

وكانت الخادمة تسمع كلامها وتبكي لبكائها وعزمت من كل قلبها على مساعدتها فاجابتها قائلة . اني قلت لك لا ابنتي ولا ازال اقول باني رهينة امرك في كل حين . ولا اتاخر ابدا عن بذل ما يمكنني من المساعدة على نوال ما

ترغبين فدعي عنك اذا هذا البكـــاء وبوحي الي بذلك السر الذي ذهب بنضارة وجهك الفتان وتجلدي قايلا لعل الله ياتيك بالفرج على يدي ·
فتنهدت ليونثين من فواد جريح واجابتها ودموع العين تنحدر من اجفانها المراض على صفحات خدها الاسيل كا للوءلوء المنظوم ·آه ياجرتريد ·· لو ··· ع علمت مقدار ···· م محبتي ·· لادوارد ·· لعزرتني ··· فانه المحب الوحيد فقاطعتها تلك لقولها ادوارد ونعم الفتي احببت ياابنتي فانه بالحقيقة جدير بالمحبة فانا لا الومك في ذلك لانه فتى نبيل وذو شهامة عظيمة وشرف باذخ ولكن هل هذا ما يبكيك فقط · وهل يعلم ذلك

ـ لالا فانه غير عالم بشي منه اذا لم يتيسر لي اطلاعه على باطن الامر وكم من مرة عزمت على مكاشفته به فيمنعني الخجل · ولكني ارى محبتي له تزداد يوماً فيوماً وقد عدمت الحيلة وفرغت جعبة صبري فما العمل اذن دبريني ارشديني انجديني ياجرتريد فانا لم ادعك الا لاستعين بك على ذلك لعلك تكونين سبباً لاجتماع شملنا · وانت عالمة بانه كان يتردد كثيرا الى ههنا واراه الان قد انقطع دفعة واحدة عن زيارتنا منذ اسبوعين تقريبا ولم ادر لذلك سببا ولعله علم بما حل بي من اجله فانف مني

طيبي نفسا ياابنتي وقري عينا ودعي التدبير لخادمتك جرتريد وانا على يقين من حضور حبيبك هذا المساء الى ههنا لاني رايت منه ميلا عظيما اليك ولا بد ان يكون لانقطاعه عن زيارتنا سبب موجب غير اني سابذل جهدي في استطلاع خفيات افكاره فان رآيت منه الميل اليك كما ظننت ابحث له بامرك على انفراد ولا اظنه يتاخر عن مقاسمتك هذا الغرام لانه

لوطاف الدنيا باسرها فلا يجد عروسا كملت محاسنها وتوفرت ثروتهـا وطارت شهرتها نظيركِ فانبذي عنك هذه الهموم اذا وهلم بنا نقضي بقية يومنا في الحديقة وعند المسا يفعل الله ما يشا

وبعدئذ سارتا الى حديقة فيحا محيطة بالقصر من اربع جهاته وجلستا على مقعد بجذا بركة في وسطها نوفرة تقذف الماء الى ارتفاع اربعة امتار فيتساقط كمنثور اللؤلو ونوافح الازهار تنبعث من كل جهة والطيور تغرد باصواتها الشجية فتفني الهموم وتذهب بالاتراح · اما ليونتين فلم يكن يروق لها شيء من ذلك بل كان همها يتضاعف ونيران وجدهـا تزيد استعارا وكانت الخادمة تبذل قصارى جهدها في تسلية همومها واخماد نيران وجدها فلم يجدها ذلك شيئاً وفيما هما كذلك اذا بوقع اقدام طرق اذانهما من جهة باب الحديقة فانزعرتا وهمتا بالقيام واذا بشاب رشيق القوام جميل المحيا نزع قبعته وانحنى راسه امامها وحياها بافصح عبارة · فرجف لرويته قلب الابنة وتجلدت فلم تستطع فصاحت بملء صوتها ادوارد حبيبي الا ما ابركه من مسا ورمت نفسها عليه · اما هو فتقدم برشاقة واخذ يدهـا وشرع يقبلها قائلاً حسبي يامولاتي نوال رضاك وبعد فسيان عندي مت ام حييت · اذ قد كفاني ما احتملت من غصص الوجد والغرام فاضر بي كتمانه وعدمت الراحة وكلما قصدت التمسك بعروة الصبر ارى عوامل المودة تدفعني باكثر قوة الى الامام ويهون عليَّ كل عسير فاليت على نفسي اخيرا ان ادخل غرفتك واعلمك بحالي حتى اذا وجدت سولي حجابا بت قرير العين وحيث قد تيسرت لي مقابلتك هنا فارغب اليك ان تصرحي جليا عما اذا كنت

زاضية عن حبي هذا اذ سعادتي مقرونه برضاك فقط

فاجابته ليونتين وهي قابضة على يده بكل قوتها

اهابك ان اشكو اليك مصيبتي فلا انا ابديها ولا انت تفهمُ
فان كنت لاتدري فتلك مصيبة وان كنت تدري فالمصيبة اعظمُ

وقالت جرتريد هل عندك شك في ذلك يا ادوارد فانا اعلم الجميع بمحبة سيدتي لك فانا امست لايطيب لها عيش الا بقربك ولا يحلو لها حديث الا بتكرار ذكرك وقد كنت اجهد نفسي في استطلاع خفاياها لاعزيها عما هي به من الغم وكثرة الافتكار فذهبت اتعابي سدى . فامعن النظر فيما عملته ايدي الوجد في تلك المحاسن العديمة النظير في هذا العالم كيف علاها الاصفرار فما بالك لاتفقه اليس ذلك لفرط حبها لك . ولماذا امتنعت عن زيارتنا دفعة واحدة ياقاسي الفواد او لم لمَ تكاشفني بغرامك كما كاشفتني هي اخيرا حتى كنت اسعى باجتماعكما واكفي سيدتي شر ما اصابها

ليت ذلك كان بامكاني ياسيدتي . وانقطاعي عن زيارتكم لاسباب لا اود ذكرها الان ولكن دعونا نجلس بمكان متوار خشية الرقيب واذ ذاك اقص عليكما كنه الامر ثم وضع يده بيد محبوبته وتوغل بها في الحديقة تتبعهما جرتريد الى ان بلغوا شجرة صفصاف وارفة الظل فتفيأوا بها وشرع ادوارد يسرد قصته فقال . اعلمي ياعزيزتي انه في اليوم الثاني لزيارتي لكم اتى والدك وسال ابي ان يدفع له قيمة ماية الف فرنك اقترضها المسيو بوبين بضمانة ابي ولما كان المسيو بوبين من التجار الموثوق بهم طلب والدي من والدك مهلة يومين يستشير في اثنائها

المستدان المذكور فيما يرغب حتى اذا لم يتيسر لديه ما يكفي لسداد المبلغ قام والدي بسداده · اما الكونت ما زار فابى الانتظار وتهدد والدي باجراء البورتستو عليه اذا لم ينقده المبلغ فورا فعندها استشاط والدي غضبا وانقده المبلغ بعد ان اسمعه ما يهينه فخرج والدك وهو يكاد يتميز من الغيظ اما انا فتاثرت جدا من هذا الحادث الغير المنتظر ولعنت سوء حظي ولمت نفسي على تهورها في لجة المحبة وقصدت ردعها فلم استطع وخشيت ان اخبر والدي بامري فلا ينالني منه سوى الاهانة فعزمت اخيراً على قرع وصاد حبيبتي حتى اذا نلت رضاها هان الامر لديَّ ولا اعود اخشى لومة لائم

لله درك على هذه الشهامة التي امتزت بها عن نظرائك ولكن لعن الله الدراهم فما اكثر شرها فانها تفرق بين الاخ واخيه فدع والدي يجمع و يكنز و يفعل ما يفعل وقل لي بحق الهوى هل تحبني كما احبك

وقف الهوى بي حيث انتِ فليس لي متاخر عنه ولا متقدم
اجد الملامة في هواكِ لذيذةً حباً لذكركِ فليلمني اللوْم

كيف لا وجوارحي كلها مضطرمة بنار حبكِ · وان كنتِ بحاجة الى البرهان فامعني في النظر تري في وجهي نبأً صادقاً وشاهداً عدلا الا ترين المجاري التي فتحها الدمع في صفحتي خديَّ والنحول الذي اعتراني فانا لا اطلب من الدنيا شيئاً سوى قربكِ فهل تجيبيني اليه

فقالت له جرتريد · وكيف يتم ذلك ووالدكما مختلفان فهل من وسيلة تسهل لكما هذا الامر برضاها

فاجابها ادوارد وهل تظنين بان والدينا يعارضان في مثل هذا الامر المتوقف عليه حيوة كلينا واذا عارضا فلا ينالان فائدة لان الحب قد اوثق قلبي بحبل متين لا يفصم عروته الا الموت

فقالت له الابنة اننا في هذا الامر سوا ومن الان صرت ارى كل شيء هين البزل في سبيل حبك الذي لا ينفصل الا مع انفصال روحي

فقالت لها جرتريد بلغكما الله مبتغاكما وجعلني من السوء فداكما اما الان فلا بد من الافتراق لان الشمس قد صارت على وشك المغيب وقرب مجي سيدي الكونت

ويحك اجابتها ليونتين فانا لم نكد نجتمع بعد فكيف ترغبين افتراقنا ثم رمت نفسها على عنق ادوارد وشرعت تقبله قائلة اعزرني يا عزيزي اعزرني فاني قتيلة هواك . فعانقها الفتى عندئذ قائلاً اما انا فعندي اضعاف ما عندكِ يا عزيزتي

ولكن للضرورة احكام واخشى ان يعارضنا الدهر ويابى والدك اجابتي اذا طلبك منه لما حصل بينه وبين والدي اخيراً اموت اذا . اموت ضحية حبك يا ادوارد وانهلت دموعها . فتنهد الفتى عند ذلك واجابها بلهفة

نفسي فداكِ حبيبتي لا تجزعي ودعي العوازل يقضمون حديدا

والان ارجوكِ ان تسمحي لي بالانصراف قبل ان يحضر والدك وفي الغد احضر لزيارتك في مثل هذه الساعه اذا رغبتِ

وان ارسلت لي خادمتك هـــذه الامينة لتخبرني بما يتم اثنا غيابي فاستوثق من وجودك بالحديقة واكون على بصيرة من امري ومتى يكون سيدي في البيت قالت جرتريد

— في اي ساعه شئت

— ولكن ربما يكون لي حديث يستغرق الساعة او الاثنين فهل لا يوجد هناك من يشك في امرى

— وممن تخافين فان والدى قد سافر الى مرسيليا هذا الصباح ولا يوجد سوى والدتي والخدم

— لا شك في ان والدتك حينما تراني تود ان تستطلع اخبارى ولا تعود تمكني من مقابلتك فالاوفق ان تعين مكـــانا اخرا نكون به منفردين وهكذا يبقى السر مكتوما

— لله درك يا جرتريد فما اصوب رايك وادراك بالعواقب فـــانا سابكر غدا بكور الصادح واتوجه لانتظارك في غابة بولونيا على مقربة من البحيره الغربية فهل من رقيب هناك ايضا

ولم يكد يتم كلامه حتى راى حبيبته قد انتقع لونها وارادت ان تكلمه فلم تستطع . واذا بجرتريد تقول له الفرار الفرار فالكونت اتي فلما طرق اذن الفتى اسم الكونت نفر نفور الظبي وتسلق السور ولم يكن كلمح البصر بل هو اقرب حتى صار خارج الحديقة

وحينما رات جرتريد سيدتها على هذه الحالة خافت من انكشاف الامر لدى الكونت فاخذت بيدها وصعدتا الى القصر من باب اخر

بحيث لم يشعر الكونت بهما لانه في تلك الساعة كان قد حضر من الخارج وبعد ان انتزع قبعته نزل الى الحديقة ينتقي طاقة من الزهر ليهديهـا لابنته اذ هو شديد الولوع بها لاجل الهذال الذي اعتراها ولدى ولوجه الباب رأته ليونتين وخادمتها فكان ما كان

اما الابنة فلما بلغت حجرتها انطرحت واهية القوى على مقعد من المخمل الازرق متاثرة من فراق حبيبها على حين غفلة قبل ان تكتفي من مغازلته

وفيما هي كذلك دخل والدها وبيده باقة من الياسمين والفل وقدمها لها قائلا انظري يا ابنتي ما اجمل هذه الازهار واذكى رائحتها فتناولتهـا الابنة من يده شاكرة للطفه وحسن اعتنائه بها فقال لها والدها وهل لا تزالين تشعرين بشيء من الضعف

— نعم يا والدي واني اجد نفسي غير ميالة للطعام

— ولم لا تذهبي الى التريض كل صباح برفقة خادمتك الا تعلمين ان النزهة تفيد من كان نظيرك فانا لا اسمح لك من الان بملازمـة القصر نهارك كله فان الصحة لا توازيها قيمة فما بالك غير مكترثـة بنفسك اذًا . الا يهمك ذلك . وفيمَ هو يتكلم دخلت جرترود ودعتهما للطعام فذهبا وكانت الابنة جالسة تجاه والدتها تبدي تنهدات خفية ولا تاكل الا القليل . فضاق صدر الام حينما رات صحة ابنتها قد اعتلت وشرعت تذم الاطباء لعدم وجودهم دواء شافيا لها وخشيت ان تكون الابنة مصابة بداء يجهلونه . اما الكونت فكان مداوما اكله ولم يفـه

ببنت شفة وبعد ان اتموا العشا دخلت الابنة مخدعها وانطرحت على المتكا تنتظر قدوم الخادمة لاخذ رايها فيما يجب فعله وكانت الاوهام تخيل لها تارة قدوم حبيبها فتهب من مرقدها وتفتح شرفة المخدع المطلة الى الحديقة علها تسمع صوتاً او حركة وتارة كان يستولي عليها القنوط والياس من عودته فتطرح على المتكا وتطلق لافكارها العنان فتتسابق دموعها تسابق الجداول · ولم تزل جاذبية الهموم تتجاذبها والافكار تقلقها الى ان حضرت الخادمة فوجدتها على هذا الحال · فابتدرتها بقولها ما الذي يقلق افكارك يا ابنتي بعد ان نلتِ مرغوبك بلقا من تحبين فان كنتِ تودين استقدامه فحرري له رسالة وانا اوصلها له في غابة بولونيا كما تعاهدنا وحيث ان الوقت قد ازف فالاحرى بك ان تحرري الان ما ترغبين وتنامين وفي الصباح اتيك منه بالجواب · فتنفست سيدتها الصعدا وانشدت هذه الابيات

يا من تمن اليه كل جوارحي فالى متى هذا الصدود الى متى
كحلت عيني بالسهاد ومهجتي كادت بنار الشوق ان تتفتتا
يا هل ترى هل تسمح الايام في وصل تكون به الحواسد موتا

فلما رات الخادمة شدة تاثرها تقدمت فاحتضنتها مقبلة اياها قائلة وحق عينيك يا ابنتي فانه لا بد لي من استمالة قلب ولديك لهذا الفتى الذي يعز نظيره . ليصرحالك بالاقتران به فقومي الان واكتبي له الرسالة لابكر بها وفي الغد نرى ما به الخير · فقامت الابنة وحررت الرقعة التي ذكرناها ونامت بعد ان سامتها لجرتريد فقبلت يدها وخرجت من لدنها وذهبت بها الى غابة بولونيا كما تقدم

الفصل الثالث

﴿ في التشاكي ﴾

اما الان فلنعود الى ما كنا بصدده من خصوص ادوارد فانه بعد ان كان قد تهيا لمقابلة محبوبته وجلس يطالع الجرائد في القهوة منتظرا بفروغ صبر حلول الساعة التاسعة اذا به راى عربة يجرها اثنان من جياد الخيل وقفت قريبا منه ونزل سائقها يدعوه لمقابلة والدته في نفس العربة فتامله الشاب واذا به خادمه جستون فساله عن السبب فقال : بيد ان كانت سيدتي جالسة في غرفتها تنتظر نهوضك من النوم اتاها احد الحوزيين برقعة صغيرة زاعما انها وقعت منك اثنا ركوبك معه لدى عودتك من غابة بولونيا ولما قراتها امرتني بتجهيز العربة فورا للخروج في اثرك · فبهت الفتى لدى سماعه ذلك وادخل يده في جيبه ليرى عما اذا كانت رسالة معشوقته باقية معه ام لا ولما لم يجدها صفق كفا على كف قائلاً قد انفضح امري وانكشف سري فما هو العمل وبماذا اجيب حبيبتي اذا سالتني عنها وفيما هو يضرب اخماسا لاسداس طرق اذنه صوت والدته وهي تدعوه اليهـــا من داخل العربة فقام لوقته وهو يقدم رجلا ويوخر اخرى حتى دنى منها فاخذت يده واجلسته بجانبهـا وامرت السائق بالعودة بهما الى القصر · وعند وصولهما اخرجت من جيبها رسالة صغيرة واعطته اياها قايلة من اين لك هذه الرساله ياادوارد ومن اي زمن راسلتك ليونتين · فهل كان ذلك من امد بعيد فتاثر الفتى من كلام والدته واطلاعها على هذه المسالة التي

كان يود كتمانها حرصا على شرف فاتنة لبه واجابها وهو يجهش بالبكاء اعزريني ياوالدتي لاني مغرم بها وليس في امكاني سلوها وان كنت تودين خيري ساعديني على نوال اربي وزوجيني بها والا مت لامحالة · فرق له حينئذ قلب والدته وتقدمت فقبلت مفرقه قائلة اني لم اكن اعهد بك الطياشه والخفة الى هذا الحد ياولدي حتى تتبع هواك بغير تروّ كما واني لا اعهد فيك انك تكتم عليّ خفي امرك وتراني الان متعجبة منك كيف انك لم تخبرني بما انت فيه الان كي ادبرك بالحزم والتاني لا بالجهل والرعونة · ومن هي ليونتين حتى تحبها بهذا المقدار

— ليونتين · · · اه ليونتين ·؟

الموت دون سلوها

فلتعزري او تعزلي

— وهل قد بلغ العشق منك هذا الحد كي تفوه بمثل هذه العبارات امامي فكيف ترجو مساعدتي وانت على هذا الحال فقق انفسك ياولدي ولا تتبع الهوا فيضلك عن سبيل الرشاد · الا تعلم بان والدك يعارض في هذا الامر اشد المعارضه من اجل ما حصل اخيرا بينه وبين والدها

— ومـا هو ذنب ليونتين فى ذلك وهي انقى قلباً من الملائكـة وسيان عندها خسارة والدها وربحه لان ذلك لايهمها وهي تفضل رضائى على كل شيء في العالم ولو اني طلبت روحها منها لمـا تاخرت عن بذلها فى سبيل مرضاتي فكيف يمكنني والحالة هذه ان اسلاها ام اردع النفس عن هواهـا فخذي اذا بيدي يا والدتي ومديني بجميل رايك والا فقدتني ·

فضاق صدر والدته لدى سماعها كلامه واخذت تفكر في حيلة تتوصل بها لراحة ولدها الوحيد وبعد سكوت عميق اجابته ببشاشة يتخللها بعض الاسف عليه خفف روعك ياولدي فانا لا اتاخر قط عن مساعدتك واود من صميم فوادي اقترانك بهذه الابنة الفاضلة التي يندر وجود مثلها في الغانيات غير اني اخشى ان يتولد من ذلك تعب لم يكن في حسباننا بالنسبة لما هو حاصل بين والديكما من النفور الحادث وهل تعتقد بان والدك الكونت جاك صاحب الانفة والعنفوان يتنازل لطلب ابنة عدوه عروسا لابنه لا لعمر الحق اذ انه لايبعد على والدها معاكستنا اذا تمكن ذاك النفور واستحال علينا ازالة اسبابه فماذا تكون النتيجة حينئذ ام كيف يتسنى لابيك احتمال ذلك فالاجدر بك ان تتمهل رويدا ريثما يتيسر لنا ان نصلح ذات البين فتنال حينئذ مرغوبك على احسن حال . اما الان انك اذا داومت التردد اليها والحالة على ما هي عليه فنخشى ان يشعر بك والدها واذ ذاك يحجبها عنك وفي حجبها بلاء اشد وانكى

— لو قام عزرائيل مع اجناده ضدي لاوردت الجميع حتفها فانا انا كفو لمقاومة كل من يعارضني غير اني بحاجة كلية لمساعدتك ولعلك لا تبخلين علي بها

— اعلم ياولدي ان جميع ما ذكرته هو صدى ما وسوس لك به شيطان الغرام فانا لا ابخل بمساعدتك اذا فعلت ما امرتك

— السمع والطاعه ياوالدتي غير اني ارجوك ان تسمحي لي بمقابلتها هذه المرة فقط لانها دعتني بهذه الرسالة واذا لم اجب دعوتها وهي على ما

هي عليه من لوعة الغرام كنت سبباً لازرافها بعض دمعات هي غالية عندي .
ونهض قائماً يحملق عينيه في الطريق الموصلة لمحل الاجتماع فضحكت
من حالته استغرابا وايقنت ان لابد له من تتميم ما تصوره حسناً والحب
يعمي ويصم فاذنت له بالمسير بعد ان افرغت الجهد في بذل النصائح الوالدية
والتحذير من عاقبة الغي . فقبل الفتى يدها وانطلق مهرولا في مسيره
وكانت الساعة اذ ذاك قد تجاوزت التاسعة مساء الى ان وصل سور
الحديقة فتسلقه وكان الليل حالكا قد حجب ببرقع غيومه وجه البدر
النضير بحيث يتعزر المرور بين تلك الاشجار التي كانت تطرب من شدة
الانعواكاضطراب فواده بيد انه اخذ يطوف في الخميلة شرقا وغرباً واكف
اوراق الاشجار تلطمه على وجهه كانها ذات شعور تريد بذلك تاديبه
حيث لم ينجع فيه كلام والدته الشفوقه المار ذكره وبعد الحيرة والجهد
الجهيد اهتدا الى مكانه بالامس فاصاخ قليلاً فلم يسمع سوى صوت خرير
مياه النوفرة وخفوق الاشجار التي لعبت بها ايدي الهوا فتقدم قليلاً واذا
به على حافة البركه التي تجاه في ذاك الوقت تموج امواجها كالحية الرقطاء
فلاح له اذ ذاك شخص امراة جالسة على العشب مسندة راسها باحدى
يديها وكان القمر قد تملص قليلا من غياهب الغيوم واخذ ينشر اشعته
الفضية على ارض تلك الروضة الذبرجدية فتاملها فاذا هي ليونتين حبيبته
فهجم عليها بلهفة واحضنها على حين غفلة منها قائلا جعلت فداك يافاتنتي
فما الذي يضطرك للقعود ههنا واين جرتريد . فانزعرت الابنة لرويته وانخلع
فوادها واوشكت ان تقع مغشيا عليها لو لم يسكن روعها حيث عرفها بنفسه

وبعد ان سكن جاشها تنهدت قائلة . لماذ ابطات ياقاسي القلب وما الذي منعك عن القدوم في الساعه المعينه فهل اتخذت لك حبيبة اخرى وان كان الامر كذلك فانا قانعة منك بالنظر اليك ان لم تبخل به عليّ ولا اظنك فاعلا ذلك

— ما هذه الاوهام يافاتنتي وهل يوجد في سماء الجمال من هي ابهى منك ضياءً لا وحق فالق الاصباح وخالق الصباح فانتِ انت ملك روحي ومالكة ازمتي

مري بالذي تبغي فاني ميسرٌ   وحق هيامي للذي تبتغينهُ

— اني اعلم ذلك جيداً ياعزيزي وانا لم اقل لك هذا الكلام الا لاجل اختبارك ولكن لا بد من معرفة السبب الذي اوجب تاخيرك الى هذه الساعه لانه قد مضى عليّ زمن طويل وانا في انتظار قدومك مع الخادمة التي ذهبت اخيرا لقضاء اشغالها مع علمك باني نحيلة الجسم ولا يمكنني التربص طويلاً واحتمال برد الليل

— ارجوك ياعزيزتي المعززة لان التاخير كان رغما عن ارادتي لامر يطول ولا تحتمله هذهِ البرهه التي خصصناها لمبادلة احاديث الغرام

— ما هو هذا السبب اخبرني به باوجز عبارة ناشدتك الله

— ليس في الامر شيء ولكن هل يكدرك اطلاع والدتي على احوالنا ؟ فاحمر وجه الصبيه لدى سماعها ذلك واجابته وهي ترتجف من الخجل الذي اعتراها قائلة : ومن الذي اخبرها بخفي امرنا ؟

— انها قد اطلعت على رسالتك رغما عن ارادتي وقد مدحتني على

محبتي لك ووعدتني بالمساعدة

— كيف تاتى ذلك يا ادوارد الم يكن من الحزم ان تحترس كل الاحتراس على تلك الرسالة ولا اقل من انك كنت تمزقها عقب تلاوتها ما هذا وبينما هي مسترسلة في تتميم هذا التعنيف واذا بجرتريد قد اقبلت عليهما حاملة كوز خمر عتيق وقدمته لادوارد بعد ان حيتهما وجلست بجانب سيدتها اما الفتى فلفرط غرامه بالخمر العتيق جرع جرعة من ذلك الكوز ثم ناوله لمحبوبته وترجاها بان تشرب قليلاً منه ففعلت بعد ان تمنعت عن قبول ذلك خوفا من ان يفعل بها المدام ما يقعدها عن الذهاب الى بيتها وبعد ان دبت الخمر في جنميهما اخذت في ان تتم حديثها · فقاطعت حديثها الخادمه قائلةً: ما الذي عولتما على فعله الان فان الاحوال لا تلبث ان تتغير قريبا وانا على يقين من ذلك لاني سمعت سيدي الكونت يقول لقرينته ان قد وصله تحرير من صديقه فرنسوا رينيه في ليون يخبره بان احد اصدقايه المدعو بالدوق فلمارد يرغب اتخاذ سيدتي ليونتين عروساً لابنه الفريد وان حضوره لهذا الغرض ربما كان بعد ايام قلايل اما سيدتي الكونتسه فقد الحت عليه بان لا يخبر ابنته بذلك لئلا تقلق افكارها وتعهدت له باخبارك يامولاتي حينما ترى لذلك فرصه مناسبه فالراي عندي اذا ان تجعلا حديثكما الليله في ما هو التخلص من هذا الامر المكدر والا وقعتما في الخيبة والندامة حيث لا ينفع الندم فطار عقل ليونتين عند سماعها هذا الخبر المشوم وصفقت كفا على كف وقالت الموت ولا الاقتران بغير من اهوى

فقبض ادوارد على يدها وقال وحق سواد عينيك وجمالك الفتان فاني ما دمت حياً لا ادع احدا يملك زمامك سواي ولا بد لي من بلوغ اربي ولو قطعت اربا اربا وغدا ارسل والدتي لتطلبك لي عروساً من والديك وان ابى والدك اجابة سؤلها اخذتك رغماً عن كل انسان وذهبت بك الى غير هذه البلاد معتمدين في رحلتنا على خالق الليل والنهار. فلما رات الابنة احترامه قبلت مفرقه قائلة انا مسرورة من عظيم همتك ولكن في شريف علمك اني لا ابتغي بعلاً سواك ولو مت حتف انفي فطاب قلب الفتى لدى سماعه كلامها هذا واحنى راسه لها اشارة للتعظيم والامتنان

اما الخادمة فاذ رات انهما مرتبكان في الامر قالت لعاشق سيدتها لا تحرك ساكناً الان فان امر زيجة سيدتي بغيرك موكول بارادتها الخصوصية اذ لا يخفى عليك انها لو ابدت لامها عدم الرغبة في اقترانها بالفريد فلا شك ان تلك الام الشفوقة تعضد مطالب ابنتها حرصاً على سعادتها المستقبلة والنتيجة انك تنتظر ماذا يتم بامر الاحتفال المزمع انعقاده لخطبة الفريد لسيدتي الفاضلة واذا لم يتم الامر حسب المرام فعندها يمكنكما التفكر فيما تفعلانه بعد ذلك والله ولي التدبير وها اني قد مددتكما براتي حتى لا يكون وجودي فيما بينكما عاطلاً . فضحك ادوارد منها وقال لها اعلمي ايتها الخادمة الامينة بانه اذا تم لي هذا الامر ونلت مرامي ينالك مني الخير الجزيل .

فاجابته تلك بتبسم بماذا تريد ان تكافئني ياسيدي وقد بلغت ارزل

العمر ولم يعد لي حاجة الى تحف الهدايا وغاية ما اتمنى ان تنالا بغيكما على احسن ما يرام ·

ولم تكد تتم كلامها حتى طرق آذانهم صوت الكونتسة وهي تدعو ابنتها للنوم لئلا يضر بها الندا · فقامت الابنة لوقتها وودعت حبيبها وانصرفت بعد ان تواعدا للمقابلة في غابة بولونيا عصارى النهار المقبل فانصرف ادوارد حزينا كئيبا ولسان حاله يقول

ودعتها ومدامعي منهلةٌ
والقلب بين اكفها يتفطر
فكانها رات الدموع ولم ترَ
ما بين ايديها يذوب ويقطرُ
وتعطفت نحوي فخلتُ قوامها
غصنا يحركه النسيم فيخطرُ
وشكت صبابتها وفرط عنائها
والدمع من آماقها يتحدرُ
فاجبتها يا منيتي وحشاشتي
مهلاً فوجدي فيك ليس يقدرُ
هاك الفواد وضعته بين الاكفُ
فهل نريني بعد ذلك انفرُ
ومضت فغاب البدر واربد الدجى
فشرعتُ عند فراقها إتحسرُ

ولم يزل سايراً وعوامل الافكار تنازعه حتى بلغ قصر ابيه فوجد والدته في انتظاره كمن ينتظر حبيبا مفارقا فلما رآنه ذهبت عنها التخيلات والاوهام التي كانت تقلق راحتها من اجل غيابه واقبلت تلومه على ابطائه وهو لايكاد يعي لكلامها لان افكاره كانت متجهة نحو محبوبته فقال لها اخيرا اني لم ارَ نفسي مبطئا في الرجوع اليك ياماه ولكن التاخير كان رغما ارادتي لان فرصة مثل هذه لا ينبغي اضاعتها فاتضح لوالدته حينئذ ان نصحه وتحزيره من الانطلاق في تيار الهوا لا ياتي بفائدة وربما ذاده شغفا على شغف ولذا امسكت عن النصح وارادة ان تستطلع خفاياه وما كان من امر تلك المقابلة التي ابطاءته عن حضوره اليها فقالت وهل تاكدت ان ليونتين تحبك بقدر ما انت تحبها

قال كيف لا .. وقد جادت باشرف ما لديها
عليّ تكرماً عند التلاقِ وقالت اذ رآني حبيب قلبي
وارسلت الدموع من المآقي
ولما رآت حلول الوقت قالت فلا كانت او يقات الفراق

فهي ياوالدتي ملك بصورة انسان وكفى بذلك وصفا واعزريني في محبتها غير اني اخشى ان تذهب محبتي سدى فاموت قتيل غرامي

— ولماذا فهل حدث شيء جديد

— نعم فقد اخبرتني خادمتها بان الدوق دي فلمارد ارسل كتاباً لوالدها يخطبها منه لولده الفريد واذا تم ذلك مت لامحالة

— ليس لاحد ياولدي سلطة على الابنة في مثل هذا الامر لانها

هي التي تنتقي من ترغب من الشبان عريساً لهـــا ولها في ذلك الحق الاكبر ومها فعل والدهـا فلا يمكنه ان يجبرها على الاقتران بمن لا ترغبه فاذا كـانت تحبك كما تقول فلا شك في انها تفضلك على كـل انسان واذا فعليك ان تلازم السكوت والطمانينه الى ان ينجلي لك الحال

— ولكنك ياوالدتي تعلمي ما عليه والدهـا من الخشونة وفظاظة الطبع . وربما تهددها بالطرد او خلافه فتضطر للانقياد الى رايه رغما عنها لان قلوب النسا رقيقه وضعيفة يخفن من ادنى شيء ولا يستطعن المقاومة فوالحالة هذه ارغب اليكِ ان تذهبي اليهـا وتخطبيها لي من والديها بعد ان تكوني مهدتى السبيل الى ذلك بان تنظري بادي بدء فيما هو النفور الحاصل بين والدي ووالدها وتذيلي اسبابه ان كان في امكانكِ ذلك والا فبغير هذا الامر اظنك لاتنجحين في المسعى وعلى كل حال فقد تعهدت لك بان لا احرك ساكنا الا بعد ان تتمي ماموريتكِ المشار اليها

— سانبصر في هذا الامر وافعل كلما في طاقتي لنوال مرغوبك فقم وتناول ما تيسر من الطعام فانه قوام البنية ومادة الحياة ونم مطمئن البال لان الساعة كما لايخفاك قد تجاوزت الواحدة بعد نصف الليل فقام الفتى في الحال وتناول بعض لقيمات بدون شهية ودخل غرفته وانطرح على فراشه مفكراً في امره والنوم بعيد عن عينيه فاحيا ليله بالافتكار فيما سيقاسيه من المشاق اذا اخفق سعي امه ومع ذلك فلم تزل هناك وساوس عشقية تحدثه بوجوب الرجوع الى قصر محبوبته ليقف في المكان الذي امامه مقصورتها فلعل ان تكون مطلة من تلك المقصورة فيحظى

بروريتها والافصاح عن بعض ما يكنه ضميره من لواعج الغرام ولو بالاشارة
غير ان هذا التخيل لم يخرج الى حين العمل ولم يزل يتردد بين الاحجام
والاقدام على فعل ذلك حتى طلعت الشمس حيث غلب عليه النوم فنام
. واذ اشتد حر الشمس ونفذ من زجاج نافذة المخدع الذي هو فيه استيقظ
من نومه ولبس ثيابه وخرج الى صحن الدار فوجد والدته لم نزل نائمة
فسار الى غابة بولونيا لانتظار مالكـــة لبه كما وعدته وهو ينشد هذه
الابيات

ابيت وقلبي في الغرام معذب   وجسمي على نار الفضا يتقلب
فما حيلتي والحب قد صار مالكي   وليس لمملوك الحبة مهرب
بحق الهوى اني صنيعك فارفقي   بحال المعنى فالصنيعة اوجب

ولم يزل يردد هذه الابيات حتى بلغ الغابة فجلس في مكانه المعهود وشرع
يتامل في جمال الطبيعه ومحاسن تلك المناظر البهجة ويشنف اذانه بتغريد
الاطيار ليريح افكاره قليلاً عما هي به من الانشغال فلم يجده ذلك نفعاً
واقترب اخيرا من الطريق ليتامل المازين وكان كلما راى عربة مقبلة
يظنها عربة محبوبته لانه لم يدر ما جد لها او طراء عليها من الاكدار
التي منعتها عن الوفا بوعد المقابلة فاندعه هنا يملل نفسه بقرب اللقا وانرجع
بالقاري الى قصر الكونت مازار لنوقفه على ما جرى به

الفصل الرابع

﴿ في بداية الكدر ﴾

لم يكد الليل يفر من وجه جيوش الصباح حتي دخل قصر الكونت ما زار موزع البريد حاملا له رسالة مكتوبا على ظاهرها مستعجلة جدا ولما كان الكونت لم يزل نائما استلمها منه الخادم الذي انتظر ريثما استيقظ مولاه فسلمها له ففضها واذا هي من صديقه فرنسوا رينيه في ليون يقول له فيها : صديقي المكرم حضرة الكونت مازار · بالامس حررت لكم رسالة مضمونها احاطت علمكم الشريف باني ساحضر مع الدوق دي قلمارد بعد عشرة ايام وحيث انه تبين بعد ذلك ان حضرة الدوق لايمكنه الحضور في ذلك الميعاد لضرورة وجوده بمدينة ليون في الميعاد المذكور قد عزمنا على الحضور هذا المسا وفي عزمنا ان لانمكث بذاك الظرف اكثر من اربعة ايام ونرجو ان نتم باثنائها مسالة الابنة · ولم يكد الكونت يتم تلاوتها حتي رقص فواده طربا وترنحت اعطافه تيها وعجبا وظل منتظرا نهوض زوجته من نومها ليقص عليها القصة لان الدوق دي فلمارد كان من اشهر تجار الحرير بمدينة ليون وله فابريقات عديدة ومخازن جمة في اطراف الممالك وكان له ولد نجيب يدير حركة تجارته الواسعة يدعى الفريد لا يتجاوز سنة السابعة والعشرين سنة ابيض اللون طويل القامة ممتلي الجسم لين المحادثة وفي الجملة كان حائزا على كمال الصفات الخلقية لولا انه بعين واحده · اما الكونت مازار فكان يعرفه جيدا وقد اصر على ان لا يذكر عودته

لابنته حتي لا تنفر من قبول الاقتران به · فنزل لوقته الى الروضة وانتقاله باقة من الزهر ورجع فوجد امراته تنتظره رحبة فسيحة الارجا وريثما راته قالت اني لاعجب من نهوضك في باكورة هذا اليوم على خـــلاف عادتك فاجابها ان نهوضي من النوم فوق العاده قد مكنني من مباشرة امر فيه لنا الخير العظيم · قالت وما هو ذلك الامر اخبرني به يرحمك الله فاخرج لها رسالة حديقه ودفعهـــا اليها وبعد ان اخطلت عليهـــا بهتت قليلا وقالت افي هذا المسا يكون حضورهم قال نعم فمري الخدم في اعداد القصر وتزيينه وانزلي بلويونتين الى البستان حيث اكون لكما بالانتظار نبشرها بهذا الخبر المسر عله يزيل عنها بغد ما بها من السقام وفي الحال استدعت الخدم اليها وامرتهم باعداد الزينة واستحضار ما يلزم من لوازم معدات الضيافة وذهبت فايقظت ابنتها وانحدرت بها الى الحديقة حسب اشارة زوجها فخف الكونت لاستقبال ابنته وبش في وجهها وقبل جبينها ثم قدم لها باقة الزهر قائلا استنشقي يا ابنتي رَيا هذه الازهار الجميلة واعلمي بانها ليست باقل عبوقا وازكى رائحة مما سابشرك به ·

فخفق لهذه العبارة قلب الابنة وعلمت ان قصده اطلاعها على مـا حرره صديقه رَينية بخصوصها غيرانها اصرت على التجلد الى النهاية ولكي تؤدي واجبا لا بد منه في مثل هذا المقام شكرت حسن عنايته بهـا وعقب ذلك اخذها فاجلسها على كرسي بينه وبين والدتها التي بادرتهـا بهذه العبارة اعلمي يا ابنتي ان ما من شي يهمني ويهم والدك اكثر من حسن مستقبلك لان امنيتنا منحصرة في ذلك لانك الابنة الوحيدة وحيث ان

الابنة التي تكون في سنك لا بد لها من الاقتران برجل طبق نواميس الطبيعه فيلزمك والحالة هذه ان تكوني مسرورة من ذلك كي نرى لك الخاق الصالح الذي يكون لك عونا بسن الشيخوخة انشا الله وتعيشي براحة وغبطت ما دمت في هذه الدار التي لا تلذ فيها الحيوة بغير قرين يكون عونا على قضا الحاجات كالفريد ابن الدوق فلما رد الذي نعلم انه كفو لك ويعادلك في الجاه والاعتبار وغاية منانا هو ان تقتبلينه لك بعلاً فتحظي بمستقبل حسن وتعيشين براحة تامة ولو لم يكن والدك يعرف شخصه حق المعرفة لما كان رضي به لك وفي هذا المساء يحضر والده لاجل خطبتك لابنه المشار اليه فسري اذا وافرحي بهذه السعادة التي قسمها لك الله واستعدي لاستقبالة كما يجب وها نحن نهنئك مقدما بهذا النصيب من صميم الفواد

اما الابنة فكانت صامطة وراسها منحن الى الارض لا تفوه ببنت شفة وكانت افكارها تائهة كانها لم تسمع شيئاً من كلام والدتها ولسان حالها يقول

ريحوا افكاركم من ذا العنى انما الامر لديَّ مستحيل

فلما راى والدها ذلك قال لها لم انت كئيبة هكذا يا ابنتي ولا تجيبين والدتك بشي مما طلبت منك فانك سوف تصيرين من اشرف ربات الحجال وتعادلين بنات الملوك في الجاه والاقتدار فافرحي اذاً افرحي لهذه السعادة التي قسمها الك الله وتيقني بان الدوق فلما رد لو طلب ابنة النابوليون نفسه عروساً لابنه لما تاخر عن اجابة طلبه فما بالك اذاً حزينة

هكذا ولمَ لا تتكلمين

· فرفعت راسها عند ذلك واجابته باكيه اني شاكرة لطفك يا ابي على هذا الاعتناء الزائد بابنتك المسكينة غير انه يعسر علي ان اخبرك باني لا اشعر باقل ميل او رغبة في الزيجة · فوا الحالة هذه ارجوك ان تعفيني منه ولا تجبرني على القبول به

ان رفضك الاقترن لم يكن بالامر الغريب لانك قاصرة عن درجة تدبير المنزل كما يجب ولكن فاتك اني مع والدتك سنتحمل كلما يشق عليك فعله ما دمنا على قيد الحيوة وعليه الراي عندي انك لا تخالفين مشورتي وعلى الله حسن العواقب

— است بمخالفة امرك غير اني ارجوك ان تمهلني ثلاثة ايام لارى رايي في هذا الامر الذي ما زلت اعتبره جاللا وبعد ذلك اخبرك ما اطمان له خاطري من احد الامرين اما الرفض واما القبول

— وبما عساك تجيبيني اتظني انك اوسع فكرة من والديك مع ما انت عليه من حداثة السن وقلة التجارب · كلا خصوصا وان الدوق فلمارد سيحضر في هذه الليلة لاتمام خطبتك لابنه حسبما وعدته ووعد الحر دين فان كان يمكنك ان تتروي في الامر في هذه البرهة القليلة فانا لا اتاخر عن سماع رايك والمفاوضة فيه لاقناعك باكثر مما اوضحت اذا انت صممت على الاباء

— انه لا يمكنني ان اجيبك في هذه البرهة القصيرة عما يستريح له ضميري ويمكنني ان اقول لك من الان قولا لا تردد فيه اني لا اريد الزواج

البتة ومع كل فالراى رايك الا انى يمكنني ان اقول لك بجسارة انك لو زوجتني مكرهة يكون ذلك ادعى الدواعي الى تنغيص عيشتي المستقبله وهو امر يأباه حنوك عليّ كلما لا يخفاك

فغضب الكونت عند ذلك واجابها والغيظ يخنقه: ومتى يصير لك رغبة بالزواج يا فاجرة أحينما يفوتك هذا النصيب او حينما تبلغين سن الخمسين اخبريني ... تكلمي فما هذا العناد ؟

فرفعت الابنة عند ذلك صوتها بالبكا واخذت تتنهد من فواد جريح ووالدتها ملازمة للسكوت فذاد لذلك غضب الكونت وانتصب على قدميه وقبض على يدها وهذها بعنف قائلاً ويحكِ ايتها الابنه الاثيمه والعديمة الطاعة ان لم تنصاعي لرايي وتجيبيني الى ما ارغب طردتك من منزلي واحرمتك من ميراثي ولا اعود اعرفك لي ابنة اذ لا اقبل ان يكون لي ابنة تخالف امري مع ما في ذلك من العار والشنار بين الاقران . وها انا ذا متوجه لقضا بعض اشغالي وعند حضوري يلزم ان تكوني مستعدة للايجاب والا فانت وشانك . واراد الانصراف فترامت الابنة على قدميه تقبلها قائلة رحماك رحماك ايها الوالد الشفوق ترفق بابنتك ولا تحملها فوق طاقتها تكن من المحسنين . اما هو فلم يلتفت اليها بل تركها ملقاة على الارض وركب عربته وتوجه لاشغاله فلما رات والدتها ذلك رق لها واخذتها من يدها واجلستها في حجرها وشرعت تقبلها وتلاطفها قائلة : ما هذا العناد يا ابنتي فهل تظنين بوجود بعل افضل من الذي انتقاه لكِ والدك لا لعمري واذا طال بك المطال لا يعود يتيسر لك من هو اقل مالاً

وشرفا منه فاطيعي والدك اذاً واقبلي نصحي برضائي عليك٠

فتاوهت الابنة ٠ وارسلت العبرات وكان لسان حلها يقول

او كان امري في يدي لاطعتكم كرها واجبارًا ولم اتوقفِ
لكن اذا كان الفواد مقيدًا بغرام من اهوى فكيف تصرفي
ذب يا فوادي تاسفاً وتحرقاً فعساك ان تلقي الممات فتشتفي

ثم نظرت الى والدتها وقالت احكمي يا والدتي بما تريدين وليجرْ والدي عليَّ اكثر من ذلك فها اني ساموت بين ايديكما وبعد فمني على هذه الدنيا السلام ٠ فلما رات والدتها انسكاب دموعها وسمعت هذا الكلام ضمتها الى صدرها قائلة ابنتي حبيبتي لا تقولي هكذا ولا تحملي هما ٠ لكن اه يا عزيزتي فانك عالمة مقدار محبتنا لك ومنذ نشاتك لم تسمعي منا قط كلمة تكدرك وقد تربيت في مهد الدلال دون ان ينقصك شي ترغبينه ولكن ترين اذا توفي والدك فهل يوجد من يدبر شوونك بعده اذا لم يكن لك بعل ٠ فاقبلي اذاً نصيحتي وانصاعي لارادة ابيكِ لانه ادرى بخيرك

— وكيف يمكنني ان اقبل بذلك وليس لي رغبة فيه فهل من العدل ان اتزوج رغم ارادتي

— نعم ان الابنه القاصرة نظيرك تتزوج على موجب راى والديها لانهم ادرى بخيرها فاكتفي اذاً بما قلته لك ولا تُصري على عنادك واذا عاد والدك هذا المساء فحزار من مخالفته لانك أدرا مني بطباعه الفظة وربما طردك وتخلص عنك بالكليه فقومي اذاً وسدي الرمق بشي من الطعام

وفي المساء يفعل الله ما يشاء . ثم قامت وتناولت معها الشاي واللبن وذهبت تلاحظ الخدم . فدخلت ليونتين مخدعها واطلقت لافكارها العنان في تدبير حيلة تخلصها مما هي به اما جرتريد فقد لحظت ان في حزنها سرًّا عميقاً واحبت ان تطلع عليه لتشاركها في احزانها او تبذل جهدها في تعزيتها لانها لم تكن قد اطلعت على كتاب الدوق الوارد صباحاً فغافلت الكونتسه ودخلت غرفة الابنة فوجدتها منطرحة على سريرها ودموعها قد بلّت الوسادة وهي تتاوه تاوه الثكلى فاعتنقتها بلهفة وضمتها الى صدرها قائلة ما بالك يابنتي تنوحين او ما الذي اصابك

— آه دعيني اموت ياجرتريد .. دعيني اموت ...

اذا ما قست امي عليَّ ووالدي فمن ذا الذي نحوي يرقُّ ويعطفُ

وكيف يمكني ان اصغى لنصيحة والدي على فرض انها حقه وليس لي قلب يمكنه سلو محبوبي ادوارد الذي لا يسعني نقض عهد وداده ولو مت حتف انفي

— رويدك يابنتي فلا تقلقي ولكن اخبريني . فهل جد شيء في هذا الصباح .

آه كانك لست بعارفة ؟ كن حتى جئت تستقصي مني ياجرتريد

— وحق عينيك يابنتي انه ليس لي علم بشيء خلاف ما قلته لك بالامس وارى والدتك تامرنا هذا الصباح في اعداد القصر لاجل استقبال ضيفين لااعلم من هما . فهل هذا ما يكدرك

— هو هذا ياجرتريد هو هذا لانهما اتيان لاجل خطبتي لالفريد كما

ذكرتِ بالامس فاحدهما هو فرنسوا رينيه والاخر الدوق فلمارد : آه ما هذا الشقا وكيف التدبير · اخبريني ياجرتريد · مديني برايكِ

— وهل خاطبك والدك بهذا الخصوص ·

فرفعت الابنة صوتها بالبكا قائلة انه لم يكتفِ باخذ رايي · بل انه حينما راى رفضي بقبول الفريد عريساً تهددني بالطرد من بيته وحرماني من حقوق الوراثة ووافقته والدتي ايضاً على ذلك واتفقا كلاهما على عنادي · فهل رَأ · · يتي · · اِب · · ن · ةً اكثر شقاء مني

— لا باس يابنتي من الانقياد لارادتها اذ لا بد لنا من وجود فرصة تمكن لها من التخاص من جورها ولم علم ادوارد بما انت فيه لما تقاعد قط عن بذل روحه في انقاذكِ من هذه الورطة وانتِ اخبرمني بشهامة وعلى ظني بانه ينتظرنا في غابة بولونيا كما وعدناه فما رايكِ الان

— وكيف يسوغ لنا ان نخل بالوعد وندعه ينتظرنا بالغابة بدون فائدة فالاوفق ان تذهبي اليه وتوقفيه على جميع ما جري وبعد ذلك تعرفيه باني لا ارغب من الدنيا سواه ولو اقتدت الى الموت · ودعيه يدبر ما يرغب وانا لااخالفه فيما يامرني به ·

— رويدكِ ياسيدتي فلا بد ان يجرى كل شيء حسب رغبتكِ وعند فراغي من ترتيب القصر اتوجه اليه واوقفه على احوالكِ والانسب ن تكتبي له رسالة تخبرينه بها بجميع ما توقع لك اذ ربما لااجده في الغابة فاضطر لمقابلته في منزله وهناك لايمكني الانفراد به لداعي وجود والدته · فاكتبي اذاً الرسالة بين ان انجز اشغالي واعود اليكِ قالت ذلك

وخرجت فقامت الابنـة حينئذٍ واخذت قرطاساً وحررت بـه الرسالة الاتية :

حبيبي الوحيد ادوارد : ليس لقلبي امكان على اظهار محبتي وشفقي بك ولذا تراني بحالة يرثى لهـا من جرا ما المّ بي من بعادك عني اولاً وجود والديّ ثانيةً ولو لم تداهمني هذه المصيبة التي ساتيك ببيانهـا على حين غفلة واعدم الحيلة في مداواتها لما كنت اخبرك بها ومع كل فاني اعد كل شقاء راحة وكل مرٍ حلواً في سبيل هواك لعلمي ان المستقبل سيزيل جميع ذلك بواسطة الاقتران الذي ارجو قربه : اما المصيبـة فهي ان والدي قد دعاني اليه هذا الصباح واخذ يستميلني ويرغبني بقدر امكانه بقبول ابن الدوق فلمارد عريساً لي ولما لم يجده ذلك نفعاً غضب عليّ غضباً شديداً وتهددني بالطرد من بيته وحرماني من ميراثه . وخرج لحال سبيله بعد ان احال عليّ والدتي التي بذلت مايوسعها ايضاً في سبيل اقناعي بما طاب فلم تستفد شيئاً . فتصور هنا . تصور ياعزيزي كيف كانت حالتي بين والدين قاسيين القلب . واحكم بما ترغب . ولو لم تكن جرترود خادمتي الامينه عندي وتعزيني على مصابي وترشدني بجميل رايها على كتابة هذه الرسالة لايقامك على ما نابني والا كانت الاكدار اهلكتني لامحالة كيف لا وانت مالك فوادي وعزيز روحي الوحيد ومن يمكنه ان يفتكر باني ارضى عنك بدلاً وها اني اقبلك عن بعدٍ مهدية لك قلبي والسلام

(قتيلة هواك ليونتين)

ثم طوت الرسالة وسلمتها الى جرتريد بعد ان شددت عليها بالاسراع الى غابة بولونيا قبل ان يقلق الفتي و يمل من الانتظار · فخرجت تلك تهرول الى قصر الفتى لانها رات ان الشمس قد صارت على وشك المغيب ولا بد لادوارد ان يكون قد عاد الى بيته

الفصل الخامس

في الانتظار

اما ادوارد فكاد ان يمضي عليه النهار وهو في الغابة ينتظر قدوم مالكة لبه جائلاً من مكان الى اخر موجهاً نظره الى الطريق لعله يرى من هو بانتظارها الى ان اقبل الليل بدون طائل ودون ان يزوق طعاماً نهاره كله · فقفل راجعاً الى باريس قاصدًا ان يسد الرمق بشيء من الطعام و يذهب الى محبوبته ليرى ما الذي منعها عن الوفاء بوعدها غير انهُ افتكر اخيرًا بانه اذا صعد الى قصره لا تمكنه والدته من الخروج · وفيمَ كانت هذه الافكار تنازعه راى بالقرب من باب الحديقة المحيطة بقصره امراة سادلة النقاب تتردد في الدخول اليه و بيدها رسالة · ولدي رويتها ثبت عنده انها لا بد ان تكون هي جرتريد اتية من قِبل محبوبته فشرع يضاعف سيره و يوسع خطاه حتي دنى منها فناولته الرسالة التي بيدها قائلة لا تلمني يا مولاي اذا رجعت بغير جواب اذ لم يعد لي وقت لذلك غير اني ارجوك الحضور هذه الليلة لمقابلة مولاتي ومني عليك السلام

اما الفتي فلشدة لهفته لم ينتبه لكلام جرتريد بل فتح الوسالة واخذ

بتلاوتها ولم يكد ياتى على اخرها حتى تساقطت دموعه وكاد الدم ان يجمد في عروقه لشدة تاثره فهتف اخيرًا بصوت يخنقه البكا: واحبيبتي ليونتين أتحتملين جميع هذه المصائب وتعانين كل هذا الشقا لاجلي انا التعيس ولكن رويدكِ يا عزيزتي فسوف اريكِ ما تقر به عيناكِ فيعلم والدكِ بانه هو الجاني على نفسه وعلى فلمارد ايضاً والا فكيف اكون انا انا ولا اتمكن من الاقتران بكِ ويملك غيري زمامكِ . أقد غرَّ والدكِ غنى فلمارد ام شرف اصله فبئس التدبير تدبيره . وبئس الخساسة خساسته ولكن :

دعني اجد السير في طلب المنى

واخوض بحر المصعبـات ولوطما .

فنوال مـــا ابغيه خير زخيرة

تبقى الى يوم الشدائد والعنـــا

ثم صعد الى قصره والشرر يتطاير من عينيه ودخل غرفته وتقلد حسامه وخرج يريد الذهاب . وكانت والدته جالسة في صحن الدار تطالع الجرائد فلما راته خارجاً على هذه الحالة داخلها الوهم لظنها انه ذاهب لمبارزة احد اعدائه فوثبت اليه خائرة القوى لشدة وهمها وتعلقت بطرف ثوبه قائلةً : ما الذي اصابك يا ولدي والى اين انت ذاهب . ولماذا تقلدت حسامك اتقصد مبارزة احد اخبرني . اخبرني والا فقتلني يا ظالم . اقتلني بحسامك وارحني من هذا العنا اذ قد كفاني ما احتملت منك . فيا لتعاستي ويا لشقا . . . ئي . ثم سقطت مغشياً عليها فلما راها الخدم على تلك الحالة تسارعوا اليها من كل جانب وشرعوا يرشون الماء على وجهها وادوارد باهت

صامت كانه صنم لا ياتي بحركة · اذ قد راعه ما حل بوالدته وصار لا يدري ما يفعل ولم يزل كذلك مقدار ربع ساعة فافاقت والدته وتعلقت باذياله ثانية وجرته الى غرفتها قائلة لا امكنك من الخروج ابداً هلمّ الى غرفتي · فلم يعد اذ ذاك يسع الفتى المخالفة خوفاً من ان يصيبها ما اصابها اول دفعة · فامتثل ودخل غرفتها وجلس وهي الى جانبه بعد ان وصدت الباب وقالت له : الى اين انت ذاهب اخبرني بالذي اصابك

— لم يصبني شيء وقصدى الذهاب الى قصر الكونت مازار

— وما هو قصدك به

— مشاهدة ليونتين

— ولماذا تقلدت الحسام فهل لذلك موجب

— نعم

— وما هو

— هو ربما عارضني احد فاخمد انفاسه

— وهل لك سلطة على قتلٌ من يعارضك

— اقلي ياوالدتي لومك ولا تطيلي الكلام فانى احبها ولا سبيل لي للعدول عنها · واننا مجبور على ذلك فديعني وشاني

— وما الذي يجبرك ياولدى اخبرنى بالسبب

— الي ياوالدتي مديني بجميل رايك فالامر حرج جدًّا

— وهل من شيء جديد فما بالك لاتطلعنى على جلية ما جرى لارى لك به تدبيرًا

— وبما عساك ان تساعديني فان الدوق دي فلمارد حاضر هذا المساء لطلب ليونتين عروساً لابنه وقد بذل والدها اقصى جهده في سبيل اقناعها المقبول به فلم ترضَ فتهددها اخيراً بالطرد من بيته وحرمانها من حقوق الميراث اذا اصرت على عنادها ولا شك في انها تنصاع لامره وترضى بما قسم لها اكراما لخاطره فيكون ذلك لموتي بدون نوال جدوى ... فانا ارجوكِ ياماه ان تسمحي لي بالذهاب اليها هذه الليلة لارى الذى جد والا قتلت نفسي ثم استل سيفه ووضعه على نحره فصاحت · اذ ذاك والدته قائلة : رويدك ياولدي رويدك افعل ما شئت واذهب الى حيث انت عازم ولكن بغير حسام · فانسر الفتى لدى سماعه ذلك ونزع سيفه وقبل يدها وخرج يتعثر باذيال هواه · واعين الوالدة شاخصة اليه تراقب خطاه وقلبها يخفق وجلا عليه · فاستدعت اخيرا جون الخادم اليها وامرته باتباعه بحيث لا يدعه ان يشعر به ولا يعود الا عند عودته

اما ادوارد فلم يزل سائراً تائه الفكرة حتى بلغ سور الحديقة فتسلقه بكل رشاقة · وكان الليل قد مد جناحيه على الافق فاظلم والقمر محتجباً وراء ستار الغيوم الكثيفة والهواء خفيفاً بارداً والسكوت سائداً في تلك الحديقة الفيحاء بحيث لم يكن يسمع سوى خرير الماء المتدفق من النوفرة · فاخذ الفتي يطوف من مكان الى مكان عله يهتدي الى مكانه بالامس · واذا به راى نفسه تحت شباك غرفة فاتنته فتاملها فراها مظلمة والشباك مقفلاً والقصر برمته مزيناً بالاعلام الجميله والشرفات مكلله بنسيج النبات والاغصان الخضراء والازهار الجميلة · ثم دنى من باب السلم المؤدي الى

القصر فسمع قهقهة القناني وقرع الكؤوس وطرق اذنه صوت الكونت مازار وهو يترحب بصديقه الدوق دي فلمارد ويشرب على محبته . فضاقت اذ ذاك الدنيا في عينيه وصعد الدم في راسه وهانت عليه نفسه فصعد السلم يرغي ويزبد قاصداً الايقاع بالكونت واضيافه معاً . وفيمَ هو صاعد راى جرتريد تشير اليه باصبعها ان اصمت واتبعني . فتبعها وهو يكاد يتميز من الغيظ الى باب السلم فقالت له : ان الامر عسِرٌ يا سيدي فانتظرني قليلاً في مكاننا بالامس ريثما اعود اليك بسيدتي وحذار من التقدم ثانية لجهة القصر لئلا يطلع عليك احد فينفضح امرنا . ثم تركته ورجعت الى اشغالها فجلس الفتى بظل الصفصافة وعوامل الافكار تنازعه منتظراً قدوم محبوبته ليرى ما عزمت عليه ولم يمضِ عليه ساعة وهو باشد القلق حتى طفئت انوار القصر ووُصدت ابوابه وعم الهدو والسكينة ذلك المكان بحيث لم يعد يسمع سوى حفيف الاشجار وهمهمة النسيم البارد . فبشر نفسه اذ ذاك بقرب اللقا واخذ قلبه يخفق خفوقاً عظيماً وفيمَ هو كذلك راى محبوبته مقبلة تهرول نحوه والخادمة في اثرها فدنى منها بكل رشاقة واحتملها بين ذراعيه الى ان بلغ بها الصفصافة فاجلسها الى جانبه وقبل نحرها قائلاً أبلغ الدلك مراده يا فاتنتي ولم يعد يهمك امر ادوارد . فمهلاً يا ليونتين ورفقاً بصبٍّ طال عذابه ولم ينل غير الجفا . . .

— ما هذا الكلام يا عزيزي فهل خيل الك باني فضلت الفريد عليك وقبلته لي عريسا لا لا وحاشا ان افعل ذلك . وها انا ذا على ما كنت عليه ولا ازال مصرة على الرفض فانتَ عريسي ولا ارضى سواك ولو ذقت غصه

الموت

— لله ما اعذب كلامكِ واكرم اخلاقك ولكن اخبريني بالذي جرى ·

— انه عند وصول الدوق مع رفيقه دعاني والدي لاجل التسليم عليهما وتهنئتهما بسلامة الوصول ففعلت ذلك مكرهــة واقمت معهم برهة وجيزة خلتها اطول من شهر الصوم ثم خرجت فدخلت غرفتي ولم اعد اخرج منها الا في هذه الساعة اما هما فسالا والدي ان يامر باحضاري ثانية امامها ليسالاني عما اذا كنت ارغب اجابتهما الى ما يرغبانه · اما والدي فخشية ان ارفض ذلك اجابهما ان الابنة نائمة ولا سبيل لايقاظها لانها منحرفة المزاج وانا اجيبكما عنها بانها قابلة باتخاذ الدوق الفريد عريساً لهــا وعليه فيمكنكما ان تثقا بكلامي وتجهزا ما ترغبان · فاجابه الدوق : اذا كان الامر كذلك فلا بد من استدعاء الفريد غدا برسالة برقية الى ههنا ونجعل حفلة الزواج بعد اربعة ايام لان اشغالي تضطرني للرجوع الى ليون عاجلا : وهكذا اتفقا وغدا يكون الفريد هنا

— ومن الذي اخبرك بذلك

— جرتريد يا عزيزي لان ذلك كان بحضورها ومسمعها

— وما الذي عولتِ على فعله · اتمتثلين امر والدك وتفضلين ابن فلمارد الاعور على قتيل هواكِ وشريك صباكِ ادوارد

— فوقعت عندئذ الابنة على عنقه وشرعت تقبله قائلة كن مطمئن البال يا عزيز روحي فانت انت عزيزي ولا ارضى عنك بدلا

— فما الذي عولتِ على فعله اذاً اما من تدبير عندكِ

— الامر والتدبير لك فاحكم بما ترغب فاني اطوع امرك

— اتتبعي امرى اذًا

— نعم . ولو حكمت باهراق دمي تحت قدميك فانى اقتبله طائعة مختارة

— حسنا تجيبين . فالان بما ان والدك مصمم على تزويجك بالفريد بعد اربعه ايام فليس من تدبير سوى ان تستعدى لمغادرة باريس غدا في مثل هذه الساعة

= كيف استعد ومع من اغادرها

= معي يا عزيزتي لئلا يفوتنا الوقت والغرض ولا نعود نحظى بطائل وفي عزمي ان اقصد بكِ مدينة لوندرا عاصمة بريطانيا ولا نعود منها الا متى تيسر لنا الرجوع بدون معارض

— فلما سمعت الابنة هذا الكلام حصل لها بعض الخوف من ارتكاب هذا الذنب الذي يجلب عليها غضب والديها ويلقيها في السقام لانعكاس صحتها فقالت انت عالم يا حبيبي ان لا طاقة لي على مشاق السفر واخشى ايضاً ان . . .

— لا تخشي باس احد وليس عندي خلاف هـذا التدبير واذا صبرتِ حتى اليوم الرابع زوجك والدك بالفريد رغماً عن ارادتك فتندمين حيث لا ينفع الندم فالاوفق ان تنصاعي لرايي وتذعني لامري اما صحتك فسوف تتحسن لان السفر يوافقك كثيرًا

جرتريد : ان هذا الراي هو احسن ما يركن اليه في تدبير الخلاص من الاقتران بذلك الاعور المشووءم · وان كانت سيدتي تراه عسرًا فلعدم اعتيادها على مغادرة قصرها ومخالفة والديها في امر من الامور ولكن علي الانسان ان يسعي وراء بغيته لانه ادرى بخيره من سواه واذا وقع بين شرين فعليه ان يختار الاخف منهما · وانا مستعدة لمرافقتكما الى حيث تذهبان لاني لا اقوى على فراق سيدتي طرفة عين ·· فقالت لها الابنة اذا كنتِ انتِ التي لستِ بوالدتي تحبينى هذه المحبة ولا يطيب لكِ عيش بعدي فكم بالحري تكون محبة والدتي · وكيف تستطيع ان تتذكرني ويهنا لها عيش بعد فرقتي

فقال لها ادوارد : ليس الامر بعسير ما بقدر تتصورين وما عملنا اذًا فهل الكِ خلاف هذا الرأى

— افعل ما شئت ومر بما ترغب وانا لا اخالف وها انا ذا مستعدة للسفر وبعد فليفعل الله ما يشاء فاني عليه متكلة ·

— استعدي اذًا لمثل هذه الساعة غدا ولا تاخذي معك ما يثقل عليكِ حمله وانا ساكتري لكِ قاربا بخاريا يمخر بكِ عباب السين حتي تبلغين غابة سين كلود حيث اكون بانتظاركِ

— ومن اين لي جرآءة لاذهب ليلا الى هناك

— لا باس من ذهاب جرتريد معكِ

جرتريد : واين ينتظرنا القارب

— بالقرب من قصر اللوفر

— لا باس من ذلك وانا لا اتاخر عن مرافقة سيدتي والاخذ بناصرها وعليه فيلزمك ان تكون بانتظارنا عند الساعة العاشرة مساء ولا تبرح حتى ناتي

واذ ذاك خفق قلب الصبية جزعاً لانها تاكدت قرب مبارحة الديار ومهد طفوليتها فلم تعد تقوى على امساك دمعها المدرار فلحظ منها ادوارد ذلك وضمها الى صدره وقبلها قائلاً شددي عزيمتك ياعزيزتي واتكلي على الله فهو قادر ان ييسر لك الرجوع قريباً الى الوطن العزيز اذ ليس عليه امر عسير . ومتى علم والدك حقيقة امرنا يرسل يستدعينا اليه ويصفح عنا . والان اودعك لان الفجر قد لاح فاذهبي وخذي لنفسك الراحة في سريرك وحذارِ حذارِ من التاخير فيما صار الاتفاق عليه وانا ساكون بانتظارك في الغابة كما وان القارب البخاري ايضاً بجانب اللوفر ...

ثم تعانقا وتباكيا وافترقا ولوعة الحب تتاجج بين جوانحهما وقفل الفتى راجعاً الى قصرهِ وجون خادمه في اثره حتى اذ بلغ حجرته نزع ثيابه وغاص في نوم عميق

الفصل السادس

في السفر الفجائي

لم يكد النهار ينشر رايته البيضا على هام البسيطة حتى هبت والدة ادوارد من نومها مزعورة وقصدت غرفة ولدها لتتحقق عودته . فلما راته اطمأنت بالها ودعت جون اليها وسالته عما كان من سيده لدى مقابلة

ليونتين وعلى ما اتفقا فاطلعها ذاك علي جميع ما رآى وسمع وان قصد سيده مغادرة باريز مع محبوبته في نفس الليل المقبل والتوجه الى لوندره فوقع اذ ذاك الرعب في قلب تلك الام المسكينة واخذت تفكر في من تستنجد به لاقناعه في العدول عن رايه . هذا وهي تنتقل من غرفة الى اخرى ساخطة على ليونتين ووالديها ودمعها مترادف كصبيب الماء . ولما اعياها الامر صممت على ارسال رسالة برقية الى زوجهـا تستدعيه الى باريز . وللحال دعت جون وامرأته بارسال الرسالة الآتية : سيدي الكونت فورث دي جاك . الرجا حضوركم باول قطار لئلا تفقدون ولدكم وحذار من التاخير . فمضى اذ ذاك الخادم بالرسالة ولبثت تنتظر استيقاظ ولدها وعوامل الهموم تتنازعها فلم يمض على جلوسها هذا بعض دقائق . حتى خرج الفتى من غرفته يتمايل من شدة النعاس لانه كان قضى ليلتين لم ينم فيهما الا القليل ولما راى والدته تجاه المكتب وعيونها مقرحة بالبكاء داخله بعض الوهم اولاً . واذ كان لابد له من مباداءتها بالتحية تقدم اليها بوجه باش واخذ يدها فقبلها وجلس بجانبها طالباً عفوها عما جرى منه بالامس

فتنهدت تلك الام من فواد جريح ونظرت اليه بطرف باك قائلة آه ياولدي انك ستكون سبباً لموتي في منتصف عمري اذا بقيت مصراً علي عنادك هذا . فارجع ياولدي ارجع عما قصدت فعله بحق تربيتي اياك فتصون شرفك وشرف عائلتك وعرض محبوبتك ايضاً . واذا تممت قصدك وغادرت باريز وطنك ومهد طفوليتك جلبت لنفسك الشقا والذلة ولوالديك العار المستديم فاقبل نصيحتي اذاً ولا تتركني ابكي دماً

على بعادك

— ياللعجب العجاب فمن ذا الذي اخبرك بذلك ام كيف تتصورين باني اغادر وطني و بيت ابي بدون سبب موجب واذهب الى بلاد غريبة يجهل بها مربعي

— اني لم اكن اعهد بك الكذب ياادوارد فلماذا تخدعني قل لي ناشدتك الله الست على نية السفر الى لوندره مع ليونتين في هذه الليلة فانا استحلفك بالحنو الوالدي بان تترك عنك هذا الفكر والا عرضت نفسي الى الموت قهراً

— فبهت الفتى لدى سماعه ذلك واحمرت وجنتاه خجلاً وتعجب كيف تمكنت والدته من معرفة اسراره وخشي ان يبقى مصرًّا على الكتمان فترتاب به ولا تعود تمكنه من الخروج فقص عليها حينئذٍ واقعة الحال طالباً منها امداده بجميل رايها وعدم منعه عن السفر لان ذلك عهد مقدس عاهد به محبوبته ولا يمكنه نقضه

— قد قلت لك ولا ازال اقول بان سفرك هذا يجلب لنا العار فالاوفق ان تنتظر الى المساء اذ يكون والدك قد عاد من مرسيليا لعله يجد لك خلاف هذا التدبير ويزوجك بها برضا والديها اما سفرك على هذه الصورة فلا اوفقك عليه ابداً . فطفق الفتى يبكي حينئذ وانكب على قدميها يقبلها قائلاً . انقذيني ياوالدتي وانقذي فتاة تعادل الملائكة طهارة ومكنيني مما نويت واني اقسم لك بشرف عائلتنا باني لا اغيب عنك اكثر من اسبوعين ليبنما يتم اقتراني بها وفي هذه المدة لا ادع بريدا ياتي ما لم ارسل

لك به رسالة فثقي بكلامي هذا ولا تعارضيني ليلا تفقديني فقدأ ليس بعده لقاً . فاثر هذا الكلام في والدته وعلمت ان لا بد له من تتميم قصده لان الهوى غالب عليه غير انها ارادت ان توخره قليلاً لحينما ياتيها علم من زوجها فقالت له: اني قد ارسلت استدعي والدك من مرسيليا لاجل نجاز هذا الامر ولا يلبث جون ان ياتيني بالجواب وفيما هما يتحدثان دخل جون وبيده رسالة برقية من سيده ففضها واذا بها يقول: ساسافر هذا المساء في اول قطار واكون صباحاً عندكم : فورت جاك . .

فلما رأى الفتى ان والده يتاخر الى الصباح تهلل فرحاً وتقدم الى والدته طالباً منها تزويده بدعاها لانه مصمم النية على السفر . واذ رات تلك ان لا سبيل لردعه وكبح جماح غيه سلمت امرها الى الله وقالت : افعل ما شئت ايها الولد العديم الطاعة ولكن تاكد بان كل يوم من غيابك يذهب بسنة من باقي عمري . وسوف ترى نتيجة هذا الجهل

اما هو فلم يكترث بكلامها بل قام لوقته وجهز ما يحتاج اليه وتقلد حسامهُ تحت رداء طويل وقبل يد والدته التي حينما راته كذلك كادت ان تقع مغشياً عليها لشدة تأثرها منه وخرج قاصدا نهر السين حيث قابل احد روءساء القوارب البخاريه المدعو جستون . فدعاه على حدة وامره بان لا يبارح محطة اللوفر حتي مجيء سيدتين جليلتين يسالانه ان يقلع بهما الى سين كلود فيفعل ولا يركب معهما احدا ثم نقده الاجرة مضاعفة بعد ان شدد عليه الامر فوعده ذلك بتتميه حسب رغبته . ثم مضى بعد ذلك الى احدى اللوكاندات فتناول العشاء وخرج عند الغروب

قاصداً غابة سين كلود

الفصل السابع

الفرار والخوف

بيد ان كان ادوارد يتهيا للسفر ووالدته تمانع كانت ليونتين غارقة في بحار الهموم والاحزان لانها رات ان مفارقتها لوالديها صارت قريبة . وكانت جرتريد تصبرها وتعزيها وهي لا تزداد الا قلقا واضطرابا . وكلما رات الشمس تميل نحو المغيب ياخذ قلبها بالخفوق ويلو وجهها الاصفرار وكأن لسان حالها يقول

من لي بدمع على الخدين اسكبهُ
قبل الرحيل فان الحزن اعياني
يادار انسي سقتك السحب من مقلي
دمعا صبيبا بلون العندم القاني
ما كنت احسب ان الدهر يبعدني
عنك اضطرارا واهل الود تنساني
لكن كذا سنة العشاق قد حكمت
فالصبر اولى وليس الله ينساني

وفيما هي كذلك اقبل الكونت والدها وبرفقته الدوق دي فلمارد والفريد ابنه الذي كان قدحضر بموجب رسالة والده ولدى رؤيته خفق قلب الابنة واضطربت اعضاوها وكادت ان تجاهر بعدم قبولها به لو لم

تتداركها الخادمة بقولها: ما هذه الفعال يابنتي او ما الذي اصابك الست براحله هذا المساء برفقة من تحبين فما بالك اذاً قلقة هكذا · فدعي والدك يهتم باضيافه كما يشاء . واذهبي فجهزي ما تحتاجين اليه في رحلتك وانتظري عودتي · والحذر ثم الحذر من التواني لئلا يفوتنا الوقت ولانكون فعلنا شيئاً وربما لا نعود نجد فرصة اخرى مناسبة لقصدنا · ثم خرجت من لدنها ووقفت في الخدمة · وبعد ان تناول الكونت العشا مع اضيافه وقضوا جزاء من الليل بالمحادثة ذهبوا الى حجرهم وتوسد كل فراشه · فرجعت جرتريد الى غرفة ليونتين فوجدتها متاهبة للرحيل · فاخذت يدها وانحدرت بها الى الحديقة وفتحت باباً يودي الى الشارع ودخلت بها عربة يجرها اثنان من جياد الخيل كانت بانتظارهما باشارة منها فسارت بهما العربة حتى محطة اللاوفر حيث كان القارب البخاري بانتظارهما فنزلتا اليه ولم يمض عليهما مقدار خمسة عشر دقيقة حتى بلغتا سين كلود فصعدتا الى الاكمة التي عينها لهما ادوارد وجلستا تحت شجرة كبيرة ينتظران قدومه · وكانت الساعه اذ ذاك قد تجاوزت الحادية عشرة وكان الليل حالكاً جداً والبدر محتجباً ورا ستار الغيوم ولم يكن يسمع حينئذٍ سوى همهمة النسيم البارد وحفيف اشجار الغابة ونباح كلاب قرية سين كلود الكائنة بجانب الاكمه · غير أن الافق لم يلبث ان تغير دفعة واحدة فاكفهر وجهه وعصفت الرياح من كل جانب وتلبدت الغيوم واربد الظلام بحيث تعزز على الواحدة ان ترى الاخرى · والابنة قابضة على يد خادمتها ترتجف من شدة البرد والخوف معاً نادمه على ما بدا منها ولم تعد تجد لها ملجا غير البكاء

فعمدت اليه والخادمة تصبرها وتعزيها بدون فائدة فاومضت البروق بغتة وتلاها هدير الرعد القاصف فرددت الاودية صداها بهيئة مزعجة انخلع لها قلب الصبية المسكينة ولم تلبث الامطار ان هطلت سيولاً فجرت بها الاودية بدوي مرعب فخيل لليونتين حينئذٍ ان السما حانقة عليها لمخالفتها طاعة والديها فاخذت تصيح وتكتئب وقد ابتل كل ما عليها من الثياب وهي ترتجف كالقصبة التي تحركها الارياح وفيما كانت الخادمة مهتمة في البحث على موضع يقيها من سيول الامطار اذا بصاعقة شقت حجاب الافق وانقضت بالقرب من الابنة التي لدى انقضاضهـــا وقعت الى الارض بغير حراك والخادمة قابضة على يدها فلما رآت ما حل بسيدتها صرخت باعلا صوتها ابنتي ليونتين ما الذي اصابك . واذا بصوت اخر ينادي من داخل الغابة : لبيك يامالكة فوادي فها انا ذا لا تجزعي . وكان الصارخ كذلك ادوارد فانه كان قد سبقها الى الغابة ليبحث فيها على موضع يختبئـان به الى الصباح ولما اشتد الظلام ضل عن الاكمة التي عينها للمقابلة فاخذ يخبط خبط عشوا في ذلك الديجور الاربد واغصان الاشجار تلطم وجهه والاشواك تهشم يديه ورجليه والامطار تتساقط عليه وهو غير مبالٍ بشيء من ذلك لكنه لم يكن يدري اين يضع قدميه لولا تالق البرق الذي كان ينتظر وميضه مرة بعد اخرى ليكون له بمثابة نبراس يهديه الى حيث يقصد ومع ذلك فلم يكن اكتراثه بنفسه عظيما لان جل قصده كـان الاهتدا الى الاكمة ليرى ما حل بمحبوبته وبيد ان كان على هذه الحالة المكربة راى حجاب الافق قد شق وانقضت منه تلك الصاعقة الهائلة بقعقعة تقشعر

لهولها الابدان وطرق اذنه صوت جرتريدة وهي تنادي ليونتين فاهتدى عندها على شهب الصاعقة وشرع يقرب خطاه الى ان وصل اليها فاقد الحيل والقوى · ولدى رويته ليونتين على الحالة التي ذكرناها طار عقله وكاد ان يقتل نفسه · ولما رآي ان لابد من معالجتها قبل ان تفقد الحيوة حملها على ذراعيه وانحدر بها الى فندق في قرية سين كلود حيث خلع عنها ثيابها المبللة والبسها غيرها وشرع يفرك لها جسمها بقطع صوف حامية وينشقها الروائح المنعشه بمساعدة جرتريد حتى دبت الحراره في جسمها فسقياها كاساً من الكونياك وداوما على فرك جسمها الي ان فتحت عينيها فرات حبيبها واقفاً امامها وجبينه يتصبب عرقاً من شدة التعب · فقبضت علي يده بكل قوتها قائلة اين انا ياادوارد

— انت بقلبي ياعزيزتي فلا تجزعي وهاك الافق قد راق ولم يعد شيء مما كان

— خذ بيد واجلسني لاراك لاني لا اقوى على الجلوس من تلقا نفسي فاخذ الفتي يدها واجلسها وبدا يحادثها ويضاحكها حتى ذهب عنها الخوف ونسيت ما حل بها · وكان الامطار اذ ذاك قد انكفت عن السقوط وانجلت الغيوم الكثيفة عن محيا الافق فظهر البدر بنوره الزاهي فضحكت له تلك الربوع بعد ان كانت عابسة · واذ ذاك قامت جرتريد وشرعت تقبل الابنه وتودعها قائلةً : اعلمي يا ابنتي بان فراقك هذا سيكون سببا لتقصير عمري لانك اعز عليَّ من ولدي غير اني اتعزى بوجود سيدي ادوارد معك لانه ذو شهامة عظيمه ودم شريف فيقدرك قدركِ ويوفيكِ

حقك والله تعالى يرافقك في الحل والترحال . وبعد ذلك ودعت ادوارد ايضاً ورجعت بالقارب الى باريز. اما الفتى فمضى بمحبوبته الى المحطه وركب القطار قاصدا الهافر ولما بلغاها اخذا لانفسهما بعض الراحة من وصب المسير ثم ركبا بحر المانش على باخرة انكليزيه حتى مدينة بورتسموث ولما بلغاها وجدا القطار على اهبة القيام الى لوندره فركباه وقصداها لانها كانت محط رحلهما ونزلا بفندق من احسن فنادقها امــا الفتى فخشيةً من انكشاف امره في هذا الفندق الذي هو محط رحال الاشراف امر محبوبته بان تكون بانتظاره لحينما يعود اليهــا ثم خرج ولم يمض على خروجه مقدار ساعة حتى عاد اليهــا واخبرها بانه وجد منزلاً لائقاً لسكناها لكونه منفرد وبين لهــا الاسباب التي جبرته على اخذه . ففرحت الابنة لذلك وشكرت همته . وفي اليوم التالي حضر اليهما احد الحوذيين واخبرهما بان المنزل الذي اختاره ادوارد قد تهيا للسكنى وقدم له مفاتيحه وكان الحوذي المذكور هو الذي اركب ادوارد عند وصوله وبحث له على المنزل المذكور وللحال قاما وركبا معه الى ان وصلاه فوجداه بيتاً منفرداً محاطاً بحديقة جميلة محتوياً على اربعة غرف ومفروشاً فرشا فاخرا فطاب قلبهما اذ ذاك وامر الحوذي بان يحضر لها كافة لوازمها وان يتجرد لخدمتها براتب شهري قدره ثلثماية فرنك ففرح الحوذي بهذه الخدمة وصار منذ ذلك الحين ملازماً لهما وكان يخرج بهما كل يوم الى النزهة ويفرجهما على المدينه فيعودان منشرحي الصدر غير ان ذلك لم يكن كافيا لتسكين افكار ادوارد التي كانت لم تزل قلقة لعدم تمكنه من الاقتران بالتي قاسى لاجلها جميع هذه المشاق وخاف ان يهتدي اليه

والدها فيسترجعها بعد ان يقيم عليه الدعوى فتذهب اتعابه ادراج الرياح وفيما هو كذلك تذكر ان لابيه صديق حميم في لوندره يدعى المستر برد ولكنه لم يكن يعلم نمرة محله او ما يتعاطى من الاشغال فدعى الجوذي اليه وسأله عنه فاجاب انه يعرفه جيدا وانه تاجر عظيم وله علاقات كثيرة في فرانسا ففرح ادوارد عندئذ وامره ان بالمسير اليه فورا · فاطاع الحوذى اشاره وسار به حتى باب قصره فنزل الفتى ودخل بعد الاستئذان ولدى مقابلة المستر برد المذكور عرفه بنفسه فقابله ذاك بكل اكرام ورحب به غاية الترحاب · وبعد ان تناولا المرطبات ساله عن سبب قدومه اليه وعن احوال والده فاجابه ان والدى بكل خير غير انه متغيب الان في مرسيليا لبعض اشغاله واما قدومي فله سبب ذو اهمية وغاية رجائي مساعدتكم اياي على نجازه فاكون لكم من الشاكرين

— مهما كان الامر فاني اساعدك عليه جهدي

— لا احرمني الله من الطافك ياسيدي ولو لم اكن عالماً باني انال منك المساعدة لمـــا كنت تجرأت على الحضور اليك فحضرتك تعلم جيداً احوال والدي الكونت ومـــا هو عليه من الشهرة والغنا كما وانه لا يخفى عليك ايضاً معرفة الكونت مازار ·

— نعم اني اعرفه جيدا وهو ايضاً صديقي

— حسناً ياسيدي · فهذا الكونت لم يرزق سوى ابنة تدعى ليونتين التي عزم على تزويجها بالفريد ابن الدوق دي فلارد · اما انا فلشدة شغفي بالابنه لم ادع ذلك يتم بل اتفقت معها وفررت بها الى لوندره لاتمكن من

الاقتران بها على موجب قواعد الشريعة والشرف . فارجوك والحالة هذه مساعدتي بهذا الامر قبل ان يجد لي من يعارضني

— نعم الراي رايك ياولدي غير انه كـــان يجب عليك قبلاً طلبها من ابيها بواسطة والدك لان ذلك افضل من الفرار فانا لا يمكنني ان اتداخل بهذا الامر لئلا اجعل لوالدك سببا لقطع العلاقات الوديه التي بيني وبينه . والذي اعلمه بانه صاحب اليف للكونت مازار ولو شاء زواجك بابنته لفعل دون ان يكلفك هذا العنا

— فليثا كد سيدي برد بان والدي يحبني محبة عظيمه ولا يمنع عني شيئا ارغبه غير ان علاقاته الوديه مع الكونت مازار قد انقلبت الى عداوة عظيمه لاسباب ماليه حتى انه لم يعد يرغب ان يسمع احدا يذكره بحضرته وفراري الى ههنا كان اثناء تغيبه في مرسيليا كما قدمت فرجائي مد يد المساعدة اذا ولكم مزيد الفضل

فسكت المستر برد قليلاً واجابه: لا باس من ذلك ولكن اخبرني عن نمرة المنزل الذي انت قاطنه

— اني اقطن منزل نمرة ١٩١ من الشارع العام

— اذاً يمكنك ان تذهب الان اذا شئت وتستعد لعقد الزواج غداً في مثل هذه الساعه حيث احضر عندك برفقة الشهود والكاهن وان كنت بحاجة الى الدراهم فانا اعطيك ما ترغب

— عفوا ياسيدي فانك قـــد غمرتني بافضالك وها اني ارجع شاكراً حسن الطافك .

ثم قام فصافح يده ورجع الى منزله وقلبه طافح بالفرح لنوال مأربه

الفصل الثامن

في خيبة المسعى

فلنترك ادوارد متوجها الى منزله ولنرجع بالقاري الى باريز لنوقفه على ما تم لوالديه ووالدي محبوبته فنقول رجعت جرتريد من سين كلود حزينة على فراق سيدتها ولما بلغت القصر وجدت باب الحديقه مغلقاً كما غادرته فوصدته ودخلت غرفتها ورقدت مطمئنة كانها لم تأتِ شيئاً فريا· وفي الصباح نهضت كجاري عادتها وقدمت الافطار الى الكونت واضيافه وبعد ان اكلوا توجهوا الى المدينة لاعداد ما يلزم للفرح غير عالمين بما تم بالامس·

اما الكونتس فبعد ان تناولت افطارها قصدت غرفة ابنتها لتوقظهـا وتوقفها على ما صار الاتفاق عليه مع عزيسها الفريد وما دار بينهم من الحديث فوجدت بابَ غرفتها لم يزل مقفلاً فرجعت لظنها انهـا نائمة· ولما كانت الساعة التاسعة صباحاً والابنة لم تستيقظ بعد ذهبت ثانية وقرعت الباب بعنفٍ فلم يجبها احد فدعت جرتريد اليها وسالتها عما اذا كانت رات ليونتين خرجت· فاجابتها كلا يامولاتي ولا بد من انها تكون نائمة بعد: فغضبت الكونتس لدى سماعها ذلك وقالت لها وهل من ينام حتى هذه الساعه ولو فرضنا انها نايمة اما كانت تنتبه لقرع الباب

بعنف هكذا . وانا لااعهدها تنام قط الى هذه فلا بد ان يكون لذلك سبب . عليَّ بخادم يكسر القفل لان قلبي ينبئني بامرٍ اخشى وقوعه وعساه يكون غير حقيقي . وفي الحال حضر الخادم وكسر القفل فدخلت الكونتس الغرفة ملهوفة فوجدتها خالية وثياب الابنة مبددة فصفقت كفاً على كف واعلنت بالبكا واخذت تنوح وتلطم وجهها وتندبها هكذا : آه يابنتي ووحيدتي اين انتِ ولمَ لم تودعيني قبل ذهابك اما ذكرتِ تربيتي لكِ وحنوي عليكِ فما الذي اوجبك لمغادرة بيت والديك الذين يبكيان دماً على فراقك فما هذه الفعال اذاً . اه نعم ان ذلك ليس الا لفظاظة اطباع والدك ولكن لاباس ياحبيبتي فقط ذوديني بنظرة قبل مماتي وحسبي ذلك منكِ وفيما هي تنوح وتسكب الدموع وجميع الخدم وقوفاً حولها يبكون لبكائها . اذا بالكونت قد اقبل مع ضيوفه والفريد في اول الجميع بيده قرط مرصع بالاحجار الكريمة قاصداً تقديمه لخطيبته والسرور بادٍ على وجوههم جميعاً . غير ان سرورهم هذا لم يلبث يسيراً حتى انقلب الى حزن وكدر وذلك عندما صعدوا الى القصر وشاهدوا حالة الكونتس التي ذكرناها . وكأنَّ صاعقة انقضت على الكونت مازار افقدته الحيل والقوى فانه كان واقفاً مقطب الوجه ولسانه مرتبط عن الكلام واعضاوه ترتجف فاسند ظهره الى الحائط وشرع يتمتم بكلام لايفهم والغيظ يكاد يخنقه . فنظر اليه الدوق دي فلمارد نظرة المحتقر وقال صعبٌ عليَّ ايها الكونت مخاطبتك بما يهينك او يحط من قدرك . غير ان فعلك هذا يجبرني على ذلك اذ قد تاكد لي انك عديم الشرف بالكلية ليس لك

شهامة تذكر ولو لم يكن الامر كذلك لكنت لدى اطلاعك على ما جرى قتلت نفسك لتتخلص من العار الذي لحقك لعدم التحفظ على ابنتك والوقوف على خفاياها والا فاولا لملافاة الضرر قبل وقوعه اما انا فلا الومك ولكن اللوم كل اللوم فرنسوا رينيه الذي عرفني بكَ واني انصحك بان لا تفعل باحد ما فعلته بي حتى لا تهان

اما الفريد فكاد يتميز من الغيظ عندما راى هذا الاشكال ولم يعد يدري ما يصنع فاخذ يرغي ويزبد ويقذف الشتائم واللعنات على الكونت وذويه وكان جل مرغوبه طلب الكونت الى البراز ليفتك به انتقاماً منه . فافتكر اخيراً ان ذلك لايجديه نفعاً بل يذيد الابنة نفورا منه اذا وجدت لان حبها كان قد تملك فواده فصار يعض انامله ندما على فقدها وبعد ان اطال الفكرة بهذا الامر علم ان لابد من ان يكون لهـا محب غيره اغراها على الفرار معه اذ يستحيل عليها ذلك منفردة نظراً للاخطار والمصاعب التي يلزمها ان تتجشمها في سبيل الاسفار . ثم تقدم الى والده وطلب منه فرصة شهر يصرفها في السياحة لاجل ترويح النفس من عنا الاشغال فلم يعارضه والده بل صرح له ان يفعل ما يشاء وتوجه هو الى ليون مع صديقه رينيه وهكذا اصبح قصر الكونت مقراً للاحزان بعد تلك الزينة والافراح المتواصلة . اما الكونتس فكانت كلما افتكرت ابنتها تاخذ بالبكا والنوح لاعنة زوجها وسوء تدبيره وهو لايستطيع ان يجيبها بشيء حتى لايزيدها غما وكان في كل يوم يرسل خدمه في انحا المدينة للبحث عنهـا ويحرر الرسائل لاصدقائه في جميع الجهات بالاستقصا عن مقرها فلم يكن

من ينبئهُ بشيء او يوقفه على خبر فضاق لذلك صدره وتزايد همه حتى صار في حالة يرثى لها وكثيراً ما كان يفتكر بانها تكون قذفت بنفسها في نهر السين مفضلة الموت على الاقتران بالفريد غير انه لم يكن يظهر شيئاً من ذلك الى قرينته لكي لا تياس من عودتها

اما والدة ادوارد فانها امست لا يقر لها قرار بعد فراقه وما برحت تبكي بكاء مرًّا نادبة سوء حظها ساخطة على زوجها الذي لم يلبِّ طلبها ويحضر لاجل ردع ولده عن قصده طائفة في القصر كالمجنونة لا ياخذها هدو ولا اصطبار ولما جنَّ الليل وسمعت قصف الرعود وهطل الامطار وانقضاض الصواعق ارتعبت فرائصها وتاكدت انها فقدت ولدها لا محالة فتزايد حزنها وعلا نحيبها ولم يغمض جفنها الليل كله ·

ولما كان الصباح دخل الكونت جاك وعلامات الكدر والكآبة بادية على وجهه وقبل ان يحييها سألها بلهفة اين ولدي وما الذي اعتراه فاجابته تلك وهي تجهش بالبكا: من يعلم اذا كان باقٍ على قيد الحياة ام لا · فلم يكن انقضاض الصواعق باشد وقعاً على الكونت عندما سمع ذلك واضطرب اضطراباً عظيماً وبقي شاخصاً الى قرينتـه كانه صنم وارتبط لسانه عن الكلام وهبت نار الشوق في قلبه لولده فسالت دموعه بتكاثر على خديه وعلا نحيبه ولم يعد لسانه يطيعه لاعادة السؤال عنه من زوجته مرة ثانية فلما رات امراته كثرة بكائه وشدة اضطرابه اخبرته بما كان منه وانه ذهب بالامس الى لوندرا مع ليونتين ابنة الكونك مازار وانها قلقة الافكار لاجله لان الليلة الماضية كانت صعبة لكثرة الامطار والزوابع · فطاب عندئذ قلب

الكونت لانه تاكد حياته وسأل امرأته عن السبب فاخبرته بجميع مـا توقع واذ ذاك دعى اليه خادمه جون وامره بارسال رسالة برقية الى المستر برد في لوندرا يكلفه فيها بالبحث عن ولده والاستعداد لمقابلته وصرف ليله كله بالهموم والافكار مع قرينته وكان قلبه يتاجج غضباً على الكونت مازار الذى كان سبباً لذلك ولما كان الصباح ودع قرينته وركب القطار قاصداً مدينة لوندرا

الفصل التاسع

في مكيدة الفزيد

مـا كل ما يتمني المرؤ يدركه

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

ظن ادوارد بعد خروجه من لدن المستر برد انه بلغ مراده وسيتمتع غدا بمحبوبته على رغم كل حاسد غير عالم بما خباته له الايـام وانه قد وقع بمكيدة عظيمة لا ينجيه منها سوى حسن التدبير ومكابدة العنا فانه لدى وصوله الى البيت الذى ترك به محبوبته نزل من العربة وصعد الى غرفة ليونتين ليبشرها بالاقتران به بواسطة المستر برد . فوجد الغرفة خالية فارتاب في امرها وشرع يطوف في غرف المنزل والحديقه وكل مكان يعهد وجودها به فلم يحظَ بطائل . فصفق اذ ذاك صفقة المغبون ورمى بنفسه الي الارض باكيا كالطفل لفقد اصطباره ناشداً هذه الابيات:

يا قلبُ ذُبْ حزناً فما من راحمِ

يادمع صب حزناً بلون العندمِ

لم يبقَ لي عيشٌ يطيبُ بعيد ان

فارقت من سفكت بفرقتهـــا دمي

هيا اسعفوني بالبكـــا او مكنوا

قلبي الحزين من اللقا بتكرمِ

ولم يزل هكذا حائرا في امره حتى صعود الحوذي اليه فلما رأه على هذه الحالة قال له لا تياس ياسيدى وانا ضامن لك عودتها ولو امرتني لفعلت بدون امهال غير اني لا ارغب بقاءك في المنزل بمفردك حذراً من ان تنعكف على الاحزان فالاجدر بك ان تكون برفقتي كي ترى بعينك ما افعل ولكنني ارجوك انتظاري لحظة آتيك في خلالها بما يلزمك من الملبوس والسلاح وثم فالاتكال على الله ثم خرج وما عتم ان عاد اليه ببدلة يلبسها الحوذيون وقلده خنجراً امضى من المنية وغدارة مسدسة الطلقات وخرج معه لابساً نظيره وفيما هما سائران قال له ادوارد اذ اخبرنا البوليس السري بهذا الامر الا ترى ذلك اوفق لنا

— دع التدبيرلي ياصاح ولا تهتم بشيء فان الامر لايحتاج الى شرطة او خلافهم اتبعني فقط فاريك العجائب ولم يزالا سائرين حتى بلغا موقف العجلات حيث سأل الحوذي رفقاءه عما اذا كان احدهم اركب سيدة تبلغ الثالثة عشر سنه من منزل نمره ١٩١ الكائن بالشارع العام · فاجابه احدهم اني من منذ اربع ساعات قد اركبت من ذلك المنزل شابا يبلغ السابعـــة

والعشرين تقريبا ابيض الوجه طويل القامة حليق اللحية اعور العين ومعه الفتاة التي ذكرت اوصافها غير انها كانت مريضة لا تقوى على ركوب العجلة فاوصلتها الى المحطة حيث ركبا القطار قاصدين مدينة بورتسموث ولما سالته عما يعتريها من الامراض اجاب انها مصابة بدا السكتة منذ نعومة اظفارها وقد احضرها الى لوندره لاجل تغيير الهوا حسب امر الاطباء فلم يفدها ذلك شيئا وقصده الان ان يعود بها الى ذويها حيث يكون لديها من يقوم بخدمتها ثم ودعته بعد ان نقدني اضعاف الاجرة وعدت الى ههنا كما تراني

فلما سمع ادوارد كلامه كاد ان يقع مغشيا عليه لشدة ما اعتراه من الكدر والحنق على الفريد الذي فعل هذا الفعل وثبت لديه بانه تتبع خطواته من باريز املا بتخليص الابنة منه ليقترن بها فصاح من فوره قائلا خابت والله امالك ياالفريد وسوف ترى ما يحل بك ثم همس في اذن الحوزي ان اقصد بي المحطة قبل ان يفوتنا قطار بورتسموث لاني قد عرفت خصمي . فامتثل ذاك امره غير انهما عند بلوغهما المحطة وجدا ان القطار قد قام ولا يوجد خلافه الا بعد مضي ساعتين . فجلسا في احد غرف الاستراحة يتشاوران فيما يفعلانه . وقص ادوارد على الحوذي كيفية الامر من البداية وما هو السبب الذي حمل الفريد على اختطاف الابنة . فلما وقف ذاك على باطن الامر اطمان باله وعلم ان خلاص الابنة صار قريباً فاخذ يشجع رفيقه ويقص عليه النوادر المضحكة الى ان حان ميعاد قيام القطار الى بورتسموث فركباه وبودهما ان يطير

بها ٠ وكان الليل اذ ذاك قد اخذ في مد خيمة ديجوره الحالكة فطاب لهما لسفر وما زالا يتحادثان في هذا وذاك ويتشاوران في كيفية الوقوف على مقر الفريد الى ان رسى بهما القطار على محطة بورتسموث فقال ادوارد رفيقه ما رايك الان والى اين نمضي · قال الى قهوة الموند (القمر) حيث نجرع كاسي كونياك ونتدبر بعد ذلك فكن مطمئن البال فقط ولا تحمل ادنى هما لان خلاص الابنة مطلوب مني لان الفريد لابد له من المبيت في هذه المدينة وحيث انها وطني فيمكنني أن اقف على مقره باعظم سهولة واخلص منه الابنة ولو قدرنا انه ينجو من هذه البلاد فلا ينجو من خنجري هذا ٠ ثم دخلا القهوة وجلسا على حدة لاجل تتمة حديثهما وفيما هما كذلك اذا برجل طويل القامة مترديا بردا طويل وعلى راسه قبعة سودا عالية دخل القهوة وجلس قريبا منهما فشرع يتامله ويمعن به النظر حتى اتضح له اخيرا بانه الفريد عدوه الالد الذي حضر من اجله فقام في جبينه عرق الغضب وهم عليه بالهجوم وهو منهمك بمطالعة الجرائد فلحظ الحوذي منه ذلك وقبض عليه طالبا منه الافصاح عن سبب اضطرابه واحتدامه هذا فاخبره الفتى بان الجالس بالقرب منهما الفريد الذي اقتفيا اثره وربما يكون قد فتك بالابنة وجا يصرف الوقت هنا الى الضباح حيث يتيسر له الرحيل الى فرانسا

الحوذي وما قصدك الآن

— قصدي الهجوم عليه وخطف روحه اللعينة بهذا اللهزم وبعد فسيان عندي مت ام حييت

— سكن الان روعك ولا تحرك ساكنا لئلا نهدم ما بنينا · وهذا الامر لا يوخذ سوى بالتاني والرزانة فالبث اذا مكانك ودعني اجلس الى جانبه واستطلع الخبر منه وبعد نفعل ما نراه موافقاً · ثم قام فاخذ كرسيه وجلس الى جانب الفريد بعد ان حياه ثم ساله بالانكليزية : هل سيدي غريب الديار ام من هذه البلاد

— اني غريب ياسيدى وقد جئت منذ ايام لاجل السياحة بهذه المدينة غير انها لم ترق بعيني نظير بلادى

— ومن اى البلاد سيدى العله فرنساوى

— نعم فرنساوى واسمي الفريد ابن الدوق دي فلمارد من ليون

— ان سيدى لنعم المولى فان شهرة الدوق والده قد طارت الى جميع الاقطار : غير انى اعجب كيف ان هذه البلاد لم ترق في عيني سيدي حال كونها كثيرة المنتزهات والملاهي · انما الغريب لا يطيب له مقام الا في بلاده ولكن اذا شاء سيدى انتظامي في سلك خدمته اثناء اقامته هنـــا فيراني مستعدا لقضاء جميع ما يامر به وان شاء ايضاً التفرج على التشخيص الانكليزى الذى يصير هذه الليلة في المرسح الملوكي فينسر جدا وتطيب له الاقامة

— لا باس من ذلك غير انهُ لا يمكنني الاقامة الى مـــا بعد الساعة الاولى من منتصف الليل لان لي شقيقة مريضة غادرتها في الفندق وخرجت لاجل ترويح النفس قليلاً

— وباي فندق هي ياسيدي

ـ في هوتيل دى كوين (ملكة) نمره ٨

ـ ان هذا لفي غاية المناسبة لان الملهى قريب جدا من هذا الفندق يمكن لسيدى ان يرجع متي شاء وباقرب وقت

ـ هيا بنا اذاً وخذ هذا الريال وادفع ثمن ما شربنا · فقام الحوذى بعد ان حاسب صاحب القهوة همس في اذن ادوارد ان اذهب الى هوتيل دى كوين وانتظرني به فان ليونتين هناك · ثم خرج برفقة الفريد الى الملهى فطار قلب ادوارد فرحاً لعلمه بمقر محبوبته واستبشر بقرب خلاصها فقام لوقته وخرج يسال عن الفندق المذكور حتى اهتدى اليه · فطلب من الخادم غرفة يمضي بها سواد ليله ففتح له ذاك غرفة نظيفة فدخلها وجلس على مقعد ينتظر عودة رفيقه والغيظ يكاد يخنقهُ وفيما هو كذلك سمع صوت نحيب وانين وقائلة تقول

كم بتُّ اشكو ونار القلب تضطرمُ
والدمعُ من مقلتي القرحاء ينسجم
ولم ارَ مسعفاً ياقوم يسعفني
حتى الاولى طلبوا قربي فما رحموا
قد خانني الدهر في من كنتُ احسبه
نعم الحبيب وجاء الضد ينتقم
ما حياتي واضنى قلبي وواسفي
هل من مجير من الناس الاولى ظلموا

رحماك ربي اجر عذراء قد رميت
في بحر همٍّ بـه الامواجُ تلتطم
واسمع نداها وفرج عنهـا كربتها
واغفر لها دلةً ذلت بهـا القدمُ

فلما سمع الفتى هذا البكاء والانين هبّ من مربضه كالليث الغضبان واصاخ باذنه الى الغرفة التي سمع منها الصوت فسمع تاوهات تجرح الفواد صادرة من قلب ضعضعته الاسقام والكروب وكلمات لم يفهم منها سوى اسمه الذي كان القائل يردده مراراً فتيقن اذ ذاك انها لبونتين حبيبته التي هو في ظلبها فقرع الباب بعنفٍ وناداها قائلاً : لبيكِ يامالكة فوادي فها انا ذا قد اتيت لخلاصك من يد قناصك فافتحي لي الباب ولا تخشي باس احد اذ قد كفاني ماعاينت من المشقات والاتعاب في البحث عنكِ . فدعيني قبلا امتع نظري برؤياك واسدي الشكر لله تعالى الذي سهل لي طريق وجودك ؛ فلما سمعت الابنة صوت حبيبها استجمعت قواها الخائرة من شدة الجوع وقامت لتفتح له الباب فلم تجد مفتاحه فقالت آه ياحبيبي .. لقد تعزر الخلاص فاين المفتاح . فاجابها الفتى بحنقٍ ابتعدي عنه قليلاً وانا افتحه فان اللعين قد اخذ مفتاحه وذهب ورا لذاته واودعك ههنا ولكنني سوف اريه من اين توكل الكتف ثم انحنا على الباب ودفعه بعزم قوي فطار قفله ودخل فوجد الابنة واقفة الى جانب السرير ترتجف من كثرة الضعف والخوف . فتعانقا وتباكيا مليا حتي كاد ان يقعا مغشيا عليهما ثم جلسا يتشاكيان الم النوى والفتى

شاخص الى الباب ينتظر دخول الفريد ليفتك به . وبعد ان سكن جاشه امر الخادم بان ياتيه بما لديه من الطعام ليقدمه لمحبوبته لانها لم تكن ذاقت شيئًا منذ مغادرتها لوندره فاتاه ذاك بقليل من الجامبون والجبن وقنينة من فاخر الخمر فاكلت الابنة كفايتها وجرعت قليلاً من الخمر فانتعشت نفسها وشكرت الله على خلاصها ولما رآى ادوارد ان الفريد لم يحضر بعد وضع يده بيد محبوبته وخرج بها من الفندق بدون معارض الى ان صارا في الخارج فقالت له الابنة الى اين نحن ذاهبان الان واين الفريد الخائن

— ليس هذا وقت السوال يافاتنتي فان الوقت قصير وقدوم هذا الخائن صار قريباً لانه ذهب مع من يقصد قتله ولذا فاني اوثر ذهابك برفقتي الى المحطه فنركب القطار ونعود الى لوندرا وبعد ذلك انفرغ للانتقام منه . واذا خانته التقادير واوقعته في يدي هذه الليلة قتلته وارحت نفسي من شره

— انه يستوجب القتل ياعزيزي لان فعله هذا لمن اشر الفعال ولو لم يكن لي رجا بمراك مرة اخرى والاقتران بك رغماً من انفه لكنت قتلت نفسي وتخلصت من رويته

فاجابها ادوارد فداك النفس والنفيس ياقرة العين فاني وايم الله لم اكن لاتقاعد عنك ولو صار بك على متن الغمار . فدعيني الان اقتله واتخلص منه لان قتله اقل جزاء لما جنت يداه .

— انت وشانك ياقرة العين غير اني اخشى ان يكون قتله عثرة في

سبيل قصدنا فدعه الان يرجع الى الفندق بخيبة الامل ونحن الى لوندرا بالغين اربنا وان تجرا مرة اخرى على معارضتك في امر من الامور حق عليه القتل شنقاً

وفيما هما يتحدثان رآيا الفريد مقبلا برفقة الحوذي يتكلمان في محاسن التشخيص فامتقع لرويته لون ادوارد ونبض فيه عرق الغضب والعدوان فوثب عليه وثبة الليث الكاسر وبادره بلطمة قوية على جبهته القته الى الارض صريعاً لا حراك له

فلما رأت الابنة ذلك داخلها الوهم لاعتقادها بانه قتله واخذت ترتجف خوفاً من ان يطلع عليهم احد فيساقون جميعاً الى السجن ويحاكمون . فلحظ ادوارد منها ذلك وتقدم فقبلها وسار بها يقول لا تخافي ياعزيزتي فان الفريد لم يمت ولكنه لئن لم يتعظ بهذه اللطمة فلا ينجو مرة اخرى من خنجري هذا .

فقال له الحوذي : نعم ما فعلت ياسيدي وانا كنت اقصد قتله وزجه في البحر ولكنه قد نال جزاءه فعسى ان يكون ذلك كافياً لانه ابن اشراف نظيرك . اما الان فدعونا نسرع في سيرنا لئلا يفوتنا قطار الفجر ونقع في المحظور . ثم ساروا حثيثاً والابنة تلهث من التعب الى ان بلغوا المحطه فوجدوا القطار على اهبة المسير ولم يكادوا يدخلون احدى عرباته حتى سار ينهب بهم الارض مدة ثلاث ساعات فبلغوا لوندره ضحى النهار وليونتين تكاد ان لا تسعها الدنيا لشدة فرحها

اما اختطافها فكان له شأن عجيب وذلك: ان الفريد بعد ان كان قد استأذن والده في السياحة ذهب توا الى شاطي السين وشرع يسأل روساء القوارب البخارية عما اذا كان احدهم اركب فتاة بسن الثالثة عشر ليلاً ام راها مع احد خلافه فلم يكن من يجيبه بشي عنها فقصد ثمة قرية سين كلود ودخل فندقها حيث صرف سحابة النهار بدون فائدة ولما كان المساء دعى اليه الخادم ووعده بمائة فرنك ينقده اياها اذا انبأه عمن كان في الفندق مساء الليلة الغابرة . فتردد الخادم اولاً في اخباره خوفاً من ان يكون في الامر دسيسة غير ان لون الذهب بيد الفريد انطقه رغماً عن ارادته. فقال اذا شاء سيدي معرفة ذلك فعليه ان يبحث في الدفتر الذي تدون فيه جميع اسماء زائر بنا اما انا فقد علمت الذي يهمك والاشخاص الذين ترغب الاستقصا عنهم . ولكني لا انبئك عنهم ما لم تعدني وعدا شافياً بانك لا تذكر اسمي اذا كان في الامر دسيسة توجب لتادية شهادتي امام الحكومة لئلا يعلم سيدي بما كان مني فيطردني من خدمته فاجابه الفريد : ها اني اقسم لك بشرفي باني لا ابوح لاحد بما اسمعه منك فتكلم اذن ولا تخف

— حسناً يامولاي ولكن اين الذهب

— خذه لا بارك الله لك فيه . ونقده المائة فرنك

فلما راى ذاك ان الذهب قد صار في يده رقص فواده طرباً . وبدا يقص عليه كيفية حضور ادوارد اليهم ليلاً مع فتاة تبلغ الثالثة عشرة سناً وخادمة تناهز الخمسين وانه سمعهم يقولون بانهم مسافرون الى لوندره

— وما هي اسماء هولاء الاشخاص الم تدونها في دفتر الفندق

— كلاّ ياسيدي لانهم حضروا بعد منتصف الليل تقريباً والامطار تتساقط سيولاً وكانت الابنة مغشياً عليها لشدة البرد ولم يخرجوا الا بعد ان افاقت تماماً ويخال لي بان اسم الفتى ادوارد لان الابنة عندما افاقت من غشيتها نادته بهذا الاسم

— هذا الذي كنت اقصد معرفته فخذ ايضاً هذه الثلثين فرنك جزاء لخدمتك هذه . وان ارجعني الله سالماً من سياحتي اغنيتك

فاجابه الفتى وهو يدس الدراهم في جيبه: شكراً لك ياسيدي على عظيم كرمك وانا لم آتِ بشيء يستحق كل هذا الجزا

انك تستحق اضعاف ذلك ايها الشاب النبيل لانك كفيتني شر عناء عظيم كنت اكابده بغير طائل: فاذهب الان واستأذن سيدك في مرافقتي الى المحطة لاني مسافر الى الهافر

— انك لاتجد يامولاي قطاراً في مثل هذه الساعة فاصرف هنا سواد ليلتك وفي الصباح تسافر على الطائر الميمون .

فاستحسن الفريد رايه وبات تلك الليلة في الفندق وفي الصباح رحل الى الهافر ومنها الى بور تسموث حيث اخذ لنفسه بعض الراحة وشخص الى مدينة لوندره . ولثاني يوم وصوله اتفق انه بيد ان كان طائفاً في شوارعها على عجلة يجرها اثنين من جياد الخيل لاح له عن بعد شخص لينونتين في عربة اخرى مع حبيبها ادوارد ينزهان الطرف في فسيح شوارع المدينة والعجلة تسير بهما سيراً بطيئاً فبشر اذ ذاك نفسه بالظفر وامر السائق ان يتبع تلك العجلة عن بعد بحيث يتمكن من الوقوف على

مقر راكبيها ووعده بمبلغ وافر ينقده اياه بعد ان يمكنه من ذلك · فاطاع ذاك اشارته واتبع العربة المشار اليها الى ان وقفت امام منزل ادوارد الذي كان قد استأجره حديثاً · فنزل الفتى مع محبوبته وصعدا الى منزلها مسرورين من نزهتها غير عالمين بما خبأت لهما الايام وان الفريد مقتفٍ اثارها قاصداً تنغيص عيشهما

اما الفريد فبعد ان تحققها اخذ نمرة المنزل وامر السائق ان يعود به الى الفندق ويوافيه في صبيحة اليوم المقبل لان الليل اذ ذاك كان قد خيم

وفي الصباح عاد اليه الحوذي كما امره فركب العربة قاصداً منزل ادوارد فراه راكباً بمفرده لانه كان متوجهاً الى مقابلة المستر برد كما تقدم فامهله ريثما ابتعد قليلاً ونزل من العربة وصعد الى المنزل بغير استئذان الى ان صار امام ليونتين وهي لا تشعر به لانها كانت تطالع كتاباً · ولما راته امامها على حين غفلة رجفت اعضاوها خوفاً من شره لتوهما بانه اتٍ للانتقام منها فعرف هو ذلك منها وبادرها بقوله: لا تعجبي ياسيدتي من جراءتي هذه في دخولي عليك بغير استئذان وان يكن ذلك مخلا بالاداب غير ان حبكِ الذي فتنَ عقلي قادني الى ههنا رغم انفي لاستعطاف خاطرك للرفق في قتيل هواكِ والمنة عليه بان يكون لك بعلا كما سبق وعد والدك له · فاجابته الابنة: انك لو تبصرت قليلا قبل حضورك الى هذه المدينة لما كنت هجرت بلادك ووالديك وسعيت باقتفاء اثاري · لان بفراري من باريز دليل كافٍ على عدم محبتي اياك فاقتصر اذا وعد

من حيث اتيت ·

— ولماذا ياعزيزتي فهل الذي تحبينه الان افضل مني

— ان لم يكن افضل فهو اشرف واجمل فاخرج ولا تطيل الكلام

فلما سمع الفريد كلامها هذا كاد ان يفتك بنفسه لشدة احتدامه فاستل خنجرا امضى من المنية وهجم عليها قائلا : ويحكِ ياخائنة المثلي يقال هذا الكلام · ومتى كنت موضوعا للهزء عندكِ وعند والدك كي تفعلا معي ما فعلتماه · فوالله العظيم وشرف والدي الدوق فلمارد لئن لم تطيعي امري وترجعي الى باريز هذه الساعة هدرت دمك بهذا اللهزم واحرمتك لذة المعيشة

اما ليونتين فعندما سمعت هذا التهديد ورات الخنجر مشهرا في يدهِ خارت قواها لشدة خوفها وسقطت الى الارض مغشيا عليها · فاحتملها ذاك بين ذراعيه ووضعها في العجلة وسار بها الى المحطة حيث ركب القطار قاصدا بها مدينة بورتسموث · وانزلها في هوتيل دي كوين وخرج لشانه بعد ان وصد الباب واخذ مفتاحه فبقيت تلك المسكينة ملازمة لغرفتها تندب سوء حظها وتذم الزمان الذي اوقعها في يد هذا الظالم الى ان جاء ادوارد وخلصها كما قدمنا ورجع بها الى لوندره

اما الان فلنرجع الي سياق الحديث من خصوص ليونتين التي حينما رات نفسها انها قد صارت في بيتها وادوارد حبيبها الى جانبها وقعت على عنقه تقبله وتشكر همته لكونه لم يتاخر عن انقاذها من يد الفريد الخائن · فقال لها الفتى اني كنت اليت على نفسي ياعزيزتي ان اطوف الارض

باثرها البحث عنك والحمد لله الذي كفاني شر العنا وسهل لي سبيل الوصول اليك وما الفضل بذلك الا لحضرة هذا الشهم (مشيراً الى الجوذي) الذي مدني برايه السديد وارشدني بحسن تدبيره والا كان فاتني المقصود ورجعت اتعثر باذيال الخيبة · ثم تناول سفتجة بقيمة الف فرنك وقدمها له سائلاً اياه قبولها · فقبلها ذاك مثنياً على كرمه ثم قال اني لم افعل يامولاي الا بعض ما يجب عليَّ فعله لاني خادمك وجل مرغوبي تمام سعادتك مع حضرة سيدتي هذه الفاضلة · وانا عالم بان اللطمة التي لطمتها لمن كان سبباً في تكدير راحتنا جميعاً ليست بالقاضية · ولذا فاني لا اشك في رجوعه مرة اخرى الى لوندره ليعوض ما فاته ولكني ساقف له بالمرصاد حتى اذا رايته اهلكته شر هلكة وكفيتكما شره كي لا يبقى لكما معارض او مزاحم البتة ·

الفصل العاشر

في مقابلة ادوارد لابيه

وبعد ان اتم الجوذي كلامهُ دخل خادم المستر برد بغتةً وقال لادوارد ان سيدي تحير بالامس عندما حضر الى منزلك ولم يجدك فيه · والان يرجوك الحضور اليه ليطلعك على امر يهمك

فقام الفتى عند سماعه ذلك وهم بالذهاب فتعلقت الفتاة في طرف ثوبه قائلة: اني لا امكنك من الخروج ما لم اكن برفقتك لاني لا آمن البقا ههنا اذ ربما جد لي مصيبة اخرى فافقد حياتي فقال لها الفتى اني

لاالومك علي طلبك هذا ولو امكني ان اخلي لك محلا بجانب قلبي لما تاخرت فهلي الان برفقتي ولا تحملي هماً · ثم ركب الاثنان العربة يتقدمها الحوذي وخادم المستر برد الى ان وصلا فوجدا برد بانتظارهما فسلما عليه ودخلا الى قاعة الجلوس فرآيا شيخاً كبيرا يجلله الشيب جالساً على مقعد من المخمل الفاخر يطالع الجرائد ·

ولدى رويته هتف ادوارد قائلا والدي ابي ورمي بنفسه على يديه يقبلها فقام عندها الشيخ المذكور وبعد ان اعتنقه طويلا اجلسه الى جانبه بغير ان يفوه بكلمة ودموعه متسابقة على خديه

اما ليونتين فكانت واقفة لاتبدي حراكا فاخذها المستر برد الى جانبه وقال لها طيبي يابنتي نفسا وقري عينا وبما ان والد حبيبك قد حضر صرنا نجري اللازم بخصوص اقترانك به · ففرحت الابنة لذلك وقامت فقبلت يد الكونت جاك طالبة منه الصفح عما بدا منها · فقال لها الكونت اني لاالومك يابنتي على ما فعلت بقدر ماالوم ولدي هذا الجاهل لانك لست براشدة نظيره · ثم تنهد ونظر الى ادوارد قائلا اني لم اكن منتظرا منك ياولدي هذا الفعل الذي يخالف ارادة والديك ويحط بشرف عائلتك · لانك تربيت في مهد الاداب ورضعت لبن المعارف وفوق ذلك فانت عالم بان ليس لي عماد وذخيرة في دنياي هذه سواك فما هذا الفعل اذا · الم تحرك الشفقة قلبك على والديك اللذين احناهما الكبر حتى اتبعت جهالتك وفعلت هذا الفعل الذي جلب لنا القلق وغادرت والدتك تبكي دما لبعادك عنها · وما الذي كان يضربك لو اخبرتني بانك ترغب الاقتران

بهذه الابنة . اما كنت ابلغك منتهى اربك .

فاجابه الفتى وهو يجهش بالبكا: ان ذنبي صغير ياوالدي في جانب عفوك وحلمك . وفعلي هذا كان رغما عن ارادتي وشريف طباعي . لان الدوق دي فلمارد عجل في الامر وعين زفافها على ولده بعد اربعة ايام من الخطوبة . واذ لم يكن لي من استعين به سواك لنوال اربي خشيت ان يفوتني الغرض وانت متغيب في مرسيليا . ففررت اذ ذاك بها الى ههنا عالما بانك تصفح عن ذنبي لدى اطلاعك على باطن امري

فاستغرق عند ذلك المستر برد بالضحك وقال له لله درك ما اعظم نخوتك واقوى جنانك وليس فيما فعلت لوم ولا تثريب عليك لان الجهل هو الذي زينه لك واغراك عليه والعاشق يرى كل شيء قريب المنال هين البذل في سبيل غايته غير مبال بالاضرار والصعوبات: ثم التفت الى الكونت وقال اني اشير عليك ياحضرة الكونت بان تبادر بزواج ولدك بهذه الابنة الفاضلة التي فضلته على من سواه فتكون فعلت فعل الرجال الخبيرين فان العشق كما لا يخفاك جنون ولا دوا له سوى الوصال

فاجابه الكونت: اني لست بمعارض في شيء من ذلك ولكني كنت ارغب ان يكون الامر على غير هذه الخطة التي اتخذها ولدي كي لا ندع للناس سبيلا للتكلم بما يشين بشرفنا

— دع الناس وشانهم فان هذا الامر ليس بالغريب فيما بيـ ـه كما لا يخفاك ومن الغد ساحرر اوراق الدعوة واستعد لعقد زواجهما في منزلي واجعلها ليلة حافلة شاملة جميع المسرات وبعد ذلك اذهب الى باريز

لاحاطة علم الكونت مازار بما تم وانال منه الصفح عنها ليتسنى لهما الرجوع الى الوطن العزيز ثم قام فاخذ بيد الابنة وقدمها الى الكونت جاك قائلا: ارجوك ان تقبل هذه الفتاة الودودة التي غادرت بيت ابيها حبا بولدك . فاحمر اذ ذاك وجه الابنة خجلاً وانحنت فقبلت يد الكونت الذي اجابها وهو قابض على يدها : لا تهتمي يابنتي بشيء ولا تتكدري فاقترانك بولدي مما يسرني كثيرا وانت منذ الان عندي بمنزلته

— اشكر الطافك ياسيدي على هذا الالتفات العظيم واني لا اجهل مطلقا إنك تعلم ما الذي حملني على الخروج من منزلي . فقد اراد والدي ان يزوجني بانسان لا يعلم درجة كراهتي له فله العذر

— نعم ما فعلت يا ابنتي وها انا منذ الان ساسعى جهد الطاقة في استجلاب مرضاة والدك عنك فاطمئنّ بالاً . وعقب ذلك قال المستر برد بما ان الامر قد فوض انجازه لي فارى من الموافق ان يكون اكليل العرس بعد خمسة ايام وارجو أن لا يعارض سيدي الكونت في ذلك

فقال له الكونت . انا لا اعارض بيد اني كنت ارغب ان يتم اقترانهما في باريز بحضور والديهما والاقارب ليكون الفرح شاملاً لكنني اخشى طروق عوائق هناك تحول دون مقصدنا . فاقترانهما هنا اوفق ثم قاموا جميعاً لمناولة الغذاء وقلب ادوارد وليونتين ممتلآن سرورا وعند العصر خرجوا جميعا للنزهة خارج المدينة فكان الكونت والمستر برد في عجلة وادوارد ومحبوبته في عجلة اخرى

الفصل الحادي عشر

في المباغتة والبراز

ان ادوارد بعد ان لطمه الفريد تلك اللطمة الفجائيه التي القته صريعا على قارعة الطريق ظن انه قد بلغ مرامه ولم يعد لذاك يد للتعرض له ولا جرأة على اتباعهِ مرة ثانيه فقفل راجعا الى لوندره غير مكترث به كانه ليس بعاشق نظيره · اما الفريد فبقي منطرحا على الارض فاقد الرشد حتي مرّ عليه رجال الحرس واذ رأوه على تلك الحالة ظنوا انه سكران فحملوه الى السجن ولما كان الفجر افاق لنفسه وبدأ ينظر يمنةً ويسرةً ليعلم مقره فلم يكن يهتدي من شدة الظلام فاصاخ قليلاً لعله يسمع صوت احد يسأله فلم يكن يسمع سوى هدير البحر وهزيز الرياح فتوهم انه في حلم فمر يده على جبينه لينبه فكرته فشعر ببعض ألم لم يعهده قبلا · واذ ذاك تذكر تلك اللطمة الفجائية التي داهمته عند رجوعه من الملهي وشرع يلوم نفسه لمرافقته اناسا سفلا لا يعرفهم وذم الزمان الذى اوصله الى بلاد قدره مجهول فيها وصح عنده بان الذي لطمه هو ادوارد بعينه · فكظم غيظه وبات ينتظر الافراج عنه ليأخذ بثاره منه مصمما النية على قتله · وفي الصباح دخل عليه حاكم السجن ووبخه على سكره ثم اطلق سراحه بعد ان غرمه بعض المال · فذهب كاسف الوجه يعض كفيه ندما على خروجه تلك الليلة الى ان بلغ الفندق ففتح غرفة ليونتين فلم يجدها فصفق كفا على كف آسفا لحبوط مسعاه · ثم قصد المحطه من

فوره وركب القطار الى لوندره · ولدى وصوله ركب عربة ومضى يتجسس اخبار ادوارد عدوه جائلا من شارع الى آخر لا ياخذه ملل ولا فتور حتى عصاري النهار اذ كان في اول الشارع الملكي راى عجلتين مقبلتين نحوه تسيران سيرا حثيثا وفيما هو يتأمل ركابهما وقع نظره على محبوبته والى جانبها شاب لم يتمكن من معرفته لان غطا العجله كان يحجبه ولم يكن ظاهرا من جسمه سوى قدميه لكنه ثبت لديه بانه ادوارد لا سواه فتنحى بعربته الى جانب ريثما تمكن العجلتان من المرور ثم امر السائق ان يتبعهما الى ان تقفا ولم يزل يتبعهما الى ان صارتا امام قصر شاهق تحيطه حديقة غناء فيها من كل فاكهة زوجان فوقفتا ونزل الكونت والمستر برد ودخلا الحديقة المذكورة اولا ثم تلاهما ادوارد ويده بيد محبوبته لكنه لم يكد ينقل قدمه حتى هجم عليه الفريد بغتة والخنجر مسلولا في يده قاصدا خطف مهجته · فحانت من الجوذي التفاتة الى الورا فراى الفريد مقبلا بخنجره نحو سيده والشرر يتطاير من عينيه فصاح به صيحة عظيمة قائلا مكانك ياخائن ورماه باحدى مخدات العربة على وجهه وهجم فاخذ منه اللهزم وهم بطعنه واذا بادوارد يناديه قائلا كف يدك ياصاح وانتظرني فان قتله لا يفوتنا وبما انه قد اتبعنا ثانية فسوف اريه كيف تكون الخيانة · ثم تقدم اليه وبصق في وجهه وقال: ان اخذ الثار لا يكون غدرا ياجبان · ففي المرة الاولى عفوت عنك لكي تنتبه لنفسك وترجع عن غيك وتعود من حيث اتيت فلم ينجع فيك ذلك بل داومت على اقتفاء اثاري اشفقتك بي وتاخذ محبوبتي التي قاسيت لاجلها الاهوال · ومع كل فاني انصفك

ايضا هذه المرة ولا آخذك بالخيانة كما فعلت انت بل ادعوك غدا الى البراز في نفس هذا المكان عند تضاحي النهار فاذهب اذا واستعد لموتك ياعديم الشرف وسوف ترى نتيجة البغي والعناد وعلى من تدور الدوائر يانذل الرجال ·

فلما سمع الفريد ذلك كاد ان يفتك بنفسه لشدة غيظه واجابه قائلاً ، الآن قد انصفت يا غدار وسوف اريك من الذي يضام فان غدا لناظره قريب · ثم ركب عربته وانقلب عائدا الى المدينة ورجع الآخر الى محبوبته فراها ترتعش من الخوف · فضحك منها وقال لها لاتخافي ياعزيزة الروح فان هذا الخائن لا يتمكن من اختطافك مرة اخرى وغدا اريك ما يحل به

— وما الذي تقصده به أقتله · حذار من ذلك لئلا تزيد والدي غضبا علينا ونقع في مشكل عسر الحل فان امكنك ان تصادقه وتكفينا شره فلا تتاخر

— كيف اصادقه وقد قصد قتلي فوالله اني لفي حيرة من شفقتك عليه ولكن لا تهتمي قط بهذا الامر لاني فاعل كل ما به رضاك فهلمي الان الى الحديقة لنتم نزهتنا وغدا يفعل الله ما يشاء ثم دخلا البستان فوجدا المستر برد والكونت يتجاذبان اطراف الاحاديث السياسية غير عالمين بما جد في الخارج فجالا معهما قليلا الى ان اذنت الشمس للرحيل فرجعوا جميعا الى القصر ·

وفي الصباح دعى ادوارد السائق وامره بان ياتيه بحسام صقيل لاجل

براز عدوهِ وشاهد اخر يكون معه لمعاينة البراز · فاجابه ذاك : لو امرني سيدي بمبارزته لقلدني منةً لااقوم بوفائها مـا حييت لان بقلبي اضعاف ما بقلب سيدي من الحنق عليه

— لايتكلف احدٌ مبارزته سواي لاني اود ان اخذ ثاري بيدي فاذهب اذا واتيني بما امرتك به وحذارِ من ان يطلع والدي على شيء من ذلك لئلا يغضب

فمضى الحوذي وما عتم ان عاد اليه بالسيف والشاهد كما امره · فاخذ الفتى اهبته وركب العربة وتوجه الى ساحة البراز مع شاهديه فوجد خصمه بانتظاره مع شاهديهِ ايضاً · فامتشق الفتى عند ذلك حسامه واوما به الى خصمه ليتقدم · ولم يكن كلمح البصر حتى استل الاخر سيفه وهجم عليه بجاش ثابت واخذ معهُ في الجولان مدة خمسة عشر دقيقة بغير ان يملك احدهما الاخر بضربة واعين الشهود شاخصة اليهما · واذ رأى ادوارد خصمه خبيراً في الطعان شرع يراوغه ويبدل الابواب حتى اختبره جيدا وعرف كيفية التمكن منهُ ثم داناه وضربه بالسيف على كتفه الايسر كاد يبريه فلم يشاء ذاك ان يظهر على نفسه الفشل لدى وقوع الضربة بل هجم على خصمه هجمة الليث القسور ورفع يده بالحسام وهوى به على راس عدوهِ الذي خلا منها وبادره بضربة اخرى على فخذه الايمن ارداه الى الثرى مضرجا بدمهِ المتدفق كافواه الذنوب · فتقدم الشهود من ثم وحملوه الى المستشفي غائبا عن رشده

فاثر منظره هذا في ادوارد كثيراً وندم على ما فعل وصمم النية على

مصادقته اذا بقي حياً ثم رجع الى بيته كئيباً فوجد ليونثين بانتظاره متاهبة للخروج برفقة والده الى سوق الصاغة لشرا بعض الحلى ورغبت اليه ان يذهب معها فاعتزر لها بكونه لم ينم تلك الليلة والتمس منها ان تسمح له بالراحة مدة وجودها مع والده . ثم دخل غرفته واخذ يفكر فيما يفعله لكتمان امر البراز ومصادقة الفريد قبل ان اطلاع والده عليه فيلومه ولا يعود يساعده بشيء . وتذكر كلام والدته حينما نصحته بالعدول عن هواه وهو لم يرتدع وكيف انها غضبت عليه وتركته يفعل ما يشاء بقولها له اذهب ايها الولد العديم الطاعة . وثبت عنده بان جميع ما يقاسي من المشقات والمصائب ناتج عن غضبها عليه فقلق اذ ذاك قلقاً عظيماً واخذ يمشي في الغرفة ذهاباً واياباً ضارباً اخماسه لاسداسهِ

حائراً في مـا اليه امرهُ   حائرٌ والمرءُ في المحنـةِ عي

واذ كان على هذه الحالة طرق اذانه قرقعة عربة والده العائدة من السوق فهرع لاستقبال محبوبته وعلامات الكآبة بادية على وجههِ . فلما رآته بشت في وجههِ واخرجت من جيبها الحلى التي هاداها بها والده وقصت عليه كيف انهُ لاطفها ووعدها بانهُ يشملها دائما بانظارهِ . فتظاهر الفتي بالسرور رغماً عما به من الكآبة وقلق الضمير غير انَ ذلك لم يخفَ على الابنة لكنها لم تشَ ان تساله عن السبب فوراً بل تركته الى فرصة اخرى راجية ان يطلعها عليه بدون ان تتكلف سواله

ولما لاح فجر النهار التالي امر الفتى الحوذي ان يسير به الى المستشفى الذي حمل اليه الفريد فسار به ذاك على غير رضي الى ان بلغ المستشفى

فدخل الفتى غرفة الفريد فوجده ملقى على سرير الاوجاع يتململ من الم الجراح وهو في هذيان شديد من وطاءة الحمى يتاوه من فواد جريح ويئن انين الثكلى ويتلفظ بهذه العبارات ٠٠٠ آه ليونتين ٠٠٠ انتِ ٠٠ انتِ سبب جراحي ٠٠٠ انتِ سبب تشتت شملي وموتي ياخائنة ٠٠ انتِ خدعتني يادنيئة الاصل ٠ وجميع ما عانيت ٠٠ كان ٠٠ بسببك ولاجلك ٠٠ ومع ذلك لم تحفلي بي بل فضلتِ عدوي عليَّ ٠٠ آه يالمصابي يالعذابي ٠٠ فاين ٠ اين انت ياابتِ الحنون ألم يعد يهمك امر ولدك ٠ فلم لاتهرع لنجاته ٠٠ آه صبراً ٠ صبراً ٠ ولكن اين انا ٠ وكان ادوارد جالساً بجانب سريره يسمع تاوهاته ويكاد قلبه ينفطر حذناً عليه ٠ فاخذ يبكي بكاء مرًّا ويلعن الساعة التي بارزه بها ٠ ثم ادنى منه راسه وناده بصوت حزين قائلاً الفريد اخي ٠ أمل اليَّ نظرك ٠ ففتح العليل عينيه لدى سماعه هذا الندا ولما عاين ادوارد امامه كاد ان يختنق من الغيظ فحول عنه نظره وقال له مـــا بالي اراك هنا ياغادر فما الذي ترغبه ايضاً مني ٠ فهل جئت تتم قتلي كانهُ لم يكفك ما اصابني ٠ فاقتلني اقتلني اذا شئت وارحني مما انا به فقد لذَّ لي الموت ولم يعد لى رغبة في الحياة ٠ فاجابهُ ذاك ودموعه ملء عينيه : معاذ الله ان اقصد بك شرًّا ياعزيزي ٠ فانا لم آتِ الا لطلب مصادقتك ومصافاتك بعد ان انال الصفح عن ذنبي لاني نادم على ما اوصلت اليك من الاذى

فحول العليل نظره عندئذٍ اليه وقال له : اني لااتاخر عن مسامحتك ايها الاخ اذ لم يعد لي مطمع في الزواج او خلافه وها انا ذا اموت ناعم

البال . ولكني ارجوك ان تلاحظ مكان دفني لتوقف والدي عليه ليتمكن من تكريمه لاني وحيده وانا لا الومك على ما صدر منك لانك لم تعاملني الا بالعدل والانصاف

— لاتقل هكذا يااخي فان الجرح عرضي وغدا نقوم معافى انشاء الله وانا دايماً بين يديك تجدني متى طلبتني فاذن لي فقط بتقبيلك قبلة الاخا ليطمئن قلبي . ثم قبله وهو غائب عن رشده لان وطاة الحمى كانت قد ثقلت عليه . ولما كان غير ممكن لادوارد ان يطيل المكوث عنده دعى اليه الخادم الموكل بمراعاته وامره بالانتباه الكافي اليه واعداً اياه بجائزة سنية لدى شفا المريض ثم قبل الفريد ثانية ورجع الى بيته مبلبل الافكار فوجد ليونتين بانتظاره فاجهد نفسه في اخفاء كدره وتسكين بلباله ولكن .

قلوب العاشقين لها عيونٌ . ترى ما لا يراه الناظرون

فريثما رأته قبضت على يده وقالت : اني استحلفك ياعزيزي بشرف عائلتك وحبي اياك ان تخبرني بسبب اضطرابك وانشغال فكرك هكذا لاني قلقة جدا لذلك . فلما رأى الفتى ان لامحيص له عن اظهار الحقيقة قص عليها خبر مبارزته لالفريد وانه في المستشفى يقاسي العذاب الاليم

فصفقت تلك اذ ذاك كفاً على كف قائلة ياللخيبة المسعى ويا لضياع تعبنا . ثم اخذت تلومه لكونه لم يستعمل الحزم والتروي ويمتنع عن مبارزته: فاجابها ذاك : اني باذل ما بوسعي الآن لمصادقته وها انا ذا آتٍ من

عيادته ولكنني لم استطع اطيل معهُ الخطاب لاشتداد الحمى عليه · وفارقتهُ في حالة يرثى لها بعد ان اوصيت الخادم بمراعاته لحين عودتي ثانية

ـــ وكيف يمكن ان يصفي لك قلبهُ ويرغب في مصادقتك بعد ان انزلت به النكال والقيته على فراش الموت · آه يا ادوارد ما انكد حظي وانحس طالعي · فلم بارزته ياحبيبي بغير علمي ألم انهك انا عنهُ · وكيف تصنع غدا عندما تنشر الجرائد هذا الخبر ويطلع عليه والدك ام الدوق دي فلمارد والد خصمك الذي لا اخاله يتاخر عن الحضور الى لوندره للاخذ بثاره

ـــ سكني روعك ياعزيزتي فان الذى جرى كان رغماً عن ارادتي وعناده هو الذي اوصله الى هذه الحالة وهل تظنين في انهُ كان عفى عني لو تمكن من قتلي · لا لعمري · ومع ذلك فاني ذاهب لعيادته بعد متاولة الغذاء لا تمكن من زوال الحقد من قلبه كي لا يعود يزاحمني عليك اذا شفي

ـــ افعل ما بدا لك غير اني ارى ذلك مستحيلاً

ـــ اعلمي ياعزيزتي ان العاشق يضحي حياتهُ في سبيل هواه ولا يرى شيئاً مستحيلاً لديه · وذلك قد شاهدته مني · فالفريد قصد ان يحذو حذوي ويزاحمني عليك فلاقى سوء مصرعه وذلك اقل جزاء يستحقه وما من احد يلومني عليه غير انه يعز عليّ ان ارى شابا نبيلا نظيره ملقى على فراش الموت بسببي بعيدا عن اهله ووطنهِ لا يجد له معينا · فاذا صادقتهُ وطلبت منه العفو عن ذنبي اكون فعلت ما يجبرني عليه شرف

اصلي وحسن تربيتي فكوني اذا مطمئنة ولا تحملي هم احد

— اني مطمئنة يا عزيزي ولكن ...

— ولكن يفعل الله ما يشاء فهلمي الان لمقابلة والدي لعله يقلق لغيابي ثم دخل الاثنان وعلامات الحيرة بادية على وجهيهما وجلسا يتحدثان في امور شتى

الفصل الثاني عشر

في قطع الرجا

صرف ادوارد بقية يومه بهم زائد لانه رأى ان فرحه صار قريباً والفريد ملقى على فراش الموت كانه يبكته على الاذية التي اوصلها اليه بقوله قتلتني ياظالم لاجل غيرتك واحرمتني لذة الحياة . وكلما ردد في فكره كلامه الذي كلفه بتبليغه لوالده بعد موته يكاد فواده ان ينفطر من الحزن. فبات تلك الليلة ايضاً على احر من الجمر ولما لاح الفجر هب من رقاده مذعوراً وخرج بغير ان يعلم احدا الى ان دخل على العليل فوجده بحالة تفتت الاكباد لان جراحه كانت قد انتفخت كثيرا واشتدت عليه عوارض الحمى حتى صار في حالة التلف فجلس الى جانبه كاسف البال وناداه فلم يسمع جوابا سوى أنات مترادفة وتاوهات تجرح الفواد فزاده ذلك حزنا وشرع يبكي بكا من لا يريد ان يتعزى حتى تقرحت اجفانه وبينما هو كذلك دخل طبيب المستشفى وفحص المريض فوجد ان الحمى قد اشتدت وطأتها عما كانت عليه بالامس فارتاب في امره اذ

راى حالتهُ منذرة بالخطر الشديد فوصف له علاجاً خلاف الذي كان يتعاطاه واراد الخروج فناداه ادوارد مهلاً ياسيدي فان المريض اخي ويصعب عليّ ان اراه هكذا فارجوك مراجعة البحث و بذل قصادي الجهد انا مستعد لكل ما تأمر به · فاجابه الطبيب : اعلم ياصاح ان حالة والمريض لذات خطر عظيم وشفاءوه غير مضمون لان جراحه بليغة ولا بد من ان تكون الجارحة التي جرح بها مسمومة والالا لما كانت عجلت عليه وقوع هذه الحمى · فسلم اذاً امرك لله واستعن به على هذا المصاب

فلم يكد الفتى يسمع هذا الكلام حتى كلل جبينه العرق البارد · وبقي كانهُ ميت بصورة حي لانه تيقن بان الدوق فلمارد لم يكن ليدع دم ولده يهدر سدى ويتقاعد عن الاخذ بثاره مع ما هو عليه من الجاه والاقتدار خصوصاً اذا كان البراز على غير الشروط القانونية · وطفق يفكر في كيفية الخلاص من هذه المصيبة فلم يجد له ملجا غير الفرار الى بلاد يجهل بها مربعه فيكون بها الى ياتيه الله بالفرج اوامر من عنده فعقد النية على ذلك وقام فنظر الى الفريد اخر نظرة وقبله قبلة الوداع وخرج الى بيته مبلبل البال · وفيما هو صاعد سمع والده يرغي ويذبد والمستر برد يسكن غضبه بقوله ياحضرة الكونت ان ولدك لم يفعل ذلك الا لاضطراره لاني اعهد به الرزانة ووفرة العقل اكثر من شبان هذا العصر وليس للدوق فلمارد حق لرشقك باسهم الملام لان ولده هو الجاني على نفسه · غير ان ذلك لم يكن كافيا لتسكين غضب الكونت لان الدوق دي فلمارد كان من اعز اصدقائه وعلاقاته معه كثيرة فاخذ يتافف

ويفرك كفيه ندامةً على عدم مراعاته احوال ولده منذ الابتدا واذ ذاك دخل ادوارد وقلبهُ يخفق خوفاً من والده وقبل ان يفوه بواجب التحية رمى اليه والده بجريدة التيمس قائلاً . خذ طالع خبر ما جنته يداك ياعديم النخوة والشهامة . فبهت الفتى لدى سماعه هذه العبارة واراد ان يعتذر فالتجم لسانه عن الكلام فتجلد بقدر استطاعته وتناول الجريدة عن البساط فرأى في اول صفحاتها ما هو آتٍ

براز فرنساوي

نهار امس الواقع في ١٣ الجاري تبارز اثنان من اشراف الفرنسيس بالحسام في احدى جهات لوندره يدعى احدهما ادوارد ابن الكونت فورت دي جاك والآخر الفريد ابن الدوق دي فلمارد فكان الفوز للاول بحيث ضرب خصمه ضربتين قاطعتين الواحدة على كتفه الايسر والاخرى على ساقه الايمن فتدفقت دماؤه وسقط الى الارض صريعاً ثم حمل الى المستشفى واحواله تنذر بالخطر الشديد .

فاشتد خوف ادوارد عند ذلك وسقطت الجريدة من يده لارتعاشه واخذ يردد في فكره وصية الفريد ثانية ويتامل الحالة التي غادره بها ويتاسف . وخشي ان يفقد ذاك الحياة فيؤخذ هو بجريرته ان لم يبادر الى الفرار . فدنى من ابيهِ وترامى على اقدامه قائلاً اصفح يا ابت عن ذنبي اذ قد سبق السيف العذل وصرح لي بالفرار من هذه البلاد التي امسى بقائي بها خطراً

— واي خطر على حياتك ياغبي او ما الذى جد الآن اخبرني؟

— لم يجد شيء ياوالدي . غير ان الفريد في خطر عظيم جدا وربما توفي هذا المسا

فصك الكونت وجهه اذ ذاك وقال: هذا المسا آه يا لها من مصيبة عظيمة فهذا الذي كنت اخشاه . ثم طفق يتمشى في الغرفة ويفرك يديه اسفا على العليل وادوارد جالس مخلوع الفواد يتامل حركاته ودموعه لا تنفك عن الانسكاب . ثم وقف الكونت بغتة ونظر الى ولده نظرة الحنو وقال له . انك اوقعتني في بلية يعسر علي التنصل منها وجلبت لي شرا كنت في غنى عنه . ومن كان يظن بان حظي سيكون تعيسا هكذا فان كانت الحياة كلها مرة فلا خير لي فيها . ثم اجهش بالبكا وصمت مليا وعاد فقال. ما حياتي الان ياولدي وكيف يمكنني ان اصرح لك بالرحيل ووالدتك تندب الليل والنهار وتسكب دما بدلا عن الدمع . منتظرة عودتك اليها بفارغ صبر . ام كيف يسوغ لي ان ابقى حيا وانت بعيد عني فهل لي ولد سواك اتعزى به آن غيابك فارحم ياولدي ذلي وارث لشيخوختي التي لم تعان قط مثل هذه الكوارث واشفق على والدتك المسكينة التي كذت ان تعدمها الحياة بسوء تصرفك . وانظر ايضا الى هذه الابنة التعيسة التي قدتها بجهلك الى هذه البلاد وجرى ذلك بسببها فهل نتركها . وكيف يصير بها . اه يا للعار ويا للفضيحة ....

— ان ذنبي يا ابت ليس بعظيم بقدر ما تظن . وسوف يتضح لك ذلك . اما الان فلا بد من رحيلي اذ ليس من الصواب ان ابقى في بلاد يكون بها خطر على حياتي . فارجوك ان تصرح لي بذلك لئلا

تراني قتيلاً بين يديك وتذوق مرارة الفراق الطويل ·

— كيف اراك قتيلاً ومن يتجرا ان يرمقك بعين الخيانة فلما انت واجل هكذا أليست مبارزتك امر مالوف وتحت شروط معلومة على يد شهود عدول فان كنت راعيت تلك الشروط فمم خوفك ياولدي وقانون البلاد لا يعاقب من يراعيها ·

— اني بارزتهُ بعدل يا ابي على حسب ما جرت به العادة غير اني لم اكُ عالماً بان السيف الذي طعنتهُ بهِ مسموم يستحيل شفا جرحهِ ·

— فاجابه الاب بلهفة مسموم آه · بادر ياولدي بادر الى الفرار ودعني اقضي عمري حزيناً ايسا من لقاك · وانا لست باسف على فراقك بقدر ما انا آسف على والدتك التي لا تلبث أن تموت حينما يبلغها ما حل بنا · فصبرًا اذاً صبراً على ما حكمت به الايام ···

وفيما هو يتكلم دخلت ليونتين وهي لا تعلم شيئاً مما جرى لادوارد فارتاعت عندما راته جالساً على البساط وعيناه مقرحة بالبكا والكونت يتمشى في القاعة ذهاباً وايابا ودموعه متناثرة على الثرى فوقفت متحيرة وظلت تنتظر الافصاح عن السبب: فنظر اليها الكونت بعين الحنو وقال لها ودعي ياابنتي حبيبكِ قبل ان يفارقك واندبي سوء حظه وحظكِ · واصبري على ما حكمت به الايام · فلم تكد الابنة تسمع كلامه حتى اعترتها رجفة قوية فخارت قواها ولم تعد تقوى على حمل نفسها فسقطت الى الارض قاطعة الرجا من خلاص حبيبها واذ رآها ادوارد كذلك انزعر انزعاراً شديداً وتقدم اليها فعانقها بلهفة وناداها قائلاً حبيبتي جعلت فداكِ فمَ

الذي اصابكِ ٠

فاجابته الابنة بصوت منقطع ادوارد ٠٠ أدوارد ٠ دعني اموت ٠٠ دعني لعلي اكفر بموتي هذا عن عصياني اوامر والديَّ فقد كفاني مــــا احتملت من المشاق والاوصاب ٠٠٠

— ولماذا ياقرة عيني لماذا تموتين اجابها الفتى وهو يبكي اموت لعظيم شقائي ياعزيزي ٠ اموت لتعاستي وسوء بختي وقلة حيلتي آه ٠ مــا عملي اخبرني ناشدتك الله ٠٠ الى اين انت راحل ٠ فهل لذَّ لك تركي ههنــا حتى تغادرني ببلاد غريبة وتذهب الى حيث لا اعلم ٠٠٠ فاين محبتك ياادوارد ام اين شهامتك ٠٠٠ او ما الذي طراء من الجوادث حتى جعلت السفر امراً محتوماً

— ان بقائي ههنا خطر على حياتي ياعزيزتي لاني جرحت الفريد عند البراز بسيف مسموم على غير علم مني بانهُ كذلك وهذا مضاضد لقوانين البراز فاذا بقيت هنا لاغرو تقبض عليَّ الحكومة وتاخذنِي بجريتي تلك وكنت اود ان اموت واتخلص من همومي لولا محبتي لكِ وخوفي من ان تلحقين بي او تعيشين تعيسة فلهذا اخترت الرحيل ليكون لكلانا عشم في اللقاء وعلى الخصوص اذا شفي الفريد من جراحه وها انتِ مغاينة حزن والدي لذلك ومع كلٍ فانا لست باسف على شيء في العالم سوى فراقكِ ياقرة عيني لانكِ شقيتِ لشقائي واطعتِ جهالتي حتى صرتِ الى هذه الحالة التي اتمنى ان لا تدوم طويلاً حتى يجمع الله شملنا امنين مطمئنين فآه باليونتين عزيزتي سامحيني ٠ سامحي محبك ٠

سامحي ادوارد الشقي التعيس الذي ما كفاه تعاستهُ حتى اشرك فيها غيره على غير قصدٍ لولا تباريح ال ٠٠ غَ ٠ رَام ٠٠٠ ثم وقع مغشياً عليه فارتاعت ليونتين عندما رآته ملقى على الارض لا حراك له وشخصت عيناهـا وعلا وجهها اصفرار الموت والتجم لسانها من الكلام اما الكونت فكان غارقاً في بحار افكاره غير منتبه لما يتحدث بهِ ولده بيد انهُ راى السكوت سائداً رفع نظره فراى ولده على الحالة التي ذكرناها فقام اليه واحتضنهُ ونادي الخدم برفيع صوته فوافوه بالماء والمنعشات فشرع يرشه بالماء وينشقه الروائح حتى افاق خائر القوى ٠ فلما رآت الابنة انهُ قد عاد الى وعيـه تنفست الصعداء وانطرحت على اقدامه وقالت له : اجرني ياحبيبي ٠ اجر ابنة لم تنل من الدنيا غير الشقا والتعاسة فتلطف بي ياادوارد وخذني برفقتك الى حيث انت ذاهب والا مت جزعاً عليك لسبب انت مصدره الوحيد وكان المستر برد قد خرج لدى دخول ادوارد لقضا بعد اشغاله ولم يعلم مما جرى بين ادوارد وابيه ولما عاد واطلع على مـا تم دخل على الكونت وقال له : ارجوك ياحضرة الكونت ان تمكن ولدك من الرحيل الى بلاد فلسطين مع محبوبته قبل ان يجد له ما لا تحمد عاقبته وبعد ذلك نهتم في شفا العليل وولدك في مأمن على حياته وحياة محبوبته التي لا يمكنها الاقامة بدونه ثم اجلس الابنة الى جانبه وادوارد الى الجنب الاخر وشرع يعزيهما ويهون عليهما الامر وهما صامتان لا يجيبا بشيءٍ والكونت يبدي تنهدات خفية تشير على ما في ضميره من الكآبة والمستر برد ملاحظ ذلك جميعه ٠ فرأى من الواجب تلافي هذا الامر لينجي الفتى من الخطر المحدق بهِ فتناول

من خزانته ثلاثين ورقة مالية قدر الواحدة الف فرنك وسلمها لادوارد قائلاً : خذ ياولدي هذه الدراهم الان واستعن بها على تتميم رحلتك ومتى انفقتها اخبرني فاوافيك بغيرها فكن مطمئن البال اذاً وعليَّ تدبير كل امر . فطاب اذ ذاك قلب الفتى ولم يعد يدري باي لسان يشكر فضل هذا الرجل ثم قام فجهز جميع ما يحتاج اليه في رحلته ودنى من والده يريد وداعه فوجده مطرقاً براسه الى الارض يبكي بكاء مرًّا . فترامي على اقدامه طالباً منه ان يزوده ببركته الاخيرة اذ ربما لا تتيسر له مقابلته مرة اخرى . واذ ذاك لم يعد بامكان الكونت ضبط نفسه فاعلن بالبكا وانكب على عنق ولده واخذ يقبله قائلاً : آه ياولدي وقرة عيني ان الله تعالى الذي منّ على يعقوب برؤية ولده بعد ان كان قطع الرجا من حياته قادر ان يمن عليَّ برؤياك ثانية لانه ادرا بحالي . فاذهب الان يابني مصحوباً بالسلامة ولترافقك العناية الالهية حيث كنت وها انا ذا صابر على فراقك بقدر استطاعتي . واذا خانتني الايام وهصرتني المنيه قبل ان اراك فليس لي وصية اليك سوى الانتباه الكافي لوالدتك وملاحظة نفسك واشغالك كما يجب وعليك بتقوى الله وخوفه فتنجح اعمالك جميعها . وانتِ باليونتين ابنتي انظري ما قسم لك من الشقا واعتبري فيما مضى ولكنَّ هذا لا يلبث ان يزول فتعيشين من ثم مغبوطة مع ولدي وها انا ذا سائل لكما السلامة وقرب العودة الى الديار وكان الكونت يتكلم والجميع يبكون لبكائه . ثم تقدم المستر برد وامر ادوارد بالركوب مع محبوبته وركب هو مع الكونت في عربة اخرى الى المحطة حيث ودعاهما

الوداع الاخير ورجعا والكونت لا تنشف له دمعة

الفصل الثالث عشر

في شفا الفريد

خفف الجأش واصبرن رويدا * فالرزايا اذا توالت تولت

لم يعد للكونت جاك شغل شاغل سوى الاهتمام بالجريح الذي خلفه ولده على فراش الموت وفرّ خوفا من العقوبة . وبعد ان تباحث بشانه مليا مع المستر برد ذهب كلاهما لعيادته في المستشفى فراياه فاقد الرشد خائر القوى لا يعرف ولا يُعرف فهالهما منظره هذا وبادرا في استدعاء حذاق الاطبا وامراهم بان يفحصوه فحصا مدققا ويبذلا قصارى الجهد في مداواته حتى اذا تم شفاوءه نالهم اوفر جائزة . فدنى هولاء من المريض وبعد ان فحصوه كما يجب قرروا بان حالته منذرة بالخطر الشديد وان المدية التي جرح بها ليست بمسمومة كما قيل بل الجراح بليغة جدا . وكان من الواجب مداركتها بالادوية النافعة منذ البداية قبل ان يمتد الورم في الجسم ويفسد الدم

— فاجابهم الكونت . الا رجا اذن بشفائه

فقال له احدهم . ان شفاوءه يرجى اذا استعمل له العلاج بغاية الدقة وانا ضامن ذلك واذا امرتاني بزيارته اي ساعة شئت

فقال له المستر برد: افعل ما ترغب فانت مفوض في كل شيء وحياة المريض صارت في يدلك وانا مستعد لتقديم كافة ما تامر به

فاجابه ذاك · حسنا ياسيدى فانا ساهتم به بقدر استطاعتي واضمن لكما شفاوءه بعد خمسة عشر يوما ان اراد الله

فتجدد عند ذلك امل الكونت وصار لا يفتر عن عيادة المريض في كل فرصة · فلم يمض على الفريد سبعة ايام حتى تحسنت حالته وزال ورم جراحهِ وصار يأكل بشهية وفارقته الحمى تماما · اما الكونت فكان يعزيه ويصبره على مصابهِ كل تلك المدة حتى اكتسب ثقته به وصفا قلبه لادوارد ولده · ولما سأل الكونت عنه : اخبره برحيله الى بلاد فلسطين خوفاً من ان يوءخذ بجريمته · فتكدر الفريد من ذلك كثيرا وندم على ما صدر منهُ ضده وعزم عزما ثابتا على اقتفاء آثاره والاعتذار له عن ذنبهِ بعد ان يواخيه · ولما شفي تماما بارح لوندرا مع المستر برد والكونت متوجهين الى باريز حيث تمموا عقد الصلح بين والدي ادوارد وليونتين حتى رجعت بينهم المحبة الاصلية

الفصل الرابع عشر

في رحيل ادوارد

لدى وصول ادوارد الى مدينة بورتسموث مع محبوبتهِ وجدا باخرة انجليزية على وشك القيام الى بلاد سوريه فركباها مسلمين امرهما الى الله تعالى · وعند الغروب اقلعت من مينا تلك المدينة تشق عباب البحر وتنساب انسياب الافعى والفتى ومحبوبته جالسان في موخرها يبكيان على فراق الاهل والوطن ذامان الزمان الذي حكم عليهما بذلك · ولم يكن

ممكنا لاحدهما ان يعزي الاخر

ولم تزل السفينة سائرة بهما ستة ايام متواصلة حتي بلغت مياه يافا عند اصيل اليوم السابع ورست بعيداً عن البر · فسرحت الابنة نظرها الى المدينة فرأتها بخلاف ما كانت تتصور من انها تضاهي مدن اوربا في البهجة والنظام وكظمت غيظها مسلمة امرها الى الله صابرة على مضض البلوى · وفيما هي كذلك اذاً بالقوارب قد حضرت من البر لاجل تنزيل الركاب فنظر الفتى الى حبيبته وقال بصوت تخنقه الزفرة : هلمي ياعزيزتي الى المنفى الذي قسمت لنا به الايام ولعله يكون كافياً للتكفير عن اثامنا السالفة ضد والدينا · فلم تجبه تلك بشيء بل وضعت يدهـا بيده وركبا كلاهما احدى تلك القوارب و بلغا البر بعد مكابدة اشد العنا في تلك المياه التي لا تنفك عن الهياج · فقابلهما شاب يبلغ الخامسة والعشرين من عمره قمحي اللون طويل القامة لابساً سروالاً عربياً وعلى اكتافه كوفيه حريرية مسترسلة شراريبها الى الورا وخاطب ادوارد بالافرنسية قائلاً هل سيدي آتٍ للسياحة في هذه البلاد

— نعم ياسيدي

— فهل لسيدي معرفة بها قبل الان ام هي المرة الاولى التي شرفها بقدومه

— اني لم آتها قبل هذه المرة ياسيدي

— اذن لابد لسيدي من ترجمان خبير باطوار اهلها عارف بالجهات التي تقصدها السواح لمعاينة الاثار القديمة والاماكن المقدسة

— ان هذا لا بد منه

— ان شاء سيدي كلفت نفسي عن طيب خاطر بهذه المهنة

— واني اكون لك من الشاكرين · ولكن هل لك ان تشرفني بذكر اسمك

— اسمي سليم يامولاي

— سليم ··· انهُ لاسم حسن · ارجوك يامسيو سليم ان تدلني على فندق حسن بهذه المدينة · فهل يوجد ذلك

ليست فنادقها بالغة حد الاتقان نظير فنادق اروبا لكنها نظيفة يجد فيها المسافر جميع ما يلزمه من اسباب الراحة وان شاء سيدي اخذت له احسنها وتكلفت له بجميع ما يحتاج اليه من كلي وجزئي

— انك قلدتني منة عظيمة ياسيدي فهلمّ الى الفندق الذي تشير اليه

— امرك يامولاي فهلمّ اليه ثم مشي امامها فدخلاه ووجداه نظيفاً لائقاً بامثالها فمكثا به مدة عشرين يوماً كانا في خلالها يخرجان الى النزهة صباحاً مساءً برفقة سليم و يرجعان منشرحي الصدر وقد طاب لها المقام في المدينة لما بها من الرياض الغضة وقربها من البحر المالح المتوسط وكان سليم لا يفارقها طرفة عين فاحباه محبة عظيمة نظرًا لرقته ودماثة اخلاقه وفي اليوم الحادي والعشرين شخصا الى مدينة اورشليم واقاما بها شهرين كاملين صرفاها في زيارة الاماكن المقدسة في المدينة وضواحيها· وكانت ليونتين كلما دخلت معبداً تجثو على ركبتيها وتقرع صدرها بكلتا يديها طالبة من الله تيسير حالها وتسهيل عودتهما الى الوطن المحبوب

وسليم لا يفتر عن تعزيتها بدون ان يعلم حقيقة حالها ولم يشاء ان يسال سيده عن السبب خوفاً من التثقيل عليه · فاحبت الابنة لذلك هذا الفتى وعزمت على مكافاته عندما تنفرج كربتها وتنال مبتغاها

الفصل الخامس عشر

في الزائرين

لما قرب حلول عيد الفصح اخذت الزوار تتقاطر الى اورشليم من صوب وحوب فيخيمون في ضواحيها قريباً من الاسوار بعد ان تضيق دونهم فنادق المدينة · فاتفق ان حضر في تلك السنة مايتان من الزوار الفرنساويين لحضور حفلة الاعياد · وفي يوم عيد الكبير كان الاحتفال عظيماً والجم غفيراً جدّاً في كنيسة القيامة بحيث كان يتعزر على الحاضر ان ينتقل من محل الى اخر لكثرة الازدحام · اما ليونتين فكانت منزوية في موخر الكنيسة جاثية على ركبتيها مبدية صلوات حارة وادوارد واقف الى جانبها يتامل كثرة الخلائق المختلفي الاجناس والمذاهب · وبعد ان اتمت الابنة صلواتها وقفت الى جانب حبيبها وشاركته في التامل في تلك الشعوب · وفيما هي كذلك اذ رآت شاباً طويل القامة ابيض الوجه واقفاً على كرسي عالٍ يتامل حركاتها ولا يحول عنها نظرهُ · فلم تشاء الابنة ان تطيل النظر اليه خوفاً من ان يلهيها ذلك عن مشاهدة غيره · ولما انقضت الصلوات خرجت مع حبيبها الى الفندق حيث كان سليم انتظارها · فلم يكد يستقر بهما المقام حتى رايا شاباً طويل القامة ممتلي

الجسم داخلاً عليها بغير استئذان . وقد نزع قبعته وحياها ببشاشة ذاكراً اسميهما عند التحية . فتعجبت الابنة منه وبعد ان تاملته طويلاً علمت انهُ هو الذي كان يطيل النظر اليها في المعبد اما ادوارد فبعد ان اطال اليه النظر فتح ذراعيه واعتنقه قائلاً صديقي الفريد أَانت هنا وكيف كان قدومك . فلما طرق اذان ليونتين هذا الاسم علا وجهها الاصفرار واعتراها القلق لحضوره على حين غفلة بعد ان جرى ما جرى بسببهِ . فحولت عنه وجهها قاصدة الخروج الى غرفة اخرى لتتمكن من اخفا قلقها . فناداها الفريد قائلاً : الى اين تذهبين ياسيدتي وقد حضرت لاعتذر لكِ عن ذنبي واقص عليكِ امري بعد اشرافي على الممات . فان كان ما نابني لايكفي كفارة عما اجترحت فها انا ذا بين يديك افعلي بي ما ترغبين . . .

فاجابته الابنة . عفواً ياسيدي فانا لم إقصد الخروج الاَّ لاعداد شيء من المرطبات والحلوى وبما انك فهمت خلاف ذلك فها انا اجلس لاستماع حديثك والحمد لله على شفاك .

— شكراً لكِ ايتها السيدة الفاضلة فانا لست بمستحق لشيءٍ من ذلك ويكفاني ان انال منكما الصفح عما جلبت لكما من المشقات والتشتيت

فقال له ادوارد : ان الذي مضى لايحلو ذكره ايها الصديق وانت معذور فيما فعلت . فارجوك الآن ان تطلعني على ما تم لك بعد مبارحتي لوندره لاني غادرتك على شفار الموت

— اعلم ايها الصديق اني بعد ان كنت اشرفت على الموت بسبب جراحي التي جرحتنيها بعدل . سخر الله لي والدك الحنون الذي لا انسى

فضله ما جبيت فاحضر لي اشهر اطباء لوندره واعتنا بي غاية الاعتناء فكان يخدمني بنفسهِ ويعزيني على مصابي حتى زال عني الخطر الذي كان يتهدد حياتي . ثم اخبرته بما توقع بيننا منذ البداية طالباً منهُ الصفح عنه . ولما رجوته في ان يدعوك اليّ لاجدد معك عهد الاخا . اجابني انك رحلت الى اورشليم مع ليونتين حبيبتك خوفاً من ان توخذ بجريئتك

فضاق لذلك صدري وعقدت النية على اتباعك والعودة بك الى وطنك . ولما برئت من دائي رجعت مع والدك والمستر برد الى باريز واصلحت بين والدك ووالد سيدتي ليونتين ثم اخبرتهما باني عازم على السفر الى اورشليم لاعود بك ففرحا لذلك وسلمني والد سيدتي كتاباً تعهدت بايصاله لها وها هو ثم اخرج الكتاب وناوله الى الابنة التي عندما صار في يدها سالت دموعها ولم تعد تستطيع قراءته فاخذه ادوارد منها وفض ختامه واذا به ما ياتي

ابنتي الحبيبة ليونتين

اني لم اكُ وايمُ الله منتظراً منكِ هذا الفعل بعد ان ربيتك احسن تربية . فانك جعلتني هدفاً لاسهم ملام الدوق دي ڤلمارد واحدوثة لكل قائم وقاعد . وفوق ذلك فان والدتكِ اقلقت راحتي بكثرة عويلها وتعدادها المتوتر حتى صرت اود ان نفسي اقتل واتخلص من همومي واذ لم اجد من الجاء اليه سوى صبري اتخذته نصيراً املاً في وجود الراحة ولكنه كاد ذاك ان يفرغ ايضاً لولا حضور الدوق الفريد الذي اطلعني على واقعة

حالك وجبرني على مسالة الكونت والد حبيبك وها انا ذا بانتظارك مع ادوارد ولدي لازوجكما هنا فالامل سرعة القدوم والله تعالى يحسن العواقب

والدك مازار

فهتفت الابنة عند ذلك قائلة

طب يافوادي فانّ الهمّ قــد رحل

والدهر بعد الجفـا والصد صافاني

ثم جثت على ركبتيها شاكرة الله على هذا التيسير الحسن وهناها ادوارد بقرب العودة الى الوطن ومشاهدة الوالدين بعد طول الغربة · وعزما كلاهما على مبارحة فلسطين لدى اقلاع اول باخرة الى مرسيليا · فقال لهما الفريدان الرجوع الى الوطن لا يفوتكما اما الان فلكون السواح الفرنساويين متوجهين الى الاردن وبحيرة لوط لتفقد الاثار فارى من الموافق ان تكونا معهم ايضاً اذ ربما لا تتيسر لكما فرصة اخرى لذلك فوافقاه على رايه هذا وارسلا سلياً لاستئجار الخيل

الفصل السادس عشر

في الداهية الدهماء

لما كان ثالث ايام الفصح ركب الزوار الفرنساويون خيلهم وخرجوا من مدينة اورشليم بكل ترتيب يترنمون بالاناشيد الروحية قاصدين مشاهدة نهر الاردن وبحيرة لوط التي يصب بها النهر المذكور تتقدمهم

كوكبة من الفرسان الموكلين بحراستهم . وكان ادوارد بينهم راكباً الى جانب محبوبته والفريد الى الجانب الآخر وسليم يتقدمهم على جواد اشهب مقلتم بكوفيته يشرح لهم عن بقايا الآثار التي يشاهدونها في طريقهم . ولم يزالوا سائرين بكل ترتيب وسكينة حتى بلغوا قرية اريحا عند اصيل النهار فخيموا قريباً منها على عين تلقب بعين سلطان وفي الصباح ركبوا الى الاردن ونزل اكثرهم به لاجل الاغتسال بمائه المبارك اما سليم فجلس مع اسياده تحت شجرة ذات ظل وارف وشرع يقص عليهم بعض اخبار سكان تلك الجهات وكيف ان الله تعالى خسف المدن التي كانت سابقاً على شاطئ بحيرة لوط الآنفة الذكر وهم صاغون لكلامه متعجبون من تقلب الايام بيد ان اتم اولئك اغتسالهم فركبوا بيتهم قاصدين مشاهدة البحيرة المتقدم ذكرها والرجوع بعد ذلك الى اريحا واذا بكتيبة من فرسان عرب تلك الجهات اقبلت عليهم مقومة الاسنة وشرعت تلاعب خيلها امامهم طمعاً في نوال شيء على سبيل الانعام فانسر الزوار لذلك ووقفوا للفرجـــة على هؤلاء العربان وليونتين اكثرهم سروراً لانها لم تر قط منظراً كهذا في بلادها اما جوادها فلم يكد يرى الخيل غائرة امامه حتى جمح وضربها مرور السهم في طلبها فاطلق سليم في اثرها العنان ليكبح جماح الجواد ويردها الى سيده قبل ان تقع فتدوسها الخيل ولكنه قبل ان يدنو منها انقض عليها فارس من اولئك العربان واقتلعها من سرجها بكل رشاقة ثم وضعها امامه واطلق لفرسه العنان فمرت به كالبرق الخاطف . وفي دون لحظة توارى عن العيان

فتلاحقت به الخيل اذ ذاك وطلبتهُ من كل جانب وادوارد مع ترجمانه في اول الجميع يجدان السير في تلك البقاع والصحاري الرملية المتاججة كالاتون من حرارة الشمس فلم يلحق له احد غبارا والخيل سبحت بالعرق وكلت عن المسير والشمس مالت الى المغيب . فلما راى ادوارد التقصير من جواده والزوار رجعوا الى اريحــا تاركينهُ منفرداً مع ترجمانه عظم عليه مصابه فترجل وجعل يحثو التراب على رأسه ويبكي بكاء الخنساء وسليم يبكي لبكائه لاعنا الفريد الذي كان سبب هذه الرحلة المشومة : غير انه راى ان البكا لايجديهما نفعاً في ذلك الخلاء البلقع . ولربما دهمهما احد شياطين العرب وفتك بهما . فدنى من سيده وقال له : هيا بنا الى اريحا ياسيدي قبل ان يربدّ الظلام ونقع في بلية اعظم . وفي الصباح اخاطر معك بمهجتي لاقتفاء آثار هذا البدوي لعلنا ندركهُ ونخلص منهُ الابنة ولم يزل يهون عليه الامر ويحذره شر العاقبة حتى امتثل فاركبه جواده ورجعا كلاهما الى اريحا قانطين من رجوع الابنة . اما ادوارد فقضى ليله بمسامرة الفرقدين . يرسل العبرات وينشد هذه الابيات

يادهر ما لك تقصيني وتبعدني

في زهوة العمر عن اهلي وعن وطني

اوردتني الذل والاكدار عن صغر

شتت شملي ولم ترثِ الى شجني

كل الرزايا على رأسي تقلبها

اثقلت حملي وكاد النوح يهلكني

قد حرت ياناس في امري فما عملي
فالحزن انهكني والبعد اقلقني
ياليت موتي بفاجيني فيسترني
او ليتني كنت لم أُخلق ولم اكن
نومي جفاني ودمعي جف واستعرت
نيران وجدي وصبر الصبر فارقني

ولم يزل يرددها بزفير حار حتى تقرحت اجفانهُ وكاد ان يقع مغشياً وسليم سامع ذلك ومتناوم عنهُ لقلة حيلته . ولما لم يعد يسعهُ السكوت هب من رقاده وشرع يعزيه برقيق العبارات ويصبره الى الصباح اذ يتيسر لهما الركوب والمسير في مفاوز تلك الارض المجهولة

فنظر اليه ذاك وقال: ان مصيبتي ياسليم لمن اعظم المصائب وكلما نجوت من شر يداهمني آخر اعظم منه فما عملى اذا لقد عدمت الحيلة والتدبير ... آه والبونتين حبيبتي والبونتين انيستي ... ترى هل اراك مرة اخرى . ام يسعدني الزمان بالاجتماع بك . فمَ هو ذنبك بافاتنتي حتى جرى لكِ ذلك . ام مَ قصد هذا الاعرابي المتوحش بكِ . أقد غره باهر جمالك . ام فاخر ثيابك . حتى طمع في سلبها لقد خاب والله ظنه وساء فاله . فانا لا اتقاعد عن نصرتك ولو عدمت مهجتي والله تعالى يساعدني على ذلك لاني عليه متكل ... ومَ ظنك ياسليم في هذا الاعرابي القاسي القلب فهل يقتل الابنة اذا راى الطلب قد انقطع عنها وصارت تحت حوذته .

— كلا ياسيدي فلا يأخذنك القلق من اجلها . وسوف تراها عزيزة مكرمة كأنها في بيتها . لان العربان مع ما هم عليه من الجهل والتوحش يحافظون على الاعراض اكثر منا ويكرمون ضيوفهم للغاية . ولكنهم اقوام شتي لا يزرعون ولا يقلعون بل دابهم شن الغارات على بعضهم بعضاً او على المارة وسلب كل ما تصل اليه ايديهم فيقدمونهُ الى شيخهم فيقسمه بينهم بالسوا . واذا كانت غنيمتهم رجالاً او نساء فيبقونها عندهم بالاعتقال لحينما ياتي من يفديها منهم بالمال او الجمال : وفي الصباح اسير بك الى شيخهم الامير دياب فانهُ رجل جليل القدر عظيم السطوة والنخوة . واعرض عليه امرنا . ولا اظن في انه يتاخر عن اجابة طلبنا وتسليمنا الابنة بغير فدا اذ يرى انكسارنا لديه ويعلم باننا غربا فسكن اذن روعك وثق بصدق كلامي لاني خبير باطوار العربان ودع التدبير لله

فلما سمع الفتى ذلك لاح له وجه الامل ولكنه كان لم يزل مرتاباً في صحته . فاطرق الى الارض ساعة ثم قال: اني اثق بكلامك ايها العزيز ولكنني اخشي ان يداهمنا لدى خروجنا في اثرها بعض شياطين هولاء العربان فيأسرنا فما يكون عملنا حينئذٍ

— لا تقلق لذلك ياسيدي فسوف نصل الى شيخهم مطمئنين ونخلص الابنة كما اشرت ومهما كانت حالتهم بعيدة عنا والطريق وعرة فلا نتقاعد عن تتميم مرغوبنا لان الذي يريد العسل لايهاب ابر النحل وهاك الفجر قد لاح فقم واستعد للركوب قبل ان تشتد حرارة الشمس وتعجز الخيل عن

المسير · فلم يكد الفتى يسمع هذا الكلام حتى قام فامتطى صهوة جواده وضرب في شاكلته المهماز فمر به مرور السهم وسليم في اثره بغير ان يشعر بهما احد من السياح ·

الفصل السابع عشر

في سبي ليونتين

لم يزل الاعرابي الذي اختطف الابنة يطوي بفرسه البطاح وهي كانها طائرة به الى ان صار عن السياح بمكان بعيد وامن من الالحاق فترجل اذ ذاك وجلس ياكل خبزاً قديداً والابنة امامه ترتجف كالقصبة التي تحركها الريح لشدة خوفها · لانها كانت كيفما ادارت نظرها لا ترى سوى جبال شامخة قاحلة · وسهول شاسعة مرملة · واينما صغت لاتسمع سوى عواء الذئاب وضباح الثعالب · اما ذاك فبعد ان اتم اكله شدّ رحل راحلته ودنى منها ليركبها ويسير بها الى حلته ليقدمها هدية للامير دياب شيخ القبيلة لانهُ راها على جانب عظيم من الجمال الذي يندر وجود مثله في بنات الاعراب · فينال لذلك عطاء جزيلاً فلما راته الابنة كذلك ظنت انهُ يريد اغتصابها او قتلها وسلب ما عليها من الملبوس · فوقعت على اقدامه تقبلها وتغسلها بوابل دموعها سائلة اياه الرفق بها وارجاعها الى حبيب قلبها الذي لايتاخر عن اقتفا اثارها لشدة محبته لها · ولكنَّ ذلك لم يكن ليلين قلب ذاك الضاري او يثني عزمه عن مداومة المسير بها لانهُ كان عديم الشفقة بالكلية وطمعه في نوال عطاء الامير زاده بها

رغبة . فاردفها وراه وصار يطوي المهاد والربى وهو لايكل ولا يمل من التعب مدة ثماني عشر ساعه متوالية حتى اشرف على سهول الكرك حيث كان قومه مخيمين . فنزل عن مطيته واقتاد الابنة بيدها الى خيمته آمراً زوجته بان تسقيها قعباً من اللبن لتبرد غليلها . وتكون معها حتى عودته من خيمة الامير . ففعلت تلك ما امرها به . اما المسكينة فلما ادنت القعب من فيها وتشمت رائحته الكريهة دفعته اليها ثانية واجهشت بالبكا فرقت لها البدوية عندما رات انسجام دموعها وضمتها الى صدرها قائلة اطلعيني يابنتي على احوالك وكيفية تمكن زوجي من الحضور بك الى ههنا ولا تخافي فانا اساعدك واخلصك من يده اذا شئت . ولكنها لم تسمع لكلامها هذا جواباً سوى البكاء والتاوهات المترادفة التي كانت تصدرها الابنه بحرقة زائدة . فألمّ ذلك الاعرابية كثيراً وباتت تنتظر قدوم زوجها كي ترجوه في اطلاق سراحها وردها الى اهلها وزويها . ثم قامت فذبحت جدياً صغيراً وشوت بعضه وقدمته بين يديهـا فاكلت المسكينة منه بكل شهية لان الجوع كان قد انهك قواها وذهب باحمرار وجنتيها . وبعد ان شبعت شكرت فضل الاعرابية على حسن اعتنائها ولطيف معاملتها . فادركت تلك قصدها بغير ان تفهم حديثها وزادت بها حباً . ثم احضرت لها قليلاً من التمر والتين واخذت تطعمها بيدها كانها ابنتها

وفيما هما كذلك دخل زوج الاعرابية مسروراً قاصداً اخذ الابنة ليقدمها بين يدي الامير . فنظرت اليه زوجته شزراً وقالت له : ما هذه

الفعال التي لم يسبقك بها احد من العربان ياحامد فقد عهدتك تغار على البنات الابكار وتحافظ على اعراضهنّ اشد المحافظة فما بالك تركت هذه الخطة واتيتني بهذه الابنة المسكينة التي لا تفهم لغتنا واعرضت عن نهب النوق والجمال . فلو ارجعتها الى اهلها لنالك خيرٌ . لاني اراها من اشراف اهل الحضر . فاطعني اذن وعد بها من حيث اختطفتها لئلا يقال عنك انك لئيم تعتاض عن نهب النياق بسبي الحريم .

— ان هذا الامر ليس بمتعلق بك يالخنا . وعاره لا يلحق سواي فالزمي السكوت اذاً والا شججت راسك واتبعتك بسكان المقابر

— ويحك يالئيم اما تتقي الله في امرك وتخف من العار الذي يلحقك بسبب ذلك فاشفق ويحك على هذه الابنة التعيسة التي اقتدتها بجهلك الى ههنا وارثِ لحالها واجبر كسر قلبها وارحم انسجام دموعها اذا كان باقٍ في قلبك اثر رحمة ...

فاستشاط البدوي عند ذلك غضباً واقتلع وتداً من اوتاد الخيمة ورماها به وهو يرغي ويزبد كالجمل الهائج ففرت تلك منه وتوارت في مضرب اخر خوفاً من ان يفتك بها . فلما رآى ان ضربته ذهبت خائبة وليس امامه من ينتقم منه سوى ليونتين جرها من يدها بعنفٍ واقتادها باكية نائحة الى مضرب الامير . فدخلته واجله حزينة تمسح دموعها باطراف ثوبها به وتستجير ولا مجير الى ان صارت امام الامير وهو جالس في صدر المضرب كانهُ قلة من القلل تحيط به الفرسان المشاهير . فانكبت على اقدامه تقبلها طالبة منه الرفق بها والمنة باطلاق سراحها فاخذها ذاك من يدها حينما

راى شدة انكسارها ومزيد قلقها واجلسها الى جانبه طالباً منها شرح حكايتها لينيلها بغيتها · ففهمت تلك قصده وشرعت تقص عليه ما توقع لها وهو صاغ كانهُ يفهم حديثها ويكاد يبكي لبكائها الى ان اتمته · واذ ذاك امر احد اعوانه ان يدخلها خبا حرمه · واخران يصفد الاعرابي الذي اتى بها ويرميه خارج المضرب · فبات ذاك يحص في الرباط ويلعن الساعة التي اختطفها فيها وتلك عزيزة مكرمة في خبا الامير وكان الامير المذكور ابنة تدعى سعاد تقارب ليونتين في الجمال فهذه احبت الابنة كثيراً لما رأت من عظيم انكسارها ورقيق حديثها · وصارت تقدم لها كل ما عز وحلي في عينيها وتخرج بها كل يوم الى النزهة في ظاهر الحلة ويعودان مساء الى الخبا · ففي احد الايام بيدَ ان كانتا يتنزهان على جاري عادتها رايا عن بعدٍ عجاجاً ثائراً الى العنان وفرساناً مقبلة على خيل اخف من الظبا تنساب بهم انسياب الافاعي في ذلك الصحصحان · وفي مقدمتهم شاب صبوح المحيا عريض المنكبين ممتلي الجسم على صهوة حجرة دهما ملثماً بكوفية مقلمة بالقصب ورمحه مقوم على كتفه والخيل تتدفق من ورائه كتدفق الماء من الانبوب · فارتعبت فرائص ليونتين عندما رات ذلك خوفاً من السبي مرةً اخرى واومات الى رفيقتها بالرجوع الى الخبا · اما سعاد فلم يظهر عليها شيء من ذلك لانها كانت عارفة بعوائد العربان · غير انها خشيت ان يعرفها احد هولاء القادمين اطاعت اشارة رفيقتها ورجعتا كلاهما الى الخيام قبل ان تدركهما الفرسان

وكان هولاء من فرسان قبيلة بني سعد اتين برفقة اميرهم حسان ابن عم سعاد لاجل طلبها عروساً له · ولما بلغوا المضارب بادر الامير دياب لاستقبالهم مع فرسانه وبالغ في اكرامهم مدة ثلاثة ايام متوالية على جاري العادة عندهم ·

وفي اليوم الرابع سأل ابن اخيه عن سبب قدومه اليه · فاخبره بانه آتٍ لطلب ابنته عروساً له ويرجو من كرمه ان لا يرده خائباً : فسر ذلك الامير جداً وانعم بالاجابة بغير ادنى تردد · ثم امر بنحر الجذور وتروية الخمور واعداد مهمات الزفاف ريثما يطلع ابنته على ما تم وبامرها باصلاح شانها · فعندما بلغ سعاد ذلك فرحت فرحاً عظيماً لانها كانت تهوى ابن عمها هذا منذ نشأتها لما تعلم من حسن خلقه وخلقه وشدة بطشه ولطف شمائله ووعدت ليونتين بانها ستاخذها معها الى قبيلته بعد ان تزف له · ولكن ذلك لم يكن من قصد تلك الابنة المسكينة او مشتهاها · وجل مرغوبها كان البقا في القبيلة التي بها يتمكن حبيبها من وجودها عندما يخرج للبحث عنها · فنظرت الى سعاد بعين الانكسار وافهمتها بالاشاره بكونها مسرورة جداً من زفافها هذا · وتود من كل قلبها مرافقتها الى حيث تشاء · ولكن حبها لادوارد الذي عافت لاجله والديها ووطنها يمنعها عن ذلك ولذا فانها ترغب من كرم سعاد ان ترسل معها كوكبة من فرسان ابن عمها توصلها الى اورشليم حيث تتمكن من الاجتماع به · ففهمت تلك اشارتها ووعدتها بتتميم مرغوبها بعد الزفاف · ففرحت ليونتين بذلك وباتت تنتظر نهاية الزفاف المذكور

بفروغ صبر

الفصل الثامن عشر

في وصول الحبيب

لم يزل ادوارد وسليم سائرين في عرض ذلك البر الواسع يطويان مفاوز تلك الارض المحرقة ويتأفان الجبال الموعرة لجهلهما الطرق المطروقة حتى تنصف النهار وحمي الهجير وصر الجندب وكاد العطش ان يضر بهما · فترجلا الى الارض وجلسا تحت شجرة على ربوة منبسطة يتشاوران فيما يفعلانه · فسرح سليم نظره في تلك البقاع املاً في وجود احد يهديهما الى السبيل قبل دخول الليل · فلم يحظَ بطائل وكان الحر شديداً جداً والهوا حاراً كانهُ خارج من جوف اتون متقد · فضاقت حيلتهُ وعلم ان لا معين له سوى الصبر ومداومة المسير الى حيث هما قاصدان والا هلكا لامحالة · واذ ذاك نظر الى سيده وقال · شدد ياسيدي الان عزمك وهلمَّ نرحل من هذا المكان قبل ان يفاجئنا طارق ما فتذهب ارواحنا

— اني لا اخالفك ياسليم في ما به تشير ولو هلكت جوعاً وعطشاً وها انا صابر على كل ما يفاجيني من المصائب في سبيل الوصول الى حبيبتي فعسى ان يحقق الله امالي ويجمعني بها قريباً فانه على كل شيء قدير

— دع التدبير لك ياسيدي والا تيأَس من رحمته فهو لا يخيب رجا

من اتكل عليه وهيا بنا الان نجد السير في هذه الفلوات عسانا ان نبلغ قرية السلط قبل الغروب · حيث نجد لنا من يهدينا الى غرب الامير دياب ونامن على انفسنا من الطوارق : ثم ركب الاثنان وسارا بكل سرعة الى ان بلغا السلط بعد الغروب بنصف ساعة ولما كان سليم عارفاً بعوائد العربان قصد بسيده خيمـة الشيخ حماد للنزول في حماه وطلب مساعدته على كشف ظلامتهما · فتلقاهما الشيخ المذكور بكل اكرام واخلى لهما خيمة لضيافتهما مدة ثلاثة ايام على جاري سنة العرب · وبعد انقا المدة المذكورة سالهما عما يقصدان منه · فاخبره سليم بتفاصيل المسئلة طالباً منه المساعدة رحمة بسيده لانه غريب الديار

فاجابه ذاك قائلاً : اني لا ابخل عليكما بالمساعدة ايها الفتى وان صدق ظني فالابنة لم تبارح حلة الامير دياب ابن عمي المخيم قريباً من الكرك لان عربه لاتنقاعد عن الغزو وشن الغارات على عباد الله لسلب ما يملكون وغداً ارسل معكما ولدي صباح اليه واوصيه بكشف ظلامتكما والانعام عليكما لانكما اكلتما زادي وصرتما في حماي فلا تقلقا اذاً وكونا مطمئني البال اذ لا خوف على الابنة ما دامت في حما هذا الامير الخطير · وفي الصباح دعى اليه ولده وامره بالركوب مع ضيفيه الى حلة الامير المشار اليه وان يرجوه من قبله بكشف ظلامتهما والانعام عليهما · فاحنى له ادوارد راسه اشارة للامتنان ثم امر سليم بان يشكره عنه ويخبره بان عدم المامه بالعربية يمنعه عن ادا فريضة الشكر شفاهاً · فانسر البدوي منه وتقدم فاخذ يده وقال : طب ياسنيور نفساً وقر عينا فان الامير دياب

هو ابن عمي · ولا بد له من ان يبلغك اربك متى صرت عنده و يسلمك الابنة بعد ان يقاص الذي كان سبباً في تفريق شملكما وان خاب ظني ولم تكن الابنة في حلته · اخرج بنفسي للبحث عنها في جميع القبائل واتيك بها ولو كلفني ذلك إشد العنا لانك رجل غريب ولا يليق بنا ان نهملك وندعك تتحمل هذه المشقات والاهانات في بلادنا · وفيما هو يتكلم اقبل ولده صباح على صهوة مهرة حمرا محجلة الثلاث وعلى كتفه رمح سمهري والى جانبه سيف مشطب احدب وعلى راسه كوفية عجمية مسترسلة شراريبها الى الورا مع جدايل شعره و وقفت منتظراً اشارة والده واذ ذاك ركب الضيفان بعد ان ودعا الشيخ وسارا برفقته مسرورين مما لقيا ولسان سليم لايفتر عن مدح والد صباح والاطناب به الى ان بلغوا حلة بني عمان فباتوا في اكنافها الى الصباح ثم رحلوا قاصدين حلة الامير دياب فوافوها عصاري النهار على اتم راحة فاخذ صباح يتخلل الخيام امامها ويخط برمحه الارض وهما وراه يتاملان الحلة فراءوها تموج بسكانها موج البحار الزواخر وهي كانها غابة كثيفة غرسها الذوابل والناس في هرج ومرج والفرسان تقارع بعضها بعضاً في حومة الميدان على خيولها الاعوجية المضمرة والغانيات تغني وتنشد والمخدرات ترقص والعبيد دائرة عليهن بكاسات المدام وقد احمرت خدودهن و برزت نهودهن وأمنَّ من طوارق الدهر ومصائبه · فعلم صباح ان القوم في فرح زفاف وما زال يشق بمن معه المضارب حتى بلغ قباب عمه فترجل ومن ركاب من تلاه ثم دخل وقبل يد الامير مقدما بين يديه رفيقيه اللذين فعلا كفعله وجلسوا

بعد اتمام التحية

ثم شرع الامير يترحب بهم ويبالغ في اكرامهم بغيران يوجه اليهم سؤالاً عن سبب قدومهم

فسرح ادوارد نظره في ذلك القباب فوجده ينيف عن الثمانين متر طولاً وجدرانه مغطاة بانسجة الحرير المقلمة بالقصب وارضه مفروشة بالطنافس الاعجمية الفاخرة واعمدته مكسورة بصفائح الفضة المجزعه والامير دياب جالس في صدره على مرتبة عالية من الحرير الاخضر والامرا والفرسان عن يمينه وشماله لابسين الحلل الحريرية وعلى رووسهم العمائم الكسروية المزركشة يتناشدون الاشعار الحماسية والغلمان يطوفون عليهم بكاسات الخمر المعتق فسر هذا المنظر ادوارد كثيراً وبات ينتظر الخروج ليسال ترجمانه عما شاهد وسمع . ولما جن الظلام رجعت الفرسان من القراع وجلست على حسب مقاماتها في ذلك المضرب الذي كاد ان يضيق بكثرة من فيه مع عظم اتساعه اما صباح فلعلمه ان ضيفيه في تعب شديد استئذن عمه وخرج بهما الى خيمة معدة لضيافتهما ورجع الى مجلسه . فنام سليم لدى وصوله وعلا غطيطه شان خلي البال تاركاً سيده غائصاً في بحار همومه حتى غلب عليه النعاس ونام الى جانبه . فلما اصبح الصباح ذهبا كلاهما الى مضرب الامير حيث كان صباح بانتظارهما فسلما على من فيه وجلسا مكانهما وادوارد كاسف البال يحاول ان يخفي تنهداته الحارة ودموعه السخينة المتتابع سقوطها على خديه لئلا يجعل للجلاس ريبا في امره ولا يستطيع غير ان ذلك لم يكن بخاف على صباح وسليم

ولكن الظروف لم تسمح لهما باطلاع الامير على امره لان مدة الضيافة كانت لم تنقض بعد

الفصل التاسع عشر

في اللقا المنتظر

لما كان ذلك اليوم هو اليوم السابع المعين لزفاف سعاد على ابن عمها الامير حسان جلس الامير في باب المضرب على مرتبة عالية يكتنفه امرآ العشيرة والفرسان المشاهير ينتظرون مرور موكب العروس لتهنئتهـا كما جرت به عادتهم وكان ادوارد مع ترجمانه وراءَ الجميع حائراً في امره لايجد من يبث له بشكواه · ثم دقت طبول الافراح وبرزت سعاد من خدرها شمساً تحلت بالثريا مما حلي بها جيدها من الجواهر التي تخطف ببريقها الابصار عليها حلة موشاة بالذهب الوهاج ذادت وجهها احمراراً وجبينها اشراقا فاخذت الفرسان تتدفق امامها تدفق السيل المنحدر والغانيات تغني بالحان شجية والراقصات يرقصن على نقرات الدفوف والعبيد تلعب بالسيوف والحراب والفرسان تتبارع على صهوات عادياتها المضمرة والامير حسان بينهم على حجرة شهباء لابساً حلة فاخرة لا يلبسهـا الا الاكاسرة ملثماً بكوفية مزركشة بنسيج الابريز متقلداً سيفا محلى بانواع اليواقيت وتحت ركابه ما يزيد عن المائة عبد في ايديهم المجامر يفوح شذاها الزكي وروائحها العطرية التي تروح بالارواح وفرسه تتجلى به تجلي العروس عند الزفاف ولما بلغوا باب قباب الامير دياب وقفوا قليلا منتظرين اشارته في

تتميم الدورة فكانت من ادوارد التفاتة الى النسا فرأى العروس تتجلى بين مئات من المخدرات الابكار الناقرات بالدفوف والموقدات الشموع متابطة فتاة تخجل البدر ليلة تمه والند عابق امامها فخنق عند ذلك قلبه واطال اليها النظر حتى قربت من المضرب فصاح صيحة ارتجت لها الانحاء قائلاً حبيبتي ليونتين الي الي ثم وقع مغشياً عليه ولكن لشدة لغط الجمهور ونقر الطبول لم يسمع احد صوته سوى سليم الذي بادر برش الماء على وجهه حتى افاق . فلامه على فعله هذا طالبا منه الانتظار الى ما بعد انتهاء الحفلة لئلا يجلبا عليهما غضب الامير اذا بدا منهما امر قبل ذلك . فقال له ذاك انك عالم ياسليم بجميع ما جرى وكم تجشمت من الاخطار والمصاعب في سبيل الوصول اليها فكيف يمكنني والحالة هذه السكوت بعد ان وقفت على مقرها ورايتها امامي

— وما العمل الان ياسيدي فان لم يكن ما تريد فارد ما يكون

— اما من سبيل اذاً لاطلاعها على خبري

— ساتبصر في ذلك واسال صباحاً عنه لانهُ اخبر منا باطوار العربان ومتى تمت الحفلة اطلعه على كل شيء فكن مطمئن البال . ولم يزل الاثنان في هذا ومثله الى المساء اذ حضر خطيب العرب وعقد عقد الزواج على العروسين فدخلا مضرباً معداً لهما وباتا الى الصباح اما ليونتين فكانت مع باقي الحاشية في مضرب اخر مجاور لقبة سعاد وسليم مراقب ذلك لكنه لم يخبر به سيده خشية ان يبدو منه مما يخل بسنة العرب فاخذ صباحا الى ناحية واطلعه على ما كان من سيده عندما راى محبوبته مع

العروس واتهُ في كرب لامزيد عليه من جرى ذلك لكونه لم يتمكن من مخاطبتها . فاستعظم ذاك امره ودخل على عمه واوقفه على باطن الامر طالبا منه الاخذ بناصر هذا الفتي وتسليمه الابنة مع الانعام عليه حسب اشارة والده الشيخ حماد . فاجاب الامير طلبه ودعى ادوارد اليه وطيب خاطره واعداً اياه بتسليمه الابنة عند الصباح فطـابت نفس الفتى عند عند ذلك واراد ان يشكر فضل الامير فمنعه عدم المامه بالعربية فكلف ترجمانه الذي اجاد في الشكر والاطناب في مدح الامير حتى اعتزر لهما عما فعلا تابعه وغمرها بانعامه فخرجا من لدنه مسرورين بما لقيا وناما مطمئني البال الي الصباح اذ اتاهما رسول الامير يدعوهما لمقابلته . فذهبا اليـه فرحين بقرب نوال المنى واستقبلهما صباح بكل بشاشة مهنئاً ادوارد بوجود الثي هو في طلبها . وكان الامير قد امر قبل حضورهما احد اعوانه بان يذهب الى ابنته ويامرها بارسال الابنة الافرنجية اليه لان ابن عمها في انتظارها فمضى ذاك وما عتم ان عاد بها بين يديه مبرقعة فلما رآهـا ادوارد عانقها رافعاً صوته بالبكا فعانقته تلك ايضاً باشتياق كلي صارخة حبيبي ادوارد هل انت هنا وما زالا متعانقان ودموعهما السائلة على وجناتهما تتكلم عنهما وتطفي لظى ما اجبع الفراق من نيران الاشواق حتى ابكيا كل من كان حاضراً وكاد ان يقعا مغشيا عليهما ثم افترقـا وجلسا يتشاكيان النوى وهما لا يصدقان انهما في اليقظة والامير ناظر اليهما ينهنه عبراته لشدة تاثره من هذا المنظر الذي جمع بين مظاهر الحزن والفرح معاً ونمى فـي قلبه الغيظ على حامد فامر باحضاره بين يديه وجلده مائة جلدة وان

يعلق بعد ذلك على خشبة امام خيمته حتى تاكل الجوارح لحمه ·
وللحال مضى عبد شديد البطش واتى بحامد المذكور يتعثر في قيوده بين
يديّ الامير وجلده مائة جلدة قوية كادت ان تعدمه الحياة وادوارد
ومحبوبته ينظران اليه ويبكيان · ثم تقدما الى الامير وقبلا يده طالبين
منه الصفح عن هذا المسكين اكراماً لامراته التي ترفقت بليونتين عندما
اتاها بها وعاملتها بكل لطافة فقبل الامير رجاهما واطلق سراحه بعد ان
اشبعه اهانة وتوبيخاً · وامر لهما بخلع سنية فقبلاها شاكرين افضاله على
ما فعله بهما وحسن جميله عليهما اولا واخراً · ومكثا عنده بعد ذلك اربعة
ايام على اتم هنا · ثم ارتحل الامير حسان مع زوجته في اليوم الخامس الى
قبيلته ورحل ادوارد ايضاً بمحبوبته ومن معه مصحوباً بعشرين فارس
من عرب الامير لتكون في ركابه حتى مدينة اورشليم ·

الفصل العشرون
في المقابلة بعد اليأس

بعد رحيل ادوارد وترجمانه من اريحا للبحث عن ليونتين رجع الزوار
الى اورشليم اسفين على ما اصاب رفاقهم والفريد اشدهم حزناً لكونه اشار
عليهما بهذه الزيارة التي كانا في غنى عنها ولدى وصوله ارسل الى الكونت
جاك رسالة برقية يقول له فيها سيدي الكونت جاك بادر للبحث عن
ولدك بين قبائل عرب فلسطين وانا بانتظارك في اورشليم والحزر من
التاخير · فلما اخذ الكونت هذه الرسالة وقع في حيرة عظيمة واعتراه

الذهول حتى كاد ان يجمد الدم في عروقه اما امرأته فاخذت تنوح نوح الثكلى لاطمة خديها طائفة كالمجنونة من غرفة الى اخرى قاصدة ان تلقي بنفسها من اعالي الدار الى اسفلها لتتحطم وتموت اسفاً على ولدها والخدم يركضون وراها يسكنون روعها وهي لا تزداد الا حزنا وهياجاً

فخشي زوجها ان يطرأ عليها عارض ما فتصير البلية مزدوجة فقام اليها وشرع يسكن روعها ويصبرها وهو بحاجة الى ذلك اكثر منها ولما سكن روعها امرها بالاستعداد للسفر الى فلسطين للبحث عن ولدهما كما اشار الفريد فامتثلت امره وجهزت كلما يلزم وبارحا باريز يودان ان تكون لهما اجنحة النسر ليصلا باعظم سرعة الى الارض المقدسة ولم يمض على سفرهما هذا سبعة ايام حتى بلغا مدينة اورشليم حيث كان الفريد بانتظارهما · فبادره بالسوال عن ولدهما وكيف كان وقوعه في يد عرب البادية فقص عليهما واقعة الحال وكيف انه غادر الزوار في اريحا وخرج في جنح الظلام للبحث عن محبوبته في تلك الاصقاع التي لا يطرقها الا مخاطر بنفسه نظراً لتوحش قاطنيها وبعدها عن العمران · فلم يجد الكونت بداً من اقتفاء آثاره فاخذ برفقته خمسين من الفرسان المدربين على ركوب الاخطار وسار بهم الى اريحا فوافوها عند الغروب وباتوا في اطرافها

وفي الصباح امتطوا صهوات خيلهم قاصدين احياء العربان للحصول على مرغوبهم · فراوا عن بعدٍ غباراً فائراً الى العنان وفرساناً مقبلة على صهوات مضمرات تسبق الظبا تنساب بهم انسياب السعالي في عرض تلك البيداء يتوسطهم شابان مليحا القوام على جوادين يسبقا السهم وفتاة

سادلة النقاب بزي بنات الاعراب راكبة حجرة عربية شهباء لا يرد عنانها فلما راى الكونت هذه الخيل امر فرسانه بالوقوف والتأهب للقاها عند مسيس الحاجة ولكنه بقي مرتاباً في امر الشابين السالفي الذكر والفتاة التي معها واخذ ان يشعر بميل قوي اليهم وبدافع قلبي يدفعه الى الامام لمعانقة من هو في طلبه ولم يزل كذلك واولئك يتقدمون حتى اقتربوا منه واماطوا اللثام فتحقق اذ ذاك انه ولده ومحبوبته وسليم ترجمانه الذي اخبره عنه الفريد سابقاً فرمي بنفسه عن الجواد قائلاً الا ما ابرك من صباح فها قد خازمني التوفيق وقرب الله لي طريق الوصول اليك ياولدي بعد ان كنت قد يئست من رؤياك ثم اراد التقدم فاذا بادوارد قد ترامى على يديه يقبلها فانكب الاخر على عنقه يقبله ويبكي لشدة فرحه بغير ان يفوه ببنت شفة ثم تقدمت والدته ايضاً وترامت على عنقه تقبله وهي تكاد لا تصدق ان كان ذلك في اليقظة فعلا زفير الطرفين عند ذلك وسالت دموعهم كالسواقي في تلك الارض التي لايكاد يرويها المحيط وبعد ان ارتوى الكونت من البكا قال لولده: الان صرت اموت قرير العين بعد ان رايت وجهك يا بني لانه لم يكن لي في حياتي كلها مكدر سوى بعدك عني فالحمد لله الذي متعني برؤياك قبل مماتي كي افرح بك في شيخوختي ثم عانق ليونتين وهنأها بخلاصها من الاسر مطيباً خاطرها برقيق العبارات وهكذا فعلت زوجته

اما الفرسان الذين حضروا مع ادوارد فحينما راوا ما تم تقدموا وهنأوا الكونت وولده بهذه المقابلة السعيدة مظهرين مزيد سرورهم من هذا

التوفيق العجيب فشكر ادوارد فضلهم بلسان ترجمانه مثنياً على شهامتهم وكرم اخلاق اميرهم الذي غمره بانعامه . ثم صرفهم بعد ان نفحهم بصرة من الدنانير وارتحل مع والده ومن معه الى مدينة اورشليم حيث مكثوا ثلاثة ايام لاخذ الراحة ورجعوا الى يافا فاقاموا بها اربعة ايام اخر منتظرين اقلاع باخرة ما الى مياه فرنسا

ولما كان اليوم الخامس اقبلت الباخرة جيروند ورست في عرض البحر كانها قطعة من جبل معلنة بالرحيل عند اصيل النهار ففرح ادوارد لذلك وهناء محبوبته بقرب مشاهدة والديها واقترانها به بحضورها وكان الكونت جاك جالساً في شباك غرفته يتأمل في تلك المينا العظيمة الخطر معالاً نفسه بقرب مشاهدة الوطن العزيز الذي بارحه على غير رضى منه لولا ذلك الخبر التلغرافي ثم دعا سليم اليه وبعد ان مدح شهامته وصادق خدمته لولده اجازه بمايتي ليرا عثمانية جزاءً له على ذلك . فقبلها الفتى مثنياً واراد الخروج فاستوقفه الكونت ثانية اذ راى ان هذا المبلغ زهيد في جانب خدمة هذا الفتى الذي رمى بنفسه في الاخطار من اجل ولده وكان الواسطة الوحيدة في اجتماع شمله به . ولكونه لم يكن معه ما يكاد يكفيه لنفقة الطريق قال لسليم : اني كنت ارغب ان انعم عليك باكثر من هذا المبلغ ايها الشاب النبيل لو استطعت ولكني سارسل لك اضعافه متى صرت في منزلي وان شئت مرافقتنا الى باريز لحضور زفاف ولدي على محبوبته انعمت عليك بكل ما ترغب وارجعتك مجبور الخاطر الى وطنك وذويك

فانسر سليم عند ذلك سروراً عظيماً وصار لايدري باي لسان يشكر فضل هذا الرجل الذي غمره باحسانه واراد ان يطيل الخطاب فمنعه الحيا لاضر في النفس فقبل يده وخرج باكياً يمسح دموعه باطراف منديله الى ان صار امام غرفة ادوارد الذي بادر اليه اذ راه كذلك سائلاً اياه عن سبب بكائه . فاجابه ذلك قائلا: اعلم ياسيدي انهُ لايسعني بعد ان نلت من حضرة والدك كل رعاية والتفات ان اطلب منك شيئاً اخراً خلاف ما اولاني فهذه مئتا ليرة اقبضنيهـا جزاء لخدمتي الضعيفة التي لا استحق عليها اكثر من الطافك وعنايتك بي في الحل والرحال . ولكن ياعزيزي بل ياسيدي ان لديَّ سر غامض مكمون في زوايا صدري كنت ارغب اباحته له وارجوه مساعدتي على نجاز ما يكنه ضميري غير ان الحيا منعني وخرجت باكياً كما ترى

— وما هو سبب بكائك اطلعني عليه وانا اساعدك عليه جهدي

— آه ياسيدي لو علمت سبب شقائي لرثيت لحالي . . اذ ما الفائدة من عيشتي ووالدي مطروح في السجن بين جماهير المجرمين من غير ذنب يستوجب ذلك

— انك كدرتني بهذا الخبر ياسليم فكفكف الان دموعك وتكلم بحرية لاني صاغٍ لما تقول

— شكراً لك ياسيدي على هذا الانعطاف فها انا ذا اوقفك على باطن الامر عالماً بانك لاتتاخر عن مد يد المساعدة نحوي

— انك لقد احسنت الظن فتكلم اذن

— اعلم يامولاي بان لي والداً يناهز الخمسين سنة فكان في بادى امره عظيم الثروة طائر السيط جاعلاً دابه استئجار الاراضي والمتاجرة بغلا تها فلم يزل كذلك حتى نزفت ثروته وصار مدينا في الف ليرة عثمانيا ولما راى الدائنون ذلك زجوه في السجن بحكم قضائي حتى يوفي دينه وها قد مضى عليه الان اربعة اشهر وهو فى اشد العذاب وانـا اعوله واعوّل عائلتنا بقليل ما اكتسبه . فتامل الان في امرى واحكم بما تشا فهل يسوغ لي ان اهمل والدي الذي كان علة وجودي واتمتع بحريتي . فلما سمع ادوارد ذلك دخل على والده واخبره بامر ترجمانه طالبـا منه مساعدته باخراج والده من السجن لانهُ يستحق اكثر مما هو راجٍ . فاعجب الكونت ادبه واشفاقه على والده فطيب خاطره واعداً اياه بارسال قيمة المطلوب من والده عند وصوله الى باريز . وهكذا كان فمن يقدر يصف فرح سليم عند ما سمع ذلك من الكونت فانهُ اراد ان يظهر مزيد امتنانه بافصح عبارة فسبقته دموعه التي كانت اعظم برهان على حسن ولائهِ . فمدحه الكونت على حنوه هذا مكرراً له الوعد بارسال المبلغ المذكور لدى وصوله : ثم ودعوه وركبوا الباخرة جيروند التي صارت تشق بهم عباب المـاء وتلاطم الامواج مدة سبعة ايام متوالية وادوارد ومحبوبته لا يكاد يسعها مكان لفرحها الى ان بلغوا مدينة مرسيليا فوجدوا الدوق دي فلمارد ووالدي ليونتين بانتظارهم على الميناء لان الفرزيد كان قد انبأهم بذلك من يافا . فهنا لايمكن للقلم ان يصف فرح والدىّ الابنة عند مـا شاهداها . فانهما وقعا على عنقها يقبلانها ويبكيان فرحاً باجتماع الشمل

وزفراتها تكاد لا تطفيها سيول مدامعها · ثم تقدم الدوق فلمارد مهنئاً القادمين جميعاً بسلامة الوصول وعقب ان استراحوا بضع ساعات في احدى الفنادق ركبوا القطار الى باريز فبلغوها بعد سفر ثماني عشر ساعة وتوجهوا تواً الى قصر الكونت مازار حيث تناولوا المرطبات مجددين التهاني بعضهم لبعض · وكانت جرترود اكثر الجميع فرحاً بسيدتها ليونتين التي فرارها من بيت ابيها كان بمساعدتها رأياً وعملاً · وبعد ذلك اخذوا يهتمون في اعداد لوازم الفرح وتحرير رقاع الدعوة للاقارب والاشراف اما الكونت فقبل ان يباشر عملاً ارسل لسليم القيمة التي وعده بها مع رسالة تشكر على امانته وجزيل اهتمامه بشان ولده

الفصل الحادي والعشرون

في زفاف ادوارد

لما كانت الليلة السادسة لوصول ادوارد الى باريز غص قصر الكونت بجماهير المدعوين لحضور حفلة زفافه على محبوبته ليونتين التي قاسى الاهوال لاجلها · وكان القصر المذكور مزيناً افخر زينة وشرفه محاطة باكاليل الازهار الجميلة والاغصان النضرة والموسيقة تصدح على بابه بانغامها الشجية ترحيبا بالقادمين والكونت جاك والفريد والمستر برد يستقبلون الوفود بكل بشاشة ووقار الى ان تم المحفل فدارت المخاصرة على انغام الموسيقة وماست القدود طرباً وعم السرور جميع الحاضرين بحيث انها كانت ليلة حافلة جامعة لاسباب المسرات جميعها · وقبل منتصف الليل حضر الكاهن وعقد

للعروسين عقد الزواج فطابت نفسها ونفس والديها وحمدوا الله تعالى علي نوال ذلك · ثم تقدم الكونت مازار وتنازل لصهره عن جميع ما يملك امام الحاضرين جميعاً وكذلك فعل والده الكونت جاك فعاش الفتي من ثم مع قرينتهِ قرير العين ناعم البال الى الممات فسبحان الحي الذي لايموت

هذا اخر ما اتيت به في هذه الرواية التي ارجو ان تحوز القبول لدى مطالعيها الكرام لاني لم اقصد بها سوى منفعة وطني العزيز وابناء جلدتي الالباء · ثم اني عندما فرغت من تأليفها فتحت لها باباً للاشتراك فرأيت من اقبال العموم ما ينشطني على المبادرة في طبعها خصوصاً جناب الوجيه الاديب الخواجه انطون اصالح الذي حينما قصصت عليه ملخصها بادر لمساعدتي في طبعها تعجيلاً لظهورها فكان ذلك منة من الطرفه التي تنشرها روايتي هذه وتحفظها له ما دامت

وخيرُ مديح تصطفيه روايتي
على نشرها اطراء انطون صالحِ
وكيفَ وقد اسدى الجميلَ مواصلا
مساعدتي في كل ما فيه صالحي

تقاريظ الرواية

هذا ما تكرم به علينا بعض الادباء الافاضل من التقاريظ البديعة فنشرناها حسب ورودها ممتنين لافضالهم

قال جناب الاديب الفاضل انطون افندي داوود البستاني

بدت بجمالها بين الانام ... بديعة فكرةٍ ذاتَ ابتسام
اتت بملابس الاعجاب تزهو ... على القرطاس كالبدر التمام
وقد خطرت تدير بكل لطفٍ ... على القارئ بكاسات المدام
الا فاشرب امان الله ليست ... خمور الشعر فيها من حرام
ولا بكر القريض فتاة انس ... تشاغلنا بتحبيب الكلام
وناهينا تبدت في تجلٍّ ... الى العشاق كاشفة اللثام
اجل رواية في الحب جاءت ... تريبنا كيف حال المستهام
حبانا بها النجيب كريم قوم ... سلالة آل كنعان الكرام
اديب ماجد ندب نبيل ... كريم فاضل سامي المقام
له الباع الطويل بكل فن ... وعلمٍ زاخر كالبحر طام
سبوق في المعاني وكل يوم ... يهادينا بابكار النظام
لدينا بينات في دليل ... عليه في معاناة الغرام

وقال حضرة الاديب المفضال عبدالله افندي عميره

اهيمُ بحبها بنت الكرام ... هيامي بالاخوة والوئام
تبدت في حلا الافصاح تجلى ... منمقة فزاد بها هيامي
ولاحت للنهى بكراً عروساً ... تفوق سنا على البدر التمام
وتطوي خصرها فيضوعُ نشرٌ ... ذكي زادَ عن نشر الخزام
بهتنا هام الفؤاد وليس يرجو ... سواها خلة بين الانام
يعاني في الوصول الى لقاها ... معاناة تفوق عنا الغرام
كتابٌ قد حوى زوقا ساميا ... الى العاني الشجي المستهام
بهِ وردُ الحلال يطيبُ نهلاً ... وينهانا عن الوردِ الحرام
به انتظمت فرائد كل معنى ... بعقد جمانه خيز انتظام
فطالع متنه ياصاحِ وانظر ... بديع اللفظ في حسن انسجام
فالفهُ لنا خلٌّ نجيبٌ ... عريق الاصل من آل كرام
الى كنعان نسبته تربي ... على حفظ المودة والزمام
سعى من مهده يبغي علوما ... بها يرقى الى اعلا مقام
فنال بجهدهِ العليا فلاحت ... لنا تزهو كبدر في القتام
فمبداه صنعه حسنٌ وشكري ... له ابديه مع مسك الختام

هذا ما جاد به حضرة الاديب سعيد افندي غانم وكيل جريدة المقطم في الدقهلية

ما سمعت بكتابك النفيس حتى هزتني الى مطالعته اريحية الادب ولم تمضِ عليّ برهة الا وبلغت المارب فاخذت اريض فكري في رياض عباراته المزهرة واجيل طرف الطرف في فسحات ميدان معانيه الباهرة واتفكه من ثمار مبانيه الزكية واستنشق من ريا عبيره العطرية فوجدته مفرداً في بابه لم ينسج قبلك على اسلوبه فجعلت فيه الجد هزلاً والهزل جداً وبينت فيه الحرام من الحلال ينهي عن المنكر ويأمر بالحق والاستقامة فخلدت لك ذكراً حميداً بصنعك الجميل وافدت بنصائحك كثيرين اتبعوا سنن الغواية فاهتدوا بمشكاته الى الصواب جزاك الله خيراً ودمت في ادابك بدراً كاملاً وهذا قليل من كثير فالرجا المعزرة عن الاطالة اذ خير الكلام ما قل ودل

وهذا ما جادت به قريحة حضرة اللوزعي الاريب العلامة الشيخ مصطفى الاديب

اقرظ بالقريض البكر بكرا * ولم اوثر به زيداً وبكرا
اقرظها بجوهر بحر فكري * وغيري يستمد البحر درا
اقلدها الغوالي وهي اغلى * وكم جادت بها نظماً ونثرا

كلانا باذل نظماً ولكن * انث محـامدا وتنث سحرا
انا الحر الضمير ولي جنان * يرى الاحرار بالابكـار احرى
ومـا انـا بالذي يسلو هواهـا * ولو جاوزت بعد الالف عشرا
هي البكر العروب ولي لسان * يكرر ذكرها سراً وجهرا
ولي قلب يقلبه اشتغالي * بباهر حسنهـا بطناً وظهرا
اطرز بردها دراً باني * حظيت بودهـا شهراً فشهراً
وكم سامرتها والليل يسري * فسبحان الذي بالليل اسرى
وكنت اظنني وحدي سميراً * كما ابصرتها في الحسن وترا
فابصرت النهى وقفاً عليهـا * والفيت القلوب هناك اسرى
و بون بين من شذت وثاقـاً * ومن شدت له بالود اسرا
فقد ملكتهـا قلبي اختيـاراً * فسار كما ترى نهياً وامرا
واني مذ كلفت بها ازالت * لفكري عن معاني الحسن سترا
فالفيت الهيـام بها رشاداً * فـالقيت الزمـام ورقت فكرا
وعاينت الاحاسن في خدود * قد انشرحت بها الافكار صدرا
وعانيت الغرام بها ففاقت * معـانـاة الغرام لدى بدرا
تحببها القلوب وان قلبي * يرى حباتها يرخصن مهرا
لقد شادت لنا ركن المعاني * كما شد النجيب لتلك ازرا
وقد فاقت معاني الحسن فيها * كما فاق النجيب علاً وقدرا
نجيب من بني كنعان حر * حسيب قـد سما فخراً وذكرا
وفي لبنان اهلوه رجال * سراة اطلعوا للعلم فجرا

لقد اهدى لنا درراً فكانت لروض العلم افناناً وزهرا
معانٍ للنهى حاكت شموسا اضاء بها البها نجداً وغورا
بها الاداب تسفر عن وجوه يفقن ضيا الضحى حسناً وبهرا
اساليب تنير الفكر منها اعاجيب لها الاسرار مسرى
لقد حلت مبانيها فجلت فاعجز وصفها بكراً وعمرا
ومن لي لو ابث لها حديثي ويصغى فانث لتالك شكرا
ومن انا من رجال النظم حتى اجاوز قدرتي واقول شعرا
ولكني طفيليٌّ عديمٌ ومن جدوى الكرام غنمت نذرا
فمن يك راحمي فليعف عني ويوسع فكرتي في العجز عزرا
وتيك قصيدتي واداة شكري لغاية ماربي دهراً فدهرا

هذا ما قاله حضرة ابن عمنا الياس افندي كنعان

بزغت في افقنا غزالة الكمالات . وبرزت من خدرها رواية الروايات غرامية متبرقعة بكسا الادب . تتصرف بالعقول لرشاقة الفاظها ورقة معانيها ودقة مبانيها تصرف الروض بافنانه فجاءت جنة غناء مكتسية حلة خضراء . قامت طيور الاسحار تغرد بفروع اشجارها تبشر بسرعة انتشارها فحلها جمهور الادباء محلها من المنزلة الرفيعة . ورمقت بعين الاستحسان من ارباب الذوق السليم . لله در ناسج بردها وناظم عقدها فانها جديرة بالمطالعة وهي من البلاغة وحسن السبك على جانب عظيم فلا عجب ان مدحها المادحون واطنب عليها في الثنا قوم عن الاغراض مجردون

وقال حضرة الفتى الاديب يوسف افندي لفاوفـــه

غرر ام درر تحلت في صحائف الطروس · ام بكرٌ بدت تتيه حسنا كالعروس · هي البكر التي ظهرت للعيان بعد ان نظمت عقودها كنظم الجمان فانعم بهـا من مخدرة بهية المطلع جميلة المنظر حسنة المسمع برزت من خدرها كما يبرز الاسد من العرين تختال ـــفي حلل البلاغة فرمقها الفضلاء بعين الاستحسان وامهرها الادبآ اية الرضوان لو تجلت امام كسرى اوهبهـا نصف الملك او تبدت في الدجى حسبها القوم نجمة الفلك فلله درهـا من بكر حوت طروق البلاغة في طريق البديع وشرحت ظرق المعاناة في الغرام وما يتباداه الهائمون من الوجد والهيام لا ينظرها ناظر الا ويتمنى قرأتهـا ولا يبداء بها الا و يرجو اتمامهـا فما ابهي انشاها واسني بهاها فكم تاقت اليها النفوس حتي ظهرت وكم اثنت عليها الطروس وهي مختفية اتانا بهـا نجيب هذا العصر وقرة علوم هذا الدهر فاذهب عن القلب الغصص والمحن وراحت النفس تسلو بها عن كل غالي وحسن فاكرم به من اديب نجيب واريب لبيب درس العلم فافاد واتخذ اللغة واستفاد ضمن فيها السحر الحلال بعبارة مفهومة وجمل معقولة ومعاني دقيقة يفهمها الصغير والكبير رعاهُ المولى ووفق مسعاهُ وسهل قصده واعطاه ما يتمناه

وقال جناب الاديب الخواجه شكري انطون الخوري

ما وقفت على كتابك النفيس وطالعت درره وغرره الا اخذتني هزة الطرب من منظوماتهِ ومنثوراتهِ ولا بدع فان ما اتيتم بهِ من البلاغة والبراعة في منظومه ومنثوره دليل واضح على مااعتقده الادباء بكم ·

رواية حكت مغاناة الغرام فاوضحت عن اسرار العشاق وغوامضهم وسردت لنا طرقاً ادبية جليلة لا يتاملها المنصف الا ويشهد لكم بتوقد الفكر وحدة الذهن فقد وضعتم فيها الجد هزلاً والهزل جداً فلا برحتم نصراء للعلم والاداب ولا برح العلم بكم منتشراً ما طلع الازهران وتعاقب الجديدان

رواية

بدر التمام

او

شهيد السر

معربة بقلم عفيفه أظن الدمشقية

اعتنى بطبعها
يعقوب جمال

طبع في مطبعة الاهرام سنة ١٨٩٨

اهداء الرواية

مولاتي الكريمة ذات العصمة والعفاف ❋ الحرم الخديوي المصون ❋
جعل الله ايام سموكِ الكريم اقماراً في سماء المجد والفضل

ان كان للآداب اطال الله بقاء سموكِ نسيم يتضوّع وللذكاء انوار تشرق وتلمع فهي منبعثة من لدن البيت الخديوي الكريم لان ما خوّلني اياه المولى المتعال من الانعام جعلني ان اصدر هذه الرواية باسم سموكِ الكريم . وها ان ,, بدر التمام ،، تتهلل فرحاً لما حازته من الشرف العظيم بوضع اسم سموكِ حلية في صدرها فتكرمي بقبولها بعين الرضى اعزّكِ الله

مصر القاهرة في ٢٢ مارس سنة ١٨٩٨ الداعية المخلصة

عفيفه أظن

مقدمة

حمداً لمن جعل الكتب والروايات رياضاً تتعطر بازاهرها عقول المطالعين اما بعدُ فانه نظراً لما حازته رواية " المركيزة متيلدة " من إقبال القراء ورضاهم اذ وقعت لدى حضرات ذوي العرفان موقع الاستحسان مع كونها باكورة ما عرَّبته من الروايات حملني تنشيط اهل الفضل على مواصلة الكتابة والتعريب وحدثني الرغبة الى نشر هذا الكتاب الثمين بين اظهر الادباء الشرقيين فائيت بترجمة هذه الرواية الادبيَّة الحاوية ما يسر القلب والناظر لانها كالروض الناضر فالفضيلة تنتصر فيها على البغي الوخيم ولو طال المطال وعدم الصبر الجميل هذا وقد بذلت ما امكنني من الوسع لتكون الرواية ملائمة للذوق الشرقي فعسي ان ينظر حضرات الافاضل الى رواية " شهيد السر " بعين القبول لتنال حظاً جميلاً ومقاماً جليلاً بمن الله وكرمهِ

الفصل الاول

الجواد بدون فارس

حدث في ليلة ما ان جواداً وجد يعدو عدواً سريعاً وعلى ظهره السرج وفي فمه اللجام تارةً يصهل صهيلاً محزناً وطوراً يتوقف ويرفع رأسه ليستنشق النسيم اللطيف المنبعث من تلك الغياض الزاهرة

وكانت سماء تلك الليلة صافية زاهية كأنها روضة مزهرة يلذ للمرء ان يسرّح الطرف في درر دراريها ويروّض الفكر في رياضها تنبعث فيها الانوار الساطعة من خلال اشجار الغابة وتلمع في قبة أُفقها النجوم المتناثرة البهيَّة كأنها

بساط زمرُّدٍ نثرت عليهِ * دنانيرٌ تخالطها دراهم

وكان الطقس معتدلاً والافق كما تقدم بهياً ساطعاً لا تشوبه اقل شائبة والبدر كاملاً والانوار المتلألئة في الافق تدهش الابصار وتسحر الالباب كما وان الشذا العطري الفائح من ازهار الحدائق وجمال الطبيعة مما يدل على ان تلك الليلة كانت زاهية زهراء زكيَّة عطراء يندر مثالها في ارلاندا بنوع انه لو رام السائح التجول في تلك الاراضي المزهرة لافتتن بجمال مناظرها وسُحر ببهاء محاسنها وغاص في بحر التأمل كالسكران واخذ يسبح خالقها الرحمن

ومن الغرابة انه لم يطرق ليلتئذٍ ذلك الطريق عابرٌ ما بحيث لم يسمع في تلك الارجاء سوى وقع حوافر ذلك الجواد الشارد وصدى صهيله المحزن المقلق سكون الطبيعة الرائقة وكان يردُّ عليه من بعيد نباح كلب شديد

مؤلم ينبئ بان الكلب الامين حارس المنزل قد فهم واتضح عنده مغزى صهيل جواد سيده العزيز

واستمرّ الجواد سائرًا بسرعة في الطريق المؤدي الى القرية وهو يصهل تارةً كأنه يريد نجدة ثم يرتعش طورًا ويضطرب الى ان صار قرب منزل يجلس لحراسته كلب ينتظر عودته بفروغ صبر وينبح نباحًا هائلاً يسمع له دوي في الفضاء ويؤثر في النفوس تأثيرًا محزنًا

وكان في ذلك البيت امرأة طاعنة في السن جالسة قرب الموقد تغزل كتانًا وبجانبها فتى توشح بجلباب الرهبنة يقرأ كتابًا ويتمعن بما يقرأه وعلامات الكآبة تلوح على محياه . وكانت الوالدة تقوم مرارًا وتتطلع من النافذة المطلة على الطريق ويتخيل لها في ظلام الليل انها شاهدت الشخص الذي تنتظر إيابه وسمات الضجر مرسومة على هيئتها وكذلك ابنها فقد كان يترك كتابه مفتوحًا على المائدة ويعير آذانًا صاغية لكيلا تفوته اقل حركة مما يحدث خارج المنزل واما الكلب الامين فكان رابضًا تحت قدمي سيده يرفع رأسه مرارًا وينبح نباحًا هائلاً فيمسكه بطرس بلطف ويقول اسكت ياميلامب (اسم الكلب) فان تريلبي (اسم الجواد) سيعود عما قليل ...

حينئذٍ قالت والدته واسمها حنة بلهجة محزنة لا اعلم ما الذي يحمل ميلامب على النباح في هذا المساء فيلوح لي انه معذب فهل ياترى ان احد السكان المجاورين مشرف على الموت ... او ماذا يا ابني ...

اجاب بطرس كلاَّ يا والدتي فان جميع المرضى الموجودين قد قاربوا الشفاء التام

– ياللعجب فان ميلامب ينبح نباح الموت ...

– لا تجزعي يا اماه فقد سئم من انتظار عودة شفيق . فلما سمع الكلب هذا الاسم هب مذعوراً وسار نحو الباب واذ ناداه بطرس عاد الى محله . وبعد برهة ساد السكوت فقالت حنة في اثنائها لقد ابطأ شفيق بالرجوع وليس من عادته ان يتأخر الى مثل هذه الساعة ...

– ينبغي ان نعذره يا اماه هذه الليلة لان ساعات السرور تمر والانسان لا يشعر بها ... لا سيما وان شفيقاً لا يدري باننا ننتظره وافكارنا تضطرب من جهة غيابه ... فان بدر التمام عاهدته رسمياً اول امس ... وشفيق اسرع الى المدينة وابتاع الخاتم والبسه الى خطيبته ... والعروسان يتبادلان الآن اطايب الاحاديث واشهاها . وان رمتِ يا اماه البحث عن سبب ابطاء شفيق هذه الليلة فعليكِ ان تمثلي امامكِ ايام صباكِ فتتضح لكِ الحقيقة كالشمس لذي عينين ...

فتركت حنة عملها وصمتت برهة غاصت في اثنائها في بحر التأملات ثم تأوهت وتنهدت وانشدت

لله ايامٌ نقضت لنا * ما كان احلاها واهناها
مرّت فلم يبق لنا بعدها * شيءٌ سوى ان نتمناها

ثم قالت اواه ياولدي العزيز ما الذ ذكرى تلك الايام واحلاها مرّت كالخيال ولم ازل اراها امامي كيوم امس سارت كوميض البرق ومضت عليها السنون الطوال منذ وفاة المرحوم والدك العزيز ... آه ما اطيب المعيشة

حيث الوقت معين والعيش رغيد ونور الهناء يلوح · ياليت ايام شفيق تكون كايام اجتماع شملنا ··· فان الفضيلة ياولدي قد جعلتنا اديبين نشيطين ولم يُسرُّ بزواجنا الا بعض الذين عرفونا وكان عقلاء القوم يسألون المرحوم يوحنا والدك عما يلجئه الى الاقتران قبل ان يشتري منزلاً كما وعموم الفتيات استهزأن بملابس فرجي وبساطتها · ولكن يد الله كانت اعظم مساعد لفقرنا فلقينا بمساعدتها ما اغنانا عن كنوز الارض وجواهرها · حيث كنا نحب بعضنا حباً خالصاً ولم نستشر في امر زواجنا سوى فؤادينا · آه ثم آه ياولدي ان الحاجة لم تجعلنا نحتفل بوليمة واحدة ولم يُسمع في منزلنا ولا نغمة موسيقيَّة الا ان الحب الحقيقي لا يتألف بالغناء والرقص · والهناء الدائم لا يقوم بتعدد الولائم وبعد ان تم عقد زواجنا اقمنا في هذا المسكن وشعرنا بلذة عظيمة وفرح لا يوصف · وغالباً ما كنت ابتسم في خلوتي وتتناثر من عيني عبرات فرح وسرور غزيرة· واول يوم دخولي في مهنتي الحديثة شمرت عن ساعد الجد وانهمكت بترتيب المنزل وتجهيز اللوازم الواجب عليَّ تجهيزها لقريني حتى عند عودته من عمله يجد كل لوازمه تامة

ويوماً ما عند الظهيرة حملت لاول مرَّة على ساعدي ما اعددته للغذاء وسرت الى الحقل حيث كان يعمل المرحوم والدك وكان ذلك النهار من اجمل ايام فصل الخريف والاشجار مجردة لا تكسوها الا بعض الاوراق المحمرة والطبيعة تنظر بحزن الى ذلك المشهد والريح تعصف بشدة والارض تعبق رائحة عطريَّة منعشة والطيور ترفرف فوق الخطوط المزروعة بالحبوب

فوصلت الى مدخل الحقل ونظرت والدك فرأيته مهتماً بحراثته الامر الذي لم يزل رسمه امام عيني الى الآن فقد كان كبير القامة قوي العضلات بهي الطلعة جزيل المروءة عالي الهمة طلق المحيا يُعدُّ من اجمل فلاحي ارلندا. فتوقفت هنيهة اتأمله عن بُعدٍ واذ نظر اليَّ تبسم وترك عمله ... وكان ذلك الابتسام كنور الغزالة بل كان احلى من الشهد ... وجاء مسرعاً ورحب بي فدنوت منه وقال بصوت مختلج بعد ما تناول مني الغذاء اهلاً بكِ يامنية فوءادي ومرحباً يانور عيني . ها انا احرث الارض وازرعها حبوباً وانتِ تحملين الغذاء وتجعلينه لذيذاً نافعاً بعمل يديكِ اللطيفتين وبانعطاف عينيكِ الجميلتين ... فسوف تكون حياتنا ياجنة مملوءة من النعم ... ان فوءادي يرقص طرباً عند روءيتكِ ففيكِ حياتي وبين يديكِ راحتي وهنائي . كنت امس غلاماً فاصبحت اليوم رجلاً اشعر بما يجب عليَّ نحوكِ من الانعطاف ...

فاجبته قائلة يجب عليك ان تحبني وتميل اليَّ بكليتك لان النساء كالطيور قد يحتجنَ الى مأوى امين وجناح لطيف فلا تعاملني بقسوة لاني شديدة الخوف بل اغمرني بحنوك اكي تعوض عليَّ كلما تركته لاجل حبك ...

فاجابني ان حبي لشريكة حياتي اوجب عليَّ من كل واجب واعز من كل عزيز . واخذنا نتجاذب اطراف مثل هذا الحديث اللطيف الى ان رجعت من الحقل وقلبي يرقص فرحاً وسروراً

ثم قطعت حنة الحديث الذي كانت تسرده عن سني شبابها ووضعت

يدها على كتاب ابنها وقالت ألم تسمع ياولدي صوت ركض الحصان

اجاب بطرس كلاَّ . فهذا صوت دوي الريح المتلاعب في الاشجار

فقالت حنة لقد دقت الساعة العاشرة ونصف وشفيق لم يعد . آه لقد قلقت أفكاري من طول هذا الغياب . فوضع الكلب رأسه على ركبتيها وتأملها بعين الشفقة فقالت له انك حزين ياميلامب لعدم رجوع شفيق . فلحس الكلب يديها بلطف وحينئذٍ قال بطرس لا تضطربي يا اماه من تأخير رجوع اخي بل يجب ان ننتظره بصبر ونعده سعيداً ...

فاجابته والدته اواه ياولدي انه سعيد ... سعيد للغاية يا ابني ... آه ما اعظم حظ الانسان عندما يذوق قلبه لذة الحب الطاهر . فسيأتي يوم به ادعو بدر التمام ابنتي وسأذكر سني الافراح والحب والهناء ... ولا سيما حينما كنت احملك على ذراعي واخوك شفيق يتبعني ثم تقدمتما نمواً نفساً وجسداً وصحة وادباً وكنتما غاية افراحي خصوصاً انت ياعزيزي فقد كنت بهجة آمالي ونبراس اعمالي لانك خضعت مطيعاً لوصيَّة والدك بيد ان افكارك تحولت الى اميال شريفة فحزر والدك مرغوبك وفي مساء احد ايام شهر نوفمبر (تشرين ثاني) قال لك بلهجة حنونة اراك ياولدي تحب الكتب وتفضلها على حراثة الارض وقبض اليراع في انامك احب لديك من المحراث . واما شفيق فلا يلذ الا بالحراثة والزراعة والحصاد . فليباركما الله بيمينه وليحرسكما بعين عنايته وفي الغد اخذ معه شفيقاً ليساعده في العمل بالحقل وذهب بك الى احد العلماء النابغين لتدرس العلوم المفيدة

فتأثر بطرس من هذا التذكار واخذ يدي والدته وقبلها · ثم عادت حنة الى تمام حديثها فقالت فنجحت ياولدي بالعلوم ونبغت بانواع الفنون ومذ ذاك توجهت اميالك الى خدمة الله تعالى · وفيما هي تتكلم سمع بطرس (الكاهن) ووالدته ركض الجواد السريع فقامت حنة ووضعت اناء الشاي على النار استعداداً لقدوم ابنها ثم عادت فقال لها بطرس اكملي حديثك ياوالدتي · فقالت لقد كنت واخوك شفيق منذ ربيتما مختلفي الهيئة والمشرب ولا يقدر احد ان يعرفكما اخوين فالبكر نحيف الجسم اصفر اللون والاصغر شجاع كريم النفس قوي العضل · فاخوك شفيق حاد المزاج سريع الغضب وانت عظيم الجسم جميل الطلعة تكرس حياتك في سبيل الاعمال الخيرية : والفرق بينك وبين اخيك بعيد ··· وبينما هي تتكلم طرق سماعها صهيل مؤلم فنهضت مسرعة وقالت بصوت مضطرب اه يالهي ماهذا الصهيل الغريب فاجاب بطرس بعد ما هدأ روعه قليلاً يلوح لي ان الجواد قد اعيي من طول المسافة فقد سار به شفيق من هنا الى المدينة ومنها الى منزل عروسه وعاد به الى هنا ···

ـــ اواه ··· لقد دقت الساعة الحادية عشرة

ـــ ومتى عاد شفيق واخذ يسرد على مسامعكِ ما جرى له هذه الليلة فلا يمكنكِ حينئذٍ الافتكار بمرور الوقت لانكِ تحبينه للغاية وعدا عن ذلك فالحب يعطي المرء مجالاً للتوسع في وصف حال المحبوب وشفيق لا يبخل بتعداد اوصاف خطيبته ونعت كمالاتها

ــ اني احبها ياولدي من صميم فوءادي لانها فتاة كاملة في الخلق والخلق

ــ نعم يا اماه ان بدر التمام هي فتاة لطيفة المعشر كريمة النفس ويجب ان نعد دخولها في منزلنا نعمة مرسلة لنا من الله ...

ــ ان الحصان قارب الوصول ولم يبق لي ان انتظر سوى دقيقة ... دقيقة طويلة . ثم اقشعرَّت وارتجفت اذ سمعت صهيل تريابي الحزن يشق الفضاء ... ورفعت حنة يدها الى فوءادها لانها احست بطعنة أَليمة خرقته

ففتح بطرس باب المنزل وخرج لملاقاة اخيه ولما تقدم بضع خطوات صرخ صوتًا هائلاً من شدة الخوف والاضطراب فسمعته والدته ورامت ان تتجاوز الباب واذا بابنها صار امامها وصاح بصوت يخنقه الخوف قائلاً استحلفكِ يا اماه باسم مبدع الكائنات ان لا تقربي

فاجابت شفيق . شفيق . اين شفيق . واذ لم تسمع على سوءالها جوابًا الا أَنين الجواد ونباح الكلب الحزين سقطت على الارض خائرة القوى حتى كاد يغمي عليها فمسكها بطرس من ذراعيها واجلسها على مقعد وقبل جبهتها الصفراء ثم تركها وخرج قائلاً تصبري يا اماه فاني سأَعود قريبًا ...

الفصل الثاني

الشقيقان

وخرج بطرس فرأى الجواد مقبلاً بدون الفارس يكاله العرق البارد كأنه في حشرجة الموت مما عاناه من التعب والالم فاخذ الكلب يلحس عينيه المغمضتين . اما (الكاهن) بطرس فاتضح له من اول وهلة ان مصيبة فادحة قد حلت باخيه ولما دنا من الحصان ليرفع السرج عن ظهره احس ان يديه قد تبللتا وخرق فؤاده سهم نافذ فعاد الى البيت وتناول الشمعة التي وضعتها والدته على عتبة الباب وتطلع في النور فلقي ان يديه وثيابه قد تلطخت بالدم

فاعتصم بحبال الرجاء ظناً منه ان ما رآه هو من دم الحصان . وبعد ان فحص الجواد ولقيه سالماً من كل جرح تحقق وقوع فاجعة عظيمة . ولكنه جمع قواه قبل ان يعلم والدته بشيء مما رآه . وقال لها بصوت ساكن الجاش ان تريلبي قد عاد وحده ... مكسور اللجام وفي ذلك مما يدل على حلول حادثة ما ... اذاً انا ذاهب لملاقاة اخي ...

فصاحت والدته اواه لقد مات شفيق . فقال لها اني اسأل الله ان يقي فؤادك من مثل هذا الالم الصادع ... فانتظري رجوعي وصلي بدون يأس

فاختلج قلب حنة واصطكت ركبتاها فوقعت خائرة القوى فاقدة الرشد وغاصت في بحار الهواجس والاحزان . فضمها الى صدره واخذ يلاطفها ويخفف عنها تسكيناً لعواطفها ثم خرج مسرعاً الى الطريق المؤدي الى بيت بدر التمام الشقراء خطيبة شفيق ...

وفيما هو سائر احس بانقباض شديد في فوءاده واظلمت الدنيا في عينيه واخذ يحدث نفسه ويبحث عن وسيلة يتصل بها الى معرفة حقيقة الخبر سائلاً البساتين والطرق والاودية والسهول عما حدث فلم يجبه شيء باشارة تنبئه او تجمعه بحبيب القلب وغاية الآمال . وكان قد اخفى ما اصابه امام والدته . واذ وجد نفسه منفرداً اطلق العنان لدموعه النازلة على مقلتيه لتحرق وجنتيه لان شفيقاً ووالدته كانا غاية مناه في هذه الدنيا . أَوَ ليس هو الذي كان اعتنى باخيه كابنه ودافع عنه ادبياً ومادياً وفي ايام صغرهما كان الاصغر يحرس اخاه شفيقاً من المخاطر التي يتعرض لها وتتعرض له ويدافع عنه حيث كان يبدد شمل المعتدين عليه وزد على ذلك انه اهتم بتثقيفه وتعليمه حتى نمت قواه العقليّة والجسديّة فاصبح وقد بلغ التاسعة عشرة من عمره فاضلاً اديباً فتقومت قامته وسطعت اشعة السرور في عينيه الزرقاوين وابدى ميلاً خاصاً للعمل في الحقول وحينذاك كان بطرس هذا قد دخل الدير للرهبنة . فاستلم شفيق زمام ادارة البيت بمناظرة والده الذي توفاه الله بين ذراعي حنة وولديها ...

واقامت الارملة مع ابنها شفيق الذي استلم مهام والده الى ان فرغ بطرس من دروسه وخرج من الدير فجاء للسكنى مع والدته وشقيقه ففرح اهل المنزل بقدومه وذرفوا دموع الفرح والحنو لاجتماع الشمل وخصصوا لهُ غرفتين في البيت وصار يخرج يومياً لخدمة الرب ويطوف في البلدة يعلم ويبشر ويعزي المرضى والمساكين ويغمرهم بعطاياه واحساناته الجزيلة . وعند

اقامة بطرس بين ذويه قال شفيق لوالدته لقد تعبت من خدمة المنزل يا اماه لاني تقلدت مهامه وحدي منذ وفاة المرحوم والدي وقد آن لي اليوم ان اتنازل عن هذه المهمة وارفع عن عاتقي هذا الحمل الثقيل بتسليم الادارة الى اخي وسأكون خاضعاً لكل اوامره

فاجابت والدته آه ياولدي العزيز ان اخاك قد ترك العالم وكلما يتعلق به فالزم مهنتك ولا بد من ان اخاك بطرس يحض الخدم وينهض هممهم ويعضدك ببعض الشؤون لان مصلحته الحاليَّة تلجئه الى الابتعاد عن الامور الدنيويَّة

واقام بطرس مع والدته واخيه وعاشوا جميعاً على احسن حال بدون ان يكدر سماء معيشتهما اقل سحابة ... وفيما هم على اتم وفاق ظهرت سيماء الكآبة والاضطراب في محيا شفيق واعتراه الغم والكدر بغتة فاهمل اموره وقضى اياماً طويلة ملتزماً العزلة والانفراد في الحقول بدون ان يفتكر بمناظرة العمال ولا سيما فقد صار يتوخى الاجتماع بوالدته واخيه فاخذت حنة تسأل بطرس قائلة اني اعجب يا ولدي من انقلاب احوال اخيك شفيق واحزانه المتراكمة ... اواه اني مستعدة لافداء حياتي في سبيل راحته ولا أطيق ان اراه معذباً ... فيا الهي ما اتعس حالته الآن فقد نحل جسمه وهزل حتى صرت اخشى عليه من الهلاك والموت ...

فيوماً ما رام بطرس استطلاع الحقيقة فاجتمع باخيه وسأله عن سبب احزانه فحاول اولاً اخفاء ما به واذ ألح عليه متوسلاً بلطف وضع الفتى يده

على ذراع اخيه وقال آه يا اخي انت قادر على تعزية الوالدات الثكالى اللواتي يندبن فقد اولادهن وتعلم ايضاً كيف تهدئ اشجان الابن الذي يبكي موت والده العزيز . وبعبارات التعزية يمكنك ان تنشف دموع الاخ والصديق وتبرد قلبه الملتهب بنار الحزن . واما انا فجرحي عميق وحزني شديد واوجاعي غير قابلة الشفاء ولست بقادر على ايجاد دواء نافع لمداواتي ...

فكرر بطرس العبارة الاخيرة وقال بيأس أَوَ لا يمكنني ان اجد دواء لدائك ... ثم خامره فكر واضطربت عواطفه واذ رأى شفيقاً غائصاً في بحر الهواجس المحزنة والتأملات العميقة اخذ يتمشى بقربه ثم قال له بصوت منخفض لا يحتمل ايها العزيز ان تكون اسقامك مادية فعواطفك لا تعرف البغض والحسد وقلبك لا يميل الا الى الحنو والشفقة ... وقد اقررت الآن اني اجهل سبب احزانك ... ومع ذلك يخال لي اني كشفت النقاب عن مكنون هذا السر وعرفت ما في ضميرك واراك مستحق اللوم على كتمانك هذا الامر عني ... انك تحب ياشفيق ... فلا تنكر عليّ ما يظهر لي من حالتك فارتعاشك يحقق مقالي ويؤيد لي بان السهم اصاب المرمى وجاءت افكاري طبق الحالة الراهنة ... ومن ثم تراني لا الومك ياشفيق فالحب الطاهر هو سامٍ وجميل ولا تزعم انك خلقت لتعيش في الوحدة ... فحياتك تتطلب حب آنسة جميلة ... ومحبة البنين ... وقد سمح الله بهذه المسرات ... والنساء خلقن للرجال كما ان الرجال خلقت للنساء ... ولكن هل وقع انتخابك على احدى الفتيات ... ووالدتك تمانع مباركتك . ام هل تخشى ان تلفظ اسم من احببت

ــ آه يا اخي يا اخي ان من احب تدعى بدر التمام
ــ افلا تستطيع ان تذكرها لوالدتك ...
ــ لا يمكنني ان اقر بذلك امام نفسي ...
ــ أوَ لم تذكر شيئًا لوالدتها منة
ــ لم اتجرَّأ ...
ــ وبدر التمام ...
ــ تعرف بدون ريب ان صورتها لا تبرح من امام عيني وان اسمها يتردد دائمًا في ذاكرتي
ــ آه ما اعظم حظي يا شفيق لان منة هي امرأة فاضلة وبدر التمام فتاة كاملة الاوصاف بالغة سن العقل والرشد ورغماً عن حداثتها لا تستطيع ان تجد من يماثلها بين فتيات البلدة في اللطف والآداب وجمال الخصال والحسن والكمال
ــ آه ثم آه لقد غمرتني باحسانك وفضلك . قال ذلك بهتاف الفرح
ــ أتريد اذًا ان اذكر شيئًا بشأنك
ــ نعم منذ هذا المساء
ــ لتذهب غدًا والدتنا الى منة وتقول لها اعطي بدر التمام عروسًا الى شفيق لنحتفل بعقد القران في عيد القديس جرجس
ــ وان قبلت منة تعود اليَّ افراحي السابقة وتنتعش روحي فيطيب فؤادي ويتم هنائي وتزيد سعادتي
ــ اني ضامن لك الهناء والسعادة لان بدر التمام ستحبك فتعيش معها

بالعز والصفاء لانكما من مشرب واحد. وفي ذلك اليوم عاد شفيق من نزهته وحيّي والدته واخاه وولى مسرعاً الى غرفته فتبعته حنة بالحاظها الكئيبة ولما توارى رفعت عينيها الى ابنها المنحني امامها بقامته الهيفاء وتنهدت من صميم الفؤاد كانها لا تجرأ على الاقرار بانزعاجها وتمنت ان يفهم سبب احزانها وغمها فقال بطرس اعيريني يا والدتي اذناً صاغية فقد يلوح لي ان الكآبة مستحوذة عليكِ وهذا لا يجوز لكِ. وان لم تقشعي السحابة المكدرة أُفق صفاء شفيق تغضبي الله لان ذلك في امكانكِ

فضمت الوالدة يديها الى صدرها وقالت اواه كيف يكون ذلك ...

ـ اذهبي غداً باكراً الى منزل منة وخذي معكِ باقة من الزهور الى بدر التمام التي تحبينها من صميم قلبكِ وقبليها قبلة في جبهتها كأبنة معطاة لكِ من الله

ـ اشفيق يحب ...

ـ نعم ان شفيقاً يتمناها عروساً له

ـ يا للعجب ولمَ هذا التستر ... أُحزن قلبي ... طعن فؤادي بنحوله ... اواه ان سعادتي تقوم بهنائه وعندي أُنس هذا الخبر اطرب من شدو سلامة الزرقاء

وفي صباح الغد سارت حنة الى منزل منة وتحادثت الامرأتان طويلاً بشأن خطبة شفيق . ثم دعيت بدر التمام فجاءت مرتبكة وقد صبغت حمرة الخجل وجنتيها لانها شعرت ان السيدتين تتحاوران بما يتعلق بمستقبلها ولم

تجرأ الاذعان اولاً بما أُخبرت عن شفيق انه هائم بحبها ...

فعانقتها الوالدتان وذهبت بدر التمام من ذراعي احدهما الى فؤاد الأُخرى. وفي المساء عاد شفيق من عمله فنادته والدته بلهجة مطربة ونغمة حلوة فانتعش قلبه واحس بشعاع نور اضاء لبه. فاعلمته والدته بالخبر وما قالته منه ... وما خامر بدر التمام من الخجل ... ثم هنأته بمستقبل سعيد. فانقشعت غياهب الهموم عن فؤاد شفيق وزالت عنه عوامل الكآبة والاضطراب وبدت في وجهه سيماء الفرح والانشراح وابرقت اسرة اخيه وأُفعمت احشاء والدته سروراً وتذكرت يوم خطبتها وابتهاج يوحنا وحبوره ومذ ذاك اليوم اخذت الاسرتان تهتمان بمعدات الفرح وارتأى الجميع ان تقيم بدر التمام وجدتها في منزل شفيق لتكون الفتاة بهجة ذلك البيت وسبب سروره. وذاق الجميع لذة الامل فصاروا ينتظرون بفروغ صبر حلول ذلك اليوم السعيد. وكان شفيق يسير مساء كل يوم الى منزل منة ليقضي السهرة بمؤانسة عروسه بدر التمام. وفي مساء اليوم الذي ابتدأت به روايتنا هذه اسرج شفيق حصانه تريابي وذهب لزيارته المعتادة. ولكن هذه المرة عاد الجواد وحده بدون الفارس لان مصيبة فادحة حلت بشفيق على الطريق

الفصل الثالث

حزن عميق

ولما خرج بطرس من المنزل وسار في الطريق لملاقاة اخيه صحبة الكلب الامين مرّت في مخيلته تصورات حداثته وتذكارات شبوبيته فازدادت غمومه وعظمت اثقالها لما رأى من تباين الحال بين سكون الغابر واحزان المستقبل . وكان السحاب يظلل القمر تارة ثم ينقشع أُخرى فيظهر البدر ساطعاً بنوره البهي وفي اثناء انحجابه يتوقف بطرس وينتظر بزوغه المنير فينبح ميلامب بحزن ... وكانا يسيران سريعاً كلما اضاء القمر طريقهما المظلم

وفيما هما يسيران اذا بميلامب وثب بغتة فوق سياج تلك الناحية واخذ ينبح نباحاً هائلاً . فارتعدت فرائص بطرس وارتجفت ركبتاه وفتح بيديه اشواك السياج ولم يبالِ بجراح انامله فرأَى جثة رجل بلا حراك ممتدة على العشب في وسط ذاك الحقل واذ لمسها ووجدها باردة عرف ثياب اخيه شفيق وصاح اللهمَّ أَغِث عبدك . ثم فتح عينيه كمن هب من حلم ليتحقق ثبوت ذلك المنظر الهائل فشاهد شفيقاً اصفر اللون ممزق الثياب مغلول اليدين مشدوخ الرأْس مخضباً بدمه . وفي ذلك ما يدل على حدوث معركة هائلة نتيجتها موت اخيه شفيق فضاقت به الدنيا على رحبها واظلمت في عينيه ولم يستطع ان يعرف سبباً قاد القاتل لارتكاب ذلك الاثم الفظيع

وغاصت افكار الكاهن في بحر البحث وجالت في فيافي التنقيب وعالم التفتيش ولكن عبثاً حيث لم يمكنه ان يطلع على ذرة من واقعة الامر . وخلاصة

ما عرفه بعد التدقيق الكثير هو ان فوءاده أُصيب بطعنة سيف لا تشفى وان ايدي المنون سلبته عزيزه وشقيق روحه اخاه شفيقاً حيث اصبح في عالم الاموات ...

فحمل بطرس الجثة ووضعها على كتفه بعدان ضمها الى فوءاده مراراً واشار الى ميلامب ان يمكث في المكان الذي حصلت فيه الواقعة واذ رأى الكلب الامين سيده متوارياً عنه أنَّ أنيناً عميقاً واقام يحرس آثار العمل الفظيع الى بزوغ الفجر

وسار بطرس ... وقد اصطكت ركبتاه من ثقل ذلك الحمل فوق كتفه وقد خيل له انه حامل الدنيا باسرها على عاتقه . وكان ذلك البطل قادراً على رفع ما يزيد عن ذلك الحمل عشر مرَّات بيديه ... الا ان نير الاحزان اضنى فوءاده واذاب لبه واحنى ظهره ... وذلك لان الاخ المحبوب شريك حياته اصبح منحنياً على كتفيه فاقد الحركة ... جثة باردة ... جامدة .. مائتة ...

وقد حلت تلك المصيبة بغتة كالصاعقة المنقضة التي تذيب كلما تقع عليه ... وكان شفيق قد خرج من البيت فرحاً مسروراً برؤية خطيبته ... وفيما هو عائد من زيارة بدر التمام يتذكر كلامها العذب وترنّ في آذانه نغمة عباراتها الحلوة ويمر في مخيلته اعتدال قوامها وجمال وجهها وسحر عينيها ... وبينما هو على هذا الحال ويفتكر بان سعادته صارت امامه اذا برجل خرج في وسط الظلام الحالك وضربه ضربة هائلة اوقعته صريعاً وذهبت بباقي

حياته ٠٠ فعند هذه التذكارات كانت ترتعد فرائص بطرس وتذوب احشاؤه من هول هذا العمل وفظاعته ٠٠٠

وبينما كان سائراً يحمل على منكبيه جثة اخيه الثقيلة ٠٠٠ اخذت تتجاذبه القلاقل والاشجان وتتقاذفه الافكار العديدة لانه احتار كيف يفاتح والدته بهذا النبإِ المفجع. واضطرب وقال باي لسان اذكر لها هذه المصيبة ٠٠٠

فثقلت خطواته وصار يمشي الهوينى ويجر قدميه المرتجفتين والتنهدات العميقة تحرق فوءاده والاشجان تسحق قلبه ٠ ثم توقف برهة فرأى خشبة سوداء مسندة الى جانب الطريق فمال اليها ووضع جثة شفيق ثم جثا على ركبتيه امامها والصق جبهته في تلك الهامة المشدوخة وبكى طويلاً ٠٠٠

وفاضت الدموع من عيني ذلك البطل الباسل المماثل لشمشون بالشجاعة والفراسة لان احشاءه ذابت امام تلك الجثة العزيزة ٠٠٠ وصار يطلب من الله ان يساعده على شرب ذلك الكأس المر الذي ليس منه مفر ٠٠٠

وبينما بطرس يندب اخاه بعبارات يتفتت لها الصخر الاصم ويرثيه باقوال تذيب الجماد ويناديه تارة ويبكيه أُخرى ٠٠٠ كانت حنة غارقة في لجج الهواجس والمخاوف تزداد اشجانها كلما طال غياب ولديها ٠ وفي اثناء غياب ابنها قادت الجواد الى محله واعدت له علفه ثم عادت الى المنزل وقالت لماذا انتِ حزينة يانفسي وما هي علة كآبتكِ ٠٠٠ ان شفيقاً سيعود عما قليل ٠٠٠ ومن المحتمل ان تكون خطيبته سبب تأخيره عن العودة الينا في الوقت المعين ٠٠٠ ولكن تريلبي ٠٠٠ لماذا عاد وحده ٠٠٠ اواه ان قلبي يقول لي لا

بد من وقوع حادثة مكدرة ... ومع ذلك اهدإِي يانفسي ولا تظني شراً فلعل حبيبك لم يزل في قيد الحياة ولا بد لشفيق من العودة مع اخيه قالت هذا وباشرت بإِعداد سرير ابنها ولما فرغت من عملها اخذت تبكي ثم جلست على مقعدها وتأَوَّهت وتنهدت وذرفت دموعاً حارة

وبعد ما بكت طويلاً وقد زادبها الوجد مسحت دموعها ونهضت كالمذعورة وصرخت لقد ضاق بي المنزل ولم اعد اقدر على احتمال هذا الانتظار المر ... فمتى ارى ولديّ ... ثم تجلدت وخرجت الى الشارع وسارت تشدد عزيمتها لان الحنوّ الوالدي قوّى ضعفها وجدد شبابها فاسرعت تعدو بكل قواها ولما تعبت قدماها من المشي السريع توقفت قليلاً ثم لفظت اسم شفيق وعادت تسرع اكثر من ذي قبل ...

وكان منظر تلك المرأَة مخيفاً جدًّا يذعر كل من رآها . فهي تسرع كمجنونة وتعدو كالخيال الهائل وشعرها الشائب مسترسل على كتفيها يؤكد لناظرها انها فاقدة الرشد والادراك ... ثم توقفت بغتة لانها لمحت بنور القمر خيالين بشريين الى جانب الطريق . واذ تأَملتهما قليلاً استولت عليها الرهبة وأَثر في نفسها ذلك المنظر المهيب فوثبت نحوهما ودفعت بعنفٍ الرجل الجاثي على ركبتيه وتطلعت وقالت شفيق ... شفيق ... لقد قتل ابني ... ثم نادته طويلاً واكثرت من التعداد والعويل وقبلت وجنتيه الصفراوين وضمته الى صدرها ورفعت عينيها الى السماء وصاحت بصوت مجروح القلب قائلة اواه . يا رباه . لقد سمحت بقتل ابني ... أَلم تشفق على قلب والدته

أَلم ترثِ لحالها . أَلم تذكر حب الامهات وحنوهنَّ نحو ثمرة احشائهنَّ ...
فوا اسفي ويا لهفي عليه ويا حرَّ قلبي على هلال اختفى قبل ان يدرك شأو البدور

لهفي على ولدٍ فؤادي لهُ * نعشٌ ودمع العين غسل ظهور
لهفي على زهرة روض زهت * فعوجلت بالقطف دون الزهور
لهفي على غصن ذوى قبل ان * يبدو لنا من نوره الغض نور
آهاً لذاك الوجه كيف انطوت * آياته الحسنى ليوم النشور
آهاً لدرٍ قد غدا ثاوياً * في صدف اللحد جوار القبور
آهاً لمر الهجر حلو الحلى * الوجد حق فيه والصبر زور
اخنى علينا الدهر في اخذ من * كنا نرجيه لسد الثغور
يا دهر بالامرة كم تعتدي * ألا الى الله تصير الامور

فيالوعتاه ... ويا فجعتاه ... اواه والف اواه ... اني لا اقدر (يا رباه) ان احتمل هذا المصاب ولا اصدّق انك اخذت شفيقاً من حضن امه ... نعم ... نعم ... ان شفيقاً لم يَمت ... أَكد لي ذلك يا بطرس ... قُل لي انه سيفتح عينيه ... ماذا والا فتوسل الى الرب واطلب منه ان يضمني الى شفيق ... اواه يا رباه لماذا حرمتني ولدي ... حشاشة قلبي ... فلذة كبدي ... مهجة فؤادي ... علة حياتي وسروري ...

ولداه ياولداه بعدك بلوتي * ما العيش الا تحسرٍ وتندمِ
قتل العدو عزيز احشائي وقد * سفكت دماهُ بآلة لم ترحمِ

ويحك ياموت ... بئس ما جنت يداك ايها القاتل الظالم ... فبوجود

شفيق كنت اعيش كوالدة لانهُ كان يحبني ويعضدني ويعانقني ويفعل مشيئتي ... شفيق ... شفيق ... ففيه كنت اود تجديد شبابي عند اقترانه ببدر التمام ... اواه ... واحر قلباه ... لماذا خطفته ايدي المنون قبل الاحتفال بزفافه ...

فاستخلص بطرس الجثة بلطف من بين ذراعي والدته ورفع صوته قائلاً هلموا وانظروا يا عابري الطريق هل يوجد أَلم يضاهي أَلمي ... فسقطت حنة خائرة القوى واحنت هامتها وقالت بصوت اجش اواه لا استطيع الصبر على هذه البلوى ...

فقال لها بطرس لا يجب ايتها الوالدة الحزينة ان تتحول احزانكِ واشجانكِ الى يأس وقنوط ... بل اطلبي من الله ان يضمد جراحات فوءادكِ ببلسم روحاني ...

ــ مَن قتل شفيقاً ... او من تجرأ أَن يمد يد سوء الى هذا الحمل الوديع

ــ الله يعلم يا اماه

ــ يجب على الحكومة ان تبحث عن القاتل ... فهذه الجناية تستحق القصاص ... جذبه كما يجذب الحديد الصاعقة ... يجب عليك ان تساعد الحكومة في التفتيش ... فهوذا الدم المسفوك يصرخ طالباً الانتقام ... اواه ان عدوا ظالماً قتل شفيقاً ولم يشفق على غصنه الرطيب ... واحر قلباه عليك ايها الشفيق ... شفيق ... ان فجعتي فيك لا طب لها يا حبيب القلب ...

واكثرت تلك الوالدة الثكلى من البكاء والنحيب والتعداد والعويل والرثاء والندب حتى فرغت قواها وتحولت دموعها الى دماء · فاضطر بطرس ان يدعها تفعل ما بدا لها لتشفي حر فوءادها قليلاً · ثم قال لها ببسالة ان العدل يضطر ان يبحث عن القاتل ليذيقه من العذاب جزاء ما جناه وليس ذلك على سبيل التشفي بل ايفاء للقوانين وبرًّا بحقوق السنن والشرائع ولا بد لنا باذن الله من معرفة القاتل الخائن ··· فانهضي يا والدتي لنعودنَّ الى البيت حاملين هذه الجثة الثمينة ونسيرنَّ بصمت وسكون لكيلا تنظر الاعداء الى دموعنا فيشمتون

ثم طوق بطرس قامة والدته بذراعه الواحد ووضع جثة شفيق على الكتف الآخر وسار في طريقه وكانت تلك الام الحزينة قد انتهكت قواها وخارت عزائمها تكاد قدمها تزل بها وتلقيها على الارض لدى كل خطوة · وكان بطرس يضمها الى صدره بحنو مفرط ويهمس في اذنها عبارات التعزية والانتعاش وهي لا تكف عن الندب والرثاء وتعيد مثل هذا القول

أُقلب جفني لا ارى لي منجدا * واطلب من قلبي الحزين تجلدا
واطمع في سلم الليالي وظالما * نصبن لمن سالمنه شرك الردى

وقالت

فتك الزمان وكر كرة كاسرٍ * ظلماً علينا بالحسام الباترِ
اسدٌ غدت كل الملوك تهابهُ * كم هد عرش اكاسرٍ وقياصرٍ

اواه يارباه ··· اين شفيقي العزيز المحبوب الذي كان يلعب في زمن

حداثته ويصعد على منكبي ليغمرني بقبلات عديدة ووالده ينظر الى صنيعه بعين الفرح والسرور ٠ اواه لقد اصبح قريني في عالم الاموات منذ سنين ٠٠٠ ما هذه الحالة يا الهي ٠٠٠ اني لا ارى حولي سوى قبور ٠٠٠ ياربياه أ تتركني في قيد الحياة وتدع الاشرار يمشون ويدنسون الارض ٠٠٠ الارض التي ٠٠٠ واحر قلباه ستفتح فاها لتبتلع حشاشة فؤادي

لاي صروف الدهر فيه نعاتبُ * واي رزاياه بوترٍ نطالبُ
مضى من فقدنا صبرنا عند فقدهِ * وقد كان يعطي الصبر والصبر عاذبُ

حيث لا تعود يداي تقدران على الوصول الى لمسه ولا عيني النظر الى بهاء طلعته ولا فمي ليقبل جبهته الصفراء المخضبة بالدماء ٠٠٠ وغضبك يارب لم يضطرم بعد ولم تمد يدك لعقاب المجرم

ولما وصل الجميع الى المنزل حمل بطرس والدته لانها لم تعد قادرة على صعود السلم ودخل غرفة اخيه ووضع الجثة فوق السرير وسقطت جثة على الارض بقرب ابنها فاقدة الحراك كأنها مائتة ٠٠٠ ثم اوقد الكاهن (بطرس) شمعتين وادناهما من السرير ووقف صامتاً تملأ عواطفه عوامل الحزن بحيث جرع كأس مرارة العلقم الى آخره ٠٠٠ وعند بزوغ اول اشعة الفجر نزل بطرس الى الاسطبل واعلم الخدم بالمصيبة الفادحة التي طرأت عليه ليلاً وارسل احدهم ليستدعي القاضي الذي حضر بعد ساعة للاستعلام عن القتيل

الفصل الرابع

الكشف

واقامت حنة بقرب سرير شفيق الى ان دخل القاضي وفحص جراحات القتيل وقرر انه أُصيب بضربة نبوت عنيفة حطمت رأسه وشدخت دماغه من الجانبين٠ثم سأل القاضي قائلاً اتظنون ان الطمع قاد القاتل الى ارتكاب هذه الجناية الفظيعة

فاجاب بطرس كلا ياسيدي فان دراهمه لم تُسرق

ـ اذاً البغض

ـ لا اعرف عدوًّا لاخي

ـ حقاً انه كان محبوباً من الجميع لحسن سلوكه واستقامة سيرته ... ولكن لا يخلو الانسان من الاضداد ... ان لم يكن من الخدم ... فمن الغير ...

ـ لقد مضى على رجالنا وهم في خدمتنا ما ينيف عن العشر سنوات ومعاملتنا لهم كاهل البيت تماماً ...

ـ قلت ان شفيقاً خرج مساء امس ...

ـ نعم ياسيدي ان شفيقاً ذهب البارحة لزيارة خطيبته بدر التمام كجاري عادته

حكمُ القضا برحيله واذا جرى * حكم القضاء فمن يحاول ردهُ

والام خاب رجاؤها يوم النوى * فتحملت حزناً كساها برده
قد راعها الدهر الخؤون بحقده * والدهر يبدي كل حين حقده
فجثت لدى ذاك السرير وقبلت * وجهاً صبوحاً لا بشاشة بعده
وقضت وداع فقيدها وهي التي * قد ودعت صفو الزمان ورغده
يا غصن بانٍ في نضارته ذوى * من قبلما قطف الاحبة ورده
يا مؤنساً تلك القبور وموحشاً * كل الربوع وكل قلبٍ وده

ثم قص على الحاضرين كيفية رجوع الجواد ووجدان الجثة بالتفصيل كما مرَّ

ـ اتروم ان تتبعني يا حضرة الاب الى حيث وجدت الجثة

ـ بطيب خاطر ياسيدي. قال هذا وسار بصحبة القاضي وبعض الخدم ورجال البوليس الى ان بلغوا الحقل حيث يحرس المحل الكلب الامين ميلامب

وكان بطرس يسير الهوينى وقد صارت خطواته قياسية ثقيلة لانه اضاع سيره المتبختر بالعظمة وصار يسير تحت نير الاحزان الفادحة مطرق الرأس الى الارض لا يتمالك عن حبس التنهد والبكاء. وكان يرفع يده مراراً ويمسح عينيه ليزيل السحابة التي ظللتهما ويبتغي ذرف العبرات ليرتاح فؤاده ولا يقدر لان قلبه كان يقطر دماً

اما القاضي فسار الى جانبه مطرقاً صامتاً ولم ينطق ببنت شفة وكان رجلاً كريم الخلق حسن السيرة مستقيم السريرة يحب العدل والانصاف يدقق بالاعمال الفظيعة ويتأثر بنشاط الاشرار الخائنين فيعاقبهم حسبما يأذن له القانون ويأمره به العدل. فحرر المحضر اللازم ولكن لسوء الحظ لم يستطع

ان يكشف النقاب عن اقل اثر يشير الى معرفة القاتل . وبعد البحث والتحقيق اتضح للجميع ان القاتل قاوم شفيقاً في قارعة الطريق وبعد ما اصابه بضربة قاضية حمله والقاه في الحقل المجاور واستمر ذلك الجاني مستوراً تحت ظلام الجهل المدلهم . ولما افرغ القاضي جعبة بحثه وافكاره رجع هو ورجاله على الاعقاب ولم يفوا العدالة حقها حينئذاك . وقال القاضي لا يجب ان نرتاب من هذا القبيل فيد الله قويّة وقادرة ان تكشف لنا سر القاتل ولو مهما طال بنا الامد . فعلينا اذاً بالصبر الجميل لانه يفتح لنا ابواباً عسرة المسلك

وعاد بطرس الى البيت فلقي والدته واقفة بقرب شفيق وقد غسلت باعتناء جراح رأسه كانها رامت تخفيف آلام ابنها واذ فرغت من تنظيفه اسندته بالوسادة واخذت منديلاً رفيعاً من الكتان وربطت الجبهة المشدوخة واقامت تتأمل في طلعته وتنظر اليه بعين شاردة وقلب يسحقه الحزن

ولما ذهب القاضي بعد كتابة محضره اخذت افواج المعزين تتقاطر من كل ناحية وصوب لتقوم باداء واجبات العزاء نحو ذلك البيت الكريم . واقام بطرس كل ذلك النهار جاثياً على ركبتيه قرب سرير شفيق وعند الساعة الرابعة دخل الحفار وخدمة الكنيسة ليحملوا الجثة ويحتفلوا بمشهدها الاخير ...

فنهض بطرس واخذ والدته بين ذراعيه وضمها بحنو الى صدره فارتعدت فرائصها واصطكت ركبتاها وصاحت . اني استحلفكم بالله الحي ياذوي القلوب البشريّة ان تستبقوا لي ولدي وحشاشة كبدي ولو على الاقل يوماً واحداً ...

او هذه الليلة فقط ... ألا تشفقوا علي ... الا ترثوا لحالي ... الا تعلمو اني سأحرم روءية شفيق على الدوام ... ولا تعود عيني تراه مدى الايام

فاجاب بطرس وهل نسيتِ يا اماه يوم القيامة المجيد

فقالت اواه ياولدي ... الله يعلم ذلك ... لقد جار عليَّ البارسي وحرمني من ثمرة احشائي ... اواه لقد مات يوحنا ... وانا اليوم اندب شفيقاً ابني ... فلذة كبدي ... ان يعقوب لم يُرِد ان يتعزى بعد فقده يوسف وراحيل لم تُرد ان تنشف دموعها ... فياولداه ... اشفق على والدتك وارثِ لاحزاني واوجاعي ... ولا تنظر في الآنسوى والدتك الثكلى ... والدتك الحزينة ... تتوسل اليك ... تنتحب بين يديك ... ارحم فوءاداً اذابه الحزن الشديد ... استحلفك باسم الرب ان تبقي لي اخاك لاتزوده نظرات اخيرة وداعيَّة

فرق ابنها لحالها واذعن لمقالها واقام تلك الليلة مع والدته ساهراً على جثة شفيق . وفي صباح اليوم الثاني دقت الاجراس للاحتفال بجنازة القتيل وكانت جدران البيت وابوابه مكسوة بسواد الحداد . واصطف اهالي البلدة على جانبي الطريق وعلامات الحزن موسومة في محيا كل منهم وفي ثيابهم ايضاً وكان الجميع ينظرون الى بطرس بعين الشفقة والاحترام

ولما دخلوا الكنيسة صعد الكاهن امام المذبح والزفرات تتصاعد من انفاسه . وسقطت حنة جاثية على ركبتيها بقرب النعش والصقت جبهتها به حتى خيل لناظريها انها تخاطب ابنها موضوع حبها وآمالها الخصوصيَّة وكانها

توصيه بامور سامية . وبعد انتهاء صلاة الجنازة سار القوم بالجثة الى المقبرة حيث واروها التراب وبات شفيق في جوف الثرى ثم غطي الرمس بالزهور الجميلة والاكاليل البديعة النفيسة

واذ فرغ الكاهن من تأدية فروضه نادى والدته يا اماه ... فنهضت من فوق الضريح وقالت

امجاور الديماس رهن قرارة * فيهـا الضياء بوجهها والنورُ
ما كنت احسب قبل دفنك في الثرى * ان الكواكب في التراب تغورُ
ما كنت آمل قبل نعشك ان ارى * رضوى على ايدي الرجال تسيرُ

وتبعت ابنها ومشى الاثنان معاً دون ان ينطقا ببنت شفة ولما وصلا الى البيت وضع بطرس مقعد والدته بقرب الموقد وجلس بازائها وغاص الحزينان في بحار افكارهما المؤلمة . ومرت بهما الساعات الطويلة ولا شاغل لهما سوى قتل شفيق وموته الفجائي وانه غاب عنهما ولم يعد يُتاح لاعينهما ان تراه مرة أُخرى في هذه الدنيا . وبعد ما خاضا طويلاً في يم الهواجس والاشجان الشديدة رفعت حنة عينيها بغتة وتفرست في طلعة ابنها وقالت له بعد ان سارت به ازاء المرآة انظر يابطرس الم تنتبه الى البقع الملوث بها ثوبك

فنظر الكاهن فرأى بقعاً كبيرة من الدم عرف انها من جثة شفيق فقال بصوت خائر القوى اعلمي يا اماه ان هذا الثوب المخضب بالدم الاخوي سيبقى لتكفيني وسأُحافظ عليه كأَثمن كنوز الارض ولا اتركه ولو خُرق ارباً لان تذكاره المقدس لا يمحى من فؤادي ...

الفصل الخامس

حمل ثقيل

ولما ارخى الليل سدوله كان بطرس ووالدته لم يزالا رابضين في محلهما تشغلهما الاحزان العميقة وكانت الخادمة منهمكة بتهيئة الطعام لدى احدى الجارات لكيلا تزعج راحة سيديها المنحنيين تحت نير اشجانهما الثقيلة ولا سيما لانهما لم يذوقا لذة الوسن منذ يومين واذا بيوسف خادم الكنيسة قد دخل عليهما فلم ينتبها لقدومه من تراكم غمومها فقال الخادم في نفسه لا يجوز لي ان أُقلق راحة الاب في مثل هذا اليوم المشؤوم ... ولست الا مضطراً الآن ... لان الرجل الذي اتى بطلبه لا يروم العودة غداً ... فهو يخشى نور النهار كالبوم الذي يخاف نور الشمس ... اواه ما اصعب وأَمرّ الحالة التي صار اليها الاب بطرس فهو ولا شك غارق في بحار الاحزان المتلاطمة الامواج من المصيبة التي حلت باخيه ... ولا يصح ان ازعجه ... بل يجب احترام هذه الساعة ... وبعد ما تردد مراراً في ان يكلمه قال

لقد يصعب وايم الحق يا حضرة الاب بطرس ... لا بل يشق عليّ جداً تكدير راحتكم في مثل هذا الوقت ولكن تراني مضطراً لذلك وقد جئت من قِبل احد الطالبين ابوتكم

فاجابه الاب بطرس بصوت منخفض ماذا تريد يايوسف أَلعل من جاء بطلبي هو مريض

فقال الخادم يخال لي ياسيدي انه مريض النفس كما يلوح من رؤية هيئته وقد اخفى وجهه باطراف قبعته وثوبه الواسع . ويظهر ان حملاً ثقيلاً دفعه للمجيء في هذه الساعة

فنهض بطرس وهمس قائلاً يبان لي ان حمله اثقل من حملي

قال الخادم اني لم افتح له باب الكنيسة ياسيدي بل هو واقف بانتظاركم تحت الرواق فهل يجب ان أُوقد شمعة

فاجاب الاب بطرس كلا . لان الرجل يبتغي التستر في طلب السر فلا يجدر بنا ان نجفل القلوب الخائفة . ثم خرج بطرس واجتاز المقبرة فسمع أنيناً عميقاً خارجاً من قرب ضريح اخيه واذ تقدم بضع خطوات رأى فتاة جاثية على ركبتيها وتنتحب من صميم فؤادها وتقول

أَأَحيى بعد من كانت نجاتي * بـــه مضمونةً وبه حياتي
وكيف اعيش والاحزان هدت * قواي وقــد دنا حزناً مماتي
حبيبي كيف قد غادرت من لا * سرور لها بُعيدك في الحياةِ
عليك دموع عيني هاطلاتٌ * وليس على سواك بهاطلاتِ
أَبت نفسي سوى ورد المنايا * بعيدك يا جزيل النازلاتِ
محلك كان قلبي يا خليلي * وليس سواك فيه ذا ثباتِ
فكيف اعتضت من قلبي محلاً * ببطن الارض ياخير الثقاةِ
سأَبكيك الزمان بدون صبرٍ * وهل صبرٌ على فقد المراةِ

فقال الاب بطرس أَبدر التمام هنا فرفعت الابنة رأْسها وقالت آه ثم

آه من غدر الزمان · دعني ايها الاب المحترم دعني اندب شفيقاً وحدي تحت اجنحة الظلام الحالك لان جدتي لم تسمح لي ان اراه مجروحاً مائتاً مخضباً بدمائه ··· وقالت لي يجب ان يبقى حزنكِ محتجباً عن العيان ··· فجلست في البيت بينما كانوا ينزلون جثة شفيق في هذا الرمس ··· حيث واروها التراب ··· فوا لهفي عليه··· اواه اسمح لي انت يا من احببته كمحبتي له··· انت ياشقيق المحبوب ··· ياشقيق شفيق ··· ألا تسمح لي ان ابكي حبيبي واسكب الدم الذي يقطره قلبي بدل الدمع فوق هذا الرمس العزيز

ان سال من غرب العيون بحورُ * فالدهر باغٍ والزمان غدورُ
فلكل عين حق مدرار الدما * ولكل قلبٍ لوعة وثبورُ
سُتر السنا وتحجبت شمس الضحى * وتغيبت بعد الشروق بدورُ
ومضى الذي اهوى وجرَّعني الاسى * وغدت بقلبي جذوةٌ وسعيرُ
ياليته لما نوى عهد النوى * وافى العيون من الظلام نذيرُ
ناهيك ما فعلت بماء حشاشتي * نارٌ لها بين الضلوع زفيرُ

فقال لها الاب بطرس اندبي يابدر التمام وانتحبي وعددي محاسن وكمالات خطيبكِ واثبتي على عهود شفيق فهو لا يزال عروساً لكِ الى آخر الايام· ثم وضع يده على جبهتها ورفع الحاظه الى السماء وقدم احزانها ودموعها الطاهرة للمولى المتعال وسار فقالت بدر التمام

الدهر ابدل راحتي بعنائه * واعتاض صفو تنعمي بشقائي
وبدا الزمان الى العيون بمظهرٍ * يقضي بمزج دموعها بدماء

آلى ليختطفنَّ افئدة الورى * يوم المصاب وبرّ في الايلاء
مرآته طمست واصداً وجهها * من بعد ما سعدت بطول جلاء

وفيما الاب بطرس سائر في طريقه رأى رجلاً ملتفاً بثوبه مسند الظهر الى احد اركان الكنيسة ففتح بطرس الباب وقال للرجل اتبعني . فتأثر الرجل خطواته وهو يتعثر باذياله وكانت الكنيسة اذ ذاك مظلمة لا نور فيها سوى نور قنديل ضعيف فتقدم الكاهن من منبر الاعتراف ودخله منتظراً شكوى الرجل على نفسه

فقال الرجل بعد ان جثا على ركبتيه أَلعل ما يقال هنا يبقى سراً مكتوماً

فاجاب الاب بطرس نعم يا اخي كن مطمئناً من هذا القبيل لان معلم الاعتراف لا يقدر ان يبدي شيئاً مما يُسرّ اليه ولو مهما كان الموقف خطيراً والمركز حرجاً

— عظيم . ها انا ذا جثوت على ركبتي فما ذا ينبغي ان افعل

— اتلُ صلاة الاعتراف . فلبى الرجل الامر حالاً . فصلى الكاهن „ فليبارككَ الله وليمنحك نعمة بها تتمكن من الاقرار بجميع خطاياك " فبقي المعترف صامتاً ولم يتجرّأ ان يباشر اقراره الهائل. فقال الكاهن ثِق بالله يا اخي تُغفر لك الآثام

— انا ادعى موسى بيدقوك

— „ حمداً للرب المتعال الذي رد النعجة الضالة الى حظيرته بعد ذلك الانحجاب الطويل وارتكاب الجرائم المتنوعة والمحرمات المتعددة ...

تشجع يا اخي ولا تخش امرًا فان الله يسرّ جدًّا بتوبة الخطاة ... انك تلزم الصمت التام يا موسى ... أَيعسر عليك فتح باب المقال ... قُل ولا تخف لان طبيب النفوس قادر على شفاء الاسقام وداء الافئدة والقلوب ...»

فأثرت هذه الكلمات في نفس سامعها حتى ارتعدت فرائصه في ذلك الظلام الحالك وذابت عواطفه وانفطر قلبه من لطف العبارات وعذوبتها وبعدما انتظر برهة قال متلعثماً وقد اخذته لهجة الجرأة والوقاحة لقد تلوت امامك وانا جاثٍ على ركبتي الصلاة التي امرتني اياها والتي علمتني اياها والدتي منذ الحداثة والآن استحلفك باسم الله خالق السماء والارض ان تحفظ كلما اقوله لك ههنا مختوماً بختم سر الاعتراف . اني لا اعرف فيك رجلاً كبقيّة الناس لان الكاهن بطرس بن يوحنا وحنة لا علاقة له مع موسى المرابي الخائن السكير الذي لا ينفك عن التمرغ في الحانات ... فاذاً انا لست لديك الآن الا معترفاً والنار الدائمة ستحرقك بلهيبها الذي لا ينقطع اذا تجرأت على ان تميط اللثام عن السر الذي عزمت انا ان اطلعك عليه... انت من الضروري لا بل من الواجب عليك ان تحفظه . وبلغت به الحدة الى التهديد فقام الكاهن عن كرسيه خائفاً مذهولاً ... ثم تشجع قليلاً وصمت برهة واعار اذناً صاغية

فانزل الرجل يديه عن عينيه وجبهته وادنى فمه من أُذن الكاهن ولفظ هذه الكلمات الهائلة انا قاتل شفيق . انا قاتل شفيق . فأَنَّ الكاهن أَنيناً متواصلاً هائلاً عند سماع هذا الخبر الذي تنفطر له القلوب الغريبة فكيف

قلبه واهتز فوق كرسيه مرتعداً مضطرباً . ثم نهض مذعوراً ووقف ملسوع الفؤاد وقد صدم رأسه منبر الاعتراف . ففتح الباب بسرعة وجثم واقفاً تائه الابصار شارد الافكار مرتاع العواطف لا يدري ما الذي يفعله بقاتل اخيه . وكان مركزه حينئذٍ هائلاً حرجاً لا يستطيع بشر احتمال ما احتمله من تلك المرارة العنيفة لان دم اخيه المخضب به ثوبه كان يرن في اذنيه صارخاً وطالباً الانتقام . نخفق صدره وذابت عواطفه واسودت الدنيا في عينيه ولم يعد يستطيع صبراً ... وفيما هو كذلك واذا بنسمة طاهرة هبت فاحيت حواسه وانعشت قلبه المضطرم وخرقت لبه واضاءت بصيرته بنور سموي وعاد فجلس في مكانه فقال المعترف

اعلم ان من الواجب عليك الآن ان تدافع عني حتى ولو عرف الحكام بجريمتي لا تقدر ان تنبس بكلمة واحدة مما يلقي الشك في قلب احد وذلك لان سر الاعتراف يظللني ويحميني من عقاب الشرائع

قال الكاهن آه يا الهي ... يا الهي ... وما الذي دفعك الى قتله

— اواه ان موت شفيق وسبب قتله لم يعلم به احدٌ قط ... حتى ولا تلك التي من اجلها ارتكبت هذا الاثم الفظيع ...

— ماذا تقول ... من اجل من ... تلك ... ارتكبت هذه الجناية

— نعم . ان اخاك كان عازماً على الاقتران ببدر التمام ... وزفافه لا يوافق صالحي

— وما سبب ذلك يا موسى

– سبب ذلك هو لاني احببت انا ايضاً بدر التمام

– انت أَحب ···

– نعم · فلا تنذهل من حبي لها ··· لقد رمت الاقتران واقتكرت بان بدر التمام هي التي تكون شريكة حياتي لاني علقت بهواها وشغفت بحبها لانها آية الحسن والجمال والظرف والكمال وبالايجاز فقد وافقت اميالي تلك الوردة النضرة ··· وكان المانع الوحيد المعربس اقتراني بها ناشئاً من قِبل اخيك ولم احتمل ان اراها قرينة له ··· وبما ان شفيقاً كان معربساً لمرامي ترقبت حركاته ووقفت له بالمرصاد وصرت اتبعه···وأتأثر خطواته··· واذ رأَيته يذهب في كل ليلة لزيارة بدر التمام ··· داهمتني التجربة ··· فرفضتها اولاً وابعدتها عني وقلت في نفسي ان التأني خير من العجلة فلعله يرجع عن مراده او يعاهدني على انه يعدل عن الاقتران بها ··· ثم جزعت لئلا ينكث وعده ورجعت الى فكري الاول طالباً قتله وصرت اترصده يوماً بعد آخر ولا اعلم ما الذي كان يمنعني عن انجاز المنكر واخيراً التقيت به كجاري العادة في مساء اول امس ووجهت اليه الخطاب وانا ارتعش قليلاً·· فلو تنازل عن غزمه لما مسسته بسوء ولكن حين خاطبته بهذا الشأن قال لي ان الموت احب اليَّ الف مرَّة من ان اترك بدر التمام

فاجبته مُت إذاً ··· وشبكته بذراعي والقيته صريعاً على الارض ثم ضربته الضربة القاضية ··· فلماذا لم يتنازل عن حب بدر التمام

فقال الكاهن (بطرس) استحلفك بالله ياأخي انلا تكرر اسم الخطيبة هنا

ولا تدنس بشفتيك اسم تلك العذراء الطاهرة التي اصبحت ارملة تندب عريسها بسببك ... والآن اخبرني ياموسى كيف عزمت ان تظهر بعد عملك هذا امام عرش الديان العادل الرهيب ... وهل تندم على هذا الاثم الفظيع

فاجاب كلاَّ . غير نادم ... لاني احب بدر التمام

– اذن لا تروم الصفح من الله ...

– لا ابتغي سوى كتمان السرّ ...

– لقد اقسمت لك ياموسى وأُعاهدك الآن بحضرة الاله الازلي بوجوب حفظ السر وكتمانه . واعلم ان اخا شفيق لا يطلب منك دية الدم المسفوك بل يستحلفك ويتضرع اليك ان تندم عما بدا منك

تُب وتُب وادعُ ذا الجلالِ * بصدق تجد الله للدعاء سميعا

لا تخف مع رجاء ربك ذنباً * انـــه يغفر الذنوب جميعا

اجاب موسى لا ترتب من هذا القبيل يا حضرة الاب ومن الآن فصاعداً ستراني مراراً . قال هذا وخرج مسرعاً

فمكث بطرس منفرداً في الكنيسة وقتاً طويلاً يتقاذفه تيار الهواجس ولا يدري ماذا يعمل . وقضى مدة ثلاث ساعات وهو غارق في بحر الاحزان المتلاطم الامواج . ثم جثا على ركبتيه واخذ يصلي بحرارة قلب طالباً من الله ان يخفف عنه نير ذلك الحمل الثقيل ويمنحه نعمة فائقة الطبيعة ليظفر بها على تلك المصيبة الفادحة . وفيما هو يصلي دقت الساعة الثانية بعد نصف الليل فشكر الله وخرج سائراً بخطوات ثابتة الى منزله فرأى من خلال النوافذ

نوراً ضعيفاً فعرف ان والدته لم تزل ساهرة تنتظر عودته ولما دخل البيت دنت منه وسألته عن سبب تأخره فاجابها

ان نفساً حزينة يا اماه قد احتاجت اليّ ...

ـ وهل خففت عنها وهدأت روعها ياولدي

ـ ان بعض الاسقام يا والدتي يستبقيها الله لمفعول عجائبه ... وهذه من جملة ما يجب تسليمها لارادته تعالى ... ثم صليا بحرارة وذهب كلٌّ منهما الى سريره

الفصل السادس

بدر التمام

وفي احد الايام كانت الفتاة جالسة ازاء نافذة غرفتها تدير دولابها بهمة ونشاط بحيث يخال لناظرها انها مارست الغزل من مدة طويلة الا انها كانت تائهة الابصار وغائصة في لجة الهموم والاكدار . وهي فتاة بهيّة الطلعة جميلة المحيا شعرها الذهبي اللون مسترسلٌ على كتفيها بيضاء الوجه نقيته شفافة الجبهة زرقاء العينين لها حاجبان جميلان كأنهما خطّا بقلم وكل من تأمل بهاء تينك المقلتين يود ان لا تقع الحاظها الا على اشياء سمويّة تماثل نقاوتهما الطبيعيّة وكانت تغزل وهي جالسة معتدلة القامة هيفاء القد لطيفة حركة

الاعضاء تدير دولابها بقدمها الصغيرة النحيفة وتسوّي الخيطان بيدها الناعمة اللطيفة . اما مبسمها فكان يفترُّ عن ثغرٍ كأنه اللؤلؤ المنظوم احمر الشفتين رقيقهما تُرى كل اوصاف الجمال موجودة في ذلك الفم البديع وكل آيات الحسن مرسومة في تلك الطلعة الملائكيَّة الشريفة

وكان ابتسامها يسحر الالباب حينما يبدو في ملامحها الجميلة . ولكن واحسرتاه فقد مضت ساعات السرور ولم تعد قط لان بدر التمام قد حرَّمت على نفسها التبسم ولو يسيراً لان الحزن الشديد قد وسم بختمه هيئتها اللطيفة وطلعتها الجميلة ولم يشفق الدهر ولم يرثِ لغضاضة صباها حيث رشق فوأادها بسهم نافذ واحل على قلبها صاعقة ناريَّة اذابت عواطفها وحوَّلت هناء حياتها الى بوءس وشقاء وحزن لان عواطفها الشريفة لا تعرف ان تبرأ بعد جرحها العميق وهي لا تروم ان تجد بلسماً لشفاء كلوم احزانها

وكانت هذه الآنسة الجميلة لابسة قبل مرور ثمانية ايام ثياباً بيضاء باهرة وتسطع في محياها البهي اشعة الفرح والسرور والسعادة والحبور . واصبحت بعد موت شفيق متردية بثياب الحداد السوداء وقد اخفت شعرها الجميل تحت قبعة صغيرة سوداء . وكانت بدر التمام اللطيفة لا تنفك عن الشغل اطراف الليل واناء النهار وهي تعمل بهمة ونشاط لتعضد جدتها بثمرة اجتهادها وتقوم بتدبير مهام بيتها . وفي اثناء شغلها كانت حزينة الفوءاد شاردة الفكر والعقل لا تجد للعزاء والراحة سبيلاً

وكانت جدتها منة الطاعنة في السن جالسة وقتئذٍ بقرب الموقد تشتغل

بتهيئة الغذاء وهي تائهة الافكار تتأمل شاخصة من وقت الى آخر وتستحوذ عليها الاكدار الجمّة وتتراكم في أُفق مخيلتها الاشجان السوداوية . وقد كانت حالة ذلك المنزل الداخلية موءثرة جداً تُذيب قلب الجماد ولا يقدر على وصفها احسن الكتاب ولا يجيد بذكرها امهر الشعراء فالآنسة بدر التمام تغزل وهي شاردة الابصار وجدتها الحزينة تهز رأسها بكآبة وكلتاهما قد تجلببتا بثياب الحداد وهيئتهما تسحق القلب وتذيب الافئدة ومنظرهما يوءثر في النفوس ويولد فيها عظة سامية وفائدة ادبيّة حميدة

وبينما كانت بدر التمام تغزل بسرعة أخذت تسأل نفسها قائلة واعجبا يا الهي لماذا لم تسمح لي يا تُرى ان اغزل كفني بنشاط لاتخلص من نير هذه الحياة وانشدت

أَلاَ موتٌ يباعُ فاشتريهِ * يخلصني من العيش الكريهِ

وفيما هي تشتغل بقرب جدتها والحزن ملء فوءادها سمعتا وقع اقدام في فسحة الدار فاطلت بدر التمام من النافذة لترى من دخل عليهما ثم القت المغزل من يديها ووقفت ثابتة القدم صفراء المحيا مرتعدة الفرائص مختلجة الفوءاد ولما فتح الباب حولت منه رأسها فرأَت حنة مقبلة فتنهدت تنهداً عميقاً وأَنت أَنيناً محزناً ونهضت بخطوات متعثرة وخرجت لملاقاتها وبدون ان تنطق بكلمة قدمت كرسياً لوالدة بطرس التي لم تنبس ايضاً بحرف بل طوقت بدر التمام بذراعيها وقبلت جبهتها الصفراء المهزولة وجلست بقرب منه واخذت الوالدتان تنظران الى الموقد وهما صامتتان لا تجدان باباً للحديث

يفصح عن احزانها المفعمة بها جوارحها . ولا بدع اذا عظمت الخطوب وشقت الجيوب فبموت شفيق ماتت الافراح وتمنت بدر التمام ان تتخلص من ثقل عبء حياتها لتلحق بخطيبها لان تلك الفتاة المحبوبة كانت قد نشأت في حجر شفيق واخيه وشعرت بالحب العفيف والميل الطاهر نحوهما ولم تمل عواطفها لاحدٍ سواهما وكان اندهاشها عظيماً عند مشاهدتها عدداً من الشبان واقفين يتعرضون لها في الطريق ويرشقونها بالحاظ العجب والافتتان فتذوب حياءً وتصبغ وجنتيها حمرة الخجل حيث لم تكن تعباً بجمالها قبلما يعجب به شفيق . وقضت بدر التمام ايامها وهي تشتغل بهمة واجتهاد في ترتيب المنزل وعمل كلما يرضي جدتها . وفي مساء كل يوم احد كانت تسير هذه الفتاة مع جدتها منة الى بيت شفيق لتقضيان ساعة من الزمان ثم تعودان الى منزلهما . ولما علق شفيق بحب الفتاة ووهبها قلبه ولبه صار مواظباً في كل مساء على زيارتها ومذ ذاك الوقت اخذت تهتم بترتيب جهازها وشمل الفرح بينك العائلتين واحيى السرور آمال منة وجدد شبابها . ولما حلت المصيبة التي جناها موسى أَلقت العائلتين في شقاء وحزن مفرط ولا سيما بدر التمام التي لم تعد تجد سبيلاً في هذه الدنيا يجعلها تتعلق بحب حياتها

واذ علمت الفتاة بموت خطيبها وكيفيَّة قتله الشنعاء احست بانحطاط كلي وخالت ان صخرة عظيمة سقطت على ام رأسها فتخدرت اعضاؤها من شدة الالم ولم تشعر بمفعول الحزن الا بعد برهة طويلة . ولما افاقت من غشيانها طفقت تصيح وتبكي وتندب مدة ساعة من الزمان ثم حلت شعرها وجثت

على ركبتيها امام جدتها وصارت تتوسل اليها لتسمح لها ان ترى شفيقاً ولو نظرة واحدة قبل انزاله الرمس فلم تسمح فمكثت باضطراب شديد ولم تنجع في احزانها سلوى

ولما طرق سماع بدر التمام ذلك النبأُ الفجائي المحزن كانت ذاهبة في الطريق لتستقي ماءً من العين حيث سمعت غوغاء عظيمة واثنان يسألان بعضهما واول كلمة صدعت اذنيها هي ألم يعرف القاتل بعد

— كلاَّ وهوذا الكشف قد جاءَ الى الحقل الذي جرت فيه المعركة

— والى اين ذهبوا بشفيق القتيل

— ان اخاه بطرس حمله على منكبيه وسار به الى البيت لبين يدي والدته

فلما سمعت بدر التمام ذلك صرخت صوتاً هائلاً وسقطت بقرب العين مغشياً عليها . وللحال اسرع القوم مبادرين لاغاثتها وحينئذٍ عرفت جدتها ايضاً بذلك الخبر الهائل

ولما استفاقت بدر التمام من اغماها لم تتذكر شيئاً مما جرى لها وبعد هنيهة استضاءَت بصيرتها بنور هائل فصاحت نادبة اواه لقد مات شفيق... لقد قتل العزيز ... فوالهفي عليه ...

فتركتها جدتها وشأْنها ولم ترد ان تعزيها . فاطلقت الفتاة لنفسها العنان وجادت في البكاء والنحيب ثم قالت لجدتها دعيني بربكِ يا اماه اذهب وازود العين بنظرة وداعيةً من حبيب القلب ... فانا لا اخشى انتقاد الناس ... ألا كان يجب ان يتم عقد قراننا في عيد القديس جرجس ...

فاطلقي سبيلي وآذني لي بربكِ ان اسير لاندبه مع والدته واخيه ··· لكيلا يرشقانا بسهام الملام وينسبا الينا نكران الجميل ··· فهلمي برفقتي يا اماه··· فقد يلوح لي ان شفيقاً يلومني على هجره منذ الآن ···

اجابت منة وقد مسكت بيديها يدي الفتاة المضطربة كلاّ يا ابنتي والف كلاً ··· فانا لا اسمح لكِ بالخروج في مثل هذه الساعة الى منزل حنة··· فوالهفي عليها ··· فان بيتها غاص الآن بجماهير المعزين الذين ولا ريب سينتقدون هيئتكِ ويحصون عبراتكِ ··· فابكي ههنا ياولدي وانتحبي وانتِ في حضن جدتكِ ··· صلي واندبي يا مهجة فوءادي ··· انما لا اود ان تنظر الاعداء الى احزانكِ ولا ان يميطوا اللثام عن سر اشجانكِ العنيفة ·

اجابت الفتاة آه يا اماه لقد يخال لي اني اخون شفيقاً ··· اذا جزعت وخشيت ان يراني الغير ابكي موته الهائل

— لا تخشي امراً من هذا القبيل يا ولدي ··· لان شفيقاً يقرأ في اعماق قلبكِ ويرى عواطفكِ ··· وكما انه كان يحرص جداً على سمعتكِ وصيتكِ فهو لا يروم الآن ان تكوني موضوعاً لانتقاد الاشرار واستهزائهم ولا سيما فان خطيبكِ ليس بموجود اليوم في غرفة حنة ··· بل جسده فقط المضرج بدمائه ··· اما عيناه فمطبقتان ولا تقدران النظر اليكِ ··· ومع ذلك فهو من السماء ··· من علو السماء يرى بعيني نفسه حبيبته بدر التمام ومهجة فوءاده ··· التي اود ان استحوذ على كل احزانها ··· ثم استأنفت كلامها بعد ان صمتت برهة قائلة

يارباه لماذا لم تدعُني اليك انا العجوز المسنة الضعيفة القوي ... العديمة الفائدة ... تتركني اموت ببطء ... وحياتي تنطفئ لانها اصبحت عبئاً ثقيلاً ... واما هما فكانا في غضاضة الصبا وعنفوان الشباب ويحبان احدهما الآخر ... فانا الضعيفة ... لماذا لم تأخذني الى احضانك السموية ...

فاجابت الفتاة بحدة وحماسة بربكِ لا تنبسي بحرف واحد من هذا ... لانه يظهر لي من لهجة كلامكِ انكِ تلومينني وتنسبين اليّ عدم القيام بواجبات الحنو البنوي نحو حبكِ ومع ذلك معاذ الله ان اتهاون باحترامي فروضكِ المقدسة ... والله ينظر اعماق فؤادي ويعلم باني لا اكتم عنكِ امراً ولا استشهده على كلمة باطلة ... نعم اني احببت شفيقاً محبة كاملة وانما الفرق بينكِ وبينه شاسع فانتِ والدة والدتي ويعزُّ عليّ شخصكِ لاني من لحمكِ ودمكِ ... ومن ثم فهكذا نصيبي ... ماذا اصنع ... ابى القضاء الا ان افني عمري في شقاء وبؤس ... ويا ليت باقي هذا العمر ينصرم لاتخلص من هذا الشقاء العظيم ... فان كانت شدة احزاني تغضب الله وتغضبكِ فاصفحي عني واغفري لي لاني تعيسة جداً . ولم تكد تتم هذا حتى طوقت جدتها بذراعيها ... وهكذا ارادت تلك المرأة ان يتحول حزن الفتاة العميق من حالة اليأس والقنوط الى الصبر والتسليم لاحكام الله ... وأثرت دموع الجدة في عواطف بدر التمام الشريفة وفعلت فيها اكثر من مفعول اعاظم الوعاظ فقالت دعينا يا اماه من هذا التشكي فالدهر ليس يعتب من يجزع ولم يعد في الايام رجاء ولا مطمع ولا بد لنا بعد الممات من الراحة

والسلوة لهذه الخطوب ...

ومكثت بدر التمام بعد ذلك ملصقة رأسها بصدر جدتها وشعرت انها مضطرة لتهدئة هيجان احزانها اشفاقاً على عجزها لانها شعرت ايضاً بانه ليس لها معين ولا سلوى في هذه الديار الفانية سوى حفيدتها

ومنذ ذاك الحين لم تعد تؤمل الفتاة بانها ترى شفيقاً بل قضت يوم الاحتفال بالجنازة بقرب جدتها التي غمرتها بحنوها الوالدي وشجعتها بعبارات لطيفة عذبة خففت آلامها وسكنت اشجانها الثائرة

وفي مساء ذلك اليوم ذهبت بدر التمام لزيارة ضريح شفيق وفي اثناء مسيرها لمحت خيالاً بشرياً فاطرقت في الارض واكملت طريقها بدون ان تضطرب وسار الرجل بجرأة وذهب طالباً خادم الكنيسة . وقد علم القارئ مما تقدم ان هذا الرجل هو موسى قاتل شفيق الذي سمع اعترافه المائل . ورأى الشقي الفتاة الجاثية على رمس شفيق متوشحة بثوب الحداد وعرف انها بدر التمام فاشار اليها بيده اشارة تهديدية معنوية ثم توارى في الظلام الدامس حين جاء الكاهن وبارك خطيبة اخيه

وفي صباح غد اليوم الذي تم به ذاك الاعتراف الفظيع توجهت حنة الى منزل منة الحزينة وعانقت بدر التمام الغارقة في لجة الاحزان الاليمة . وكانت حالة تينك الوالدتين وحفيدتهما تذيب الافئدة وتنفطر لها القلوب الجلمودية ولا يقدر الانسان ان يعرف ايّاهنّ اشد تعاسة

وبعد ما جالتا في فيافي الاحزان المدلهمة وخاضتا طويلاً في بحارها

المتلاطمة رفعتا عينيها وحدقتا في طلعة الفتاة الحزينة وقالتا

واحسرتاه عليكِ يا بدر التمام ...

فلما طرقت هذه الالفاظ اذني الفتاة تركت مكانها وجاءت فجثت على ركبتيها فيما بينهما وطوقت كلاً منهما بذراعيها والصقت وجهها المصفر بوجهيهما المجعدين المبللين بالدموع وقالت لقد اصبتما ياسيدتيَّ ... فبئساً لحالة بدر التمام ما اشقاها واواه ما اشد تعاستها ... لان الله لم يشأ ان تكون ذات بعل في هذه الدنيا حيث سمح بقتل خطيبها وجعلها ارملة وهي في السنة السابعة عشرة من عمرها ... في مقتبل العمر وزهرة الصبا ... انكما تحبانها للغاية ... وفي حبكما لها مبتغى آمالها بعد من كانت تستعد لان تكون شريكة حياته ... ما اشد هذا الخطب يا الهي ... ولكن اعلمي ياحنة اني لم ازل كما كنت قبل موت شفيق ابنة لكِ ... ومن ثم ستكونين مع جدتي كوالدة واحدة لي ولنتكلم معاً عن شقيق الروح ... ولنذهب جميعنا لنزين ضريحه بالازهار والرياحين في ايام الآحاد ... نعم اني اشعر بفقد وموت اسمى عواطفي ... ولكن هذا نصيبي فليكن اسم الرب مباركاً ولتتم مشيئته في كل حال وآن ... لاني سلمت امري اليه وصبرت على بلوتي باتكالي عليه ... ولي الامل بان شفيقاً يكون قد سبقنا الى محل الابرار وهو بانتظار ذهابنا لملتقاه ...

وكانت تلفظ هذه العبارات بلهجة مملوءة من الشهامة الفائقة الطبيعة ... ثم عانقتهما طويلاً فوجدت الوالدتان في كلامها نوعاً من الانتعاش والتعزية .

وبعد ذلك اليوم عادت بدر التمام وجدتها تترددان الى منزل حنة كعادتهما السالفة

واما بدر التمام التي كانت اشتهرت قبلاً بالبشاشة والسرور فقد صارت كئيبة عبوسة يتوسم ناظرها في طلعتها ملامح الحزن والحداد المماثلة لسواد ثيابها بيد انها حفظت قلبها سالماً من كل شائبة وقد تحوّل حبها السابق نحو شفيق الى حنو ورأفة نحو معاشريها برقة وشفقة لا مزيد عليها

الفصل السابع

قايين وشيت

وفي احد الايام التالية قال بطرس لوالدته بلطف اعلمي يا اماه اني مضطرٌ لان أقيم وكيلاً ايدير امور الاملاك واشغالها بضبط وتدقيق لان الوقت لايتيح لي ان أُلاحظ حقولنا بنفسي لئلا تضيع حقوق المرضى والمساكين

فاجابت والدته وهي غير قادرة على امساك دموعها واحسرتاه ... أَلعل الايدي الاجنبيةّ تود الاستيلاء على املاكنا بعدما كان حنا والدك متولياً مهام كل الاعمال ... واحر قلباه فانني عندما توفاه الله اقمت شفيقاً نائباً عنه وبناظرتك استطاع ادارة الشؤون ... والآن ... فقد أَفل نجم السعد وعُدِمنا رأس مالنا وعلة آمالنا وعما قليل سيذهب ما لنا من بين ايدينا ...

فالاحزان متراكمة ... والهموم كثيرة ... واري الدمار على الابواب ...
ولا اعلم من اي جهة اتتنا النوائب حتى اقامت بيننا هذه المصائب ... فآهاً لحشاشة الفضل ارصدها الردى غوائله . وبقية الكرم جرّ عليها الدهر كلاكله .
وياحسرتاه للجة المواهب كيف سجرت . ولشمس المعالي كيف خُسفت ...
ويالهفي علي هضبة الحلم كيف زُلزلت وحدة الذكاء والفهم كيف فُللت ...
فواحر قلبي ماذا تقدر ان تفعل امرأة مسكينة عاجزة نظيري وقد فجعها الله بفقد قرينها وابنها ... اواه ان مصيبتي لاتحتمل ...

فقال بطرس لو كنت عالماً يا والدتي انكِ متعلقة بخيرات هذهِ الدنيا لما ذكرت لكِ شيئاً ولكن ألا تذكرين ما قيل

وما المال والاهلون الا ودائعٌ * ولا بُدّ يوماً ان تُرد الودائعُ

لاسيما وانه في هذه السنة ستكون المجاعة عظيمة ويجب علينا ان نمد يد الاحسان نحو ابناء الرعيّة المحبوبين لنخفف عنهم المصاب

فرقت عواطف الوالدة ووافقته على رأيه . وفي الغد حضر الوكيل الذي عينه بطرس ونقلد مهام المزروعات وزمام ادارة المنزل وكان رجلاً هماماً يخب خدمة بيت سيده والجد وراء العمل بهمة ونشاط . الا ان الامور لم تُنجح وقتئذٍ لان المجاعة كانت شديدة في ارلاندا تلك السنة . فازدادت هموم بطرس ووالدته ولا سيما لتألمها من جراح قلبها الدامي

وفي احد الايام بينما كان الكاهن مشتغلاً بخدمته في الكنيسة حول وجهه نحو الجمهور واذا بالحاظ غريبة جذبت انظاره وجعلته يرتعش وجلاً

في موضعه وجمد الدم في عروقه لانه شاهد قاتل اخيه واقفاً في مقدمة الجمع . وكان لم يمضِ بعد شهر كامل على وقوع حادثة خطيب بدر التمام . ولم يكن القاتل قد رأى اخا شفيق وجهاً لوجه بعد ذاك الاعتراف الهائل . ولم يخطر قط في بال بطرس ان ذلك الشقي سيتعرض لملتقاه ولا سيما وحضوره في الكنيسة لم يكن بهيئة متدين ولا كمن يتوب عن ذنوبه ويندم على جريمته بل كان واقفاً متجبرا شامخ الانف عالي الرأس محدق الابصار يخال لناظره انه لم يهب الله ولم يخش انساناً . ولذا ارتعدت فرائص بطرس وظهرت عليه امارات الاضطراب والارتباك ولحظ الحضور ما طرأ عليه من الرعدة والخوف فجزعوا عليه جداً وصاروا ينظرون اليه بعين الشفقة والحنان . ولما ازفت ساعة الوعظ صعد المنبر بثوبه المخضب بدم اخيه وامامه صاحب الجناية الفظيعة الذي بسببه تنتحب والدته ولا تريد ان تتعزى ...

وفاه بطرس بعبارات سامية بها حض الجمهور على الرضوخ لاحكام المولى والصبر على مضض الفقر والمجاعة فأثرت كلماته في قلوب سامعيه حتى فاضت العبرات من اعينهم وظهرت سيماء الشكر متلالئة في وجوههم فتضاعفت همة بطرس الا انه كان يشعر من وقت الى آخر بانزعاج شديد لان قاتل اخيه وقف شاخصاً بازائه ولم يحول عنه الحاظه ولا طرفة عين

ولما خرج بطرس من الكنيسة لقي ابناء رعيته واقفين بانتظاره عند المقبرة كجاري عادتهم فاخذ يشجع هذا ويعزي ذاك ويسأل عن الواحد ويحسن الى الآخر حتى سر الجميع من ملاطفته وصاروا يتبعونه شاكرين داعين وفيما

هو يحادثهم وحوله جم غفير من الرجال والنساء والاولاد اذا برجل دفع الجمهور بعنف وجاء فوقف ازاء بطرس قائلاً

كيف حال صحة ابوتكم (ان الرجل المذكور هو موسى بعينه)

فأَحس بطرس هذه المرة بحنق شديد تجاوز صدره فتحركت شفتاه رعشة وتغيرت ملامحه المستكنة وسطع شرر الغيظ في عينيه وتطلع متأملاً في هيئة ذلك الشقي الذي لم يعر التفاتاً لما لاحظه بل قال بلهجة عنيفة اود ان استشير حضرتكم بهمة ضروريَّة فهل تتنازل لان تعيرني أُذناً صاغية

اجاب الكاهن هلم معي ومشى الاثنان معاً الى جانب ضريح شفيق ولم يبدُ في محيا موسى اقل تأْثير فسأَله بطرس وماذا تروم مني

– اود ان اذكرك بعهدك ...

– وهل نكثت به او خالفت ما اوصيتني اياه

– كلاَّ انما ارى معاملتك اياي ليست كما يقتضي

– ويحك ياشقي الملك لا تدري اين انت واقف الآن وما هي الارض التي تدوسها بقدميك ، قال هذا بصوت هائل

– انني واقف في المقبرة ... كبقيَّة الناس واريد منك ان تعيرني التفاتاً نظيرهم وهذا جل مناي فقد لحظت منك انك ترشقني بالحاظ غريبة ورأَيتك تصافح بيدك كل من تقدم لتحيتك فهل يا ترى تريد ان تتنازل لمصافحتي لو خطر في بالي ان اسلم عليك ...

فارتعدت فرائص بطرس واخفى يده المرتعشة ضمن ثوبه فاستهزأَ به

موسى وقال مقهقهاً آه . . . آه . . . يلوح لي ههنا ان التلميذ صار اعظم من سيده . . . اني سمعتك تقول ان المسيح قدم الخبز الى يهوذا . . . وسمح له بقبلة في البستان . . . واما انت فيبدو لي انك لا تريد ان تدنس اناملك بلمس يدي . . . فاعلم اذاً ان تعصبك هذا غير محمود ولا يجوز لك ان تعاملني بهذا الجفاء . . . ألعلي لا أُعد من ابناء رعيتك نظير باقي الجمهور . . . او لم اعترف نظيرهم . . .

فرفع بطرس الحاظه وتأمل في هيئة موسى ليقرأ ما في ضميره فقال ذلك الشقي لا يقتضي ايضاً ان تجتنب الاجتماع بي . . . ولا ان تنظر اليّ بعين النفور والبغض والازدراء . . . وعدا عن ذلك فماذا تعرف عني . . . أليس ان تذكار بعض الامور يجب ان يستمر مدفوناً حيث ذكر . . . او هل تود بنفورك هذا ان تبعد الناس عن معاملتي . . انك لم تصب المرمى فكن واثقاً اني لم ازل محبوباً ومعتبراً ودراهمي ذات فوائد عظيمة وكثيرون يضطرون الى استلاف نقودي . . . اذن كن متيقناً انك لا تستطيع ان تشين شرفي او تحط قدري . . .

وبينما كان بطرس يهمس مشيراً الى ضريح شفيق قال موسى أتريد ان استحلفك باقسام عديدة او ماذا . . . متى نظر اليك اهل البلدة وشاهدوا الحاظك وملامحك المبغضة فماذا يظنون بي . . . فبعملك هذا تلقي في قلوبهم بذور الشك وعوامل الارتياب ولا بد لهم اخيراً من التمادي للاستقصاء والبحث عن الاسباب . . . وهذا ما يجب عليك التحذر منه بل كلما بدا لي

محادثتك يقتضي ألا تتغير ملامحك ولتابث هيئتك على ما هي عليه من الهدو والسكينة فالعينان والشفاه لها اصوات ومعانٍ والاضطراب والرعشة والاصفرار تلقي في الافئدة تشويشاً عظيماً ... فاحترس اذاً على القيام بحق واجباتك ...

ففكر بطرس في نفسه وقال ان شيئاً لم يضطر ان يعيش ويقيم بقرب قايين... واردف موسى كلامه قائلاً فهذا ما كنت ابتغيه منك فلا تخالفنَّ وصيتي

اجاب بطرس اني اتوسل الى الله ان يرأف بحالتك وينظر اليك بعين حلمه. ولما وصل الاثنان الى مكان يجتمع فيه بعض الاصحاب المنتظرين الكاهن لاستشارته قال موسى بصوتٍ عالٍ

لقد سررت جداً من نصيحة ابوتكم ... ولا مشاحة ان الزوان اذا داوم الامتزاج بالقمح الجيد لا يبعد ان يغدو نافعاً ولو لشيءٍ يسير

فقال الكاهن ان الزوان قد غرسته يد عدو صاحب الحقل ورب البيت يروم نزعه ويأمر ان يلقى في النار ليحرق

— انك لرجل قديس . لا بل قديس الله فليبارككَ المولى

ثم سارا بين الجمع فتجرأ قايين شفيق ومد يده لمصافحة الكاهن الذي اخفى يديه تحت ثوبه وقلبه يضطرب جزعاً ويذوب حزناً وبعد هنيهة خارت قواه واحس ان موسى الشقي قبض على انامله وحياه مودعاً فهمس اواه . ليس الخادم اعظم من سيده

الفصل الثامن

الاشتراك في الذنب

واجتمع موسى يوماً ما بصديقيه في احدى الخانات وفيما هم يشربون الخمرة ويتنادمون ساقهم الحديث الى الخوض في عباب مواضيع جمة ومنها ذكر المجاعة والشدة والضنك الى ان قال موسى لقد تعددت لديَّ اسماء اصحاب الديون والمبالغ الباهظة ومنهم بدر التمام ووجدتها اللتان استدانتا مني مبلغاً من النقود وان لم تباشرا بايفائها في بحر هذا الشهر فليس لي الا ان اضع يدي على بيتهما واحجز عليه بعد طردهما منه لتذوقا من الشقاء والهوان ما لا تقدران ان تصبرا عليه

فسأله احد رفيقيه المسمى يوسف ولماذا تبغض منة العاجزة المسكينة وقال الآخر وما سبب كرهك لبدر التمام الجميلة

فاجاب موسى لقد يخفا كما سبب بغضي لهما نعم انه قد مضى لكما في خدمتي ما ينيف عن الخمس عشرة سنة ولكنكما لا تستطيعان ان تحزرا اقل شيء من مقاصدي ... ولا ان تميطا اللثام عن مرامي ... والحقيقة اني اسعى بخراب بيت بدر التمام لاني ... لاني قتيل هواها

— أتحب بدر التمام

— نعم اني احبها جداً ... وهي غاية مناي

— ولكنها لا تقدر ان تحبك ابداً ... وان رمت ان تستحوذ على حبها

لك فعندك وسائط عديدة تُنيلك المرام٠٠٠بغير ان تسعى في خرابها ودمارها

ـ انكما تجهلان كنه هذه الامور ٠٠٠وقد اصبتما باشارتكما ان بدر التمام لا تقدر ان تحبني ٠٠٠ لانها عَلقت بحب غيري قبلي ٠٠٠

ـ وهي من اجله مرتدية ثوب الحداد الآن وتندبه كارملة ٠٠٠

ـ ولذا عزمت ان اسعى بنوال بدر التمام لتكون عروساً لي ٠٠٠ وانما هي بخلاف سواها من الفتيات ٠٠٠ فصبري عظيم وعندي من طول الاناة ما لا يوصف ٠٠٠

سأصبر حتى يعلم الصبر انني * صبرت على شيءٍ امرّ من الصبر

فمتى اوقعتها في الفخ الذي نصبته لشراكها حينئذٍ يتاح لي ان اتصرف معها كما اروم ٠٠٠وما ذلك الفخ سوى ان أُذيقها اشكال العذاب والوان الهوان

فهز احد رفيقيه رأسه وقال الآخر ان بدر التمام هي فتاة باسلة شجاعة لا تخشى بأساً

ـ وهي فتاة ذات عفة وفضيلة ثابتة العزم شديدة الحزم ٠٠٠ وعندي ان بدر التمام لو كانت وحدها لفضلت الموت على الاقتران بي وانما حرصاً على جدتها وخوفاً عليها من ان تهلك جوعاً يدفعها الى الاقتران بي رغماً عنها

فصمت رفيقاه واطرقا برهة وقد ظهرت في محياهما علامات النفور والاشمئزاز

وبعد ما ساد السكوت بضع دقائق عاد موسى الى الحديث فقال ألا تعضداني بمشروعي هذا

اجاب يوسف معاذ الله ان اقترف ذنباً كهذا ... وقال الآخر وماذا تبتغي ياموسى من مساعدتنا لك فان اشقى الرجال لا يتجرأ ان يمد يد سوء لخراب اعظم الرجال واغناهم مع كون الرجل اقدر من الامرأة على تحصيل معاشه باي عمل ما ... واما هاتان الامرأتان فالجدة لم يبقَ لها سوى نسمة واحدة من هذه الحياة ... وبدر التمام هي عنوان الفضيلة والحكمة في هذه البلاد فانا اقر باني مضاد لآرائك هذه لان عواطفي لا تطاوعني ان امتثل اوامرك ...

فاجاب موسى بلهجة الغضب الويل لكما اذا تجرأتما ان تخالفاني ويالتعاسة حالتكما اذا تمنعتما عن تلبية اوامري في هذه المهمة ... وسيتضح لكما عما قليل صدق مقالي حينما ينكشف لاعينكما الى اي منقلب تنقلبان ... وحينئذٍ تعرفان ان حضوري الى ههنا لم يكن لاستماع مواعظكما الباردة بل ان مرامي هو السعي وراء خراب بدر التمام ... ومتى اقترنت بها ستتحققان مزيد حبي نحوها ومعاملتي اللطيفة بجود وكرم لاني بسعة تامة من بحبوحة العيش وانتما ادرى بذلك ... اذن لا غاية عندي سوى الاقتران بها أفلا ترضخان لمساعدتي بانجاز هذه المهمة

قال يوسف ولكني كنت سابقاً صديق والد بدر التمام فكيف يسعني اتيان مثل هذا المنكر

فاجابه الآخر يجب علينا الايجاز الآن وخلاصة الامر توجبنا الاذعان لاوامره واطاعتها ... ماذا والا فالمجاعة شديدة في هذه السنة وان عدمنا

صحبته نموت جوعاً . . .

فارتعدت فرائص يوسف من هذا الكلام وقال تباً لنا من شقيين وبئساً لهذه الاعمال السافلة . ولكن اذكر ياموسى ان مصيبة بدر التمام ستحل نقمتها فوق رأسك فقط واما نحن فبريئان ونروم غسل ايدينا من وصمة هذه الخطيئة

فقال موسى اني لا اكترث براحة ضميركما او اضطرابه وانما اود مساعدتكما وامضائيكما ويجب عليكما ان تسعيا معاً بدمار بيت بدر التمام وكيفية ذلك اروم ان تتوسطا لدى التاجر الغني الذي يشتري غزلها وتتوسلا اليه ألا يسلمها درهماً وليقطع عنها الرزق من تلك المهنة وايضاً اطلب منكما ان تختما لي هذه الاوراق لاغدو ممنوناً لمعروفكما واكي يتأكد لي صدق محبتكما.

فلبيا امره وختماها

فسر المرابي وهز كتفيه فرحاً ثم شرب كأساً من الخمرة وخرج يترنح طرباً لاستحواذه على مشيئة رفيقيه بحيث اضحى قادراً ان يديرهما بين يديه كآلة صماء

وقبض موسى على ذينك الرجلين كما يقبض البازي على العصفور وجعلهما كمسعف لاتمام مقاصده السيئة وكانا مقيمين معه في منزله لانهما غير قادرين على معيشتهما من شدة ضنكهما

وكان موسى يتعاطى مهنة الصيارفة ويربح كثيراً بتجارة الحبوب والغلال حتى كثرت ثروته وامتدت املاكه وصار يملك اكثر من نصف

اطيان تلك البلدة ورغب ايضاً امتلاك منزل منه او بالحري رام الحصول على بدر التمام الجميلة لانها كانت غاية آماله وجل مناه

ولما خرج موسى من الحانة سار مع رفيقيه الى المنزل القاطنين فيه وكانت غرفه مفروشة بالامتعة النفيسة والرياش الجميل لان موسى احب ان يبذل كل مرتخص وغال لترتيب تلك المخادع وتزيينها واناب عنه رفيقيه ليقوما بالمهام الداخلية وما يتعلق بالمصاريف الخارجية

وكان قد بلغ وقتئذٍ السنة الخمسين من عمره واصبح منحني الظهر تائه الالحاظ رقيق الشفتين مجعد الجبهة وقد وخط الشيب رأسه وعيناه كأعين النسور الخاطفة ولهجته ثقيلة لايشتم منها اقل رائحة تنبئ عن الحرية ولحيته تدل على ميله للعناد وتولعه باللذات وتمرغه في الشهوات الوحشية ... وكان جميع سكان تلك البلدة ينفرون من الاجتماع به وما من فتاة احبته بعلاً اما هو فكان يشعر بانه محتقر من الجميع وعرف موقفه الحرج

واذ كان لم يزل في السنة العشرين من عمره زمن الغضاضة والسعادة وقف في صباح احد الايام ازاء مرآة وتأمل في نفسه قائلاً

اواه اني قبيح المنظر شنيع الهيئة ومما يزيد في الطين بلة وفي الطنبور نغمة هو ارتكابي الجرائم المحرمة ومماثلتي باعمالي لاحد اللصوص الاشقياء ... ورغماً عن كوني ربيت في بيت الاحسان والصدقات اذ اخذتني احدى السيدات يوم ولادتي من على شاطئ النهر حيث القتني والدتي التي غرّقت نفسها بعد يومين كما قيل لي فانا اود ان اقضي حياتي واموت في احدى القصور

الفاخرة الجميلة بعد ان اغدو رب عائلة غنياً موسراً ... نعم ان كل فتيات هذه البلدة يحولنَ وجوههنّ الآن عند رؤيتي ويستهزئنَ بي ... ولكن سيأتي يوم به اقترن باجمل فتاة وابدع زهرة في هذه البلاد ... وانما متى يكون ذلك ... فلا اعلم لان الحظ السعيد لم يزل بعيداً عني ... وليس لديّ الآن سوى بضعة دريهمات ويقتضي للزفاف كثير من الاموال فانا سأبذل ما في الوسع لبلوغ مرامي ولاستسهلنّ الصعب لادراك غايتي ولو اضطررت الى قطع الفيافي والوديان والبراري والقفار ...

ومذ ذاك الحين اخذ موسى يسعى بجد ونشاط فاشتغل بالربا الفاحش حتى صار يستنزف الاموال بالجبر والظلم . وفي احد الايام اسعده الحظ بالقيام بخدمة احد سراة تلك البلاد . وكيفيةً الواقعة هو انه بينما كان احد اللوردات راكباً عربته وبمسيرها صُدمت صدمة عنيفة فسقط اللورد منها وأُصيب بجراح شديدة الخطر واذ رآهُ موسى وهو في الطريق على تلك الحالة رام الاعتناء به طمعاً بنوال مكافأة ثمينة من لدنه

فاستعان بخدمه وحمله الى منزله واخذ على عاتقه الاهتمام بمداواته بغيرة ونشاط ظهرا انهما ناشئان عن فؤاد مخلص ودود . وكان اللورد المذكور رجلاً موسراً جداً كريماً جواداً واسع الثروة فحينما اتجه الى الصحة وهب موسى مئتي فرنك وقال له

اشرب نخبي بهذه الدراهم المعطاة لك وانتظر ريثما يبدو لك مفعول ذاكرتي فقد اتضح لي وضوحاً جلياً انك خدمتني بجد وامانة بحيث غدوت

مديوناً لك اذ غمرتني بجميلك ولذا عزمت على مكافأتك قبل موتي ثم ودعه وسارت به المركبة فحياه موسى تحيّة الوداد وخرّ جاثياً الى الارض داعياً شاكراً ...

وعند ما قبض موسى المبلغ ذهب فابتاع مفروشات ثمينة لاجل تزيين منزله وعاد لتتمة حراثة حقله . وبعد مرور أسبوع من الزمان تلقى رسالة من اللورد بها يمنحه استلام وظيفة وكيل املاكه فنجح موسى وساد في كل اموره وزاد في السلب والاستبداد حتى اصبح ذا ثروة واسعة فهنأهُ اللورد بفلاح شؤونه بغير ان يعلم سوء تصرفه وما جناه من الاختلاس والظلم

واذ توفى الله اللورد كان موسى قد ناهز الاربعين من سنيه وامتلك املاكاً كثيرة يعجز الفكر عن احصائها وحينذاك اتخذ لرفقته الصديقين السابق ذكرهما احدهما بعد وفاة قرينته والآخر بعد نجاته من الافلاس واقام معهما رائعاً في بحابح الهناء

الفصل التاسع

افكار موسى

وكان موسى لم يزل مصمماً كما اشرنا سابقاً على انجاز ما عقده في اول سني شبابه وقد حافظ على ذلك القصد في زاويــــة ذاكرته ريثما أُتيح له تحصيلـــ المبالغ اللازمة للوصول الى تلك الخريدة والحصول على تلك اللؤلؤة الفريدة وكان قد اعتمد على ثروته واذ ناهز سن الخمسين كان جالساً ليلة ما منفرداً كئيب النفس هائم الافكار فطرق ذاكرته الفكر التالي فقال في نفسه ولوائح الكآبة تلوح في هيئته المحزنة

اواه لو كنت متزوجاً لخففت عنيــ قرينتي عبء هذه الهواجس والاحزان . ثم احصى فتيات تلك البلدة فلم توافق مشربه احداهنَّ وبعد قدح زناد الفكرة خطرت في باله بدر التمام ... وحيث كان لم يسبق له عادة في الدخول الى بيت منة فاختار طريق الكنيسة ليتمتع بمرأى الفتاة وفي الاحد التالي شاهدها خارجة بعد تأدية الصلاة وهي مسندة قامتها الهيفاء الى ذراع جدتها منة تنظر الى شفيق وسمات الابتسام تتخلل شفتيها اللطيفتين بينما كان الكاهن بطرس يتحدث مع والدته وجدتها

فاحس موسى بذلك الابتسام كطعنة سهم ادمت فؤاده ... فقال في نفسه لا بد لي من الاطلاع وكشف هذا السر ... وبعد مرور بضعة ايام علم بعقد خطبة شفيق وبدر التمام... فاحزنه ذلك الخبر ... ثم رام اجتناب

اليأس والاضطراب معللاً النفس بقوله

فما عليّ اذاً سوى انتخاب احدى الاوانس الجميلات اللواتي لا تخلو المدينة منهنّ وبذل غاية ما في الوسع اكي ينساها الا ان صورة بدر التمام رُسمت في ذاكرته وملكت عقله ولبه فطفق يحوم حول بيتها وبيت شفيق وصار يتوقف في الآحاد والاعياد منتظراً مرور الفتاة ليراها خارجة من الكنيسة وكلما عاين الحاظها الملائكيَّة ولطفها الباهر كان يزداد افتتاناً بجمالها الساحر ويذهب مسلوب العقل والفؤاد . لان بدر التمام كانت آية في الحسن والكمال وقد اجمع اهل تلك البلدة على مدح آدابها ولطفها وجمالها ورقتها بنوع ان كل من رآها كان يسبح الله على آيات ذلك الحسن الباهر والكمال الوافر فيقول ان شفيقاً اهلٌ لمثل هذا الحظ الكامل ويحق له الافتخار بهذه السعادة ...

ويوماً ما افتكر موسى في نفسه وقال اواه ... ياليت يتاح لي ان اسلب حظ شفيق السامي السعيد

وفي صباح احد الايام رأى موسى مريم خادمة والدة شفيق تنشر ثوباً في احد المروج فسألها قائلاً لمن هذا الثوب الجميل

اجابت لعروس شفيق الحسناء

— ومتى يحتفل بالزفاف

— في عيد القديس جرجس

— ان الافراح ستكون عميمة انشاء الله .. قال هذا بعد ان تنحى

ويوماً آخر رأى بعض الخدم يشتغلون بتنظيف الاوز من الريش فسأل احدهم وماذا تعملون انتم ايضاً

قالوا ان الجميع منهمكون بإعداد منزل العروسين

فرجع موسى الى الوراء لاعناً ساخطاً وقال في نفسه ما العمل ... هل اقدر ان احتمل ... او هل يمكنني ان انقدم طالباً الفتاة ... لعلي افوز بنوالها طمعاً باتساع ثروتي ... وا اسفاه ... فان هذه الفئة لسوء الحظ لا تعبأ بالمال والجاه وعدا عن ذلك فشفيق مشغوف بحب بدر التمام وبدر التمام تحب شفيقاً فشفيق حائل بيني وبين بدر التمام

ومذ ذاك ازدادت هواجس موسى فلم يهدأ له بال ولم يقر له قرار ... ولا سيا لان شفيقاً كان فتى كامل الخلق والخلق لا يستطيع مسابقته باحدى الفضائل فقال موسى في نفسه ومع ذلك يقتضي لي التخلص من شفيق ...

واذ صمم على هذا عزم على قتل شفيق وارتكاب الجناية السابقة الذكر ثم ود التخلص منه بغير القتل وبعد البحث والتنقيب لم يجد سوى ما عزم عليه ومذ ذاك الحين اخذ يتتبع خطوات شفيق وحركاته وبعد مرور اسبوع كامل تحقق لدى ذلك الشقي ان شفيقاً يتوجه كل عشيةٍ لزيارة خطيبته في طريق واحد فأخذ يترصده في كل ليلة تارة يختبئ بين الاشجار وطوراً وراء السياج ثم اتصلت به الجرأة الى ان يترقبه عند خروجه من بيت منة وصار يرى بدر التمام ترافقه الى خارج الباب وتبعث له باناملها اشارات حبيةً وكان شفيق يلتفت ايضاً مراراً عديدة ليرى ظل حبيبته متوارياً عن بعد ...

ولما عاين موسى ذلك قال في نفسه والله لاقتلنه ... لا بل لاميتنه شر ميتة ... وكانت الطرقات حينئذٍ خاوية خالية ... وعدا عن ذلك فما من احد رأى موسى في تلك الانحاء وارتاب في امره ... والا لأقيمت الحراس لمراقبته ... وعلى كلٍ فيالفظاعة الجناية الهائلة التي صدرت عن فؤاد بشري يحب ويعيش ويتحرك ...

وانتظر موسى مدة قائلاً لعل مصيبة طبيعيةً تحل فجاءةً ... او لعل شفيقاً يموت بمرضٍ عضال ... فكرت الايام الطويلة والحسد يزداد يوماً فيوماً في نفس ذلك الشقي حتى احرمه لذيذ الرقاد بنوع ان السهاد هجر مقلتيه. وصار يخرج مساء كل يوم من منزله مصمماً على انجاز مقصده الوحشي ثم يتوقف مرتدعاً تارة لتأنيب ضميره وطوراً لافكار بديهيةً . ورغماً عن ذلك قد رام تتمة عمله لان الوسن كان قد هجر مقلتيه . ثم أخذ يشرب مسكراً وليلة ما ثمل من شدة السكر قبل العشاء فتناول نبوته وسار منتظراً عودة شفيق من منزل بدر التمام واذ رآه وثب عليه بغتة وحمله والقاه على الارض فنهض شفيق وكافح موسى فرماه ثانية وضربه ضربتين هائلتين على ام رأسه فوقع صريعاً يختبط بدمائه فرفعه حينئذٍ من قارعة الطريق والقاه في الحقل المجاور وسار الى منزله بدون ان يصادف احداً في طريقه

ولما وصل الى غرفته تأمل بنفسه على نور الشمعة فرأى يديه ملطختين بالدم فغسلهما ثم اضرم ناراً واحرق الثياب التي كان مرتدياً بها ونام مرتاح البال آمناً ...

وفي الصباح سار الى الحانة فسمع غوغاء عظيمة والجميع يتحدثون بحادثة امس بان بعضهم رأى الجثة والبعض الآخر علموا بهذا النبإ المحزن

اما موسى فلكيلا يرتاب الجمع بسكوته سأل احدهم قائلاً

وماذا تصنع الآن خطيبته بدر التمام الجميلة

فاجابه ان جدتها تبكي معها ولم تسمح لها بالخروج

– ان حزنها سيزول عما قليل

– ولكنها احبت شفيقاً منذ حداثتها ...

– وان يكن فانا أُعاهد بان عدد الطلاَّب سيكون عظيماً رغماً عن كونها ليست غنيَّة

فقال آخر ان حالة الكاهن بطرس لما تتفتت لها القلوب لانه احب اخاه للغاية فمنذ وفاة يوحنا اصبح الفتى الفقيد موضوع حب حنة وابنها ... فقد حلت المصائب على هذه العائلة الكريمة من كل صوب وصرنا نري هموم هذه الحياه وشدائدها تحل على الابرار بينما نشاهد الاشرار راتعين بالهناء

والذي قال هذه العبارة احدق الى موسى بعين الغضب والبغض . اما هذا فلم تتغير احواله قط ...

وقال آخر لا بُد لنا من معرفة الجاني ان لم يكن عاجلاً فآجلاً ولا بُد لنا يوماً ان نرى قاتل شفيق مشنوقاً ...

اجاب آخر قائلاً ان ما جئت به هو عين الحقيقة فقد حدث مراراً وقوع مثل هذه المصيبة الفادحة . ومثل هذه الجناية تجذب على رأس فاعلها

غضب الله وجزاء القانون الصارم

اما قاتل شفيق فلم يغير شيئاً من احوال معيشته ولكنه تجنب السكر في اثناء تلك المدة خوفاً من ان يؤخذ بهذيانه ويساق الى المحكمة ليفي ثمن الدم الزكي الذي سفكه ظلماً وعدواناً

الفصل العاشر

نوائب أخرى

وكان الشتاء في تلك السنة قاسياً جداً والبرد قارساً شديداً وقد اضر البرد بالغلال قبل اوان الحصاد وكانت المحصولات عامئذٍ قليلة جداً وقد تعفن اكثرها و فسد بالامطار الغزيرة التي جاءت في غير اوانها . واضحى منزل حنة خالياً من كل مؤونة فاجتهدت تلك العجوز في التدبير والاقتصاد واخذت على عهدتها مهام البيت رغماً عن عجزها واخرجت جميع الخدم من عندها لان ابنها اصبح مضطراً لان يطعم الجياع في اثناء تلك المجاعة الشديدة وعزم بطرس ان يستدين مبلغاً من المال واذ استشار والدته بذلك اجابته

ابذل ياولدي غاية ما في الوسع لتخفيف احزان المساكين اكراماً لتذكار اخيك شفيق

وكانت المحن تزداد مع الايام والمصائب تتراكم في كل انحاء ارلاندا وفي احد الايام جمع بطرس خدم منزله وبين لهم حالته المضنكة الى ان قال وقد اثقلت الاحزان فوءاده لقد بيعت لسوء الحظ املاك والدي ولم يبق لنا سوى هذا المأوى الذي توفاه الله فيه ... فانتم اولادي واصدقائي واخوتي واعزائي ... فشاطروني الآن خبز المسكنة ... لقد بيعت حقولي وبساتيني واري انكم ستضطرون في فصل الربيع القادم الى طلب خدمات أخرى... فطالما وُجدت كسرة من القوت في منزلي يمكنكم ان تمكثوا فيه . ومع ذلك فلا تيأسوا ايها الاعزاء من رحمة الله بل فلنشكرنه على كل حال . لقد كنتم سابقاً مساعديّ فاسعفوني الآن بهذا الفرض الواجب أَلا وهو مواساة من هم اشد تعاسة منا ...

فبكى الخدام عند سماع تلك الاقوال ثم جثوا معاً على الارض طالبين من الكاهن ان يباركهم

وكان بطرس قد اصبح بعد وفاة اخيه شفيق محترماً مكرماً . وتلك العلامة الحمراء الملطخ بها صدر ثوبه قد رفعت مقامه في اعين افراد رعيته والمصيبة الفادحة التي احتملها ببسالة فائقة الطبيعة جعلته عظيماً في قلوب معاشريه حتى غدا كلامه ذا وقع شديد يوءثر في نفوس سامعيه . وكان كل من طرقت سماعه تلك الالفاظ المفعمة من التعزية رغماً عما عنده من ثقل الاحمال وشدة الاحزان كان يشعر بسلوان عظيم ويذوب فوءاده حناناً عند مشاهدة الدموع المتلألئة في عينيه ...

ولما حلت المجاعة قلقت راحة بطرس ولم يعد يهدأ له بال لا ليلاً ولا نهاراً وصار يطوف الشوارع والبيوت يجمع الحسنات ويحمل الصدقات ويجلس بقرب المرضى يعزيهم ويخفف عنهم ويداوي افئدتهم الدامية ويحمل الصغار على ركبتيه ويقبلهم ويعلمهم التعاليم الصادقة . وفي اثناء ذلك كانت حنة تصلي لاجل ولديها . اما شفيق فلاجل راحة نفسه . واما الكاهن فلكي يخفف الله عنه عبء الايام الثقيلة . وكان بطرس يعود احياناً الى البيت متأخراً جداً فيرى امه الحزينة واقفة مترقبة عودته بفروغ صبر لكي تنشف ثيابه المبللة بالامطار والمغطاة بالثلج والجليد ...

ويوماً ما اخذ بطرس يدي والدته بيديه ونظر اليها بعين مملوءة من الحنو وقال لم يبقَ لنا يا اماه سوى تضحية واحدة

فاجابته تكلم فانا مستعدة لسماع ما تقول

– هل لكل شيء ...

– نعم يا ولدي ...

– ومع ذلك فانا مرتبك ... لا اجسر ...

فصاحت والدته صياحاً هائلاً ووقفت صفراء الوجه وقالت ألعلك تود ان تبيع البيت

– اني لا اروم شيئاً يا اماه ... فلا تسيئي ظنكِ بمعنى كلامي ... فانا ابنكِ الطائع واحبكِ من كل نفسي ... واعلم اني لست على هذه الارض سوى غريباً ويعلم الله باني محتقرٌ خيرات هذه الدنيا ... ولا املك الاّ

عصاة راعٍ وثوباً واحداً ... مخضباً بالدماء ... ولم ينقصني شيءٌ الا ان أُشبع انفس رعيتي التي يطالبني الله بتغذيتها والسهر عليها

– بِع البيت اذاً ياولدي القديس ... فانا اشعر ان الارض تضطرب تحت قدميَّ واحس بدنوّ أَجلي ... كما واني ارى من العلاء ذراعين ممتدتين لقبولي

آه لو تعلم ما قد حل بي * من مقاساة الاسى والحربِ
فاجأَتني بالنوى نائبةٌ * هي عندي اليوم امُّ النوبِ
ضربةٌ قد بادرت مني الفؤاد * تخطف العقل ولا تبقي رشاد
جلَّ خطبي بالملمات الشداد * ومعاناة العنا والكربِ

اواه ياولدي انك رجل وكاهن وتعرف الصبر على مضض بلواك ... واما انا العاجزة فلست سوى امرأة ضعيفة ووالدة حنونة ... فالاحزان تقتلني ... والنوائب تثقل كاهلي ...

فأَخذها بطرس بين ذراعيه حيث قد أُغمي عليها ... وحينئذٍ قرع الباب بعزمٍ ودخل يوسف شريك موسى وانسلَّ كالخائف مجتازاً المخدع واذ رأَى بطرس منحنياً فوق سرير والدته وقد ضمها الى صدرهِ كالمائتة همَّ بالخروج فلمحته حنة وقالت لابنها أَتعلم ياولدي ان هذا الرجل ... فنظر اليها ابنها بعين مملوءة من الحنوّ البنوي ففهمت معناه وقالت هلمَّ يا يوسف وادخل . فاقترب الشقي مرتعشاً ولم يتجرأ على رفع بصره . فاردفت كلامها قائلة انك آتٍ لاجل عقد بيع البيت

فأجاب يوسف لم نبت امرًا بعد ياسيدتي وانما مولاي بطرس يحتاج للدراهم لاجل اسعاف المساكين وقد خطر في بالي ان اقدم له مبلغاً مجاناً ... لولا ضيق ذات اليد ... ان الفقر والعوز قد ضربا اطنابهما في هذه البلاد فلا يُتاح للانسان ان ...

ـ لا تخشَ يايوسف فان ابني سيعاملك امامي ... كما و ... انه لا ينبغي ان ننسى ... ان الله يساعد الضعفاء ... ما اشد احزاني واعظم مصائبي ... فانا لا استطيع ان احبس الدمع عند ما افتكر اني عازمة على ترك هذا المأوى الذي عشت فيه بهناء مع يوحنا ووضعت فيه سريري ولديَّ

فعزم بطرس ان يصرف يوسف فتوسلت اليه والدته ان يفعل ما بدا له وللحال عُقدت شروط البيع ولما خرج يوسف تبعه بطرس فقال له يوسف سآتيك بالدراهم غداً وانما يلوح لي ان سيدتي والدتك مريضة جداً ولا ابتغي ان يمتلك احد هذا المنزل طالما تتردد فيها نسمة حياة كما واني اسأل الله ان يمتعها بالصحة التامة

اجابه بطرس احسنت . ومن ثمَّ يجب عليك ان تجود بصنيع الرحمة لترتاح انفس امواتك ...

فقال يوسف اني لسوء الحظ سكير واشقى الاشقياء ولا افتكر قط بامرأتي واولادي الذين ليسوا الآن من ابناء هذه الحياة . ثم سار متوارياً بسرعة غريبة الى الخارج

وكانت حنة قد احست بدنوّ أجلها وكادت نفسها تبلغ التراقي بدون

ان يعتريها اي مرض . وقد حق لتلك الوالدة الحزينة ان تموت غماً لان ابنها قد مات

ولما علمت منة بانحلال قوى حنة بادرت مع بدر التمام لتمريضها وبذلتا ما في وسعهما لتخفيف اسقامها حيث كانتا تعزيانها وتتحدثان معها عن شفيق . ثم قالت لها بدر التمام بصوت يجرح الفؤاد ستقولين له يا اماه باني لم ازل ثابتة على عهده ولا انفك عن حبه حتى آخر نسمة من حياتي . قالت هذا وهي تقبل حنة وعبراتها تغسل وجنتيها ...

وكانت بدر التمام صفراء المحيا تماثل بضعفها حنة التي كانت في حالة النزع وهي لم تزل نظيرها متشحة باثواب الحداد على شفيق

وعند دخول بطرس لقي بدر التمام وجدتها بقرب سرير والدته فأخذ يشجعهنّ بلطيف حديثه فوجدن بعباراته العذبة نوعاً من التعزية والسلوان وبعد مرور ثلاثة ايام عند الفجر باكراً نهضت حنة وجلست فوق سريرها ثم مدت ذراعيها نحو منة وبدر التمام وخاطبت ابنها قائلة

أُدنِ يا ولدي صورة المصلوب من شفتي فاني مائتة لا محالة

فقدم الكاهن الصورة لوالدته وقال اصعدي ايتها النفس المسيحيَّة الى السماء ... ثم جثا على ركبتيه منتحباً وادنى شفتيه من يدي المائتة وبللهما بالدموع . وفي صباح الغد احتفل بمشهد حنة ودُفنت الجثة في قبر شفيق . وبعد يومين خرج بطرس من منزله وعاد الى سابق منهجه وانفاق ما بقي له من خيرات الارض في سبيل اسعاف المساكين وراحتهم

وبينما كان بطرس يوماً سائراً في طريقه اذ سمع صوتاً يقول له

أتريد هذه الصدقة للفقراء ...

واذ طرق سماعه هذا الصوت ارتعشت اعضاء جسمه لانه عرف لهجة قاتل شفيق فتناول موسى ريالين واعطاها للكاهن الذي وقف مرتعشاً ولم يشأ لمسها... فكانت هذه المرة الثانية التي اضطر فيها ان يمس انامل القاتل الشقي ...

واذ صار بطرس على انفراد عزم ان يطرح الدراهم في الطريق لكنه تأنى وقال يجب حفظها لانها للفقراء والمساكين ...

الفصل الحادي عشر

حب فاسد

واصبحت بدر التمام وجدتها تكابدان الجوع الشديد لان الفتاة غدت لا تستطيع ايجاد واسطة لكي تبيع غزلها ... ولم تتمكن ان تستخدم في احدى البيوتات بحيث لم يتح لها ان تترك جدتها وصارت بعد وفاة خطيبها لا تعبأ براحة شخصها بل كرست حياتها لخدمة جدتها التي اوشكت ان تموت جوعاً عدا عن تعدد المصائب الشديدة

وفي مساء احد الايام بينما كانت بدر التمام خارجة من الكنيسة مسرعة الى البيت سمعت صوتاً فعرفته واعتراها الخوف اذ قال لها

اسعد الله مساءكِ يابدر التمام يامن تحاكين الزهرة كمالاً وجمالاً
فردت عليه السلام وهي تسرع الخطوات . فقال لها موسى

ان مشاهدتك يابدر التمام هي عندي اعز من كل عزيز واثمن من كل الكنوز . اما انا فلا يباح لي الدخول الى منزلكِ حيث لم تسبق العادة واما انتِ فلم تزالي في زهرة الصباء ويحق لكِ التمتع بالملذات والمسرات نظير سواكِ يامنية الفؤاد

— ان فؤادي لا تطيب له الملذات لانه يعيش مع الاموات

— هوّني عليكِ ياعزيزتي جُعلت فداكِ . أَلا تفكرين في امر زواجكِ قال هذا بصوتٍ متقطع

— كلاً والف كلاً . قالت هذا بكل ثبات

— لايجب ان تقيدي نفسكِ بهذا العزم لان ظروفاً جمة يمكنها ان تمنعكِ

— كنت عاهدت شفيقاً بالاقتران ولم ازل حافظة له ذاك العهد المقدس . قالت هذا بكل بساطة

— وهل عزمتِ ان ترفضي طلب الذين يسألونكِ الاقتران

— اني واثقة بان لا احد يود الاقتران بخطيبة شفيق الذي مات قتلاً

— انكِ لم تصيبي بظنكِ هذا حيث لا بد من وجود مَن يتجرأُ على ابداء عزمه . وذاك الرجل هو عبدكِ الجاثي على ركبتيهِ امامكِ . فاه بهذا وأَمسك يدي الفتاة بيديه وحدق فيها ببصرهِ ينتظر جوابها بقلبٍ واجف ومقلة ملأى بالدموع . فتنهدت الفتاة ورامت ان تتخلص منه وقالت

– أأنت تتقدم اليّ

– نعم · انا موسى بيدقوك الذي احبكِ منذ ثلاث سنوات

– استحلفك بالله ان لا تعيد هذا على مسمعي

– أريد ان اسمعكِ هذه العبارة يابدر التمام ويجب عليكِ فهمها فانا لا اود تعذيبكِ · وليكن معلوماً عندكِ بان ذكركِ لم يبرح قط ذاكرتي ... وصورتكِ ملازمة لي كالخيال فلا استطيع ان اقترن بسواكِ ... فلاجلكِ يابغية القلب لم تعلمي ماذا اقترفت ... آه ... والف آه ... يابدر التمام اتاني هواكم قبل ان اعرف الهوى * فصادف قلباً خالياً فتمكنا

فاحببتكِ عند ما نظرتكِ اول نظرة وسرى حبكِ في مفاصلي كسريان دمي في عروقي وتيمني هواكِ فانتِ انتِ زهرة ايامي واري ان الوجود وعدمه سيان بدونكِ ... وتوقف عن الكلام برهة لان الدموع كادت تخنقه وعاد فقال وان اكن لا اشابه شفيق جمالاً ورغماً عن كون الشيب قد وخط شعري ... فتأكدي ان حب شفيق لكِ لم يكن ليوازي مثقال ذرة مما احببتكِ · وبغيتي في هذه الدنيا هي ان تكوني نصيبي لنقطع مراحل الوجود معاً بالصفاء والهناء فعين الحياة يحلو اذا تضوّع برياكِ ويتم السعد اذا حزت على قربكِ ... اني ساضحي نفسي لاجلكِ يابدر التمام وسوف يتضح لكِ ذلك حينما ترين ان لا سيدة تماثلكِ في الغنى وستكونين الآمرة الناهية في منزلي حتى عليّ وذلك كله من اجل حبكِ

– لقد فهمت كلامك فاترك ذراعي · قالت هذا ببرودة

– وهل ترفضين ...

– نعم ارفض طلبك

– ولماذا

– لقد قلت لك اني لا ارغب الزواج ابداً

– وما هو المانع . ألعلكِ تودين حفظ عهد شفيق .

– لا يخامرنك ريب من هذا القبيل ... وهب اني لم أُعاهد شفيق فانا لا استطيع الاقتران بك ...

– انكِ تبغضينني اذاً . قال هذا بحدة وغضب

– كلا . انا لا اكره احداً . ويجب عليك ان تنظر الى حالتك فيظهر لك انه لا يليق ان تقترن بي

– اني شرير وشقي يابدر التمام ولكن أُعاهدكِ باصلاح سيرتي

– اني لم ازل حديثة السن ومع ذلك استطيع ان اكتشف مكنونات الفؤاد . اني اراك سائراً في طرق الغواية والضلال التي ولا شك ستؤدي بك الى عواقب وخيمة

– لقد اعترفت امامكِ بشقاوتي . فاتوسل اليكِ يابدر التمام ان تنشليني من هذه الوهدة ... وذلك باقامتكِ معي فتصلح سيرتي ... لقد علمتِ مزيد حبي لجمالكِ وهذا الحب سيذيب فؤادي . ولكي اغدو اهلاً لكِ سأبذل ما في الوسع وسأكون وديعاً عاقلاً فاضلاً مستقيماً . كما وانكِ تقدرين ان تفعلي المبرات وتوزعي الصدقات بدراهمي لان كافة

املاكي تصبح رهينة امركِ ... بدر التمام اني احبكِ كمجنون ليلى فارفقي بي ولا تستهزئي بهذا الحب ...

– لست مستهزئة به ولكني ارفضهُ ...

– ألا يوجد بقلبكِ شفقة

– لم اقل اني فاقدة الشفقة ... ولكني لا أُريد هذا الحب

– ولو مهما فعلتُ لا ترتضينني بعلاً

– كلاً يا موسى. لانني قلت لك واقول ايضاً اني لااريد الاقتران باحد عد موت المحبوب شفيق

– اجاب غاضباً بعد ان رفس الارض برجله اقول لك انهُ لا بُدَّ لي من اتمام ذلك... اني اراكِ مغتاظة جداً من اقراري بحبي لكِ فاحرصي اذاً ياذات التيه والدلال والحسن والجمال من الرجال الذين هم على شاكلتي فانهم يلاقون الف ذريعة للانتصار على فتاة نظيركِ ولا بدَّ لكِ من ان تأتي اليَّ يوماً وتطلبي مني الاقتران بكِ . اما الآن فلولا ظلام هذا الليل لرأيت عينيكِ تتقدان غضباً... ولا حاجة لي بعد بتأخيركِ حيث قد ابلغتكِ ما اضطررت لهُ فاحفظيه في ذاكرتكِ واعرفي اني املك ايضاً خمسمائة جنيه ومتى رامت حفيدة منه ان تجد خبزاً اكي تطعم جدتها فعليها الحضور الى منزلي . ثم ترك موسى ذراع الفتاة وسار في طريقه. وكانت بدر التمام ترتجف خوفاً وامتلأت عواطفها من الانزعاج الشديد فصارت

كريشة في مهب الريح طائرة * لا تستقر على حال من القلقِ

لانها خجلت من ان ترى نفسها موضوع حبّ ذاك الشقي الذي لا بد للحكم من اكتشاف جريمته بعد طول الايام

واذ دخلت الفتاة الى البيت ورأتها جدّتها صفراء اللون اكتأبت جدًا وسألتها عن سبب ذلك فاجابت بدر التمام

ان الهواء يا اماه عاصف جدًا وانا شاعرة ببرد شديد

– قالت منة اقتربي مني ياحبيبة الفؤاد لا بل هلمي الى ذراعيّ لكي ادفئك لان ليس لدينا ما نضرم به نارًا يا منية القلب ونور العين

فارتعشت بدر التمام وتذكرت كلام موسى الذي كان لم يزل يرن في أذنيها ثم صلت الامرأتان وطلبتا الغوث من العلى وفي صباح الغد ذهبت الفتاة الى احدى الجارات وطلبت حطبًا وقليلاً من الطعام لاجل سد رمقها

وكان بطرس يزور بدر التمام مرارًا ويتأثر شديدًا من اصفرار محياها الجميل والشدة العظيمة التي حلت بتينك الامرأتين

اما ما كان يزيد احزانه فهو عدم استطاعته مساعدتها في تخفيف ضنكها . وفي صباح احد الايام شاهد يوسف خارجًا من عندها لان بدر التمام قد نادته لكي يعقد مع جدتها شروط بيع البيت

فقالت منة ولكن ماذا يحل بنا بعدئذٍ يا ابنتي

– ان الله لا ينسى عبيده يا اماه ولا بد ان الوقت يستحيل الى احسن

تصبر ايها العبد اللبيبُ * لعلك بعد صبرك لا تخيبُ
وكل الحادثات اذا توالت * يكون وراءها فرج قريبُ

– ولكن الا تعلمين ياولدي ان هذا البيت مع الحقل هما ميراثك الوحيد

ان جل ثروتي وميراثي هو راحة جدتي وانقاذها من مخالب الجوع

وفي فصل الربيع لا بُد لي من ان اتعاطى عملاً ما ولو اضطرني الحال

للسكنى بعيداً من ههنا. فتنهدت منه تنهداً عميقاً وقالت اني اقسم لكِ

ياولدي باني اتمنى الموت اي نعم فهو احب وافضل لديَّ من ان اراك تحرمين

نفسكِ من هذا المأوى الوحيد لكِ . دعيني اموت بربكِ . لا تبيعي البيت

لئلا نُطرد منه عما قليل ونضطر للاقامة على قارعة الطريق كالمستعطيات

– ان نهار غد لم يخطر قط في بالي وتريني لا افتكر ان اهتم بمستقبلي

لان غاية ما تطلبه مني حياتي الآن هو تعزية شيخوختكِ . فاصفحي يا جدتي

وغضي الطرف عن كثرة الحاحي حيث اني لا ارى بداً من بيع البيت

– وهل اخبرتِ يوسف بذلك

– نعم

– اواه اني لم اعد أحسب شيئاً لا بل اصبحت حملاً ثقيلاً . آه ياحبيبتي

يا بدر التمام ان الله سيباركك في مستقبلكِ

– اني مائتة لا محالة في ابان الصباء غضاضة الشباب يا اماه ... قالت

هذا بعد ان القت بنفسها بين ذراعي جدتها

وفي الغد تمت عقود البيع ودفع يوسف الثمن حسبما اقتضته حالة تلك

السنة الصارمة فاطمأن خاطر الفتاة واخذت تعمل الغزل بجد ونشاط وبعد

مضي خمسة عشر يوماً سارت لتبيع ما غزلته فلم يرضَ احد مشترى غزلها

فعادت بخفي حنين وقد يئست نفسها وسئمت من العمل بتلك المهنة. وقصدت الدخول في خدمة احدي العائلات وجدتها لم تدعها ان تفعل ذلك . وكان الجوع يزداد يوماً فيوماً والفقراء ينتظرون بفروغ صبر عودة فصل الربيع معللين النفس بحلول الفرج العظيم

الفصل الثاني عشر

بدر التمام وجدتها بدون مأوى

وفي احد الايام كانت بدر التمام وجدتها جالستين في المنزل والجدة تقرأ كتاباً والفتاة تشتغل باصلاح ثوبها . وكانت منة ترفع الحاظها من وقت الى آخر لتنظر محيا بدر التمام الزائد الاصفرار فترتعش وتضم يديها المرتجفتين ناظرة الى السماء وهي تتلو صلوات خشوعيةً حارة . وفي اثناء سكوتهما كانت افكارهما واحزانهما متبادلة وكل منهما تود انقاذ الاخرى وليس باليد حيلة... ومع ذلك فقد كان الطقس جميلاً والجو رائقاً صافياً ونور الشمس ساطعاً ينشر اشعته الذهبيةً على البراري والمروج الخضراء . والطيور تغرد بالحانها المطربة وخرير المياه وحفيف الاشجار وكلما تزدان به الطبيعة من الجمال والجلال لم يكن الا ليزيد هموم منة ويضاعف اشجان بدر التمام. لان الطيور تعرف ان تجد ما تعيش به في الحقول والمروج وتقتات

من الاشجار والازهار واما تانك التعيستان فقد انفقتا ثمن البيت وآل الحال مع بدر التمام الى الاستعطاء

اي نعم لقد عم بلاؤهما وعظم مصابهما ولم تعودا تنتظران شيئاً في هذه الحياة الا الموت

وبينما هما غارقتان في بحر تأملاتهما اذ طرق الباب بغتة ففتحت بدر التمام وهي بخائرة القوى واذا بيوسف دخل عليهما فعند ما رأياه اصطكت ركبتاهما ثم قالت لهمنة بصوت ضعيف · العلك قادم لاجل البيت · فرد عليها بالايجاب وقد يظهر على محياه الخجل والاكتئاب لانه جاء ليتمم خراب بيت تينك المسكنتين الوديعتين الصابرتين على بلواهما · اما بدر التمام فلما شاهدته داخلاً امسكت يدي جدتها وقبلتهما ونظرت منة الى ما حولها كأنهما تودع ذلك المنزل · ثم توكأت على ذراع بدر التمام وخرجت من الغرفة ومعها رزمة ثياب حقيرة فحملتها الفتاة وذهبتا

وكانت احدى العيون تنظر اليهما عن بعد وتراقب حركاتهما لترى انقلاب هيئة بدر التمام واضطرابها وامارات الارتباك والانزعاج البادية عليها واذ صارتا بعيدتين عن البيت مسافة ليست قليلة سأل الرجل يوسف قائلاً وماذا قالتا عند خروجهما

فاجابه يوسف لم تنطقا ببنت شفة

فاضطرب موسى واخذ يفكر لعله يجد واسطة بها يقدر ان ينال مآربه السيئة · ثم اطمأن قليلاً لعلمه انهما اصبحتا بدون مسعف ولا مأوى

وتاهت التعيستان في البراري والقفار وعند المساء دخلتا المقبرة وكانت الليلة مقمرة جميلة فجلستا معاً فوق احد القبور وقضتا الليل بكماله قرب الموتى ولما بزغ النهار تذكرتا شدة مصابهما وكانت منة تقشعر من شدة البرد وبدر التمام خائرة القوى من الجوع ولا تستطيع الاقرار عن حالتها الا ان جدتها توسمت الضعف في ملامحها فذاب فؤادها هماً وتفطرت احشاؤُها حزناً وغماً فجلست واسندت رأسها بيديها وشرعت تندب سوء حظها قائلة

ولو ان ما بي بالجبال لهدّمت * وبالنار اطفاها وبالريح لم تجرِ

ومن قال ان الدهر فيه حلاوة * فلا بد من يومٍ امرَّ من المرِ

(تحيرت والرحمن لا شك في امري * وحلت بي الاحزان من حيث لا ادري)

لقد عمت بلوانا وعظم مصابنا بحيث لا يوجد من يماثلنا بالتعاسة والبؤس والشقاء... اواه لقد مات زوجي وفقدت اولادي وبعت املاكي كلها لكي احصل قليلاً من القوت ولكيلا يعضنا ناب الجوع. فخاب املنا وعضنا الجوع بنابه وسيميتنا ما عدا اننا اصبحنا بدون مأوى ولا كساء... اواه سأموت فوق ضريح الموتي ولا اجد من يأتي لمعونتي وخلاصي. آه ياربي والهي لماذا لا تنظر الينا بعين رحمتك او لماذا لا تظهر فينا معجزاتك

وكانت بدر التمام تسمع تلك العبارات المتقطعة بالزفرات وهي مكتوفة الذراعين وقد نشفت الدموع من عينيها وقلبها يخفق في صدرها ثم طوقت جدتها بذراعيها وقالت

كم احبكِ يا اماه فاعلمي اني باقية لاسعافكِ علي هذه الحياة فلا تيأسي

لان دوام الحال من المحال فثقي بالرحمة الالهية ... اني احبكِ واروم نجاتك من هذا الضيق ... اي نعم ان لم اشبعكِ في ايام الجوع فلا بد ان احزانك تصرخ الى الله وتطلب الانتقام مني حيث يقتضي ان تمضي بقية ايامكِ بسلام

فقالت جدتها لقد قلتِ في اثناء حديثكِ ياحبيبتي بدر التمام انكِ قادرة على نجاتي من مخالب الجوع . فانا الآن جائعة جداً اذهبي ياولدي للاستعطاء ... اطلبي الحسنة ...

اسرعي في ذلك لاني جائعة جداً ... قلت لك ِ ياولدي العزيزة ان المتقدمين في العمر والعاجزين نظيري لا يمكنهم الصبر على الجوع طويلاً

— هل انتِ واثقة بي يا اماه . قالت هذا بعد ان جثت على ركبتيها

— نعم يامنية فوءادي

— وهل تعاهدينني بعدم الملام ولو مهما فعلت ...

ثم نهضت وعانقت جدتها وقالت . انتظري هنا وكوني مطمئنة ريثما اعود

فسألتها جدتها وهي في غاية الاندهاش . والى اين تذهبين

فلم تجب بدر التمام على هذا السوءال بل سارت في طريقها وعزمت على إتمام ما صممت عليه حيث كانت يكفيها ان تقول كلمة واحدة فتنقذ نفسها وجدتها من مخالب الجوع واخذت تجد السير حتى دخلت منزل يوسف وقلت له أُريد محادثة موسى قليلاً فقل له ان يأْتي مساء هذا اليوم الى المقبرة فيلاقيني قرب قبر شفيق والآن فاطلب منك ان تعطيني كسرة من الخبز لكي اسكن بها جوع جدتي

فأَخذ يوسف رغيفاً من الشعير وناوله الى بدر التمام بدون ان يلفظ اي كلمة وعادت الفتاة الى جدتها وعند وصولها اليها قالت لها ارجوكِ يا اماه ان تذهبي وتقضي هذه الليلة في منزل الاب بطرس بحيث لا يصح ابداً ان يطول امد هذه المحنة التي اصابتنا وامكثي عنده الى ان اجد وسيلة بها انقذكِ من مخالب الجوع فهلمي معي لنذهب من هذه المقبرة لانها تخيفني جداً ...

وانهضت بدر التمام جدتها وسارتا معاً حتى دخلتا بيت الكاهن واقامتا

فيه كل ذاك النهار تشتغلان بمداواة المرضى وتعزية المساكين

وفي المساء خرجت الفتاة وذهبت الى حيث ضربت موعد لقائها وعند مارآها موسى قال لها من صدر ضيق العلكِ قد تذكرتِ الآن يابدر التمام...

فقالت هلمَّ الى قرب قبر شفيق لكي احدثك لاني لا اخشى من ان ظله المبارك يسمعني. فتبعها ذاك الشقي مهرولاً حتى وصلت قرب الرمس فوقفت خائرة القوى وقالت . اعلم ياموسي ان شفيقاً قد خطبني وانا وهبته روحي وفوءادي وليس لي الآن سوى حياتي . ويمكنني معاهدتك بالطاعة والامانة وقد طلبت مني يوماً ان اقترن بك وكنت اذ ذاك غير مفتكرة الا بنفسي. واما الآن وقد حلت بنا البلايا العديدة واصبحنا بلا مأوى وكادت جدتي تموت جوعاً فاود ان اضحي نفسي لنجاتها . انت غني ياموسى وقد وعدتني بانك لا تحرم جدتي شيئاً متى صرت عروساً لك. فهل تعاهدني على ذلك في هذا المكان ...

فاطرق موسى مرتعشاً ولم يقدر ان ينطق بكلمة حتى انه خشي وجزع من ان يخرج شفيق من رمسه ويوبخه على اعماله ...

ثم عادت بدر التمام الى عبارتها الاخيرة وقالت . هل تنقذ جدتي من مخالب الموت بالجوع

فاجاب موسى متلعثماً . نعم ...

— اذن ها انا طالبة المغفرة من شفيق لعدم ايفائي نذر الامانة نحوه... ولاني عزمت على الاقتران بك ياموسى... اعطني يدك علامة لهذا العهد ...

لا بل فليكن ذلك في الكنيسة امام الكاهن ...

— واين تريدين ان يحتفل بصلاة الاكليل

— في الكنيسة بحضرة الاب بطرس · وكان رسم شفيق يتخيل امامها بعذوبة ومرارة بحيث لم تعد تقدر ان تتفوه بشيء ...

— فليكن حسب امرك

— وجدتي ألا نقيم معنا · اواه ياموسى ان شئت فانا اطلب منك ان نسكن بيت والدي الذي اشتراه يوسف ...

— ان البيت الذي تشيرين اليه لا يعجبني واما بيتي فقد بُني حديثاً وارحب · وبناء على ذلك فسأزيد على زخرفته الامتعة النفيسة والمفروشات الجميلة لتكوني اغنى سيدة في ارلاندا · لان موسى يملك المبالغ العظيمة من النقود وما عدا ذلك فهو يحبك يابدر التمام· لا بل هو قتيل هواكِ · ورغماً عن عدم ميلكِ لي فانا سأبذل روحي في سبيل رضاكِ

— انا لا اكرهك ياموسى

— وهل احببتِ شفيقاً اكثر مني

— ان مثل هذه العواطف لا يمكن مشابهتها لان شفيقاً خطبني في سن الحداثة ... واما ...

— واما اقترانكِ بي فليس الا لاجل سعادة جدتكِ

— اصبت

— وهلاّ نظرتِ اليّ ابداً وعاملتني كزوج حسب قلبكِ

— ان هذا مناطٌ بك فان شئت اصلح سيرتك

— آه يابدر التمام ان حياتي تجددت الآن

— وحياتي قد انتهت · قالت ذلك همساً

— وهل تجرأين على اذاعة خبر اقتراننا في هذا المساء

— اذا انت اردت

— ليس امام جدتكِ فقط بل امام الكاهن بطرس ايضاً

— يجب عليَّ ان أُخبره في هذه الليلة

— دعيني ارافقكِ يابدر التمام فاني اريد ان احادثه

جثت الفتاة فوق ضريح شفيق وصلت برهة ثم نهضت واشارت الى موسى بان يتبعها ومشى الاثنان صامتين وكانت بدر التمام تسير وركبتاها ترتجفان واما موسى فكان ضيق الصدر جداً

واذ دخلت الفتاة المنزل كان الكاهن منحنياً فوق سرير احد المرضى يعزيه فلم ينتبه لدخول موسى مع بدر التمام · وجثت الفتاة امام جدتها وقالت بصوت تقطعه جروح فؤادها · سوف تشبعين يا اماه حتى اننا لا نعود نحتاج الى كسرة من الخبز

فطرقت هذه الكلمات أُذني بطرس فدنا منها وقال · وماذا حصل من الخير يا ابنتي

— لقد عزمت على الاقتران ···

— وهل نسيتِ عهود شفيق يابدر التمام · قال هذا وهو يرتجف حزناً

فتقدم موسى وقال وستقترن بي

فقال بطرس· وهل تمعنـ ··· تمعنتِ ··· بعزمكِ ··· قبـ ··· قبل اقترا ··· اقترانكِ ··· بهذا الر ··· الرجل ···

فاجابت بدر التمام ·نعم· وقد قيل لي عنه انه بخيل وقاسي القلب ··· ولكنه يحبني ···

فهمس بطرس آه ما اشد تعاستكِ

فقال موسى بجرأةٍ · لم تنطق الا بالحق ··· فانا احبها ··· ولاجل حبها تراني اقتحم الاخطار والاهوال واهدم الحواجز الفاصلة بيني وبينها

فصاح الكاهن · انكِ لا تقترنين بموسى يابدر التمام ما دامت فيَّ الحياة

فقال موسى ·وما المانع من ذلك··· انا اعلم باني لست كامل الاخلاق ولكنها استصلح من سيرتي ما فسد وقد عاهدتها على تسليم جميع اموري وشؤوني الروحيَّة والجسديَّة

— ان هذا الاقتران يستحيل إِتمامه فارجوك يابدر التمام واستحلفكِ تعقديه بقولكِ

— ان بدر التمام قد حلفت لي الآن ··· وبحريَّة الضمير فلا يمكنك ان تمانع هذا الاقتران لا بل احذرك من ان تذكر الاسباب المانعة · قال هذا وصوب شرر عينيه المتقدتين الى وجه بطرس الذي خفض رأسه لان سر الاعتراف اقفل عليه الحديث

ثم نهضت منة وقالت ان هذا الاقتران مرفوض ولا اسلم به · فانت

يابدر التمام هل تستطيعين ان تعطي قلبكِ الى موسى بعد ان كرسته لحب شفيق · اواه لو تحققت ظنوني بكِ لتحول حنوي عنكِ · ثم رفعت منة يدها وهي تروم ان تلعن بدر التمام فمسكها بطرس وقال · لا تلعني هذا الملاك الطاهر

نخافت بدر التمام من توبيخ جدتها وسقطت على ركبتيها خائرة القوى وقد اخفت وجهها في حضن جدتها · وكان موسى هادئاً مستكناً في وسط تلك العائلة الحزينة فسأله الكاهن · وماذا تريد الآن

فاجابه اني انتظر بدر التمام لتضع يدها في يدي علامة الخطبة

فنهضت بدر التمام وارادت ان تمد اناملها المرتجفة فلم يسمح لها بطرس ان تدنسها بيد ذلك الشقي بل قال بلهجة تؤثر في النفس · انها قد عاهدتك ياموسى ولا حاجة للخطبة · والله يرى اعماق فؤادها ولا بد له ان ينعم على الابرار ويعاقب الخطاة فاذهب الآن وكن مطمئناً

ولما خرج ذلك المجرم سقط بطرس على ركبتيه واخذ يصلي بحرارة

الفصل الثالث عشر

السعي الاخير

ولما سكن اضطراب بطرس قليلاً قال أُريد ان احدثكِ يابدر التمام فهزت منه رأسها علامة الرضى والقبول ونهضت الى داخل الغرفة واقتربت الفتاة الى الكاهن الذي قال لها

لا يجب ان الومكِ قط ايتها الابنة العزيزة ولا يحق لي ان انسب اليكِ حب موسى لاني اراكِ تضحين نفسكِ لاجل حياة جدتكِ

فرفعت بدر التمام رأسها ونظرت الى الكاهن بعينيها المغرورقتين بالدموع وقالت · أليسَ من الواجب عليَّ ياسيدي ان ابذل ما في الوسع والجهد لاجل خدمتها وراحتها · ففي مساء ايام العام الماضي بينما كنت عائدة من زيارة ضريح شفيق ··· شفيق الحبيب ··· شفيق الذي سيحرم عليَّ بعد قليل ذكر اسمه ··· اذا بموسى دنا مني واوقفني فاصغيت اليه بخوف واشمئزاز اذ اقر لي انه احبني من زمن طويل وسألني عن ميلي للاقتران به فرفضت غاضبة · فتجرأ وقال لي ان لا بد يوماً ما من العدول عن هذا العزم فلم اعبأ بقولهِ وقتئذٍ الى ان سمح الله بخرابنا وغدونا بدون مأوى فتذكرت بالامس اني قادرة على نجاة جدتي من مخالب الجوع وهكذا ضحيت نفسي كما تراني · افلا يمكنك انقاذي ياسيدي

فاجابها الاب بطرس كلاَّ يا ابنتي اني لا استطيع ان آتي امرًا

فتظلمت بدر التمام في محيا بطرس وبكت نادبة شفيقًا وهي تقول ياشقيق القلب ياعزيز الروح·· اشفق عليَّ وانقذني اليوم ياشفيق··· لاني اصبحت ولا من يريدني على وجه الارض سوى موسى

قال الكاهن نعم يا ابنتي فها قد صرتِ اليوم بدون ملجإٍ ولا معين ولا ناصر لكِ حتى ان جدتكِ ايضاً تجهل سبب تضحيتكِ نفسكِ واما انا فسأُضطر الى مباركة قرانكِ هذا فاذهبي وصلي بحرارة قلب ولا بد من ان الله يغيثكِ اكراماً لفضائلك

ثم صعد بطرس الى غرفته للرقاد واقامت الفتاة مع جدتها لخدمة المرضى وفي صباح اليوم الثاني الذي كان يوم سبت رأى الكاهن رجلاً ينتظره امام منبر الاعتراف فدخل وللحال جثا موسى على ركبتيه فقال بطرس

قد يتاح لي ان اذكر لك هنا ما جئت واقررت به منذ عامين · وانت عالم اني لم اشكوك لدى الحكام ليعاقبوك على مــا جنته يداك ولكني لم ازل ادعو الى الله ان يحل عقدة هذا المشكل بالانصاف كما ارجو ان يمنحك الرب ندامة تامة

فاجاب موسى انك رسمت لي قانونًا وقمت بايفائه بحيث أُقيم واقفًا في كل ليلة ساعة كاملة مدة شهر من الزمان في المكان الذي به تربصت وقتلت

— ان هذا القصاص غير كافٍ بل يلزم ان تصلح سيرتك

— اني على عزم اكيد وطيد بان لا اقتل احداً قط · وانا لم اقتل

شفيقاً حباً بسفك الدماء · بل حباً بالوصول الى بدر التمام · ولم يكن سبب قتلي اخاك الا خوفي من اقترانه بمن احببت · فلو تنازل عن عزمه هذا لبقي حياً

— انت غير نادم على ما فعلت · والتائب الحقيقي يريد او بالاحرى لايحق له التمتع بثمرة جنايته ولو كنت سارقاً لقضيت عليك برد ما سرقت واما الآن فلا يسعني ان اسمح لك بخداع اطهر المخلوقات · فاعلم اذاً ياقاتل شفيق انك لا تقدر على الاقتران بخطيبته

— لقد قلت لك اني نادم عما اقترفت فماذا تريد مني · انت تخشى على بدر التمام ويخال لك انها ستشقى بقرانها هذا فانزع منك هذا الفكر وثق بي وتحقق محبتي وتعلقي بها · اما ممانعتك هذا الزواج فلا حق لك فيه · واعطني ورقة الاعتراف لان ذنبي لا يحرمني من الاقتران · بحيث يجب عليك بعد خروجك من هذا المنبر ان تنسى هذه الحقيقة الهائلة

— اواه · اواه · ياموسى · ان الله سيعاقبك على هذا الظلم · وانا سأذهب بعد صمتي عن ذنبك العظيم ❊ شهيد السر ❊ انما تذكر كلامي واعلم انك انت اليوم مجرمٌ نحو بدر التمام التي ستكون هي سبب عقابك · فحينما يطرق ذاكرتي ان يدك المخضبة بدم اخي شفيق التعيس ستمس يد هذه الفتاة العفيفة الطاهرة اشعر باضطراب شديد ورعشة عظيمة واتصور امام عيني ان غضب الله منقض على رأسك كالصاعقة

— اني اراك لاتذكر لي سوى الغضب الالهي فلماذا لاترأف بي

– لانك تقبل الى منبر الاعتراف بكل جرأة ولا اثر للندامة في قلبك . بل انت تطلب ارث شقيق الذي هو بدر التمام . وبدر التمام عندي اعز من اخت شقيقة . انت تعذب فيَّ النفس والجسد . ولو عرفت بدر التمام الحقيقة لاختارت الموت بين يدي جدتها الف مرة . آه ما العمل سر الاعتراف يرغمني ويقضي عليَّ بالصمت وهذا الحمل الثقيل يضنك فؤادي ويذيب احشائي . آه لقد سفكت دم اخي الزكي ولم تذرف دمعة واحدة قط . فبوجهك ياموسى تقفل ابواب السماوات . ولا يسعني ان أُسمعك سوى التهديدات الهائلة الى ان اراك ندمت ندامة تامة

– وماذا يجب ان افعل للحصول عليها

– أَعدل عن الاقتران ببدر التمام

– لا اتنازل عن قصدي ابداً

– وهل تفضل الغضب الالهي على ...

– لقد ارتكبت اثماً فظيعاً وكانت بدر التمام ثمنه . والآن لا اطلب منك سوى ورقة الاعتراف فان لم ترضَ بذلك فثروتي واسعة واقدر على القيام بجميع النفقات

وخرج موسى من منبر الاعتراف عالي الرأس شامخ الانف واما بطرس فلبث منحنياً تحت نير حمله الثقيل

وفي اثناء ذلك سار يوسف الى منة واخبرها ان تعود الى بيتها بدون اهتمام لدفع الاجرة لان موسى اشتراه . ففهمت منة حينئذٍ عزم بدر التمام

على الاقتران بموسى . ثم نادت الفتاة وضمتها الى صدرها وعانقتها طويلاً طالبة العفو عن جهلها سبب معرفة جميلها . وقد سرت تلك العجوز بهذا القران لما عانته في المدة الاخيرة من الشقاء والهوان وفرحت جداً بوجود موسى صهراً لها لانهُ كان غنياً جداً وقالت لبدر التمام

انكِ فاضلة وعاقلة يابدر التمام ولذا يمكنكِ اصلاح سيرة موسى باعطائهِ انموذجاً صالحاً منكِ . فلم تنبس الفتاة بكلمة ولم تكن تشاء ان تُمدح على عملها هذا لانها قدمت نفسها ضحيةً جدتها

وكان البيت الذي اشتراه موسى لم يزل على حالته فدخلت اليه منة بفرح لا يوصف ولقيت الفتاة بسعادة جدتها نوعاً من التعزية . فسألتها جدتها . هل افتكرتِ بملابس العرس

فاجابتها الفتاة لقد اخبرت موسى باني لا استطيع ان انسى شفيقاً وهكذا فعليه فقط ان يهتم بمعدات الزفاف

وبعد قليل دخل يوسف ومعه رزمة من الاقمشة النفيسة وقال لقد كلفت لاحضار ملابس وهدايا الزفاف ايتها الآنسة بدر التمام فان موسى يعرف ان القيام بكل الامور هو من الواجب عليه ولا سيما فان غناه سيحقق لكِ ان زفافكِ سيكون سعيداً لان املاكه واسعة وثروتهُ وافرة وفي كل هذا ما يستر سوء اخلاقه وتقدمه في السن . فخذي هذه الاقمشة الحريرية التي انتقاها لكِ وهذا الصليب الذهبي والحلي الثمينة مع هذا الكيس المملوء ذهباً

فاجابت قدم له شكري يا يوسف وقُل لهُ اني سأَلبس كلما ارسلهُ لي

فقال اني استودعكِ الله وسأهنئه على هذا الحظ الذي ناله بقرانكِ ثم خرج متوارياً فأخذت منة الرزمة وفتحتها وطفقت تتأمل بجمال تلك الاقمشة النفيسة والجواهر الكريمة ومن ثم تركت بدر التمام دولاب غزلها وشرعت في تفصيل ملابس الزفاف واما منة فكانت مهتمة بتجهيز الاطعمة التي احضرها يوسف منذ العشية . وبينما بدر التمام مشتغلة بالخياطة وعيناها تذرفان دموعاً وقلبها يقطر دماً ويتفطر حزناً ولما لبست ذلك الثوب الحريري لكي تقيسه شعرت بانحطاط كلي وخارت قواها اذ تذكرت القسم الذي اقسمته وهو انها تلبس الحداد على شفيق كل حياتها . ثم تنهدت طويلاً وأنت عميقاً واذ شاهدت سرور جدتها الفائق الوصف تشجعت نوعاً . وفي تلك الليلة نامت منة بهناء وصفاء بال واما بدر التمام فلم تذق طعم الوسن تلك الليلة بسبب هواجسها الشديدة

الفصل الرابع عشر

من يحفر حفرة لاخيه يسقط فيها

او على الباغي تدور الدوائر

وفي تلك الاثناء ذهب موسى في احدى الليالي الى الحانة كعادته واكثر من شرب المسكر مع رفيقيه ولما كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً خرج قاصداً منزله وهو شارد العقل تائه الفكر ثقيل اللسان متعثر الخطوات مضطرب الاعضاء . وفيما هو سائر خائفاً من مقابلة الكاهن وهو على تلك الحالة واذا به سمع وقع خطوات مسرعة اليه فحول رأسه ونظر الكاهن على بعدٍ يسير منه فحياه وقال من اين آتٍ يا أبي

فاجابه الاب بطرس من منزل احدى العائلات التي سعيت في خرابها واما انا فاعرف من اين انت آتٍ وذلك لما ارى في هيئتك من ملامح السكر

—لقد اصبت بقولك حيث اني خارج الآن من الحانة التي شربت فيها نخب اصحابي وبدر التمام. ومن ثم فقد ودعت المسكر هذه الليلة توديعاً اخيراً وذلك لعزمي على الاقتران غداً ببدر التمام ولكي اجعلها سعيدة طول ايام حياتها وثقتي فيك بانك لا تفشي السر قط بل تحفظه كما عرفته فقاطع الكاهن كلامه قائلاً

— احترس ياموسى مما تفوه به واعلم باني ههنا وليس في منبر الاعتراف بل انا الآن عابر طريق فاحرص من ان تتلبس بكلمة واحدة تلمح بها الى سر حياتك

— انا اعرفك ايها الاب بطرس ولذا احترمك بحق شرفي فلا تقطع كلامي . وثقتي فيك عظيمة ولولا ... لكنت منعتني عن الاقتران ببدر التمام بكلمة واحدة . بدر التمام الجميلة منية فؤادي . وبالكلمة عينها تقدر ان تسلمني للشقاء ...

فامسك الكاهن ذراع موسى قائلاً اصمت ولا تفتح فاك بل اشفق على نفسك بحيث صار يباح لي الآن ان اشكوك لو تفوهت فاراً فبحالك ولا...

— انك محب وصادق ولذا عزمت على اتخاذك صديقاً لي

— معاذ الله ان اكون صديقاً لك . قال الكاهن هذا وهو يرتعش

— ومع ذلك فحبي لك شديد وفي غد تصبح بدر التمام قرينة لي وتجعلني انسى التذكار . تذكار الشؤم الذي يخيفني وها انا ارى اشباحاً تزعجني وتلعنني . انظر امامي جراحات مخضبة بالدماء . فالاشجار العالية تروعني . وهناك . هناك . ألا تعاين شيئاً

فتذكر بطرس المكان الذي وضع فيه جثة اخيه شفيق المخضبة بالدم ثم وقف موسى وقبض على ذراع بطرس ومد يده ضارباً الارض برجليه وقائلاً . نعم . نعم . فهناك ...

فصاح الكاهن وقال ولكن اذكر اني شقيق شفيق

فقال موسى شفيق . شفيق . فهناك سفكت دمه . . .

ولما طرقت هذه العبارة أُذني بطرس تغيرت هيئته وحل وثاقه وقيد به ذراعي موسى وقال له لقد سمح الله ان تقر بجريمتك في جهة ارتكابها . وقد حرضتك واعلمتك بان الكاهن لا وجود له ههنا وانما اخو شفيق يطلب الانتقام . ثم شد وثاقه وسار به الى دار المحكمة فمشى الشقي خاضعاً بدون ان يفوه بكلمة . ولما دخل بطرس الساحة رآه احد الخدام فبادر واعلم سيده وبعد هنيهة حضر القاضي فقال له بطرس

اعلم ياسيدي ان هذا الجاني اقر معترفاً بجنايته في الحقل الذي وجدت فيه جثة اخي . ولست ههنا سوى شقيقٍ مجروح العواطف وابناً ماتت والدته من الاحزان واليأس

فاجابه القاضي كن مطمئناً ياحضرة الاب فانا أُدرك احزانك لانك اهلٌ لكل تبجيل واحترام . فياموسى أَتتذكر ما قاله الكاهن

فاجاب موسى نعم اقررت واقر الآن بجريمتي . ولا اعلم ما الذي حملني على الاقرار بها بقرب الحقل . ولا ادري ما هي هذه القوة العجيبة التي دفعتني الى هذا الاقرار

فقال الكاهن انك اعترفت بجريمتك امام الله بواسطة سر الاعتراف . وقد حرضتك ان لا تذكر شيئاً هذه الليلة فلم تعرني أُذناً مصغية

فقال القاضي ان شهامتك يا حضرة الاب تفوق فراسة اعظم الابطال فقد اتممت واجباتك الى النهاية والآن يجب علينا ان نفي العدالة حقها .

فسقط موسى على مقعد هناك خائر القوى ولما جاءت الحراس لتقوده الى السجن سار طائعاً ومد يديه لتكبل بالحديد مختاراً

واما الكاهن فذهب الى الكنيسة توّاً واحيى الليل كله في الصلا لاجل خلاص نفس المجرم

وفي صباح الغد شاع خبر جريمة موسى وان الحكومة قبضت عليه في كل انحاء البلدة وجاءت احدى جارات منة واعلمتها بالحادثة ولما تحقق بدر التمام ما جرى اخذت الثوب الحريري الذي خاطته وطرحته في الن قائلة ان عين الله قد لحظتني لا بل سهرت عليّ بانقاذها اياي من بين يد هذا الوحش الظالم

ومضى على ذلك بضعة ايام كان لا حديث للجمهور فيها الا عن القصاص الذي أُعد لموسى وهم يمدحون شهامة بطرس وسيرة بدر التمام الحسن

واما الشقي فقد زُج في احد السجون ريثما تتم محاكمته وينال جزاء جنته يداه وقبل بلوغ اليوم الذي عُين لإعدامه التمس رخصة يومين يستعد للموت فذاع الخبر في المدينة وفي صباح اليوم المشؤوم غصت الطر والشوارع بالمتفرجين

ولما أُخرج قاتل شفيق من حبسه كان اسود الوجه مضطرب الاعضا ينظر الى الجمهور بعينين شاردتين واذلمح الكاهن قهقه ضاحكاً وقال انك حضرت الى هنا لتنظر موتي

فاجابه كلاّ وانما جئت لكي أُساعدك على الموت واحدثك عن الله

– اني هالك لا محالة ... لقد قتلت اخاك وتراني الآن مستعداً للموت

فمسكه بطرس بيده وقال . ولسوء الحظ انت اخ لي بالايمان ... ثم نحى الجمهور عنهما واختلى الاثنان برهة بحسب ماتقتضيه حالة الساعة الاخيرة وقال موسى اني نادم عما اقترفته ولست اهلاً لاقل رحمة

فاجابه الكاهن تُب عن خطاياك لتنال المغفرة

فخر موسى على ركبتيه لدى بطرس الذي قال له

لقد اقترفت اعظم الآثام يا موسى ودم البار يطلب العدل من الله فاطلب العفو من ربك فهو اله الرحمة والغفران .

–اني طالب المغفرة من الله ومنك

– فابكِ يا موسى واقرع صدرك لان دمعة واحدة مع دقيقة توبة تكفي لاجل خلاص نفسك

– وبدر التمام . قال ذلك متنهداً

– ان بدر التمام ستصلي لاجل راحة نفسك ...

حينئذٍ مدّ التائب يده الى الكاهن فاحس ان قساوة قلبه قد ذابت كما يذوب الجليد في اشعة الشمس المحرقة او كما يذوب الشمع في النار ... ثم ضرب الارض بجبهته وقرع صدره مراراً طالباً العفو من الله وخادمه وقال

استغفرُ الله من ذنوبٍ * افرطتُ فيهنّ واعتديتُ
كم خضتُ بحر الضلال جهلاً * ورحتُ في الغي واغتديتُ
وكم اطعتُ الهوى اغترارا * واختلتُ واغتلتُ وافتريتُ

وكم خلعتُ العذار ركضاً * الى المعاصي ومــا ونيتُ
وكم تناهيتُ في التخطي * الى الخطايـا وما انتهيتُ
فليتني كنتُ قبل هذا * نسياً ولم اجنِ ما جنيتُ
فالموتُ للمجرمين خيرٌ * من المساعي التي سعيتُ
ياربِّ عفواً فانتَ اهلٌ * للعفو عني وان عصيتُ

فغفر له الكاهن وعزّاهُ بكلماتٍ منعشة والدموع ملء عينيهِ

ثم قبل موسى الارض ثانياً وثالثاً وتمرّغ في التراب ولما تصالح مع الله والناس طلب شاهدين لحرر وصيته وظهرت عليه بعد ذلك امارات الراحة والسكون وقال بصوتٍ ثابت . اني مستعدٌ للموت ...

فمدّ لهُ الكاهن بطرس ذراعهُ ليصافحهُ فقال . لقد كنتُ قبلئذٍ خائفاً من الموت واما الآن فتراني انقدم اليه براحة وطمأنينة ... فتأثر الحضور من انقلاب ذلك المشهد وتعجب الجميع من شهامة الكاهن بطرس ... واذ بلغ الحراس بموسى المحل المعد لتعليقه حوّل رأسه وحدّق بعينيه المغرورقتين بالدموع في ذلك الجمع الغفير وقال وهو ثابت الجاش . اني طالب العفو من جميعكم وجثا على ركبتيه امام الكاهن المرافق لهُ ... فخرّ الجمع ساجدين متأثرين شفقةً وحناناً فرفع الكاهن بطرس يدهُ وطلب بركة العلي فوق رأس التائب ... ثم صعد موسى سلم المشنقة وأُعطيت الاوامر فنفذ حكم العدل . وأخذ بطرس الجثة واعتنى بتكفينها ودفنها

ليعلم القاريء ان هذه الرواية تاريخيَّة وقد حدثت في ارلاندا الا ان
اسماء الاشخاص قد نُقلت من الانكليزيَّة الى العربية لاجل الطلاوة

تنبيه * الامل من القارىء الكريم ان يعتبر الكلام في صفحة ٨٤
وصفحة ٨٥ تابعاً بعضه بعضاً

رواية

الغادة الانكليزية

معرَّبة عن الانكليزية

بقلم الآنسة

« لبيبه ماضي »

طبعت بمطبعة المعارف باول شارع الفجالة . بمصر لنجيب متري

(سنة ١٨٩٥)

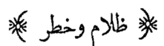
سيداتي

اسمحنَ لي ان انقدّم اليكنّ بغادتي هذه الانكليزية موشّحة بحلة عربية ترفل بها بينكنّ غير مبالية باحتقار وامتهان · ليس لانهـا تدعي العصمة فان الكمال للواحد المنّان · بل طمعاً منها بحلمكنّ وهذا مما لا يختلف فيه اثنان · كيف لا وحاكمها الجنس اللطيف السامي المقام أَفتخشى عذلاً بعد ذلك او ملاماً فان ترمقنها بعين الانتقاد اكُنْ لكنّ شاكرة وان تعذرنَ قصوري فاني به عالمة ·

لبيبه ماضي



الفصل الاول



قال بطل الرواية · اني حرصت على تدوين تاريخ حياتي لاشتماله على غرائب الاتفاق التي تقودني احياناً الى الريب بصحتها حال كونها حقيقية · وها انا اسرد على القارئ أهمّ ما صادفت في حياتي من العجائب وما لقيت من الغرائب من دون زيادة ولا نقصان متكلاً على خالق الاكوان · فاقول :

اني رجل روماني الاصل كاثوليكي المذهب مقيم في انكلترا وقد توفي والدي وانا صغير السن ثم لحقت به والدتي رحمهما الله بعد ان بلغت من العمر ثلثاً وعشرين سنة اي قبل بداءة حوادث قصتي بسنتين · وقد خلّفا لي مالاً وافرًا لا يقل دخلهُ عن خمسة آلاف ليرة سنوياً · وكنت قوي البنية شديد العزم مطلق الارادة والتصرف بما ورثته من والديّ ومع ذلك فانّي كنت اتعس البشر محروماً من ملذات هذا العالم لا اتمتع بمناظر الطبيعة ولا اتعزّى برؤية الاكوان ومشاهدة المخلوقات البشرية وكثيرًا ما كنت اغبط بل احسد من هم دوني منزلةً حتى بلغ بي الامر اني تمنيت الاستعطاء والتسوُّل ممن تقوى عيناي على مشاهدتهم لاني كنت فاقدًا حاسة البصر محروماً وا اسفاه من لذة النظر

فلا ريب ان من يطلع على هذه العبارة الاخيرة تتأثر شعائره ويرثي لحالتي ويشعر بما يستولي عليّ من الكدر عندما انقلب على فراش الاحزان متفكرًا بحالتي التعيسة التي ستنتهي بي على هذا المنوال لا رفيق لي سوى الظلام ولا ما اتمناه سوى الموت الزؤام ·

ففي احدى ليالي شهر آب الحارّة بينما كنت جالساً في غرفتي اذا بالباب يقرع وسمعت صوت الخادم معلناً بقدوم الطبيب « وهو الذي آلى على نفسه بمعالجة عينيّ وكان صديقاً لوالدي المرحوم » فانتعش قلبي بقدومه وترحبت به وبعد ان جلسنا سألني عن كيفية استعمالي الدواء فاجبته اني مثابرٌ على الخطة التي ارشدني اليها · وبعد ذلك شعرت انه نهض من مكانه وادنى من وجهي مصباحاً وسألني اغماض احدى عينيّ ففعلت · فقال لي · ماذا ترى بالثانية ؟

- نوراً طفيفاً وشيئاً خفيفاً
- اغمضها وانظر بالاخرى · فاطعت
- ماذا ترى ؟
- ضوءًا قد تشعب منه ثلاثة انوار
- الحمد لله فقد توطد مني الامل وتحقق عندي نجاح العمل
- افلا يوجد خطر ؟
- ان الخطر ما زال مترصداً فرص الاهمال وما دمت محافظاً على الاعتناء فالشفاء قريب باذن الله · فشكرت اهتمامهُ بي ثم ودعني وانصرف ·

ولبثت بعد ذهاب الطبيب برهةً صامتاً متفكراً بما ستصير اليه حالتي · فكنت ارى احياناً من خلال الظلام المخيف المحدق بي نجماً يتلألأ فيبتهج قلبي سروراً اذ تتمثل لي الدنيا بزخرفها فتطيب لي الحياة · ثم تحجبه الغيوم المتكاثفة فلا اعود من ثم ارى سوى الظلمة التي تعيد اليّ الاحزان وتوجه فكري الى حقيقة الحال التي انا فيها · فاشعر اذ ذاك بان الدم يجري في عروقي تارةً حارًّا واخرى بارداً وتظمأُ نفسي لتجرع كاس الردى · فناديت الله والدموع سائلة على وجنتيّ متضرعاً اليه ان ينظر الى حالتي ويعيد اليّ مافقدت · ثم نهضت

متثاقلاً وانطرحت على سريري ملتمساً الرقاد متمنياً من صميم الفؤاد ان يكون رقاداً ابدياً ·

وبعد ان صرفت مدة ساعتين متقلباً على مثل القتاد لا يقلق سكينة الغرفة الاَّ هبوب النسيم الحار ماراً على وجهي من احدى النوافذ · تشوَّقت للخروج من غرفتي كالعادة مصحوباً باحد الخدم ولكني لم اشأ ايقاظهم هذه المرة · فالقيت عليَّ لباسي وقصدت باحة الدار ومنها الى الرواق الخارجي حتى انتهيت الى الباب وفي اثناء ذلك لم اسمع الاَّ صوت انفاس النائمين فوصلت الى الطريق مسروراً لاني لم اعثر بما يزعجني واقفلت الباب وحفظت مفتاحه بيدي اليسرى وباليمنى عصاً استرشد بها وسرت متمهلاً متأنياً حذراً ان اتيه عن الطريق ولما اتيت على ستين خطوة تقريباً عطفت في طريق آخر كان طوله نحواً من ثمانين خطوة ثم عرجت على شارع طويل افضى بي الى زاوية هناك وكنت قد غلطت في الحساب فانثنيت راجعاً · وبينما انا ماشٍ لطمت بجدار لم اعثر به حين قدومي فتحققت الغلط وعلمت اني وقعت في الشطط ·

وبعد اعمال الفكرة رأَيت من الاوفق ان اتربص في مكاني الى ان يمدني الله بمساعدة احد المارة فلم يمضِ الاَّ القليل حتى سمعت صوت وطيء اقدامٍ مقبلة نحوي فاستغثت بالقادم ان يرشدني الى شارع ويل بول · فاجاب · شارع ويل بول ؟ سأفتكر بهذا الامر خال وصولي الى البيت

فتضرَّعت اليه قائلاً تكرَّم عليَّ يا سيدي وقدني الى شارع ويل بول ·

– شارع ويل بول · ها · ها · لقد سمعت كثيراً بهذا الاسم لما كنت صغير السن لا افقه المعاني العويصة جيداً واما الآن فاني المالك العادل والفيلسوف ال · · ·

– رحماك ياسيدي اني ضريرٌ وقدضللت عن الطريق فاهدني الى شارع ويل بول ولك اجرٌ عظيمٌ عند رب السموات

– ها · ها · اعمى يامسكين · · · تقصد شارع ويل بول · ها · ها · ها · تأبط ذراعي اذاً لنسير كاصحاب بشرط ان تعيرني ساقيك واعيرك عينيَّ وبذلك نأمن على انفسنا الخطر · قال ذلك وهوى عليَّ من فعل الخمرة التي فاحت رائحتها من فيه فكادت تزهق روحي · فقلت في نفسي « اعمى يقود اعمى وكلاهما يسقط في الحفرة »

وبعد ان سرنا قليلاً وقد اراني الموت الواناً بثرثرتهِ وشقشقة لسانه وقف بغتةً وقال ها قد وصلنا الى الشارع المطلوب فدعني اذهب بك الى منزلك ·

لا لا · اشكرك من صميم قلبي فاذهب بسلام · قلت هذا ووضعت يدي على الحائط متهادياً حتى انتهيت الى آخر العطفة فلم اشعر الاَّ وانا واقف امام الباب فاولجت المفتاح الذي كان بيدي في القفل وباقل من دقيقة صرت داخل الحديقة · ثم جعلت افكر في الوقت الذي صرفتهُ ذهاباً واياباً راجياً ألاَّ تكون قد طالت مدة تغيبي فيفتقدني الخدم وربما تتبلبل افكارهم لغيابي ·

وبينما انا كذلك اذ اوقف مجرى افكاري صوت رنَّات الساعة وكانت تسعاً « وهي ابتداء تاريخ قصتي العجيبة » فلم انتهِ من عدّها حتى وقفت مبهوتاً اذ عثرت رجلي بسلمٍ لم اعهدهُ قبلاً في منزلي

فمن يقدر ان يصف ما خامرني من العجب والخوف في تلك الساعة · فاستعنت بالله وصعدت ذلك السلم وكان خمس درجات · فوقفت في اعلاه متحيراً في امري بين ان ارجع ادراجي او اداوم المسير وصرت اناجي نفسي قائلاً لعلي دخلت في غير مسكني · ولكن كيف يمكن ذلك والمفتاح قد ولج

في القفل بسهولة فالبيت اذاً بيتي . ولكن لا علم لي بوجود هذا السلم فيه .

وهكذا تضاربتني الافكار حتى ظننت نفسي في حلم فوضعت يدي على وجهي ثم قرصت طرف اذني حتى كدت اصرخ من شدة الالم فتأكدت حينئذٍ اني مستيقظ . ثم تذكرت انهُ يوجد في حائط غرفتي الخارجي حجرٌ ناتئ كنت المسهُ بيدي كلما دخلت . فانطلقت الى حيث ظننت الطريق الموصلة اليه ولكني لم احظَ بالعلامة المذكورة بل عثرت يدي بحلقة باب فاتضح لي حينئذٍ غلطي وتيقنت ما كنت مرتاباً منه

فحوَّلت وجهي نحو الباب قصد الرجوع من حيث اتيت ولكني رأَيت نفسي غير قادر على السير في الطريق المستقيم بدون دليل لانه من المحتمل ان المفتاح يناسب سائر ابواب ذلك الشارع وعليه فاطرق جميع المنازل في جوف الليل فلا يعدُّ امرًا عجيباً ان خالني الناس لصاً واوسعوني ضرباً وشتماً قبل ان يفهموا حقيقة حالي . فقلت في نفسي ما ضرَّ لو دنوت من باب الغرفة وقرعتهُ بلطف ثم اعرض حالتي على من سيقابلني وافهمهُ سبب مجيئي والمفتاح اعظم شاهد على صحة مقالي . وهذا الفكر قد اعاد اليَّ الطمأْنينة .

فرفعت يدي لأَقرع الباب اذ وقع في اذني صوت اناس يتكلمون وسمعت عقيبهُ لحناً شجياً وتبعهُ غناء امرأَة بصوت رخيم جدًّا يأْخذ بمجامع القلوب ثم انقطع الصوت بغتة وناب عنهُ صيحة شديدة وصوت وقوع جسم على الارض وتبعه انين ضعيف . وعلى اثر ذلك حدثت غوغاء وكثر اللغط والضجيج فصح عندي حدوث جريمة داخل القاعة التي لا فاصل بيني وبينها الاَّ ذاك الباب الخشبي فخفق قلبي وجرى الدم بسرعة في عروقي وشعرت ان الارض مادت تحت رجليَّ واخذ العرق البارد ينسكب من جبيني ولم اعد افكر بحالتي ولا

بالخطر المحدق بي بل كان اهتمامي معرفة ما هو جارٍ بالداخل

فدفعت الباب بيدي ودخلت كأني اريد اغاثة من لا بد ان يكون مظلوماً بيدَ اني لم اجهل كوني اعمى وغير قادر ان آتي بنفع ولكن قوة غريبة دفعتني الى صحن القاعة فما خطوت خطوتين حتى عثرت بجسمٍ ملقىً على الارض فهويت فوقه واصابت يدي منه مادة لزجة فاترة وعند ذلك طوقتني الايدي من كل صوب وضغط بعضها على عنقي حتى كادت تبلغ روحي التراقي فايقنت ان لا نجاة لي منهم · واقبلت على نفسي باللوم والتقريع لمخاطرتي واقدامي على ما اجهله بدون ان انظر في العواقب فوقعت في هاوية لا ارجو منها مناصاً ولا آمل خلاصاً · انا الذي منذ قليل كنت استدعي الموت ولا مجيب وجدت في تلك الساعة ان حياتي المنكودة المظلمة ثمينة بل هي اثمن شيءٍ عندي فصرخت بصوت ارجفه الخوف وقواه الامل بالحياة · ارحموني ارحموني انا اعمى ·

الفصل الثاني

﴿ حلم او سكر ﴾

قلت ذلك وقد جعلت نفسي كآلة صماء بين ايديهم واصبحت اطوع لهم من بنانهم لاني تأكدت عدم مقدرتي على المقاومة وتيقنت ان اقل اشارة آتي بها للدفاع عن نفسي ستكون مني الحركة الاخيرة فرأيت اولى بي واوفق ان اكرّر القول باني اعمى لعلهم يرحموني او يوجد فيهم من يسمع صوتي فيرثي لحالي · فما كان منهم الاّ ان القوني بجانب الجسم الممدَّد على الارض ثم فرجت عني الايدي ·

فليتصوَّر القارئ حالة شاب وجد دون قصد منهُ في بيت اناس يجهل حقيقة حالهم فكان كلما يطرق سماعهُ همسٌ يظنهم يتآمرون على اعدامهِ واقلّ حركة يشعر بها بينهم يظنها اليد التي تقصد قتله فيتصوَّرها ماسكة خنجرًا وستغمدهُ في صدرهِ ·

«اكتب ذلك ويدي ترتجف من تذكار تلك الليلة التي احسبها اسود نقطة في تاريخ حياتي فتمرُّ حوادثها في ذاكرتي · فيخفق لهولها قلبي وتسري الرعدة في جسدي · »

وبعد قليل شعرت بنسيم بارد هبَّ على وجهي فعلمت ان الباب قد فتح ثم خرج منه احدهم وعاد فاوصدهُ ثم تقدم واحد مني وربما ركع بجانبي او انحنى فوقي لاني شعرت بانفاسهِ تمرُّ على خدي وقرَّب اليَّ مصباحًا اصابت حرارتهُ وجهي وكأَني به يفحص عينيَّ · ثم ابتعد عني ووكزني برجله وامرني بالوقوف فتحركت لأَتيقن ارتفاع الايدي عني ونهضت مذعورًا · ومن تلك الدقيقة املت بالحياة ثانية · ثم وضعت يد على كتفي ورفعتني بلطف وقائل يقول لي سر مستقيمًا اربع خطوات · ففعلت · غير اني لم اخطُ خطوتين حتى لطمت جبهتي بجدار البيت فعلمت انها كانت حيلة منهم ليتحققوا بها صدق مدعاي · فلبثت واقفًا انتظر تتمة الاوامر فسمعت احدهم يقول · يجب ان تبقى على هذه الحالة الى ان نستدعيك واذا اتيت باقل حركة او املت رأْسك نحونا تكون قد سعيت الى حتفك بظلفك · فارتعدت فرائصي لهذا التهديد ولبثت صاغيًا لما يحدث حولي ·

فابتدأُوا يتهامسون باصوات منخفضة جدًّا حتى اني مع كلما بذلت من الجهد لاستماعهم لم افقه حرفًا مما فاهوا بهِ ثم طرق سمعي حركة اجسام عنيفة

ووقع اقدام كثيرة وتبعها قلقلة مفاتيح بالاقفال ثم خشخشة ورق ورنة دراهم وبعده تمزيق اثواب وقد شممت رائحة اوراق محترقة · وبعد قليل شعرت بهبوب نسيم بارد فعلمت ان الباب قد فتح ثانية ثم ازدحمت عليه الاقدام وخرج منه اناس كثيرون وكأنهم مثقلون بحمل عظيم ·

وبعد ان ساد السكوت في الغرفة سمعت صوت خطوات خفيفة وتنهد عميق وكأن شخصاً رمى بنفسه الى كرسي فعلمت اني لم اكن وحيداً في ذلك المكان فسألته من دون ان التفت نحوه · كم من الزمن سأبقى اسيراً عندكم · فسمعته يتململ بكرسيه ولم يجب بكلمة فاعدت القول · هلاّ يطلق سراحي قريباً فاني لم ارَ شيئاً مما حدث بينكم فاستحلفكم بالله ان تخرجوني خارجاً خوف ان يداهمني الجنون اذا بقيت على هذه الحالة · فلم احصل على جواب · فنكصت صاغراً مستعيناً بالله على هذه البلية التي جلبتها لنفسي بيدي وساقني اليها سوء حظي وبعد برهة امسك ذراعي بيد قوية قادتني الى كرسي أُمرت بالجلوس عليه فاطعت · ثم قال احدهم · اخبرنا الآن من انت ولمَ اتيت الى هذا المكان ·

فشرحت لهم امري دون ان اماطل بحرف سوى اني اخفيت عنهم اسمي الحقيقي خوفاً من بث العيون عليّ بعدئذٍ ولم انهِ حديثي حتى شعرت بكاس طافحة بمادة سائلة قد وضعت بين اصابعي وقائل يقول · خذ واشرب · فصرخت لا · لا اريد · فما هذا الاّ سمٌ · فسمعت قهقهة ممن هو قريب مني ثم قال · اطمئن فهذا ليس كما توهمت ولكن هذا « ووخزني بجبهتي بحدة » نوع آخر فاختر لنفسك ما يحلو · ففضلت شرب ما في الكاس ولو انهُ الموت بعينه · واذذاك طرق سمعي صوت آخر يقول · اذا كنت رجلاً حكيماً فتقول غداً عند ما تستيقظ من نوم طويل · لقد رأيت حلماً او كنت سكراناً · وتذكر

بانك لم ترنا واما نحن فقد رأَيناك ولم يأْت على آخر هذه الكلمات حتى استولى عليَّ نعاس شديد وشعرت بخدر متزايد في اعضائي حتى لم يعد بي قوَّة لامتلاك نفسي من السقوط فهوى رأْسي على صدري واوشكت ان اسقط الى الارض لو لم تحل دون ذلك يد قوية وضعت على صدري ·

وبعد ان مضى عليَّ ردحٌ من الزمن وانا غائب عن الوجود استيقظت فوجدت نفسي ملقياً على فراش · فجعلت امر يدي على وجهي متعجباً مما صارت اليه حالتي ثم استويت جالساً وتأَملت ملياًّ بما مرَّ عليَّ من الحوادث وكدت اقنع نفسي باني لم ارَ الاَّ حلماً · ولكني عند ما تمددت ثانية وشعرت ما بجسدي من الضعف وبفمي من العطش ايقنت بحقيقة ما حسبتهُ وهماً او حلماً فوثبت مذعوراً وصرخت صرخةاليائس وقدعاودتني المخاوف · ثم غدت فجلست معتمداً رأْسي بين يداي ·

وعند ذلك سمعت صوت مربيتي تقول · آه يا عزيزي جلبرت · ثم تبع كلامها صوت رجل بنغمة لطيفة قائلاً : لا تجزعي فسيدك يشفى قريباً · دعني اجس نبضك يامستر فوكهان

فقلت من هذا

قال انا الطبيب جورج صديقك ·

– اصدقني القول · هل كنت مريضاً · واذا كان كذلك فكم من الزمن صرفت في مرضي ·

– عدة سويعات فلا تجزع · انما انت مفتقرٌ الى الراحة فاصمت غير مأْمور والزم السكينة · فصرخت الماء · الماء · ادركوني بالماء فاني اكاد اموت ظماءً ·

وبعد ان ارتويت قليلاً شعرت بقليل من الراحة ثم سمعت الطبيب

يخاطب مربيتي بقوله اعدّي لهُ قليلاً من الشاي واذا طلب طعاماً فلبيه او عرض لهُ الم فلا تتأخري عن اعلامي · قال ذلك وخرج فشيعته بريسلا الى الباب·

وفي تلك الساعة عادت اليّ الافكار وصرت اردّد في ذاكرتي حوادث الليل الغابر وحينئذٍ دخلت خادمتي الامينة وكاني سمعتها تشرق بدمعها فسألتها كم هي الساعة الآن · فاجابت بصوت حزين قريباً يصير الظهر يا سيدي – الظهر ! ماذا ألمّ بي ! فبكت بصوت منخفض ولم تجبني· فكرَّرت السؤال عليها الى ان قالت بصوت متقطع ياسيدي جلبرت · · · ماذا اعتراك · · · وكيف · · · اقدمت على هذه · · · الفعلة · · · الشنعاء · · · آه لو تعلم ما حلَّ بي حينما اتيت الغرفة صباحاً ووجدت الفراش فارغاً و · · ·

– وهل وجدتِ الفراش فارغاً ؟ اذاً انا في يقظة ولست في حلم · فاجلسي يا بريسلا واخبريني بالتدقيق ما ذا جرى بعد ذلك

– سيدي · لي الحق ان اعاملك كولدي · وطالما سمعتني اكرّر كلمات والدتك الأخيرة وهي على فراش الموت · فقد اوصتني ان اعتني بك وقد اقسمت لها بذلك · وها اني ناصحة لك بالاَّ تعود لادمان الخمرة التي اتخذتها عادة جديدة فاكثرت منها الليلة الماضية واذا كان لا بد لك منها فلا تخرج من البيت وتطوف في شوارع المدينة وانت لا تبصر شيئاً و · · ·

– لقد جننت يا بريسلا · فخلّي عنك الهذيان واخبريني ماذا حل بي اثناء الليل الغابر ·

– عندما استيقظتُ صباحاً دنوت من باب الغرفة كالمعتاد لارى اذا كنت نهضت من الرقاد فاسعفك بخدمة فلم اسمع حركة تؤْذن بوجودك ثم انتبهت للباب فاذا به مفتوحاً فعجبت لذلك وبعد ان ولجته وجدت الغرفة خالية خاوية

فجمدت برهة وكان معظم خوفي من ان تكون قد سعيت الى حتفك لاني كثيرًا ماسمعتك تردد ذلك لقنوطك من الشفاء ٠ فاسرعت توًّا الى الزقاق اسأل عنك كل من اصادفه في طريقي حتى اذا وجدت نفرًا من الشرطة اعلمتهم بفقدك ورجوتهم ان يساعدوني بالتفتيش عليك فاخبرني أحدهم انه على مسافة ميلين من شارع ويل بول قد وجد شابًا ملقىً على قارعة الطريق لا حراك به فاحضرهُ الى محل الشرطة للبحث في امره وقد تحقق كونه سكرانًا ٠ فانطلقت الى حيث كنت موجودًا فرأيتك ملقىً على الارض محاطًا بالحرس وهم يتباحثون في امرك وكنت فاقد الرشد وثيابك ممزَّقة وملوثة بالاوحال ٠ فحاولت عبثًا امساك دموعي لما رأيتك على تلك الحالة المحزنة وفكرت في اقرب الطرق التي اقدر ان انقذك بها من نظرات الاحتقار فسألت الشرطي ان يسمح لي باخذك الى المنزل بعد ان افصحت لهُ عن اسمك ومحل سكنك ٠ ثم اكتريت عربة وصحبتك بها وكنت اذ ذاك بين حيّ وميت ٠وبقيت على تلك الحالة نحوًا من ست ساعات ولا تسل عما خامرني من الجزع وانا واقفة بجانبك منتظرةً انتباهك بذاهب الصبر ٠ وفي اثناء ذلك استدعيت لك الطبيب فانشقك بالحال بعض المنعشات ولم يمض الاَّ القليل حتى عادت اليَّ الطمأنية وذلك عندما سمعت كلماتك المتقطعة التى اعادت اليَّ الامل بسلامتك

– اشكرك يا بريسلا ٠ فانك قد اخلصت لي الخدمة وعسى الاَّ اكلفك هذه المتاعب ثانية ٠ اما الآن فاحضري لي شيئًا من الطعام لاني جائع ٠

فذهبت لاتمام ما امرتها به ولم يكن قصدي بذلك الاَّ ابعادها كي اختلي بنفسي لحل ما اشكل عليَّ فهمهُ ٠ فجعلت ادير في خلدي تصورات حوادث الليل الغابر واتذكر انفصالي عن البيت وشرودي عن الطريق ثم مصادفتي

للسكير ودخولي غير منزلي واستماعي تلك النغمة الشجية التي لم تزل الى الآن ترن في اذني . وبعد ذلك دخولي بغتةً تلك الغرفة وسقوطي فوق ذلك الجسم الممدد . واذ ذاك تنبه فكري لتلك المادة السائلة التي بلا شك كانت قد تلوَّثت منها اصابعي نخفق قلبي بشدةٍ وللحال ناديت خادمتي واريتها يدي ثم سأَلتها بلجاجة اذا كان عليهما اثر الدماء . فقالت لا يا سيدي فاني غسلتهما حالاً حين اتيت الى المنزل . لانهما كانتا ملطختين بالاوحال والاقذار

– أَلم تري شيئاً من ذلك على اكمامي

– لقد كانت اكمامك مقطوعة ويداك عاريتين .

فلم يعد عندي شك بحقيقة ما كنت احسبه وهماً ووقعت في حيرة من جراء ذلك حتى انه لم يبق لي صبرٌ عن اظهار ما يكنه صدري من الغرائب وما ازدحم في مخيلتي من تذكار تلك الحوادث فاستدعيت من اثق به من اصدقائي وقصصت عليه ما صادفته في ليلتي حرفياً وكنت كلما اتوغل في الحديث اجده اشد هولاً واكثر غرابة من ذي قبل وقد انتظرت عبثاً ان اسمع من جليسي حركة تعجب او اندهاش ولكنه قد اقتصر على السكوت كمن يصغي لاقاويل لا طائل تحتها . فتأَثرت لذلك ولم يفتني ان بريسلا قد سبقت فاطلعته على ما علمته هي من امري . واخيرًا قلت له كيف رأَيت يا عزيزي ادوار فاجاب ضاحكاً . ان احلام الخمرة قد تجسم الوهم احياناً الى حد ان تجعله حقيقة .

– انت تهزأُ بي .

– معاذ الله يا صديقي .

– ثق اذاً بما ارويه لك فترى اهمية ما ادعيه

– اني على يقين تام من انك تتكلم عما تظن حدوثه ولكني لا اراه اكثر من حلم تخايل في ذهنك اوتخيلات وهمية فلزمت الصمت لما رأيت نفسي عاجزًا عن الاتيان ببراهين ثابتة تؤيد صحة قولي · ثم اجتمعت بصديق لي آخر فكان منه ما كان من ذاك · فيئست من معرفة المجرمين وقصدت ان اتناسى هذا الامر اذ رأيت ان اعزّ اصدقائي ومن عرفتهم من سن الطفولية قد هزأوا بحديثي ونبذوه ظهريًّا فماذا انتظر من الغرباء او اذا لجأت الى المحاكم فعلى من ارفع دعواي وكيف اقدر اثبت حدوث تلك الجناية وفوق ذلك اعرض حياتي لاخطار مخالفة انذار الرقباء وقولهم « انا رأيناك وعرفناك واما انت فلم ترنا »

ولم يمض زمن طويل حتى تناسيت هذه الحوادث المزعجة وصرفت فكري لما هو اهمّ فان العالم تراءى لي مضيئًا للمرة الثانية وقد تبلج صبحه من خلال الظلام المدلهمّ فبدّد عن عينيَّ تلك الغشاوة وبرق بارق الامل بحياة جديدة فمحى من ذاكرتي ما كنت فيه من التعاسة وعاد اليَّ الامل بالسعادة فتداركني الباري برحمته اذ اعاد اليَّ حاسة البصر فصرت ابصر وقلبي مفعم حبورًا ولساني ناطق بشكر مولاي القادر فقد تم لي الشفاء بمشيئة الله بعد ان اجرى الطبيب عملية جراحية وامرني عند نهايتها بالاحتجاب عن النور بضعة اشهر وليتصوّر القارئ اللبيب باي قلق صرفت تلك المدة التي حسبتها دهرًا وحجبت عن مشاهدة العالم ثانية فتارة كان يتراءى لي الفوز بمبتغاي وان السعادة قد اصبحت في قبضة يدي وتارة يخال لي استحالة ذلك الامر واراه فوق طاقة البشر · فاسأل نفسي · هل يمكن يا ترى لاعمى ان يبصر · فيجيبني صوت من اعماق قلبي مردّدًا في ذهني كلمات الطبيب « لا تيأس من الشفاء » فالبث حاسر الراس راضيًا بقليل من الامل · فيا لها من ساعة بهجة اهتزَّ لها فؤادي طربًا وطابت

بها نفسي انتعاشاً ساعة سمح لي بها ان احل تلك الرباطات الحاجبة عن بصري النور . ولكني امرت باستعمال النظارات وقاية لعينيَّ الضعيفتين اللتين ما لبثتا ان تداركتهما الصحة رويداً وبعد زهاء سنتين كاملتين تمت لي اسباب السعادة فابصرت كل شيءٍ واضحاً جلياً وتمتعت بجمال الطبيعة وبهجتها وزهاء الكون ورونقهِ فظهر لي العالم باسماً يهنئني بحصولي على كامل الملذات

وكم من مرة نهضت من فراشي ليلاً وخرجت الى الحديقة امتع نظري بمرأى اشجارها المثمرة وازهارها المعطرة التي وشحها الربيع بحلله السندسية وزينها الندى بقطراته اللؤلؤية . والقمر يلقي عليها انوارهُ الفضية فيحدث منه ظلٌّ خفيف يتماوج من خلال اوراقها بينما النسيم يلثم خدود الورد فتنحني له الاوراق استحياءً وتتمايل الاغصان منه طرباً واعجاباً . فيا لله كم كان يفوتني من مثل هذه المناظر التي تدفع عني الهموم وتجلي الغموم . وحينئذٍ كنت ارفع عينيَّ الى السماء ممجداً المبدع الوهّاب فارى فوقي النجوم الساطعة تتلألأ في السماء وترقص في الفضاء فيرقص لها قلبي طرباً ويدفعني السرور الى الركض في الروضة كالطفل الصغير مندهشاً لكلما تقع عليه عيني

وكنت احسب نفسي اسعد البشر وما كان يقلقني سوى تذكار سماع ذلك الانين المؤلم الذي سمعتهُ في تلك الليلة المرعبة وما كنت انساهُ مع ما مرَّ بي من الايام وما كان من اختلاف الاحوال



الفصل الثالث

﴿ اجمل المناظر ﴾

بارحت انكلترا في اواسط الربيع مع صديقي ادوار قصد التجوُّل في نواحي ايطاليا وذلك اذعاناً لامر الطبيب الذي ما برح منذ شفيت يحثني على التجوُّل والترحال ترويحاً للنفس وتنزيهاً للخاطر. واول مدينة اتيناها هي تورين فصرفنا فيها زهاء اسبوع متجوّلين في شوارعها العظيمة ومنتزهاتها الجميلة معجبين بمشهد بناياتها الشائقة وقصورها الشاهقة وكنائسها العظيمة التي زاد منظرها اجلالاً تقادم عهدها واتساع هياكلها ·

فبينما كنا ذات يوم نتنزه بين الاشجار على ضفة جدول بهج تجري مياهه بسرعة فوق حصباء كالدر وقد نقش الريح على الماء زرداً وهز معاطف الاغصان فتمايلت عجباً وغردت الاطيار على افنانها فازددنا طرباً · ووقفنا برهة نمتع النظر بمشاهدة عجائب الكون وجمال الطبيعة وافكارنا سابحة في تيار التأملات اللذيذة اذ اوقف مجرى تأملي في بدائع الكائنات سماع وطء اقدام خفيفة · فالتفت · واذا بغادة هيفاء قامتها نجلاء مقلتها لا يشتكي منها قصر ولا طول وهي من اجمل ما وقع نظري عليه من الجنس اللطيف مرت سريعاً بالقرب منا تصحبها امرأة مسنّة · فذهلت لمرآها ووددت لو اني استوضحت محيَّاها جيّداً فاتبعتها النظر حتى توارت داخل باب دير الكاثوليك وكان حينئذٍ وقت الصلاة فاتفقت مع رفيقي على اتباعها ثم ذهبنا وكلانا متشوّق لرؤيتها · فلما دخلنا الدير جلست على مقعد خشبي بعزلة عن الناس · واول شخص وقعت عيني

عليه عند ما اجلت نظري بالجموع كان تلك الحسناء . فتأملتها طويلاً واذا بها جالسة بهدوٍ تام مطرقة الى الارض لا تميل براسها الى جهة ما وقد حاولت عبثاً ان ارى وجهها جلياً فلم اظفر الاّ بجانب منه . فألفيته ذا بشرة بيضاء ضاربة الى الصفرة وقد تدلى فوقه خصلة من شعرها الحالك السواد المتجمع في ام راسها على اجمل هيئة والطف زيّ فزاد منظرها هذا وقاراً وجمالها كمالاً .
واني لأقول انها انكليزية الاصل لما ظهر لي من هيئة ملابسها . غير ان تلك الخادمة المرافقة لها تدل ملامحها صريحاً على أنها ايتاليانية و بقدر ما كانت الفتاة ذاهلة غير مكترثة بالصلاة تتلاطمها امواج الافكار كانت الاخرى ساجدة مواصلة التضرُّع بدموع حارة كأنها مجرمة وشاعرة بثقل نير خطيئتها فاتت تلتمس من الباري عفواً ورحمةً .

وعقيب ان انهت الخادمة الصلاة تحفزت للنهوض واشارت بذلك الى الفتاة فاطاعتها ولم تنبس ببنت شفة . فهرعت مع رفيقي الى البـاب ننتظرها فرأيت على مقربة منا كهلاً ربع القامة عريض الكتفين واقفاً بهيئة تدل على انهُ بانتظار احد . ثم رأيت الخادمة مقبلة والفتاة الى جانبها . فتقدمت الاولى لتدهن جبهتها بالمـاء المقدس كما هي العادة وظلت الفتاة واقفة تنتظرها برهة تمكنت باثنائها من مشاهدة وجهها دون مانع فاذا هو من اجمل ما يتصوَّرهُ العقل ذات عينين سوداويين واهداب طوال ترمي الناظر اليها بنبال عن قوسي حاجبها ولها نظرات حادة تدلُّ على ان داخل تلك الجبهة الناصعة البياض والمكلَّلة بتاج الرصانة والجمال فكراً عميقاً وسرّاً عظيماً و بعد ان رسمت الخادمة اشارة الصليب تقدمت نحوها وذهبتا سوية .

وبعد ان خرجنـا من الكنيسة دنا منهما ذلك الرجل الذي رأيتهُ قبلاً

فاندهشت الخادمة لرؤيته ثم حيته مقبلة يده . اما الفتاة فلم تنظر اليه باهتمام بل فتحت شفتيها الارجوانيتين كأنها تريد التكلم ثم اعرضت عن ذلك ومالت برأسها اشمئزازًا واذذاك وقع نظرها على نظري وقد ارسلت اهدابها ظلاً خفيفًا على خدها العاجي فما كانت لتبارح ذهني قط تلك الهيئة الملائكية . . .

وفي اثناء هذه الفترة كانت الخادمة قد انهت حديثها مع ذلك الرجل فذهب وهو ينظر اليها كمن يعيد امرًا على الآخر لاتمام طلبه فاجابته باشارة من رأسها تعني بانها قد فهمت المغزى من تلك النظرة ثم تقدمت من الفتاة وجذبتها من ذراعها بلطف وسارتا . فقلت لرفيقي أنظرت هذه الحسناء . قال نعم وهي على جانب عظيم من الجمال .

— ان هذا المحيا لا بدع ما رأيت في حياتي ولكن امرًا يشوّه جماله

— هل جرت العادة عند رجال الانكليز ان يصفوا جمال هذه وقباحة تلك بينما هم على الطريق ام هذه عادة الايتاليان .

طرقت آذاننا هذه الكلمات بصوت جهوري صادر من رجل بالقرب منا فالتفتنا نحوه واذا هو شاب في الثلاثين من عمره طويل القامة ينبعث من عينيه اشعة الخبث والدهاء فعزمت ان ابطش به لو لم يتداركني رفيقي ويخاطبه برقة قائلاً . لقد اجمع رأي العالم قاطبةً على استحسان كلما هو حسن والعكس بالعكس ومع ذلك فاذا كنا اتينا امرًا منكرًا نرجو ان يقبل عذرنا لدى حضرة السيدة وجناب قرينها او اخيها . فقال الغريب اني لست احدهما

— اذًا فنسيبها او صديقها وعلى كل يسرنا ان نراك تبالغ في الغيرة عليها .

قال رفيقي ذلك بلهجة الساخر وادار ظهره دون ان ينتظر جوابًا . فلبث الغريب شاخصًا اليه بعينين يتطاير منهما الشرر لما الحق به من الاحتقار .

واما انا فعند ما عاينت منه ذلك توقفت عن المسير خوف ان يغدر بهِ ذاك الشقي ولكنه وُجد اخيرًا اعقل مما ظننته لانه ما عتّم ان سار في طريق غير التي سلكناها . وبهذه الفترة التي اضعناها بمجادلة ذلك الرجل كانت الفتاة قد توارت مع رفيقتها عن العين ولم ندر في ايّ طريق سارتا وقد خجلت ان اسأَل رفيقي الاسراع بالمسير واللحاق بهما ووددت لو اكون وحدي فاتبعهما واستعلم عن اسمها ومحل سكنها ولكن كان لي امل ان اراها مرة اخرى وحينئذٍ لا تفوتني الفرصة لاتمام رغائبي .

* ما كل ما يتمنى المرء يدركهُ * فاني كثيرًا ما ترددت الى ذلك المكان ولم يتح لي الحظ ان اراها هناك . واخيرًا يئست من مصادفتها واستولى عليَّ حزن عميق وكنت كيفما اذهب وكلما اراهُ من الغرائب لا يشغل ذهني او ينسيني ذلك الوجه الجميل واحيانًا اسخر من نفسي ومن الضعف الذي استولى عليَّ فتمكنت من قلبي صورة من لم ارَها اكثر من مرة واحدة ومن لم اخاطبها قط او اعلم عن حقيقة احوالها امرًا فاناجي نفسي قائلاً : ما لك يا جلبرت ولهذه الفتاة المجهولة لديك وما يجديك التفكر بها سوى التعب والبلاء وما يدريك انها ليست ذات بعلٍ وانها حرّة الفؤاد وكيف كان الحال فليس لك امل برؤيتها ثانية فالاجدر بك ان تنساها . غير اني تاكدت بعد قليل اني غير قادرٍ على ذلك لانني كلما طردتُ ذكرها من ذهني ازداد اليه ترددًا او حاولت امحاءَ رسمها من ذاكرتي انتصب طيفها اللطيف امام عيني

ودامت لي الحال على هذا المنوال نحو عشرة ايام اعلل النفس بلعلَّ وعسى الى ان رأَيت اصرارًا من صديقي على مبارحة تلك المدينة حيث لم تعد تسمح له الظروف باطالة المكث فبارحناها وفي النفس حسرة لمفارقة ارض نبتت فيها زهرة

آمالي فسرنا الى جينوى ثم الى فلورنسه فروميه ونابولي ومنها توًّا الى جزيرة سيسيليا وعرجنا على بعض امكنة ثم رجعنا الى لندرا وكان قد مضى اكثر الصيف

وفي صبيحة اليوم الثاني شيعت صديقي ادوار الى شاطىء البحر حيث توجه الى بلاد اسكوتلاندا لاشغال دعته اليها . فما كان فراقه الاَّ ليزيد فؤادي انكسارًا وقلبي حزنًا وتعذيباً : فجلست على صخر كبير منفرد عن الناس اتأمل بالامواج المتلاطمة وهي تنقلب متقدمة نحوي باسمة متلألأةً باشعة الشمس المنعكسة على سطح الاوقيانس العظيم ثم ترتد الى الوراء ويتفرَّق شملها كبنات نعش فاثَّر بي هذا المنظر تأْثيرًا عظيماً وعاودني ذكرى ذلك المنظر البهج الذي شاهدتهُ في ايطاليا لانهُ يحاكيه جمالاً لوجود تلك الغانية . فقلت في نفسي ما كان اسعدني لو اراها الآن بعين الحقيقة لا بعين الخيال الذي قد طال عليَّ تردده فاذاقني صنوف العذاب ... ليتني بقيت اعمى ولم تقع عيني على سبب هيامي ومصدر همومي فكان اولى بي ان احيا تعيساً من ان اموت شهيدًا . ثم فاضت مدامعي وجعلت انوح كالثكلى

واني لعلى تلك الحالة اذ شعرت كمن مسهُ سلك كهربائي فهببت واقفًا على اقدامي وجعلت انظر كالمعتوه اذ شاهدت بغتةً فاتنتي مقبلة مع خادمتها . نعم . نعم . رأيت ثانيةً تلك التي عانيت من اجلها امرَّ العذاب . نعم رأيتها وهي لم تزل كما كانت آية الجمال والكمال . فمن يصف حالتي في تلك الساعة التي انتقلت بها من الغم والقنوط الى السعادة والامل . اما هما فظلتا سائرتين الى الجهة الاخرى وانا اتبعهما النظر الى ان ابتعدتا عني قليلاً ثم سرت على اثرهما متأَخرًا عنهما نحو مئة خطوة وعند ذلك عرَّجتا على شارع « ريجنت » ولم تسيرا طويلاً حتى عطفتا في شارع آخر ودخلتا نزل « مايدا » فعلمت انهما

غريبتان عن البلاد وقاطنتان في ذلك النزل فلبثت برهة واقفاً واذا بنافذة فتحت في الطابق العلوي و بانت منه الفتاة وكانت منهمكة بوضع بعض الازهار في اناء خزفي . وبعد ان انهت عملها القت نظراً هادئاً على الطريق ثم توارت داخل الغرفة

وحينئذٍ شعرت ان قوّة غير منظورة دفعتني لباب ذلك النزل . فقرعتهُ . ولم يكن الاَّ القليل حتى فتحته امرأة قصيرة القامة غليظة الجسم . فسألتها هل يوجد غرفة للاجرة . اجابت نعم يا سيدي . وقبل ان تنهي كلامها صعدت السلم فتبعتني وشرعنا بالتطواف في النزل غرفة فغرفة حتى انتهينا الى احسنها فاسلفتها الاجرة وعدت للاتيان بما احتاج اليه من الملابس مدة اقامتي هناك . وهكذا في اليوم الثاني كنت من جملة سكان ذلك النزل وقد شعرت بسرور عظيم من هذا الاتفاق لانني كنت في الامس آيساً من وجودها حزيناً لبعدها واليوم هي على مقربة مني لا يسومني التمتع بمشاهدة طلعتها البهية كثير عناء .

الفصل الرابع

﴿ ليست اهلاً للمحبة والزواج ﴾

مضى عليَّ اسبوع في تلك الغرفة وانا ارى في كل يوم تلك الغانية واسمها بولينا « هكذا كنت اسمع الخادمة تناديها » وكانت عاطفة الشوق تزداد بي يوماً فيوماً لمحادثتها وقد ظهر لي من مراقبتها انها من السذاجة بمكان عظيم لا تتكلف حركة تشف عن كبرياء وخيلاء وهي ملازمة الصمت الاَّ فيما ندر وذلك عند ما تحتاج الى الخادمة فتاتي اليهــا ببعض كلمات مقتضبة ثم تعودُ الى

حالتها الاولى من الجمود والسكينة ·

وقد انتظرت فرصة تخوّلني التقرب منها فذهبت اتعابي ضياعاً وما كنت قط لاسمع صوتها العذب لو لم اقف لها بالمرصاد وقت ذهابها وايابها فاشير اليها مسلماً فتجيبني ولكن بدون اهتمام ·

هذا وقد ضقت ذرعاً عن كتمان امري واخفاء سرّي فعزمت ان انبذ الخوف والجبن ظهرياً واذهب اليها شاكياً حالتي · ولكنني لما رأيتها في اليوم الثاني لم أتجرَّأ على اتمام عزمي فان سطوة جمالها اذهلتني ونظرها الحاد الجامد لعثم لساني فاحجمت وانا اندب سوء حظي ولم اذق طعاماً ذلك النهار بطوله وعند ما خيم الظلام القيت بنفسي على سريري حيث ضاق صدري وخنقتني العبرات فبكيت كالطفل · واني لكذلك اذ سمعت رنة وتحطم اناء خزفي في باحة الدار عقبهُ صراخ وعويل فاسرعت الى الخارج واذا بتيريزا خادمة بولينا ممدَّدة على الارض تشكو من صدع الم برجلها · وقد انتثر حولها قطع صغيرة من الخزف وتندت اثوابها بما كان من المرق في ذلك الاناءِ · نخاطبتها برقة مقدماً لها يد المساعدة فشكرتني بكلمات انكليزية استنتجت من لهجتها انها غير لغتها · فسأَلتها بالايتاليانية عما اذا كانت تريد ان احملها الى غرفتها · فبرقت أسرَّتها لاستماع لغتها ونظرت اليَّ بعين الامتنان ثم تحفزت للقيام · فرأَيتها غير قادرة على ذلك فاسندتها الى ذراعي واعنتها على الوقوف ولكنها لم تقوَ على المسير فحملتها الى غرفتها ووضعتها على السرير وعدت لارسل من يأْتي بطبيب فصادفت بولينا خارجاً مسندة الى الجدار وهي على حالها من الهدوّ فلما صرت على مقربة منها هشت لي وشكرتني على ما ابديتهُ من المعروف ثم مدَّت لي يدها البيضاء فهززتها بلهفة · وبعد ذلك انسحبت الى غرفة خادمتها وخلفتني جامداً

كالصنم انظر الى الباب الذي حجبها عن عينيّ مفكرًا في ذاك المحيّا الذي خطت عليه يد الحدثان آيات من الحزن يكتنفها رسم من الاسرار العميقة على جبينها الوضّاح كما يتبين من هيئتها الذابلة ·

وفي صباح اليوم الثاني من هذه الحادثة رأيت بولينا ذاهبة للنزهة دون رفيق · فتناولت قبعتي وتأثرتها مسرعاً · وبعد مطارحة السلام افتتحت الحديث بهذه الكلمات · – هل لك مدة طويلة في انكلترا ايتها الانسة ؟ :– لا :– لقد اسعدني الحظ بمشاهدتك في دير الكاثوليك « بتورين » منذ ثلاثة اشهر · فرفعت عينيها وحدجتني بنظرة طويلة · فتممت قولي · وقد كنت مصحوبة بقهرمانتك :– نعم لقد ذهبنا مرارًا الى هناك : – اظنك انكليزية الاصل كما يتبين من اسمك :– نعم :– اعازمة على البقاء في انكلترا طويلاً ام ستبارحينها الى ايطاليا ؟ :– لست اعلم

ثم بادرتها بحديث طويل استطلع به اميالها وادرس طباعها ذاكرًا لها ما يهم النساء معرفةً · كالموسيقى · والرقص · والتصوير · والازهار · ولكن كل هذا لم يكن يستلفت منها الافكار فقلما كانت تطرب اذني باستماع الفاظها الرقيقة بل كان دأبها الاصغاء لحديثي ولم احظَ منها الاّ بكلمة · لا · ونعم · وذلك عندما تضطر الى اجابتي · وقد تبين لي انها لا تفهم كلامي فكانت تارة تشخص بي ذاهلة مندهشة وطورًا تنكس رأسها وتعود الى الافتكار دون ان تبدي بكلمة ولو كنت منتظرًا الجواب

هذا ما علمت من امرها اثناء تجوُّلنا · فلما عدنا الى المنزل ودعتها بكل احترام وذهبت الى غرفتي حزيناً لما استوضحت من اطوارها وذهولها واشفقت عليها وعلى نفسي لاني كنت لم ازل احبها · ولقد تعزيت نوعاً لانها لم تأنف

من مرافقتي مرارًا حتى وفي المرة الاخيرة كاد يقضي عليَّ من شدّة الفرح اذ رأيتها تبسم لقدومي وحينئذٍ تجرَّأْت ان اقدّم لها ظرفاً قد رقمت عليه اسمها الجميل ووضعت فيه كتاباً اصف فيه حالتي وهيامي فتناولته مني وجعلت تنظر اليه باندهاش وحيرة كانه لم يقع نظرها على مثله قبلاً · ثم ارجعته لي وانثنت مسرعة الى غرفتها وقد اوضحت لي حركاتها جلياً انها لا تفقه القراءة فلبثت حائرًا في امرها قائلاً في نفسي : هل يمكن لمثلها ان يحرم من وسائط التعليم وهيئتها تدل على المكانة والشرف

وفيما كنت افتكر في امر الفتاة كانت تيريزا مطلة من النافذة ترقب حركاتنا وسكناتنا وعيناها تقدح شررًا كانها غير راضية عن هذا الاجتماع · ومن ثم عادت لاستصحاب بولينا كعادتها محتملة الآلام باذلة جهدها بابعادي عنها ·

ويوماً ما مرَّت تيريزا بقرب غرفتي فاغتنمت هذه الفرصة ودعوتها فدخلت الى حجرتي وقدمت لها كرسياً فجلست وهي تنظر الى ما حولها كانها ترغب فهم معنى هذه الدعوة فبادرتها بالسؤال عن رجلها فاجابت بصوت اجش انها احسن حالاً · فقدمت لها كاساً من الخمر تجرَّعته بدون تردد · ثم قلت لها : كيف صحة الانسة بولينا فاني لم ارَها اليوم · — اجابت وقد خنقها الغيظ وارجف صوتها التهديد والوعيد · انها على احسن حال

— ربما لم يخفَ عليكِ بانها هي السبب الذي استدعيتك لاجله ·

— نعم لقد علمت كل شيء · قالت ذلك ونظرت اليَّ نظرة تشفُّ عن استعدادها لاشهار حرب ضدي

— اذاً فانت تعلمين ما لا اقدر على كتمانه بعد ··· اني احب الانسة بولينا فاجابت بخشونة وثبات انها ليست اهلاً لان تحب

– ليست اهلاً للمحبة ! كيف لا وهي شابة اديبة وجميلة فاني احبها واريد ان تكون شريكة حياتي · فقالت انها ليست اهلاً للزواج ·

– تيريزا اخبريني ما المانع فانا شاب شريف ومثرٍ وذو حب طاهر ولا ايأس من رضاها فان الامل بذلك عظيم لما اراه من نظراتها اليّ المقرونة بالحنوّ فاستحلفك بكل ما هو عزيز لديك ومقدس ان توضحي المقال وتزيلي عني العناء بلفظة قدّر لي بها السعادة او الشقاء

– انها ليست اهلاً للمحبة والزواج

– تيريزا لقد عيل صبري فلمَ هذا العناد ناشدتك الله ان تخبريني فقط مَن واين هي عائلتها او انسباؤها فاتقدم اليهم بطلب يدها

– قلت ولم ازل اقول ما لا اقدر ان افوه بسواه · انها ليست اهلاً للمحبة والزواج ·

وعند ذلك لم يعد بوسعي الصبر فاتقدت عيناي بنار الغيظ والغضب وكدت ان ابطش بها ·واريها نتيجة اصرارها لو لم يخطر لي ما هو اقدر على كبح جماح النفوس من كل شيء ولا اعظم من سطوته على القلوب وبالحال نفحتها صكاً ماليًّا بقيمة الف فرنك · فبرقت لهُ اسرتها وانجذب بصرها لتلك الورقة فظننت اني فزت بالوطر ولكنها ما عتمت بعد ان صمتت برهة ان نهضت من مكانها مكررة قولها : انها ليست اهلاً للمحبة والزواج ثم ارادت ان تخرج

فاوقفتها وضاعفت لها المبلغ ·فلبثت جامدة لا تبدي حراكاً ثم تمتمت الفي فرنك ! الفي فرنك ! ثمن كلمة ولكن لا · لا ابيعها فهي اثمن من ذلك وهمت بالخروج ثانيةً فضاعفت المبلغ ايضاً حتى بلغت قيمتهُ اربعة آلاف فرنك وقد اخذني العجب والاندهاش عند ما لحظت بانها لم تكتف بعد · فوعدتها

بان سأدفع لها ايضاً قدرهم في يوم تكون بولينا عروسي · ففغرت فاها وشخصت بابصارها وظلت برهةً كالبلهاء ثم قالت سأجيبك في وقت آخر ··· بعد استشارة الطبيب : — من هو هذا الطبيب ألا اقدر ان اراه ؟ — هل اتيت على لفظة طبيب ! فهذا سهوٌ مني · ولكن ساكاتب وليها بهذا الشان وابذل جهدي في مساعدتك : — لا تتأخري واذكري الوعد : — ساباشر ذلك حالاً: — والآن اصدقيني القول يا تيريزا هل تفكر بي بولينا في خلواتها · ألم تذكر اسمي ؟ — من يعلم · ولكني اقول للمرة الاخيرة · انها ليست اهلاً للمحبة والزواج

فقلت في نفسي ساخرًا بها · يالك من بلهاء لا تعرفين اليّ من الليّ · تقولين انها ليست اهلاً للمحبة والزواج مع انه اذا وجد من الفتيات من هي اكثر اهلية للزواج فلا تكون غير بولينتي الجميلة · ولكن لا بدَّ لثبات رأي هذه الشمطاء في بولينا من اسباب محاطة بالاسرار الخفية ثم تذكرت تلك المصادفة في دير الكاثوليك وكيف كانت تصلي بحرارة ففكرت انها ربما تكون كثيرة التدين وتقصد اجتذاب بولينا الى الدير لنذر العفة هذا ما رجحتهُ في ذهني على بقية الافكار « ولكن ساء فالها » فاني استرضيتها بالدرهم الوضّاح ولم يعد عليَّ سوى استعطاف بولينا والاجتماع بها غالب الاوقات فاكتشف منها على ما يهمني معرفتهُ من احوالها وعندما داخلني هذا الفكر شعرت بالراحة والسرور بما توفر لديَّ من وسائل الفوز والنجاح وبت ليلتي مرتاحاً احلم بالسعادة التي كنت بانتظارها ·

ولما كان الصباح ذهبت الى السوق لقضاء بعض الاشغال فصرفت بضع ساعات · وعند رجوعي لم يكن اهتمامي سوى مقابلة بولينا · فاتجهت نحو غرفتها

بقلب خافق · وعند دخولي رأَيت ما لم اكن انتظره · وما الموت الاَّ دونه هولاً وحزناً · رأَيت ما سحق قلبي واوقف سريان دمي · وجعلني كالمعتوه الفاقد الرشد · رأَيت غرفة من قصرت عليها آمالي ومن اسرت فؤادي خالية خاوية لا عين فيها لبولينا ولا اثر · فانطلقت مسرعاً نحو صاحبة النزل لاستطلع منها واقعة الحال · وكنت اقدّم رجلاً واؤخر اخرى خوفاً من ان جوابها يحجب عن عينيَّ الشعاع الاخير من امل لقياها ولكني وجدت ان لا مهرب من الاستعداد لاحتمال الصاعقة التي ربما تنقضُّ عليَّ من جوابها السلبي فقوّيت عزمي واستعنت بالصبر الجميل ولو ذهبت روحي · قائلاً :

سأَصبر حتى يعلم الصبر أنني صبرتُ على شيءٍ امرَّ من الصبر

فتقدمت من المرأَة ونشدت ضالتي لديها ولسان حالي يستعطفها بالتوقف قليلاً عن الجواب اذا كان ما اخشاه قد جرى حقيقةً · فلم استفد منها سوى ان تيريزا نقدتها ما عليها من اجرة البيت وذهبت الى حيث لا تدري · فجزعت لهذا الخبر ثم خرجت اتعثر باذيال الخيبة والقنوط وقد زهدت في الحياة وكدت اقع مغشياً عليَّ لو لم اثبت جاشي ببقية من القوة فاتيت غرفتي وانطرحت على سريري خائر القوى واستغرقت في بحار الاحزان وبثُّ والافكار المزعجة تقلق راحتي · وصرفت نحوًا من عشرة ايام على هذه الحال المنكرة وكلما مرَّ بي يومٌ ولم احظ بفائدة انتظر اليوم الثاني مؤملاً بزيارة تيريزا او كتاباً منها ولذلك لم اكن اخرج من الفندق الاَّ حينما اقصد البحث عنهما ·

ولكن لم اتنسم خبراً يخفف عني وطأَة البلوى · وهكذا مضت بي الايام جزافاً الى ان مللت الانتظار فعزمت على الرجوع الى منزلي وبعده اشخص الى ايطاليا علّي التقي بها هناك ·

وبينما انا كذلك اذ ورد عليَّ كتاب ممهور باسم « مناويل سنيري » يعلمني بقدومهِ وقت الظهيرة فاستغربت زيارة شخص ليس لي به سابق معرفة ولكنه احيا بي بعض الامل · اذ لا بدَّ من وجود علاقة لهُ مع بولينا · ولم يأْتِ الوقت المعين حتى اتت صاحبة النزل تعلمني بان شخصاً يريد زيارتي · ثم ما عتم ان ظهر وراءَها ذاك الرجل الحسن الوجه العريض الكتفين الذي رافق بولينا وتيريزا خارج دير الكاثوليك في ايطاليا · فدخل وسلم ثم جلس بعد ان امر عليَّ نظرًا سريعًا فترحبت بهِ دون اظهار اقل تعجب لزيارته الغير المنتظرة فابتدرني بهذا الكلام ·

— ربما علمت سبب قدومي · — ارجو ان يكون كذلك · — أأنت المستر فوكهان · — نعم · — اعلم اذاً اني انا الطبيب مناويل سنيري وقد اتيت من جينوى عندما بلغني انك تطلب بولينا التي هي ابنة شقيقتي زوجة لك ·

— نعم هذا غاية ما اروم « وقد اخذني العجب بادعائهِ انه خالها وتذكرت عدم اهتمامها بمقابلتهِ للمرة الاولى التي نظرتها »

— اعلم يا مستر فوكهان انه يوجد اسباب جمة تمنعها من ذلك انما تشديد طلبك يسهل لديَّ المصاعب · · · · فلنبحث الآن في هذا الامر · « وكان يتكلم بانكليزية واضحة واسان طلق »

— لقد بلغني انك مثرٍ وذو نسب شريف ·

— يمكنك ان تتحقق ذلك ·

— فانت والحالة هذه قادر ان تجعلني على يقين من وفور ثروتك لاني باحتياج الى ذلك لا سيما وان بولينا لا تملك شروى نقير · فحنيت رأْسي باسماً واخرجت من جيبي قرطاساً وكتبت لهُ تحويلاً على شركائي بان ينقدوه قيمة ما

بلغ من دخل املاكي في نواحي بحيرات سكسونيا · ثم ناولتهُ اياه وقد انحطت منزلتهُ لديَّ لما ظهر لي من تحتهِ · فاخذهُ بلهفة واردف كلامه · لقد كانت بولينا ذات ثروة فقدّر لها فقدانها

– انني لا اطمع منها بدراهم وسيان عندي غنية كانت ام فقيرة

– احسنت · ولكن اعلم ان من كانت بولينا زوجته يشترط عليه ان يقبلها بالحالة التي هي فيها دون ان يطلب الاطلاع على عائلتها او ما هي حياتها بل يكتفي ان يراها شابة جميلة وانهُ يحبها · فاستغربت هذه الشروط حتى اني توقفت عن الجواب مع ما بي من الشوق للحصول عليها ثم قال · والذي اقدر ان افهمك اياه هو انها طيبة القلب عفيفة النفس ولا تنتسب لعائلة احط منزلة من عائلتك وعوائدها اشبه بالانكليز من الايتاليان فبناءً عليه يكون زواجكما غاية في المناسبة · – فصرخت بلهفة رافعاً يديَّ كمن يطلب صدقةً · منّ عليَّ ببولينا فلا حاجة لي بسواها ·

— اذًا ما من مانع بان تعتبرها من الآن وصاعدًا خطيبة لك · · · والآن يامستر فوكهان سأُدهشك كثيرًا بطلبي هذا الاخير فانك تحب بولينا واُؤمل أَلاَّ يمضي عليها ردحٌ من الزمن حتى تبادلك هذه العاطفة · فبناءً عليه لا ارى مانعاً من الاسراع بالزفاف فاني مجبر على مبارحة انكلترا بمدة وجيزة ولا يمكني ابقاؤُها هنا وليس لها من رفيق سوى خادمتها · فصرخت اني اتمنى الزفاف في هذا النهار اذا لم يكن من ثمَّ مانع

– لا لزوم لهذه السرعة فلنا فرصة يومين بعد · فذهلت لهذه الكلمات حتى خيل لي انه احمق وجعلت انظر اليه كأني غير مصدق ذلك ولكن انَّى لي ان ارفض سعادةً قد انتظرتها زمناً طويلاً والآن وافتني دون منازع فما يهمني امره

حاذقاً كان او مختلاً · فقلت وما ادراك ان بولينا ترتضي بي

— انها لاطوع لي من بناني · فلا تعصى لي امراً لا سيما والغاية آيلة لنجاح مستقبلها ·

— ولكن كيف يتم ذلك بمدة وجيزة · فهلاَّ تؤَخر سفرك

— لا يمكنني ذلك اصلاً ولكني اصحبها معي بعد ان ارجع لك المال · هذا اذا لم اكن على ثقة من اني اتركها بين يدي من يودها كنفسهِ

فنهضت حينئذٍ قائلاً : هيا بنا نتوجه اليها فنرى ما يكون من امرها

وفي اثناء هذه المحادثة كنت جالساً قرب النافذة فحجب ظلي النور عن وجه الغريب الذي كان جالساً امامي ينظر اليَّ بامعان وانا غير منتبه لذلك ·

ثم قال اذكر اني رأَيتك في وقت ومكان اجهلهما ·

— لقد ابصرتني منذ ثلاثة اشهر في دير الكاثوليك في تورين · فتظاهر انه استفاق لهذه الذكرى مكتفياً موُّونة التفكر · ثم رغب اليَّ في المسير بجاريته مسروراً بعد ان تجرَّع كل منا كاساً من الخمر · ولم نسر طويلاً حتي وقف تجاه مسكن صغير وقال : انتظر هنا قليلاً غير مأْمور ريثما ادخل واعلم بولينا بقدومك · فاندهشت لسرعة وصولنا وعجبت لجهلي مقرها بينا هما على مقربة مني · فلبثت برهةً واذا بتيريزا مقبلة نحوي وعيناها الصغيرتان تبرق اشارة الظفر والانتصار ولسان حالها يطالبني بانجاز الوعد · وقالت بعد ان طارحتني السلام · هل احسنت في دوري ·

— جزاك الله عني خيراً فلست انسى صنيعك ولسوف انقدك المبلغ عاجلاً

— اصغَ يا مستر فوكهان · فان هذا آخر كلامي معك · ان الانسة بولينا مارك ليست اهلاً للزواج · اما انا فلم اعرها اذناً صاغية بل دنوت من الباب

فلما رأتني على تلك الحال مالت برأسها عني قائلة · ان الكلام لا يجدي معك نفعاً · فتكرم بالدخول الآن لاني انما اتيت لادعوك

ثم اتجهت بي نحو غرفة رأيت فيها بولينا جالسةً والى جانبها خالها فحينما شعرت بقدومي رفعت اليّ نظرها باسمةً ثم نهضت على قدميها فاسرع الطبيب واخذني بيدي وقدمني الى ابنة شقيقته قائلاً ·

هل سبقت لك معرفة يا بولينا بالمستر فوكهان · — نعم · — هو يرغب في الاقتران منك فهل تجيبي طلبه · — نعم اذا اراد ذلك · اجابت بصوت رخيم دون ارتباك او خجل · فسكرت بخمرة الفرح وصرخت بلهفة : بولينا انت سؤلي وغايتي من الحياة فبك رجائي وعليك قد علقت آمالي فهل يمكني ان ارفض سبب سعادتي ··· ولم آتِ على آخر كلامي حتى سحبت يدها من يدي وفرّت من الغرفة بخفة الظبي · فقال سينيري ارجوك يا مستر فوكهان ان تدعني مع بولينا نهتم بمعدات الزواج ريثما يكون غداً كل شيء معد فيمكنك ان تزورنا · فودعته دون ان ارى بولينا وذهبت واجف القلب قلق البال تتنازعني الاسرار من كل الجهات فما كنت لافقه كلمات تيريزا ولا ادري مراد الطبيب بهذه السرعة ومما زاد في قلقي وارتباكي جمود بولينا وذهولها · ولكن مهما كانت النتيجة فلا يمكني الانفصال عمن كلفت بها حتى اني صرت ارغب بالحياة لاجلها وقلت لا بد ان المستقبل يغير الاحوال · ومتى تأكدت خلوصي لها واعتنائي الشديد بها لا تكتمني امراً يتعلق بماضي حياتها · واذ ذاك افقأ بعيني خالها حصرماً · واكتفي مؤونة التعب بنفي اقوال تيريزا ·

وفي اليوم الثاني زرت بولينا وحدثتها في مواضيع شتى فكانت كعادتها هادئة تقتصر على كلمة لا ونعم واحياناً ينجدها الطبيب « الذي كان مرافقاً لنا

كالظل » بكلمات ينهي بها الحديث دون ان يدع لها مجالاً للتكلم . وعند الساعة العاشرة من صباح اليوم الثالث كانت بولينا واقفة الى جانبي مرتدية اثواباً حريرية بيضاء اشبه منها بالملائكة وقد طوّق راسها البديع اكليل من الزنبق يشابه جبينها الوضاح فما كنت لاصدق وانا بذلك الموقف ان الفتاة التي كنت يائساً من لقائها منذ ثلاثة ايام هي الآن موثقة معي بعهودٍ لا يحلها الاَّ الموت .

الفصل الخامس

❊ بحسب الناموس لا المحبة ❊

ما من يصف سروري وابتهاجي حينما كان يقلني القطار مع بولينتي المحبوبة في ظهيرة اليوم الذي تمَّ به عقد زواجنا . فانه عند نهاية الصلاة ودعت الطبيب وذهبت ببولينا الى جنوبي انكلترا وهو سار الى جينوى تصحبه تيريزا التي لم اخلف لها بوعدي بل نقدتها القيمة بكل طيبة خاطر فودعتني شاكرة . وعند وصولنا الى اول محطة خرج الناس افواجاً لتسريح النظر في تلك الجهات وبقيت انا وبولينا فجعلت انظر الى محياها اللطيف بينما كان النسيم يهب متلاعباً بشعرها الحريري فالفيتها اجمل جدًّا من ذي قبل وما تمالكت نفسي ان هتفت صارخاً : بولينا . ما اجملك . آه كم احبك . فرمقتني بنظرة باردة وامالت رأسها عني كاني بها لم تفقه كلامي فبكيت حزناً . ثم اخذت يدها بين يدي وقبلتها قائلاً : انك لا تحبيني الآن يا بولينا ولكن سوف تحبيني فيما بعد .

فكانها تأثرت لمشاهدتها الدمع يذرف من عيني فبكت . فقلت لها لمَ تبكين يا بولينا . فلم تجب بل ارتعشت قليلاً ثم خفضت رأسها وعادت للافتكار

فاعتمدت رأسي بين يديَّ وجعلت اتأمل في الحالة التي صرت اليها وقد ندمت حيث لا ينفع الندم باتخاذي زوجة حسب الناموس لا المحبة المتبادلة وقلت في نفسي ما ضرَّني لو كنت ذهبت مع الطبيب وخطيبتي الى جينوى وانتظرت ريثما اتأكد منها الخلوص ومن ثمَّ لا اصادف منها عدم مبالاة فاحيا سعيداً . واما الآن فما لي ان اعاتبها على جفاها لاني انا الجاني على نفسي . لقد رضيت بالاقتران بها دون ان اعلم عن حقيقة حالها امرًا زاعماً انها لاتلبث طويلاً حتى تتجرد من هذه الهيئة المحزنة المغايرة لكل ذي فكر . فما اتعسني اذا دامت على هذه الحال . وهكذا كانت تتقاذفني الافكار . فاعدت على ذاكرتي ما مرَّ بي في سالف حياتي من غرائب الحوادث من حين كنت اعمى حتى تلك الساعة فلم ارَ سوى اسرار ومخاوف تترصدني من كل الجهات . ثم نبهني تماهل سير القطار معلناً بالوصول الى «ادنبرج» فالتفت الى بولينا فلم ارَ اقل تغيير في هيئتها الجامدة وكانها الفت تلك المناظر قبلاً . فصرفنا نحو ثلاثة ايام بالتفرج على مدينة ادنبرج لم افتر باثنائها عن الاعتناء ببولينا واستلفات افكارها لكل منظر جميل . لكن وا اسفاه . لقد اختبرت طباعها واتضحت لدي كلمات تيريزا من عدم اهليتها للزواج وعلمت مقاصد الطبيب سينيري وشرطه على من تكون بولينا زوجته ان يرضاها بالحالة التي هي فيها . فيا لشقاوتي . ان من افرغت لها ارفع المنازل في قلبي هي فاقدة الشعور . بيدَ انها لم تكن خالية العقل انما كانت فاقدة قوة الذاكرة فلا تذكر شيئًا ماضياً ولا تبالي بمن حولها من الناس وكان جل اهتمامها بقوتها وراحتها وترتيب اثوابها . فتنقاد لاقل اشارة تبدو مني دون ان تعلم النتيجة منها . فهي آلة صماء . وبعبارة اخرى . عقل طفل في جسم امرأة . . . أفألام اذا حسبت نفسي اتعس المخلوقات . فاني

ما زلت. ولن ازل احبها بل اصبحت اشد ولوعاً بها من ذي قبل فان هيئتها الذابلة وجمالها السامي وسكوتها الدائم لمَّا يجعلها كالحمل الوديع ويقوي عاطفة حنوي اليها ويذيب قلبي شفقة عليها

فقلت لها ذات يوم · هل لك رغبة بالرجوع الى لندره · فلم تبدِ اشارة تعلن بعدم ارتياحها الى ذلك بل نهضت حالاً واعدت امتعتها لمرافقتي · فسافرنا من ادنبرج قصد الرجوع الى الوطن وقد عزمت بعد ذلك على اللحاق بالطبيب ليوضح لي الاسباب التي جلبت على زوجتي هذا الداء فربما يوجد وسيلة لشفائها

وبعد ان قضينا اكثر الليل على الطريق وصلنا الى « محطة بوستون » وكان قد اشرق جبين الصباح فخرجت مع بولينا من الباخرة لاستنشاق نسيمات السحر وعند ما وقعت عيني على تلك المناظر تبسمت بمرارة متذكرًا يوم اتيت ببولينا ولم اكن اعلم وقتئذٍ من حالها شيئًا بل كنت اعد نفسي من اسعد البشر غير عالمٍ بما خبأ لي الدهر من الرزايا · ثم التفتُّ الى بولينا فوجدتها بيضاء كالرخام وقد فارق الذهول عينيها الجيلتين فجعلت تنقل بناظريها الى كل الجهات باشة الوجه منتعشة بذلك النسيم اللطيف الذي كان يهب عليها مجعدًا اطراف ثوبها · فوددت من صميم قلبي ان تكون بولينا كما اشتهي ولو فقدت كلما تملكه يدي وعند الساعة السابعة وصلنا الى منزلي في شارع ويل بول وباثناء ذلك سالتها اذا كانت تعلم مقرَّ الطبيب سينيوري لا كاتبه · فكان جوابها بان خفضت راسها ولم تفه ببنت شفة فاعدت القول : اجهدي الفكرة يا عزيزتي علك تهتدين الى الصواب · فجعلت اصابعها الفضية على صدغها ولبثت برهة جامدة · فلحظت انها باضطراب شديد · فقصدت ان انبه منها الفكر فقلت : اظن بان تيريزا تعلم ذلك · — نعم فاسالها · — ولكن اين هي

فامالت راسها عني ولم تجب · فقلت ايضاً · لقد اخبرني الطبيب انه ذاهب الى جينوى فهل تدرين لاي جهة منها · فنظرت اليَّ بارتباك ولم تفه بكلمة · فتيقنت انها غير قادرة على مساعدتي · فقصدت السفر الى جينوى حتى اذا ما التقيت به هناك اذهب توًّا الى ايطاليا · وفي اليوم الثاني ودعت بولينا قائلاً لها انني ساغيب عنك بضعة ايام فلا تتكدري مدة تغيبي وانك لتجدين من يعتني بك كثيرًا · قالت كما تريد ياعزيزي جلبرت · « قد علَّمتها ان تناديني هكذا لاني الذُّ باستماع اسمي يلفظ من بين شفتيها » فذهبت بعد ان اوصيت لبريسلا حالة بولينا وحرصتها على الاهتمام بشانها والاعتناء بها · وقبل ان خرجت من باب الحديقة نظرت الى النافذة حيث فارقت حبيبتي الجميلة · ويا لها من ساعة شملت فؤادي وسرور ملأَ قلبي فكان لي زادًا للسفر ··· فقد عاينت بُرَيق الامل يلوح لي من خلال دموع قدتساقطت على خديها كقطر الندى ولبثت واقفة امام النافذة تنظر اليَّ وانا اسير الهوينا متلفتاً نحوها حتى تواريت عنها وكانت هي المرة الاولى التي ظهر عليها التأَثر والانفعال ·

الفصل السادس

﴿ اجوبة غير مقنعة ﴾

اتيت جينوى امل ان احظى بالطبيب سنيري دون مشقة لانه من شأْن الاطباء اذاعة اسمائهم ومحلات سكنهم لرواج بضاعتهم · ولكن ساءَ ما توهمت · فاني قضيت اسبوعاً بالتفتيش عن سنيري ولم اقف له على اثر واخيرًا تيقنت انه

اما ان يكون قد اخبرني بغير اسمهِ الحقيقي او ان جينوى لم تكن وطنه كما زعم ولكن كيف كان الحال فقد آليت على نفسي ألاَّ انفك عن التفتيش عنه حتى اجده ولو بذلت في ذلك ما عزَّ وهان ·

لأَستسهلنَّ الصعب او ادرك المنى فما انقادت الآمال الاَّ لصابر

وفي صباح اليوم الثاني بينما كنت اتجوَّل في شوارع المدينة اذ لمحت عن بعد رجلاً ظهر لي اني اعرفه قبلاً فدنوت منه وبعد امعان النظر فيه الفيته نفس الشاب الذي كاد يتخاصم مع رفيقي ادوار بايطاليا · فقلت في نفسي ابشر يا جلبرت فقد فزت بالمرام فان هذا الشاب يطلعك على ما تريد معرفتهُ لانهُ لا بدَّ ان يكون من اصدقاء الطبيب · وحينئذٍ دنوت منه وحييتهُ بالانكليزية فردَّ تحيتي باحسن منها · فبادرتهُ بالكلام قائلاً · هل لك ياسيدي ان تجيبني على سؤَال اعرضه عليك ·

— قل ما تشاءُ فاني مستعد ان اقدم لك ما يمكنني من الخدم ·

— اطلب منك ان ترشدني الى محل الطبيب مانويل سنيري · ولم آتِ على هذه الكلمة حتى اضطرب وتغيرت ملامحه ولكنه عاد فتغلب على اضطرابه بالحال واجاب بسكينة · انني لا اعرف رجلاً بهذا الاسم · وتركني وانصرف فتبعته واوقفته قائلاً : كيف لا تعرفه وانت احد اصدقائه

— قلت لك اني لست اعرف رجلاً يدعى سينيري فاقتصر

— لا خوف عليك ياسيدي من الاقرار بكونك صديقه ولقد شاهدتك برفقته · — اين ؟ · — في تورين قرب دير الكاثوليك

فحملق بي برهة ثم قال الآن تذكرت انني رأَيتك هناك صحبة شخص آخر وقد اهتما بالكلام احدى السيدات فرمت المدافعة عنها

– اننا لم نقصد اهانتها يا سيدي فارجوك ان تتناسى ذلك لا سيما وان لاجل هذه الفتاة اسألك عن محل سينيري خالها · فاجاب مندهشاً : وكيف عرفت بانه خالها ؟ · – هو قال لي ذلك · – اذاً ينبغي قبل كل شيء ان نلتجيء الى مكان منفرد فان الحديث ذو شان · – هلمَّ معي الى النزل حيث انا مقيم · قلت ذلك واخذت بذراعهِ حتى اتينا غرفتي · فقلت له تكلم الآن فاننا بمأمن من افشاء سرنا · – هل يمكنني معرفة من اتشرَّف بمخاطبتهِ · – جلبرت فوكهان · – ارجوك يامستر فوكهان ان تفيدني اولاً عن الاسباب التي تلجئك للبحث عن سنيري · – لا يمكنني ان اقول لك ذلك فعذراً · – ولكن كيف تأَتَّى لك المعرفة بابنة شقيقتهِ · – عمن تعني · أعن زوجتي · — وهل بولينا زوجتك · — نعم · فنظر اليَّ وقد جحظت مقلتاه وامتقع وجههُ وارتجفت اعضاؤهُ · وقال · ابدًا · ابدًا · لا يمكن ان يكون ذلك فانت كاذب · فكدت اتميز من الغيظ وانتصبت واقفاً وقلت له بصوت جهوري اقصر ياهذا واعتذر بالحال عما الحقت بي من الاهانة او اطردك خارجاً ·

اما هو فادرك خطأَهُ وحوَّل بوجهه عني قائلاً ارجو عفوًا · فقد فهت بذلك دون تروٍ · ولكن هل علم الطبيب بزواجكما · — كيف لا وقد تمَّ القران بحضرتهِ · فجعل يتمشى في الغرفة بخطوات متسعة ويتمتم بكلمات لم افهم منها سوى « لقد خُدِعْتُ » ثم تمالك روعه · واجاب بلهجة الساخر · اني اتمنى لك التوفيق بحصولك على رفيقة جميلة فما الذي تبتغيه الآن من سنيري · — شيئاً مهماً · فبرقت اسرته وكشر عن انياب المكر والدهاء وقال · ربما اهميتهُ تعود عليك بالانفصال عن عروسك · فاغتظت من كلامه وقدظهر لي انه عالم بحال بولينا ولكني لجأت الى ملاطفته بغية الاطلاع على كنه المسألة · فقلت ارجوك

الآن ان ترشدني الى محل سينيري ولك الفضل

– هو الآن متغيب عن البلدة وسيقدمها بعد اسبوع وحينئذٍ اعلمه بقدومك ثم ودعني وذهب · وبعد ان مضى اسبوع على تلك الحادثة اتاني كتاب وهذه صورته :

« اذا كنت تودّ الاجتماع بي فدونك عربة تجدها على باب الفندق عند الساعة السابعة فتقلك الى حيث انا مقيم » · التوقيع · م · س ·

وعند الساعة السابعة تماماً كانت العربة بانتظاري · فسارت بي الى منزل صغير خارج المدينة · فترجلت وقرعت الباب واذا بالطبيب قد انتصب امامي وبعد ان تبادلنا التحية ادخلني الى حجرة صغيرة فيها من الاثاث كرسيان قديمان ومنضدة عليها بعض الاوراق · فجلسنا ثم افتتح سينيري الحديث بقوله :

بلغني انك اتيت جينوى للبحث عني · — نعم فاني ارغب اليك ببعض اسئلة تهم بولينا · – واني مستعد لاجابة سؤالك قدر امكاني ·

– لِمَ لمْ تجعلني على بصيرة من طباع بولينا قبل ان اقترن بها

– لانك رأيتها وحدثتها مراراً فكنت خليقاً والحالة هذه ان تختبرها بنفسك

– لقد اغريتني يا مستر سينيري وكان الاجدر بك ان تطلعني على الحقيقة وتنجو من سهام الملام · – ولكن لم يمكني ذلك لاسباب تتعلق بي

– وما هي تلك الاسباب · – هي من جملة الاسئلة التي لا اقدر ان اجيبك عليها · — اذا كان من الواجب الاّ تدعني اقترن بها بينا انك عاجز عن اظهار امرها · – لقد كانت حملاً ثقيلاً على عاتقي فاردتُ الخلاص منه ولذلك لم يمكني ان اخيب طلبك · — ولكنك لم تخش عاقبة خداعك لرجل ربما افضى به الامر الى ما لا تحمد عقباه وذلك عند ما يتبين لديه ان المرأة التي

اقترن بهـــا فاقدة الرشد · — قد ظننت انها لا تلبث طويلاً حتى تعود الى ما كانت عليه من قوّة الادراك · — اذاً هي لم تكن كذلك منذ ولادتها ·

– لا وانما طرأ عليهـــا حزن فجائي اورثها مرضاً شديداً كانت عاقبته البله

– ما هو سبب حزنها · – لا اقدر ان اقوله · — ولكن لي الحق ان اسال

– ولي الحق ايضاً ان لا اجيب · — اوضح لي على الاقل امر عائلتها

– هي وحيدة وما من احد ينسب اليها سواي

– وذاك الايتاليانى صديقك ؟ اي علاقة له مع بولينا فاني ما ذكرت اسمها لديه حتى تغيرت ملامحه واعتراه اضطراب شديد

فتبسم هازًّا كتفيه وقال · أتعني بقولك ماكيري ؟ فاعلم انه منذ سنة او اثنتين اي قبل ان تفقد بولينا الادراك كان هذا الفتى يتزلف اليهـا طمعاً بالاقتران بها · فسبقهُ اليها المرض وهكذا لبث بانتظار الشفاء ·

فقاطعتهُ قائلاً ولِمَ لم تنتظر انت ايضاً شفائها فتزفها اليه

ـ يظهر انك ندمت على هذا الارتباط يامستر فوكهان ·

ـ لا طالما لي امل بشفائها ولو بعد حين · · · ولكنني اقول لك يا مستر سنيري · انك خدعتني ظلماً · ثم نهضت قاصداً الانصراف وانا لا اعي من شدة الغيظ لانني لم اقصد جينوى ولا تحملت مشاقـــ السفر ومرّ الانتظار الاّ لاستنير باخبار تعود بالنفع على تلك المسكينة فما ازددت الاّ غموضاً · ولست بعائد الى لندره الاّ كما زايلتها · غير ان كلماتي الاخيرة اثرت بسنيري فلطفت نظراته الوحشية · وقال باسماً · لا تسرع بالحكم عليّ كمذنب وانت لا تعـلم الاسباب التي تلجئني لان اكون كذلك · فاعلم يا عزيزي · ان بولينا قد ورثت من والديها مبلغاً وافراً لا تقل قيمته عن ستمئة الف ليره واذذاك كنت مثقلاً

بالديون بل على شفير السقوط في وهدة الذل والفاقة · فاقترضت قسماً عظيماً من اموالها التي كنت حرّ التصرف بها حيث اني كنت وليها · ثم انفقت ما بقي من المال جزافاً وبذرته اسرافاً الى ان نفذ الكل · فلما تحققت الفتاة انها اصبحت صفر اليدين استولى عليها حزن عظيم افضى بها الى مرض شديد عقبه الجنون · — وهل حلل لك ضميرك التصرف بمال يتيمة وحيدة · اولم تدرِ بان هذه جناية · · — جناية او جريمة · فاني لا اعبأ بذلك · ان المال قد وجد للاستعمال وقضاء الحاجات فكيف يمكني ان اذل نفسي واكون محتقراً لدى مدائنيَّ بينا انا قادرٌ ان ادرأ عني العار والمال في قبضة يديَّ

— وهل ظننت ان اهتمامك بزواجها يعوّض عنها ماجلبْتَ عليها من الوبال ·

فاجاب بصوت منخفض · لقد اجبرت على مفارقتها وليس لي امل ان اراها بعد فقد قضي عليَّ ان انهي حياتي بعيداً عن الوطن · فقلت متهكماً اتعني بانك مندوب لارتكاب جريمة اخرى · · · — لم اعنِ الاَّ ما قلتهُ · فاودعك الآن الوداع الاخير · قال ذلك وقدم لي يده التي لم يسعني رفضها · واردف قائلاً ربما اكاتبك بعد سنة او اكثر وعندئذٍ تخبرني شيئاً عن احوال بولينا · واذا لم افعل فلا تحمل نفسك اتعاب البحث عني

وبعد ذلك شيعني الى الباب حيث كانت العربة لم تزل بانتظاري · فسار كلٌّ منا في طريق · ولم اسر طويلاً حتى تعرض لي في الطريق الرجل الذي دعاهُ الطبيب « ماكيري » فاشرت الى السائق بالوقوف وللحال صعد فجلس بجانبي · ثم قال · ارأيت الطبيب يامستر فوكهان · — نعم فاني انما الآن آتٍ من عندهِ · — ارجوان يكون كشف لك النقاب عما اتيت بصددهِ · — بعض الكشف · فقال ساخراً · اذاً لم يطلعك على كل شيءٍ · فتميزت من شدة

الغيظ ولكني لزمت الصمت فاتمّ حديثهُ قائلاً · اظنك لو سألتني لأفدتك اكثر منه · · – لقد طلبت اليه ان يفهمني الاسباب التي جلبت الى قرينتي داءً لا اشك بانك عالم به · · فاذا كان كذلك ارجوك بان تفهمني الحقيقة · – ولكن ماذا اجاب سينيري بهذا الشأن · · – قال انه نتيجة حزن استحوذ عليها فجأة فهل من سبب يلجئك انت ايضاً الى الكتمان مثلهُ · وان صحّ ذلك فما هو السبب يا ترى حتى انك لا تفتدي به حياة شخصين وسعادتهما · — سأفعل · ولكني · · اخاف · — ممن ؟ – من انك تفتك بصديقي متى احطت علماً بافعاله المنكرة · – ولكني اعدك · بل احلف لك بكلما هو عزيز ومقدس لديَّ أَلاَّ اتناولهُ باذًى · – أَلست عازماً على الرجوع الى انكلتره · · – بلى في اقرب آن · · – فتكرَّم عليَّ بنمرة محلك فاما ان اكاتبك او اذهب اليك بنفسي · فلبيت طلبه وفي اقل من ظرفة عين كان منتصباً خارج العربة يرمقني بعينين تتقدان خبثاً ودهاءً · وقال · سوف تجني ثمرة اهتمامك بمعرفة ماضي حياة بولينتك الجميلة · فكانت كلماته كسهم سمعت له رنة في قلبي · واوشكت ان القي بنفسي من العربة واضغط بيدي على عنقه ولا ادعهُ يتملص منها حتى يوضح لي عبارته الاخيرة · ولكني عدت فتجلدت اذ لا ينفع الغضب في مثل ذلك الحين ·

الفصل السابع

﴾ ادعاء نسبيّ ﴿

عدت الى لندره وقلبي يحدثني بان ربما تغيبي تلك المدة يكون قد محى رسمي من ذاكرة بولينا · ولكن لم تتحقق اوهامي · فانها قد تذكرتني حالاً ورحبت بي

وكانت مسرورة جدًّا بقدومي . فآه كم كنت سعيدًا لو انها صحيحة العقل كاملة الشعور .

فمضى علينا بعد رجوعي عدة شهور دون ان يحدث شيءٌ مهم . وفي خلال ذلك استدعيت امهر الاطباء في انكلتره لمعالجتها فاجمع رأيهم على الامل بشفائها قريبًا لا سيما اذا عرف سبب اختلالها فكان ذلك مما يزيدني حسرة لمرأى ماكيري او كتابًا منه . وهكذا ذهبت بي الايام وانا اتقلب على جمر الانتظار مترقبًا هذا الرجاء الاخير .

وكنت اصرف معظم اوقاتي في منزلي في شارع ويل بول لا انيس لي ولا سمير سوى بولينتي المحبوبة فالبث ناظرًا الى محياها الجميل كمن ينظر الى تمثال منحوت او رسم متقن . واذذاك يستولي عليَّ الغم والحزن فالهي نفسي بقراءة بعض الكتب التي كانت سلوتي الوحيدة في تلك الشدة وكان يعزُّ عليَّ جدًّا الحضور في المجتمعات وانتياب مجالس الانس دون بولينا لانها لم تكن تسرّ بذلك بل كان يستحوذ عليها اضطراب شديد لدى استماعها عزف الموسيقى حتى يكاد يغمى عليها ولذلك كنت اتجنب حتى في البيت ممارسة بعض الالحان على البيانو مع اني كنت شديد الولوع بها .

وكأني بها احيانًا تشعر بعنايتي الشديدة بها فتبتسم كأنها تريد ان تشكرني وهمت مرتين او اكثر بان تقبل يدي . وبالجملة كانت كطفل صغير يتعلم رويدًا كيف يحب اباه .

وفي احد الايام بينا انا منفرد في غرفتي دخل عليَّ احد الخدم معلنًا قدوم شخص من جينوى فعلمت انه ماكيري السيء الادب وكدت ارفض مواجهته متذكرًا ما الحق بي من الاهانة والاحتقار فيما مضى ولكنني عدت فافتكرت

بانه ربما يطلعني على سبب مرض مليكة فؤادي · او علَّ مجالسته اياها تنبه في ذاكرتها شيئاً من سالف حياتها او تذكرها بحوادث مرت عليها

فتوجهت نحو ردحة الاستقبال حيث تبادلنا التحية · فبادرني بالكلام قائلاً · – أرأَيت كيف لم انكث بوعدي · — اني على ثقة من صدق كلامك · فهل لك مدة طويلة في لندره · – بضعة ايام · — وهل تطيل الاقامة فيها · — ريثما تستدعيني الظروف لمبارحتها ·

– فنظرتُ اليه بامعان علّي استطلع خفايا نواياه ·

فقال ضاحكاً اظنك حزرت الخطة التي انا سائر عليها · – يتبين لي انك رجل سياسي وكثير الفتن · – نعم سياسي كثير الفتن وان شئت فقل رسول الحرية · – ولكن الحرية قد نشرت على بلادك لواء الغبطة والهناء منذ ازمان ·

– اجل ولكن بلداناً أُخر تحتاج لما ذكرت وقد بذل صديقي المسكين سينيري جهده في هذا الامر وكاد ينجح لو لم تمنعه اشغال يومه الاخير · –وهل مات ؟ – كلا · ولكن بعد ان فارقته في جينوى بمدة وجيزة القي القبض عليه ثم حوكم في بطرسبورج وسيقاد الى سيبريا حيث يقضي اثنين وعشرين سنة بالاشغال الشاقة · — اوَ هربت انت اذاً · – بدون ريب والاَّ كيف اتيح لي الوجود في هذا المكان اتلذذ بتبغك الجيد وخمرك المعتق · · · آه انه لا يمكنني التفكر بحالة سينيري المسكين الا ويعتريني اضطراب شديد وذلك لاني لاحق به لا محالة والآن إئذن لي يا مسترفوكهان بالخوض معك في حديث ذي شأن ربما افضى بك الى الاندهاش · – قل فكلي آذان لاستماعك · – ان قبل الشروع به اسأَلك ماذا قال لك سينيري عني · – لم يقل لي سوى اسمك · – ولكنه لم يذكر لك اسمي الحقيقي · – وهل تدعى بغير ماكيري · – انني اعرف بين

الناس باسماء جمة ولكن اسمي الحقيقي هو انتونيس مارك شقيق بولينا زوجتك فذهلت متحيرًا لهذا الخبر الجديد ولم اصدقه البتة ولكني لزمت الصمت لاسمع تتمة الحديث علّي استوضح قصده بذلك . ثم قال : أَعلمت يامسترفو كهان كيف تصرف خالي سينيري بالاموال التي تركها والداي لي ولبولينا ؟ . — انه كما اعلمني كان قد استخدم قسماً منها لوفاء ديونه و . . . — وانا اخبرك كيف ذهب بالقسم الآخر . فتنبهت افكاري وشخصت به مستبشرًا بكشف الغوامض . اما هو فتمم حديثه قائلاً . لقد انفقه في سبيل منفعة ايطاليا . واني لا الومه قط لتورطه في هذه الاعمال بل بالعكس اجل مقاصده واعتبرها مع ان هذه الاعمال نفسها هي التي اوصلتني الى حضيض الفقر . — اذًا دعنا من ذلك . — ولكني باحتياج شديد لمساعدتك في هذا الشأن فان دولة عما نوئيل قد تشيدت واستتب لهُ الامر ودانت لهُ البلاد رغماً عن كثرة اضداده . فاذا شددت ازري واخذت بناصري لعرض الدعوى على الملك فلاشك انه يعوّض علينا بعض ما بذلناه من الخسائر حباً بالوطن . وانه لا يبعد ان يكون لك اصدقاء في انكلتره قادرين على استمالة قلب الملك كما وان لي ايضاً بعض الاصحاب في ايطاليا لهم علاقة مع احد الوزراء فنطلب مساعدتهم . ولا يغرب عن فهمك ان بعملك هذا تسترد ثروة زوجتك ايضاً . — ولكني لست باحتياج الى دراهم .

فاجاب مقهقهاً واما انا فاني خالي الوفاض او كما يقال افلس من ابي طنبوره وقد جعلت اتكالي عليك فاذا لم افز بمرغوبي لا اظنك تبخل عليّ بدريهمات قليلة . . . والآن هل يمكنني مشاهدة بولينا . — نعم . سأَدعوها اليك . — وهل هي احسن حالاً يامسترفوكهان ؟

فاملت رأْسي بهيئة محزنة . فقال . مسكينة . مسكينة . اظنها لا تعرفني

الآن لاني فارقتها حينما كنت في الثامنة عشرة ولم ارها منذ ذلك الحين ٠

وعند ذلك طرقت ذهني كلمات الطبيب التي تنافي زعم ما كيري ٠ فقلت في نفسي لا بد ان يكون احدهما قد خدعني ولكني ارجح الاخر اذ اتضحت لديَّ غايتهُ من ذلك : ولكن ساءَ وهمك ايها الايتالياني فحيلتك لم تنطلِ عليَّ: فقلت له ٠ يامستر ما كيري ٠٠٠ عفواً فاسمي مارك ٠ ــ اجل فيامستر مارك أَلا يمكنني ان اعرف ما هي الاسباب التي جلبت على زوجتي هذا الداء ٠

فاطرق الى الارض برهة متظاهراً بالكآبة ثم قال سأُخبرك في وقت آخر ٠ ثم قطع حديثنا دخول بولينا فنهض ما كيري وتقدم نحوها قائلاً : هلاَّ تذكريني يا بولينا ٠ فرمقته بنظرة طويلة حادة ولم تجب وكأَني بها قد اندهشت لهذه المفاجئة ثم امالت رأْسها عنه وكانت كمرتابة في امرها ٠ ثم قال لها ٠ لقد طال زمنٌ لم أَركِ فيه يا بولينا ولكنه غير كافٍ لان ينسيكِ اياي ٠ فصوَّبت نظرها الحاد نحو وجههِ بهيئة مزعجة ولكنها لم تُبدِ اشارة تدل بان لها سابق معرفة به ٠

فقلت لها أَلا تعلمين من هو يا عزيزتي ٠ فامرَّت يدها على جبهتها بعد ان خفضت رأْسها ثم تمتمت هاتين الكلمتين بالايتاليانية لا تذكّرني

وقد لحظت بانها تود الفرار منه عند ما قبض على يدها للسلام ٠ ولكنها ما لبثت برهة حائرة حتى رمت بنفسها على كرسي وهي تصعد الزفرات ٠

هذا ولم ترفع عنه نظرها اثناء زيارته بل كانت شاخصة بوجههِ لا تملّ من مراقبة كل حركة يأْتيها ٠ فتفاءلت بالخير لهذا التأْثير الذي ظهر عليها وادركتُ بان هذا الرجل الذي لا اعلم ان كان عدوّي ام صديقي هو الشخص الوحيد الذي يقدر ان ينشلني من وهدة التعاسة ولذلك بالغت في اكرامهِ

والتمست منه مواصلتي بزياراته كلما سنحت له الفرصة

وبعد ان ذهب رأيت بولينا تتحرك في كرسيها مضطربة وهي تمرّ يدها على جبهتها حيناً بعد حين كأنها تطلب تفسير امرٍ اشكل عليها · واحياناً تقترب من النافذة فتلقي نظرات غير مستقرة على احدى الجهات ثم تعود فتلتفت نحوي بهيئة مستغربة تغاير حالتها العادية · اما انا فتظاهرت بعدم اهتمامي بتلك الحركات التي اكدت لي ان رسم الماضي سيعود لذاكرتها شيئاً فشيئاً ·

وهكذا انتظرت ماكيري في اليوم الثاني علّها اذا اكثرت من النظر اليه يرجع الى ذهنها ما تجهد نفسها الآن لمعرفته اما هو فلم ينكث بوعده بل وافاني في الوقت المعين «لا سيما وانه باحتياج اليّ» فكان دأبهُ بعد ذلك التقرب مني والمبالغة باعتباري وبالجملة فانه اجاد تمثيل دوره بمهارة وحذق ·

ثم زارنا بعد ذلك مراراً وفي كل مرة كنت اتبين في هيئة بولينا تأثيراً يزداد يوماً فيوماً · فكانت في اثناء زياراتهِ تلازم الغرفة التي يجلس فيها دون ان تفوه بكلمة · وكأني بها تزداد حزناً لدى مرآه وبالعكس وقت ذهابه فانني كثيراً ماعاينتها تتنهد واضعة يدها على صدرها كان حملاً ثقيلاً قد تزحزح عنه فينفطر قلبي اسفاً عندما اراها على تلك الحال وانا غير قادرٍ على كشف همها وتفريج كربها · وكنا ذات يوم جالسين في الحديقة عند الغروب انا وماكيرى وبولينا على عادتها شاخصةٌ بالزائر وهو يقص علينا اهم ما حدث لهُ في المواقع الحربية · فمن قوله انه اشرف يوماً على الموت اذ طعنه احد الاعداء بمدية اصابت يمناه فقطعتها · قال ذلك واخرج يده المقطوعة من كمه وارانا اياها ثم تناول خنجراً صغيراً من جيبه وحركه في الفضاء واردف قائلاً : وهكذا استليت سيفي باليسار وصوبته نحو خصمي وضربته فيه ضربة واحدة

ارديته على الارض قتيلاً . ولم يأتِ على هذه العبارة حتى سمعت انة عميقة بجانبي وصوت وقوع جسم على الارض . فالتفت واذا ببولينا مطروحة قربي وعيناها مطبقتان ولا حركة بها تدل على الحياة . فاسرعت وحملتها الى غرفتها ثم عدت الى ماكيري مستأذناً بمفارقته . فقال عسى الاَّ يكون بها ما يخشى عاقبته

— لا . ولكن قد حصل لها اغماء بسيط ربما كان نتيجة اشارتك التي ارهبتها .

قلت ذلك واسرعت بالرجوع الى غرفة زوجتي فاذا هي لم تزل على حالها ممددة بلا حراك صفراء كالموتى . فنضحت وجهها بالماء . وانشقتها بعض المنعشات ولكن بدون جدوى فلبثت على هذه الحال نحو ساعتين كنت باثنائها جاثياً بجانبها اقبل يديها ساكباً عليهما الدموع وقلبي ينفطر حزناً لهذا المشهد المؤثر واوشكت ان ايأس من سلامتها لو لم اضع اصابعي على معصمها فاشعر بضربات خفيفة تؤذن بحياتها ثم قربت وجهي من وجهها فحسست بانفاسها الهادئة تمرّ على خدي كانها تبشرني بسرعة عودها الى الوجود . ثم طرق ذهني فكر احيا بي بعض الامل برجوع شعورها بغتة اذ لا يبعد ان الحادثة التي سببت لها هذا الاغماء قد نبهت في ذاكرتها امراً كان لديها منسياً فلعل هذا التذكار يجعل فيها تأثيراً حسناً .

وبينما انا كذلك اذ تحركت وفتحت عينيها ثم نظرت اليّ . . . ولا يمكنني ان اصف خفقان قلبي عندما عاينت في نظرتها نوراً لم اره قبلاً .

الفصل الثامن

﴿ التذكار ﴾

لقد افاقت بولينا وجلست على فراشها بهيئة مغايرة لما كانت عليه قبلاً وجعلت ترسل اسهم نظراتها الحادة مخترقة ما حولها من الجهات . ثم تململت وهي تصعد الزفرات وقطبت حاجبيها فناديتها باسمها وكررت ذلك مراراً قصد استلفات افكارها وملافاة احزانها واضطرابها فلم تعي لكلامي ولم تنتبه لوجودي في الغرفة ثم نهضت بغتة وخطرت نحو الباب فجذبتها بلطف من ذراعها كي تعود الى فراشها وتأخذ لنفسها بعض الراحة . ولكني الفيت بها من القوة ما ارجعني بالخيبة فرجوتها بارق عبارة ان ترجع عن قصدها . ولكن لا حياة لمن تنادي . فتركتها وشأنها تسير حيث شاءت وانا اتبعها لارى اخيراً ماذا يكون من امرها

فزايلت الغرفة وحينئذٍ تبين لي انها تقصد الباب الخارجي فلبست للحال قبعتي وأخذت برنساً ووضعته على كتفيها فاقتبلته دون ممانعة وسارت مسرعة وانا اتبعها حتى افضت الى الزقاق وعند ذلك اوصدت الباب واخذت المفتاح بيدي ولحقت بها فطافت بي شارع ويل بول ثم عطفت الى الجهة اليمنى منه وابتعدت مسافة نصف ميل وفي اثناء ذلك كنت اعيد عليها التنبيه وافهمها ان ذهابها ليس بذي اهمية ولكني كنت كمن يضرب في حديد بارد . واذ تجاوزنا الشارع الاخير عرجت على زقاق فسيح فلم نسر به طويلاً حتى وقفت تجاه قصر شاهق قد ارخى الظلام عليه سدوله فلم ارَ فيه نوراً البتة انما هيئته تدل على انه مهجورٌ . فحققت النظر في بنائه على مصباح خفيف ينير الطريق فوجدته محتوياً على ثلاث طبقات كثيرة المداخل والمخارج . فبعد ان وقفنا برهةً قلت

لها . يا عزيزتي بولينا لقد ابطأْنا بالرجوع فماذا تقصدين بوقوفك هنا والظلام حالك ولمَ لم تختاري سوى هذا الباب من بين سائر الابواب فاذا كنت تبغين الدخول فلا يمكنك ذلك اذ هو موصد فلنرجع الى المنزل وفي الغد انشاءَ الله تاتي فتفعلين ما تشائين . ولكنها لم تكترث بقولي بل لبثت تعالج الباب كانها تؤْمل سهولة فتحه فتركتها تفعل ما تريد حتى اذا ما ملت وضجرت من الانتظار نكصت راجعة بخفي حنين . وبينما اناجي نفسي بذلك وقد اخذني العجب لمجيءِ بولينا الى هذا البيت المهجور في ذلك الليل الدامس فطنت بغتة لمفتاح منزلي فاخذته وادخلته في القفل غير آمل بنتيجة لذلك سوى الخيبة ولكنه مالبث ان مر به بسهولة وباقل من لمح البصر فتح الباب وللحال شعرت بانه قد مسني سلك كهربائي فارتعشت اعضائي عندما فكرت بمناسبة المفتاح لذلك الباب الذي ولجته حين كنت اعمى .

اما بولينا فلم تبطئْ بل دفعتني ودخلت بسرعة بقدم ثابتة دون ان يعيقها الظلام ثم شرعت بالصعود على سلَّم فتبعتها وكان خمس درجات فاصابتني عند ذلك قشعريرة وكأَن الدم قد جمد في عروقي فتغلبت على اضطرابي وسرت الى حيث سبقتني بولينا وحيث ظننت باب الغرفة فبلغته بلا عناء . « ولا عجب من ذلك فاني زرت هذا المكان قبلاً واختبرت طرقه » ولكن انَّى تأَتَّى لبولينا معرفة ذلك حتى دفعت الباب حال وصولها ودخلت دون ان تلتمس لذلك دليلاً .

اما انا فاخرجت من جيبي نفطاً كنت استعمله للتبغ واشعلته . فاول شيءٍ وقعت عيني عليه هو بقية شمعة موضوعة على منضدة في وسط الغرفة فانرتها وللحال ابصرت بولينا واقفة في منتصف الحجرة معتمدة رأْسها بين يديها تتنازعها الافكار فتارة تطرق الى الارض وطوراً تجيل ابصارها في الغرفة بهيئة يذوب

لها الجماد حزناً · فتقدمت اليها وخاطبتها برقة فلم يجدني ذلك نفعاً فاخذت بيدها وحركتها منادياً اياها ولكنهــا لم تنتبه لوجودي امامها فلبثت حائرًا في امري لا ادري ما الواسطة لايقاظ شعورها · وبينا انا بالانتظار اخذت انقل النظر من مكان الى آخر في تلك القاعة فرأيت فيها قليلاً من الاثاث مكسوًّا بالغبار مما يدل على طول هجرهِ ثم تصوَّرت القتيل الذي سقطت فوقه في المكان الذي انا واقفٌ فيه الآن ثم التفت الى الزاوية التي عن يميني فتذكرت وقوفي بها اذ أُمرت بألاَّ اتحرَّك او اقتل وكيف بعد ذلك قُدْت الى كرسي واسقيت المسكر ·

وبينا انا آخذٌ بالتذكار متلفتاً من جهة الى اخرى رأيت باباً في الجهة اليمنى من الغرفة فدنوت منه واذا بمخدع آخر يشبه الاول والى احدى زواياه بيانو قد وضع عليها كتاب الانغام فعلمت ان من هذا المخدع قد طرق اذني ذلك النغم الشجي في تلك الليلة الرهيبة · فدخلت اليه مرتعشاً ولا اعلم ايّ قوَّة جذبتني نحو آلة الطرب فجلست امامها وجعلت اوقع الانغام التي صادفتها امامي على الكتاب المفتوح بعد ان نزعت الغبار عنه بمنديل والاَّ لمــا قدرت ان اميز حرفاً منه · فيالعجب ان هذه الانغام لم تكن سوى تلك التي سمعتهــا في ذلك الليل وانا كفيف · واني لكذلك اذا بيولينا هبت مسرعة ودنت من الآلة وكأني بها تريد الجلوس مكاني فاخليت لها الكرسي ووقفت جانباً اعاين حركاتها · فابتدأَت بتوقيع هذه الانغام بغاية من الدقة والاحكام واصحبتها بصوت رخيم ذهلت لسماعهِ · فلم اشك بعد ذلك ان هي التي سمعتها في ذلك الحلم المريع وصرت اتوقع وصولها الى النقطة التي قطع بها الصوت وقام مكانهُ الانين · وهكذا كان · فانها لم تأْتِ على هذا النغم حتى انتفضت كعصفور

بلله القطر وقد جحظت مقلتاها ثم صرخت صوتاً مرعباً كمن مسهُ خوف شديد وتبع ذلك انين ضعيف ثم هوت فطوّقتها بذراعي قبل وصولها الى الارض

ولبثت غائبة عن الصواب بضع دقائق وهي مسندة الى صدري ترسل اصواتاً مقلقة . وقد ضاق عليها التنفس فدنوت من النافذة وفتحتها لتستنشق نقي الهواء فانطفأ الضوء عند هبوب اول نسمة منه وكدنا نصير في ظلام تام لو لم ينجدنا مصباح آخر اسنى بهاءً واعظم ضياءً . فان القمر كان في بدء طلوعه قد نشر اشعتهُ الفضية على الكون فاصاب منه وجه بولينا شعاع زاد في هيئتها ذبولاً وفي جمالها تأثيرًا .

ولم يمض الاَّ القليل حتى سكن اضطرابها وانتظم خفقان قلبها . فعاد الدم الى مجراه ودبت الحرارة في جسدها المثلج فصارت انفاسها تعلو وتهبط بسهولة ممتزجة بالنسيم اللطيف المارّ على محياها المصفر كانه يريد تقبيل ثغرها الباسم بنوع من السويداء فتسعى اليه اراقم شعرها منسابة حول وجهها الجميل كانها تذود عن ذلك الكوثر العذب . اما انا فطفقت اتأمل بهذا الجمال السامي . وتلك الهيئة الملائكية كيف جار عليها الزمن ودهمتها طوارق الحدثان ولا ذنب لها ولا اثم . فكاد قلبي يتقطع لا سيما عندما افتكرت انه قد مضى عليها ثلث سنوات وهي في هذه الحالة التعيسة ولا ريب عندي في انها اطلعت على تلك الجريمة التي جرت في ذلك الليل المخيف لانني قد سمعتها تتأوّه بما يماثل فعلها الآن ولا بدع فانها امسكت وقتئذٍ بايدٍ تختلف كثيرًا عن الايدي التي تحيط بها الآن . فيا لهم من قوم برابرة قد وُجدوا ليسلبوا الناس راحتهم وسعادة ايامهم افتظن بعد يا سنيري انك تخدعني . وانت يا مكيري اللئيم أَلم تزل مطمئن البال من عدم اطلاع احد على فظائعك . لقد ساء فألكما ايها الشقيان فابشرا

بالعقاب فقد برح الخفاء واتا كما فوكهان يطالب بثأر من ظننتماها فقدت من الانام نصيرًا ·

وبينما انا اناجي نفسي بذلك رفعت بولينا يدها وامرتها على جبينها ثم استوت جالسة وكأنها تبحث عن شيء مفقود · فامعنت النظر في وجهها فالفيته لم يزل على حاله مرسومًا عليه آيات الحزن الشديد · فقبضت على يدها قائلاً · ألا تبغين الخروج من هذا المنزل يا عزيزتي ؟ فكان جوابها بان نهضت متثاقلة وتأهبت للمسير · وعند ذلك تراءى لي نور سطع في الغرفة المقابلة لنا وظهر فيها اربعة اشخاص منتصبين حول المائدة · منهم ثلاثة تبينتهم جيدًا اذ كانت وجوههم مصوبة نحوي · فالاول هو سينيري بعينه وكان شاخصًا ببصره نحو رجل عن يمينه قصير القامة غليظها على وجهه خالٌ · والى يساره ذاك الايتالياني ماكيري او حسب زعمه انطونيوس مارك · واما الرابع فلم يكن لي الحظ ان ارى منه سوى عرض كتفيه · وكان هؤلاء الاربعة موجهين انظارًا فائزة نحو شاب ملقى على الارض بلا حراك وقد أُغمد خنجر في صدره

فارتعدت فرائصي لهول هذا المشهد واخذت انظر كالمعتوه فوضعت يدي على عيني لاتحقق باني لست اعمى هذه المرّة واني قد ابصرت حقيقةً ما طالما تاقت نفسي لرؤيته فيما مضى · واخذت بيد بولينا وسرنا نحو القاعة المضيئة ولم تطئ اقدامنا ارضها حتى عاينت ما زادني ذهولاً واندهاشًا بل ما كدت لاجله اعترف بوجود السحر والسحرة · فان النور قد اختفى بغتةً ولم يكن في ذلك المكان سواي وبولينا · وبعد هنيهة عدنا الى الغرفة الداخلية ولم يستقر بنا الجلوس حتى اعيد على نظري ذلك المشهد ثم تكرّر بعدئذٍ مرارًا فلم يعد ريب في ان ما رأيته لم يكن سوى خيالات قد صوّرها الوهم امامي لما مرَّ

بي تلك الليلة من الامور المستغربة لا سيما انقياد بولينـا لذاك البيت المهجور وحنينها لتلك الالحان الشجية . ولا يبعد ايضاً من انها تكون قد ابصرت سابقاً ذاك القتيل وعادت فتذكرته هذه الليلة عندما رأت ماكيري مشهرًا بيده خنجرًا فقصدت المجيء لترى مكان تلك الجريمة التي عاد تذكارها المحزن لمخيلتها.

فمن هو ذاك القتيل يا ترى ؟ وما العلاقة بينه وبين بولينا ؟ ومن قتله ؟ لا اظن الفاعل سوى ماكيري . بل انني على يقين من ان ليس سوى يده الاثيمة التي اغمدت الخنجر في صدر ذاك المسكين . فاذا صح ذلك فما الفائدة التي حصلت له بارتكاب هذا الجرم وما غايته بذلك . فسأبحث عن هذا الامر فيما بعد واما الآن فمن الواجب قبل كل شيءٍ ان ارجع ببولينا الى البيت.

فاخذت بذراعها واشرت اليهـا بالذهاب فنكست رأسها وسارت دون ممانعة وقد عاد الى محياها البله . فسرت بها وعندما صرنا على الطريق التقينا بعربة مارة فحسبتها نعمة هبطت من السماء لتساعدني على سرعة الوصول الى منزلي . ولم تنتهِ بنا تلك المسافة الاَّ وتلاشت قوى بولينا فسقطت ثانية فاقدة الشعور . فهلع قلبي خوفاً على حياتها لما قاست من الاضطراب . وبوصولنا استدعيت لها طبيباً ماهرًا فبذل من العناية معظمها لكنه لم ينجع بها دواء ولبثت على تلك الحالة كل الليل .

الفصل التاسع

﴿ كذبة فظيعة ﴾

وابتدأت عند الصباح تفوه بكلمات متقطعة وتدعو حبيباً لها باعزّ الالقاب وكان يتخلل كلامها صراخ محزن وتنهد عميق نخفق قلبي لاستماع صوتها وخفتُ

ان تكون قد استيقظت لكن وا اسفاه ان تلك الالفاظ لم تكن سوى هذيان ناتج عن حمى شديدة قد اصابتها كما اوضح لي الطبيب . فلبثت بجانب سريرها والقلب يتقلب على جمر العذاب منتظرًا ان اسمع اسمي بين شفتيها . فيالقلبي ما اشقاه . انا الذي سعادته تقوم باستماع كلمة واحدة تصوَّب اليَّ من فمها الطاهر . يا لتعاستي . لقد ظهر لي اني رجل مجهول لديها . . . فمن هذا الذي كانت تناديه يا ترى أليس هو ذاك القتيل الذي شاهدته انا ايضاً . قلبي يحدثني انه قضى شهيد الظلم والغدر فآه منك يا ماكيري الماكر يا من سلبت هذا الحمل الوديع السعادة انتظر عاجلاً جزاءَ ما جنته يداك فان الله لا يهمل عقاب المجرمين . وانت ايتها الملاك الطاهر انعمي بالاً وقرّي عيناً فسوف ينتقم لكِ من الظالمين .

وعند ذلك اعلمت بزيارة ماكيري فتلقيته بالترحاب وقد اخفيت عنه ما يكنّ له صدري من الحقد والغيظ . وعندما لمست ايدينا بعضها شعرت بارتعاش قد سرى في جميع مفاصلي لزعمي ان اليد التي انا قابض عليها ملطخة بدم المعصية بل لا يبعد ان تكون هي نفس اليد التي قبضت على عنقي فيما مضى . ثم صرت افكر بايّ عبارة يجب ان ابتدره الآن وبأيّ وسيلة يمكن ان استطلع منه هذه الاسرار ولو قلنا انه اقرَّ بالحقيقة فكيف يمكن اثبات الدعوى لدى الحكومة وقد مضى على الحادثة ثلاث سنوات . ثم قاطعني عن التفكر بقوله . لقد اتيت لعيادة شقيقتي علماً مني انها مريضة . وكان يتظاهر اثناءَ الحديث بتأثير عظيم حتى لا يدع للشك مكاناً بكونه اخاها . ثم انتقل فجأَة لحديث آخر . فقال .

يسوءُني ان ازعجك وانت بمثل هذه الحال . انما للضرورة احكام . فهل انت مزمع بعد على معاضدتي بطلب المساعدة من فكتور عمانوئيل

— لا افعل ما لم اقف منك على حقيقة امورٍ تهمني . فانحنى باحترام قائلاً : اني مستعد لخدمتك .

— اولاً يجب ان اتحقق اذا كنت اخاً لزوجتي

فرمقني بنظر الاستغراب محاولاً التبسّم . وقال . هذا امر سهل جدًّا فلو كان الطبيب سينيري حاضرًا لنفى الشك عنك بكلمة واحدة .

— ولكنه اخبرني خلاف ما تدعيه .

— ربما فعل ذلك لاهواءٍ في النفس او لانه لا يمكنه اظهار الحقيقة اما انا فلست اخشى شيئًا ويمكنني ان اثبت قولي في الحال حيث يوجد كثيرون ممن يعرفون حقيقة حالي .

فقلت له متمهلاً وانا اتفرس به جيدًا لئلا تفوتني ملاحظة ما يطرأُ عليه من التغيير . لِمَ قتلت رجلاً من مضي ثلاث سنوات في احد منازل شارع هوراس . فنظر اليّ بتعجب وكأني به يتساءَل كيف عرفت ذلك . ثم صرخ قائلاً . هل بك من جنون .

— اصغَ . في الساعة التاسعة من مساء العشرين من شهر آب سنة ١٧٦— في شارع هوارس قد طعنت صدر شاب بخنجر وللحال سقط قتيلاً في غرفة اجتمعت بها مع سينيري واثنين آخرين . فاحدق برهة دون ان ينطق ببنت شفة ثم تقدم نحوي وقبض على ذراعي . فظننت باديء بدءٍ انه يقصد بي سوءًا فاستعديت للمدافعة عن نفسي ولكنني ادركت بعد قليل انه يبتغي التفرُّس بي فقط

فقلت له في نفسي الم تعرفني بعد وهل يغير العمى الانسان الى درجة لا يعود يُعرف بها بعد ان يعود اليه بصره . ولكن لا . فانه قد عرفني اخيرًا لانه ما لبث بعد ان حدجني بابصاره ان همس قائلاً . الويل لهم لمَ لمْ يدعوني اتمم

عملي وقتئذٍ . ثم جعل يخطر في ارض الغـرفة طولاً وعرضاً . وبعد ان سكن جاشه قليلاً وقف امامي ونظر اليَّ كأنه غير مبال بتبروء نفسه وقال :

لقد صدقت فيما نطقت يا مستر فوكهان . فانا قاتل . نعم قاتل . ولا لزوم بعد للانكار فعلى ما يظهر لي انك مطلع على كل شيء . فاعلم يا صهري العزيز اني لم اقتل هذا الشقي الاَّ لانه كان محباً لزوجتك وشقيقتي . واذ علمت ذلك تهيج الدم الشريف في عروقي ولم اتمالك ان قتلته . نعم قتلته بحضورها وبمساعدة سينيري خالها وتركتها تندبه كل ايام حياتها . . . فهل علمت الآن معنى الكلمات التي القيتها اليك على طريق جينوى من انك سوف تجني ثمرة اهتمامك بمعرفة ماضي حياتها . ولما اتى على هذه العبارة هجمْتُ عليهِ قاصداً اعدامه ولكنه كان قد استعد لذلك ودبَّر طريقاً للهرب اذ جعل مكانه قرب الباب وهكذا فرَّ من امامي وهو يقول . الى الملتقى يا مستر فوكهان فهذا ليس وقت الانتقام .

فصرخت اغرب عن عيني يا شقي فكلما فهتَ بهِ كذب وبهتان

وبعد ذهابه شعرت بان هواء الغرفة قد فسد من انفاسه الدنسة . فهرعت لمخدع زوجتي وجلست قرب سريرها واصغيت لكلماتها المتقطعة . فاذا هي لم تزل تردد احب الالقاب لذلك الشخص الذي احاول معرفته والذي نسب اليه ماكيري تلك الكذبة الفظيعة .

فلا شك ان هذه حيلة عمد اليها ليبرّأ ساحته او لينتقم مني لاني تزوّجت بولينا بينما كان يحبهـا حسب زعم سينيري ولكن كيف كان الحال فلا يمكنني ان اطرد كلامه من ذهني . وسوف اتجرَّد من الراحة والسلام كل ايام حياتي . . . آه . من لي فيطلعني على حقيقة هذه الاسرار الغامضة ويخلصني من عذاب اليم . . . انهضي يا حبيبتي بولينا وانزعي عنك جموداً يدمي فؤادي

واقرني جمال هذه العيون بنظر صادر عن تعقل وحكمة ومني عليّ بقولك « اني بريئة » فاسكب اذذاك دموع الفرح على اقدامك واكون من اسعد البشر ·

الفصل العاشر

﴿ في البحث عن الحقيقة ﴾

ومضى عليّ عدة ايام وانا انقلب على فراش الاحزان لا يهنأُ لي عيشٌ ولا يهدأُ لي بال · واخيرًا عوّلت على اللحاق بسينيري لاني فكرت انه الشخص الوحيد الذي اقدر ان استوضح منه هذا السرّ الذي كما اظن لا يعلمه سوى ثلاثة اشخاص منهم ما كيري الشقي الذي بارح انكلتره ثاني يوم وقوع تلك الحادثة وتيرزا التي لم تقع عيني عليها منذ اقترنت ببولينا وسينيري القاطن سبيريا · فمهما كانت المسافة بيني وبينه شاسعة واتعاب السفر شاقة لا بد لي من الذهاب والاجتماع به فاستطلع منه ما امكن ولا ارجع هذه المرة خاسرًا والويل له اذا اصرّ على الكتمان ·

فبعد ان فكرت طويلاً بهذا السفر رأيت به من الصعوبات ما كاد يرجعني عن عزمي ويثبت لي ان النجاح مستحيل · ولكن ما العمل وكيف يمكنني احتمال هذه الحال وكلمات ما كيري تهشم قلبي بانياب احدّ من السنان فلا بدّ لي من مقاومة المصاعب واخيرًا سوف تبدد كلمات الطبيب عن عينيّ غيوم الشك فاما ان تدحض دعوى ما كيري او تحكم عليّ الشهامة بانفصالي عن بولينا الى الابد ·

فقصدت عند ذلك صديقًا لي مقربًا من الرجال العظام واصحاب المراكز

السامية · فاظهرت له شدة احتياجي للسفر وافتقاري لمساعدته فاتحفني بكتاب الى سفير انكلتره في بطرسبرج يطلب منه ان ينظر اليَّ بعين الالتفات ويساعدني في قضاء حاجتي · ثم اوصيت خادمتي بريسلاَّ ان تسهر على راحة بولينا وتعتني بها كثيرًا حتى اذا نقهت من المرض لا تفتر عن الذهاب بها الى اماكن النزهة واوصيتها ايضاً بألاَّ تذكر اسمي لديها البتة واذا اكثرت من السؤال عني فلا تقول لها سوى انني احد انسبائها وقد اتيت بها من مدة وجيزة وسأعود اليها قريباً فعسى ان تقتنع منها بهذا الكلام وتلبث مطمئنة لحين رجوعي · وقد طلبت اليها ان تكتب لي عنها دائمًا · وبتُّ تلك الليلة قلق البال وفي عزمي ان اسافر في صباح اليوم التالي ·

وعند الساعة السادسة صباحاً كنت قد هيأْت امتعتي وكل احتياجاتي اثناء السفر ولم يبقَ عليَّ سوى وداع بولينا ومشاهدة وجهها المحبوب · فدخلت حجرتها بقلب خافق ونظرت اليها باعين ملأى بالدموع فاذا هي ملقية على السرير ورأْسها مائل فوق وسادة تقل بياضاً عن بشرتها الناصعة يفصل بينهما حلقات شعرها الحريري مسترسلة على كتفيها وصدرها الخافق بانفاس هادئة · وكأني بها تقول وهي بتلك الهيئة الملائكية انني لست شاعرة بثقل الذنوب التي اتهمت بها ولذا تراني لا اعبأُ باقوال المنافقين ولقد ترديت من الطهارة درعاً تدفع عني سهام الماكرين · اجل لم يتراءى لي سوى تلك الكلمات مسطورة بين شفتيها · فلو قام الناس باجمعهم يشهدون بصحة دعوى ماكيري لما امكن احدٌ منهم ان يحل مني مكاناً للشك ببراءتها · ومع ذلك فلا بد لي من الذهاب الى سيبريا · وهكذا عوَّلت على الخروج دون ان ايقظها واتزوَّد نظرة اخيرة من تلك العينين النجلاوين لاني لم احسب نفسي اذذاك سوى رجل غريب عنها ·

ولقد ادركت من نفسي خطاءً عظيماً بدخولي حجرتهـا وامتثالي لديها فلذلك وجب عليَّ الرضوخ لحكم الآداب : فلا تقع انظارنا على بعضها قبل ان يماط عن وجه الحقيقة النقاب ·

وحينئذٍ حوَّلت بوجهي نحو الباب وقصدت مزايلة المكان · فلم اخطُ خطوةً حتى سقطت جاثياً بجانب سريرها وانحنيت على يدها اقبلها باحترام · فتململت قليلاً وارتعش جفناها · اما انا فاسرعت بالفرار من الغرفة خوف ان تستيقظ فتراني على تلك الحال وكنت اذذاك كمذنب قد شعر بخطاه ·

وفي اليوم الثاني كنت بعيداً عن الوطن محروماً استنشاق هواء عطرتهُ بولينا بانفاسها · لا تعزية لي سوى التعلل بالآمال ولا شاغلٌ الاَّ التفكر بما ستؤول اليهِ الحال · فكنت تارة اتوهم وصولي لسبيريا ومشاهدتي سينيري مسجوناً مهاناً ينظر اليَّ بانكسار وكأنه يصادق على كلام ماكيري بقوله « لقد خدعتك فانتقم مني » وتارة كنت اراه بحالة الغضب الشديد يتوعد ماكيري بالقصاص الرهيب مقابلة لكذبه الفظيع ثم يقول « لا تيأس فستتضح لك الآن براءة بولينا حين اطلعك على هذه الاسرار » ومن ثم ارجع الى حيث تركت امرأتي المحبوبة واي سرور يشمل قلبي اذا وجدتها متمتعة بصحة الجسم والعقل معاً

ثم وصلت الى بطرسبرج ووضعت امتعتي في احد الفنادق وذهبت توًّا الى ذلك السفير · وبعد ان عرَّفته بنفسي قدمت لهُ كتاب صديقي · فلم يتم قراءته حتى نظر اليَّ بابتسام واظهر رغبة عظيمة في مساعدتي ولكنه حتم عليَّ بوجوب الانتظار بضعة ايام ريثما ترتاح البلاد وتخمد منها نيران الفتن ·

فشكرته من صميم قلبي ثم ودعته وقصدت الانصراف فاستوقفني قائلاً :

– سيدي لا اعرف شيئاً عن هذا الرجل سوى انه طبيب ايتالياني من رجال السياسة يُعرف باسم سينيري وليس قصدي من لقائه الاَّ ان يجيبني على بعض اسئلة مهمة لديَّ ساقترحها عليه

– سينيري ؟ . ما من احد من الذين سجنوا مؤخراً يدعى بهذا الاسم

– الهي هل يمكن ان أُخدع ثانية .

– ألا تعرفه بالنظر يا مستر فوكهان ؟

– نعم اني اعرفهُ جيداً .

– اذاً لا تيأس من وجدانه لانه اذا امكنه ابدال اسمه فلا يمكنه تغيير هيئته . اما الآن فبقي عليَّ ان اوصيك بالمحافظة على شرائع هذه البلاد التي تختلف كثيراً عن شرائعنا نحن الانكليز فانك اذا نطقت باقل كلمة دون تروٍّ تكون قد سعيت الى حتفك بظلفك .

فوعدته بذلك بعد ان ابديت له شكري وامتناني لارشاداته وودعته وذهبت الى النزل حيث لبثت مدة اسبوعين اعلل النفس بالاماني واخيراً حصلت على رقعة يدعوني بها اليه . فاسرعت بالذهاب وبعد ان تبادلنا التحية . قال : لقد اسعدك الحظ يا مستر فوكهان فكل شيء قد تم ويمكنك منذ الآن ان تسافر الى سيبريا مصحوباً بتوصية تجعل الكبير والصغير ينظر اليك باحترام .

ففاض لساني بشكره وشعرت من نفسي بالعجز عن اظهار فضله . ثم قال لي ان القيصر يدعوك اليه فهو يود مشاهدة الرجل الذي قصد هذا السفر الطويل بقصد القاء بعض الاسئلة على احد المسجونين .

فساءني هذا التعاكس لما انا عليه من الاجتهاد بسرعة السفر وكنت اتمنى كثيراً ان ارفض هذا الشرف ولكن عندما رأيت ان لا مناص لي من ذلك

ذهبت مع السفير وفي نيتي ان ابذل الجهد في تقصير الزيارة وبدقائق قليلة وصلت بنا العربة الى باب كبير تحف بجانبيه الحرس ويليه باحة الدار الخارجية المزدانه بتماثيل بديعة الاتقان محكمة الوضع تحيط بها حديقة غناء قد حوت من الازهار اجملها ومن الاشجار المثمرة اشهاها · ثم صعدنا سلماً قد كسيت درجاته بالطنافس الثمينة وجانباه مغشيان بالذهب الخاص · فاستوقفتني هذه المناظر برهة ولم انتبه لنفسي حتى اوماً لي قائدي بالدخول الى القصر فتبعته واذا بي واقفٌ في دارٍ فسيحة الجوانب مزينة بالنقوش البديعة والصور الجميلة قد رصعت جدرانها بانواع الحجارة الكريمة وغشيت ارضها باصناف المعادن الثمينة اما ما فيها من حسن الرياش فحدث عنه ولا حرج · فاخذني العجب والاندهاش مما رأيت وعاينت من تلك المناظر التي لم اتصور نظيرها قبلاً

ثم دخلنا قاعة جميلة فيها ايضاً من الزخرفة والزينة ما يبهر النظر ويأخذ بمجامع العقل · وفي صدرها القيصر اسكندر الثاني امبراطور روسيا جالس على عرش مرتفع وهو رجل طويل القامة عريض الصدر جميل المحيا تلوح على جبينه لوائح النجابة والذكاء وفي نظراته من الرقة والرزانة ما يجعله محبوباً من من كل من يراه · فقدمني اليه السفير معلناً اسمي لدى جلالته · فرمقني بعين الحنو والابتسام واما انا فتقدمت اليه خافضاً راسي احتراماً لشخصه العظيم منتظراً اوامره السامية ·

فكلمني بالافرنسية قائلاً · بلغني انك مستعد للذهاب الى سيبريا يامستر فوكهان · — اذا اذنت لي جلالتكم بذلك · — بقصد ان ترى احد المسجونين أليس كذلك فاجبت بالايجاب · — ولكن ماذا يلجئك لقطع هذه المسافة وتحمل مشاق هذا السفر الطويل أهو صديق لك · — مولاي · لا اعلم اذا

كان صديقاً لي ام عدواً ولكني اعلم جيداً ان سعادتي وسعادة زوجتي في قبضة يده . فتبسم عند ذلك وقال انكم معشر الانكليز تحسنون معاملة نسائكم . فاذهب على الطائر الميمون وستحصل مني على امر يدفع من طريقك العقبات ويسهل لديك المسير .

فانحنيت شاكراً وانصرفت على امل ألا ارى ما يعيقني عن بلوغ المرام . وبعد ثلاثة ايام تناولت كتاباً من بريسلاً تخبرني ان بولينا متمتعة بصحة جيدة وهي منتظرة بفروغ صبر صديقها المجهول . وانها لم تزل على حالها من ضعف الشعور . وتلهج دائماً بذكر جريمة حدثت قديماً . وهي تنتظر من العدالة محاكمة الجانين وانه قد تراءى لها بحلم وهي مريضة ان رجلاً مجهولاً مطلعاً على اسرارها يطالب بحقوقها .

« فشعرت عندئذ بخفقان قلبي واحياء آمالي فزال عني بعض الكروب لاني استوضحت من كلمات بريسلاً ان بولينا اخذت تذكر رويداً ما مرَّ عليها فيما مضى »

ثم ان هذه هي المرة الاولى التي اظهرت بها استغراباً لوجود خاتم العقد في بنانها فكأنها لم تره قبلاً وجعلت تديره بيدها مراراً بعد ان سألت بريسلاً من اين اتاها . فقالت . لا اعلم . فبهتت برهة متفكرة . فسألتها ما بك ياعزيزتي فنظرت اليها باسمة وقالت : احلام : احلام : اجهد نفسي بتذكارها .

فبعد تلاوة التحرير وددت لو اني اطير اليها لكنني تصبرت اخيراً ورأيت ان لقاء سينيري لمن اهم الامور . حتى اذا ما تمكنت من الرجوع اكون على ثقة ممن اوقفت لها حياتي واتأكد انها انقى من ذهب ذلك الخاتم واصفى سريرة من حجارته الكريمة .

بولينا · بولينا · يا عزيزتي بولينا · يا امرأتي المحبوبة · ابشري فسوف يصفو لنا الزمان ويطيب لنا العيش ·

الفصل الحادي عشر

﴿ جهنم على الارض ﴾

وفي اليوم الثاني بارحت مدينة بطرسبرج قاصداً موسكو · فوصلتها بدون عناء وقد ساعدني بذلك الامر الذي انا حاصل عليه من جلالة القيصر ·

فاقمت فيها زهاء يومين ثم ذهبت الى نيجني نوفوكورد بعد ان صحبت معي دليلاً يعرف تلك الانحاء · وبعد ان تهيأت لنا اسباب السفر شخصت مع رفيقي على باخرة الى كازان ثم نهر كاما فاجتزناه بقارب صغير ودخلنا اشهر مدينة في بيرم بعد ان صرفنا نحو خمسة ايام على وجه الغمر ·

وقد صرنا الآن على وشك الخروج من قارة اوربا ولم يبق علينا سوى بضعة اميال لنقطع جبال اورال الحاجبة عنا آسيا ·

فاكترينا عربة يجرّها ثلاثة من جياد الخيل · فسارت بنا وهي تنهب الارض ركضاً ولم نصادف على الطريق ما يستحق الذكر · وعند المساء حللنا في فندق للمسافرين فرأيت تجاهه عموداً مرتفعاً فسألت الدليل ما معنى ذلك · قال ان احد امراء الروس يدعى « برماك » اقامهُ للمسافرين · فحققت بهِ النظر واذا مكتوباً عليه لجهة الغرب اوربا والى الشرق آسيا · فبت ليلتي بين القارتين وكنت افكر في بعد المسافة بيني وبين بولينا قائلاً لنفسي هل يتسنى لي الرجوع ياترى فاراها : ثم جددت المسير في اليوم الثاني قاصداً توبلسك وكان عليَّ ان انتظر

هناك ريثما يرخص لي الحاكم بالذهاب ·

غيران كلمات القيصر القليلة جعلتهُ ينظر اليَّ باحترام فاعطاني كتاباً الى قائد الحرس في ايركتسك واسمهُ فارلاموف ورقعةَ مرور فشكرتهُ ورمت الذهاب · فلم يخلِ طريقي بل طالب اليَّ ان اتناول الغذاء معه فاعتذرت اولاً بعدم امكاني ولكنهُ الحَّ عليَّ بذلك · فاجبتُ سؤْلهُ عن غير طيبة خاطر

وعندما انتهينا من الاكل احضر الشاي بآنية كبيرة جدًّا حتى اني لم اقدر ان اتصوَّر معدة تسع كلما فيها · ومع وفور الكمية كانت حارة جدًّا لدرجة لا تكفيها نصف ساعة لتلطيفها

فنهضت حينئذٍ عن المائدة والتمست من الحاكم عذرًا بعدم مقدرتي على مشاركتهم هذا الحظ الاخير لما انا عليه من الشوق لسرعة السفر ثم ودعتهُ وذهبت ولساني ينطق بشكره

وبعد ذلك سمعت من اهالي البلاد ان بعضهم يستعملون الشاي وقت الاكل ممزوجاً بدماء الحيوانات · فشكرت الله لاني لم اذقه · وكنت اود ان اكون خالي البال فاستقصي عوائد تلك البلاد الغريبة ولكن الضرورة الجأتني لمبارحتها حالاً · فذهبت الى تاره ثم كنسك وكوليفيان ومنها الى كرسونياك وارنسك واخيرًا وصلنا ايركتسك · وفيها نهاية سفري · وهناك سأَلت عن فارلاموف فقيل لي انه ذهب بالمسجونين الى خارج البلدة لكي يتعاطوا الاشغال العادية وسيعود غداً الساعة الرابعة بعد الظهر · فلم يكن اسهل لدي من الانتظار لما انا عليه من التعب ·

وفي اليوم الثاني بلغني وفود المسجونين فنهضت مسرعاً الى السجن وهناك شاهدت الرئيس فاذا به شاب ممتلئ الجسم خفيف الحركة ذو اعين وقادة

وجبهة مرتفعة · يستر قسماً من جبينه قبعة بيضاء مستطيلة الاطراف ومترديًا اثوابًا عسكرية وعلى جنبه سيف عريض · وبالجملة فهيئته تدل على الانس والشهامة · فحييته بالافرنسية · فرد تحيتي ببرودة دون ان يرفع اليَّ بصره · فانتظرت برهة ريثما فرغ من اشغاله وناولته الكتاب · فلم ينهِ قراءته حتى نهض اجلالاً وقدم لي كرسياً ثم تبغاً · وقال : ان هذا الكتاب يدفعني الى بذل الجهد لمساعدتك فاي خدمة تريد · فاخبرته ان قصدي لقاء رجلٍ يدعى سينيري · فتبسم قائلاً · انه يندر وجود من يصرح باسمه الحقيقي بين المسجونين

– اذًا فما العمل لان اراه · – هل تعرفه بالنظر

– نعم · جيدًا · – اتبعني اذًا لنبحث عن ضالتك

قال ذلك وتقدم بي نحو الباب وهو يرسل من فيه الدخان كغيوم متلبدة لا تلبث ان تلعب بها ايدي الرياح فتبددها · ثم نادى احد الخفراء وامره باحضار مفاتيح ابواب السجن · فاطاع · وللحال دخلنا بابًا صغيرًا فاذا بممرّ طويل اشبه بمغارة لا ينفذ اليه الاَّ قليل من النور · هواؤه فاسد وارضه مكسوَّة بالاعشاب وجدرانه مغطاة بالعناكب فعندما اتينا على آخره تقدم الحارس وفتح بابًا آخرًا فدخلنا دارًا مظلمة تحيط بها غرف فارغة تنبعث منها رائحة العفن · فكادت تزهق روحي · ثم فتح ايضاً باب تبين ان وراءه فضاءً فهرولت مسرعًا بالخروج قدر امكاني · ولم تطأ رجلي ذلك المكان حتى وقفت مبهوتًا وجعلت اجيل ابصاري من جهة الى اخرى بقلبٍ يقطر دمًا لحالة اولئك المنكودي الحظ لاني رأيت اشخاصاً مختلفي الهيآت والاجناس متجمعين فرقًا وكل منهم مشتغل بامرٍ · فبعضهم يضحكون ويلعبون ويمرحون وبعضهم يقذفون بانواع الشتائم ويتفوهون من وقت الى آخر بكلمات تشمئز لسماعها النفوس الابية

وقد تأثرت من ذلك المشهد المريع وتلك الاصوات التي كان يخالطها رنة القيود والسلاسل وبالجملة فان ذلك السجن ومن فيه كان لدي بمثابة جهنم على الارض · وكنت اقول لنفسي ألا يستطيع هؤلاء المساكين الهرب · ثم سألت القائد سرًّا عن هذا السؤال فاجابني بان كثيرين قد حاولوا الافلات وذلك عندما يرسلون لاعمالهم ولكن لا يلبثون ان يعودوا على اعقابهم بالخيبة اذ يجبرون على المرور بطريقهم في مدن سيبريا فيرجعهم الحرس المنتشر في كل الاصقاع · ويكون جزاؤهم مضاعفة الاشغال ·

ثم اوما لي بالمسير فتبعته وانا اتأمل بتلك الوجوه فما كنت ارى للطيب اثرًا فجزعت جزعاً عظيماً وكدت احقق ان اتعابي ذهبت ضياعاً · لو لم تقع عيني بغتة على رجل في زاوية المكان منفردٍ عن الجميع وراسه منحنٍ فوق صدره بما اخفى عني وجهه فدنوت منه ولمست كتفه بلطف · فانتبه لنفسه ورفع راسه المرسوم عليه آيات الحزن ونظر اليَّ باعين ضعيفة فتأملته جيدًا واذا به « مانويل سينيري »

الفصل الثاني عشر

﴿ من هو ﴾

وما لبث أن تغيرت نظراته فحملق بي هاتفاً · مستر فوكهان في سبيريا

فقلت بصوت ثابت نعم انا هو وقد اتيت من انكلترا لكي اراك · ثم التفتُّ الى فارلاموف قائلاً · لقد حظيت بلقاء من اجدّ وراءه · فاجاب انه يسرُّني ذلك · ولكنك لا نقوى على الوقوف هنا طويلاً لرداءة الهواء وخبث الرائحة

فيمكنك ان تذهب به لغرفة احد الضباط حيث تبتعد عن هذه المناظر القبيحة · ثم امر الحارس ان يرشدنا الى حيث قال فذهبنا من باب ادّى بنا الى حديقة مستديرة ومن حولها غرف عديدة · فدخلنا احداها وكانت عارية تقريباً ولكنها نظيفة · فجلست على مقعد بالٍ وابتدرت سينيري بهذه الكلمات

– اتيت من سفر طويل جدًّا وتحملت مشقات كثيرة كي اراك يا مستر سينيري ·

– ولكنك ستعود قريباً واما انا فلا امل لي بالرجوع البتة فما اطول سفري · وكان يتكلم بلهجة محزنة وينظر اليّ بتذلل فتأثرت جدًّا لا سيما وقد ظهر على وجههِ نتيجة عذاب تلك المدة التي قربتهُ من الشيخوخة عشر سنين ·

فقلت ربما انا الآخر لا ارجع ايضاً ويمكنك ان تحقق صعوبة مركزي من مجرد مشاهدتك اياي في سيبريا

فزفر زفرة طويلة وقال · هل انت المستر فوكهان · نعم انت هو · ولكن من واين انا · هل هذه مدينة لندره او جينوى او مكان آخر · هل استفيق يا ترى وارى ان كل تلك الاتعاب التي تحملتها كانت حلماً ·

فحزنت لكلماته الجارحة · وقلت · كنت اود ان يكون كذلك ·

– أَلست انت احد اصحابي ؟ اوَلمْ تأتِ لتخلصني من ربقة الاسر ؟

– حبذا لو امكنني ذلك · انما مجيئي لم يكن بهذا الصدد بل لأَستوضح منك اموراً لا يعلمها سواك ·

– قل ما بدا لك ·

– هل تعدني انك تتكلم الصدق ·

– لمَ لا · وممن اخاف · وماذا ارجو بعد من الحياة ·

– فاول ما اريد ان تعلمني من هو ماكيري ·

– فارتاع لذكره وارتعش ثم صرخ بملء صوتهِ · خائن · خائن · ولاجله اود التخلص من سجني فآخذ بثاري ممن سلمني · · · · آه ليتهُ الآن حاضر هنا عوضاً عنك فكنت معما بي من الضعف اجد من نفسي قوّة تكفي لان اضغط بيديَّ على عنقه ولا اتركهُ وفيهِ رمق من الحياة ·

– دعنا من هذا الآن وقل لي ما اسم ماكيري الحقيقي ·

– لا اعلم لهُ اسماً آخر فهو رجل ايتالياني ارسلهُ ابوه الى انكلتره خشية ان يسقط من اعتبار والديه باعمالهِ المنكرة · فاتفق اني رأَيتهُ بينما كنت باحتياج لرفيق نظيره · وقد قاتل عني كبطل · ودافع عني بحرارة ولكنهُ عاد نخانني فلِمَ تسأَلني ·

– لانه ادعى بكونه شقيق بولينا ·

وعند ذلك انقلبت سحنتهُ وجحظت مقلتاهُ ثم تململ وهو في مكانهِ وقال · شقيق بولينا ! ليس لها اخ البتة ·

– فلِمَ قال ذلك · وان اسمهُ انتونيس مارك ·

– آه انتونيس مارك · شقيق بولينا · ماذا يقصد بهذا القول · اخبرني حالاً ·

– هو ان اساعدهُ باسترجاع ما صرفتهُ انت من ثروة بولينا شقيقتهُ ·

فتبسم بمرارة ثم قال بهدوّ قد اتضح لي كل شيءٍ · فيا لهُ من ماكرٍ لئيم · لقد خان بدسائسه قوماً ربما كانوا قادرين ان يقلبوا مملكة وذلك لكي يسلمني ليد العدالة · · · الويل لهُ من غادر · · · آه اعفو عني يا انتونيس · · · ويلي انا الاثيم · لِمَ لمْ أُقتل في تلك الساعة · · · ولِمَ سمحت يا الهي بعذاب الابرار وبعد سكوتٍ قليل قلت لهُ · سوف تسمع مني ما يزيدك دهشة · ولكن

اخبرني اولاً . أَلم تكن بولينا مقيدة بحب احد الاشخاص قبل ان اقترن بها .

– لا . انما ماكيري كان يتودد اليها ولكنها لم تحفل به

– ولا بغيره ؟

– لا واني على يقين بانها كانت حرّة الفؤاد وفوق ذلك فهي كريمة النفس مهذبة الاخلاق قويمة المبدإ نقية القلب . ولو لم يفاجئها ذلك المرض لكنت اقول انها احسن امرأة وجدت على وجه البسيطة كما وانك اسعد رجل بحصولك عليها

– ولكن ستجد الآن بان نتيجة خداعك كان وبالاً عليّ وعليها

وعند ذلك شعرت بان احتقاري الشديد لسينيري قد تجدد بي . ولكنني لم ارغب بالانتقام منه اذ ان كذبة ماكيري اضحت كالشمس في رابعة النهار وتأكدت ان بولينا لم تكن سوى الة العفة . واني سأعود وأرى ذلك الوجه الجميل المرسوم عليه شارة الطهارة . ولكن فاتني معرفة ذلك القتيل الذي بسببه فقدت بولينا الادراك والعلاقة التي بينها وبينه . فقلت لهُ . اني اسأَلك عن ذاك الشاب الذي قتله ماكيري بمساعدتك وبحضور بولينا . من هو . وبماذا استحق القتل . فامتقع وجه سينيري وامال راسهُ الى الوراء حتى كاد يلطم بالجدار وبدأَت انفاسه تتصاعد بسرعة . ولبث برهة على تلك الحال دون ان يحاول انكار ما اتهم به . فاعدت القول . لمَ لا تتكلم . اني عالمٌ بتلك الحادثة فلقد كنتَ مجتمعاً مع ثلاثة اشخاص حول مائدة والى يمينك ماكيري . والى يسارك رجل آخر على خده خال . وفي زاوية الغرفة قرب الباب كان ذاك الشاب الذي قتلهُ ماكيري ممدَّداً . وفي الغرفة الثانية كانت بولينا توقع لحناً على البيانو . ثم توقفت بغتةً في الوقت الذي سقط فيه الشاب قتيلاً . أَلم احسن لك الوصف . وكان ينظر اليّ اثناء حديثي باندهاش عظيم حتى اذا انتهيت

جعل يلتفت الى ما حولهُ ثم وجه نظره نحو الباب كمن ينتظر دخول احد ·

واذ لم احصل منه على جواب قلت لهُ اخبرني عن اسم الرجل وما هي علاقته مع بولينا · فاجفل من كلامي وحدجني باعين متوقدة وقال · لماذا تسألني لا شك ان بولينا قد عاودتها قوَّة الادراك فاطلعتك على ما انت عالمٌ بهِ · فلمَ جئت تعذبني · دعني وشأني · فزوجتك تخبرك ذلك · وحسبي ما انا عليه من التعاسة ·

– انها لم تزل فاقدة الشعور ولم استفد منها حرفاً مما قلتهُ ·

– اذاً كيف اتيح لك معرفة هذه الاسرار · فانا على يقين من امانة تيريزا وسكوتها وبيتروف قضى نحبهُ والآخر دهمهُ الجنون · وماكيري يستحيل عليهِ الاقرار لكونه القاتل ·

– ولكنك غفلت عن شخص آخر سوى الذين ذكرتهم ·

فنظر اليَّ بامعان وقال نعم لقد وجدنا رجلاً غريباً في تلك الليلة الهائلة ولكنه لم يرَ شيئاً · وكان اجمع رأي رفاقي على الفتك بهِ ولكني نهيتهم بعد ان اثبت قولي بالامتحان كونهُ اعمى ·

– اني اشكرك لذلك ·

– انت تشكرني · ولماذا ·

– لاني صرت مديوناً لك بحياتي ·

– أأنت هو ذاك الاعمى · – نعم ·

فنظر اليَّ بانتباه ثم قال لقد علمت الآن كيف تأتَّى لذاكرتي رسمك منذ زمان طويل وكنت دائماً اسأل نفسي عن سبب ذلك فلا اهتدي للصواب · ولكني اراك تبصر الآن · فهل كنت مغشوشاً حينما تحققت عماك ·

— لا . لقد كنت اعمى فشفيت .

— اذاً من اعلمك بتفاصيل الحادثة .

— اخاف ان اخبرك فلا تصدقني .

فنهض وجعل يخطر في ارض الغرفة ذهاباً واياباً حتى ملأ الفضاء برنة قيوده ودمدم قائلاً : « ما من خفيٍّ الاَّ ويظهر » ثم نظر اليَّ وقال . لقد صرت اصدق كلما يختص بتلك الليلة المريعة التي لا يفارق ذكرها مخيلتي . . . . لقد تحملت عذاباً شديداً ولكنهُ غير كافٍ لان اكفر عن ذنوب اقترفتها فليت بامكاني ان انفعك بامرٍ ما تعويضاً عما الحقت بك من الاتعاب .

— انك لتنفعني اذا اجبتني على هذا السؤال . ولكني استحلفك بالشرف وبكلما هو عزيز لديك ان تصدقني المقال .

فظهر على شفتيهِ تبسم السويداء . ونظر اليَّ بانكسار وقال اي « شرف » تعني . ولكني اعدك باظهار الحقيقة فعجل بالسؤال .

— لقد اخبرني ماكيري انهُ قتل ذاك الشاب دفعاً للعار وذلك لانهُ كان مشغفاً ببولينا . زوجتي . . . .

فاحتدم سينيري غيظاً ورفس الارض برجلهِ وانتصب واقفاً وعيناهُ تقدح شراراً وصرخ بصوت عالٍ . يا لك من شقي يا ماكيري . . . . لا تظن ان الله يتغافل عن معاقبتك فلا بدَّ لك من ان تشاركني هذه البلية آجلاً ام عاجلاً . وبعد ذلك عاد فجلس مكانهُ وساد السكوت في الغرفة ثم حوَّل وجههُ الشاحب نحوي ونظر اليَّ باعين مغرورقة بالدموع وقال . ان ذاك القتيل الذي سقط بيد ماكيري لم يكن سوى . اخ بولينا . . . . ابن شقيقتي . . . . انتونيس مارك .

الفصل الثالث عشر

﴿ الاقرار ﴾

وبعد ان لفظ سينيري هذه الكلمات ستر وجههُ بيديه وجعل يذرف الدموع السخنة وانا شاخصٌ اليه اردّد في ذهني الفاظهُ الاخيرة . ثم سألتهُ ان يقص عليّ كلما يتعلق بتلك الحادثة المشؤمة .

فاستوى جالساً ومسح بكمهِ العبرات المنحدرة على خديه . وقال :

وُلِدت من ابوين ايتاليين وكان لي شقيقة بارعة الجمال . فهام بها احد اشراف الانكليز الموسرين واسمهُ مارك . فتقدم من والديّ لطلب يدها فلم يجيبا اولاً طلبهُ لاختلاف الاهواء وتضارب العوائد بين الانكليز والايتاليان . ولكن عندما رأيا ان فتاتهما تميل اليه كل الميل ولا ترتضي بعلاً سواهُ منحاها حق الاختيار . فاقترنت به ثم ذهبا الى انكلترا مسقط رأسهِ .

ومضى عليهما عدة سنين وهما في ارغد عيش واحسن حال . ثم توفي زوجها عن ولدين وهما انتونيوس وهو في الثانية عشرة وبولينا في العاشرة من العمر . وقد اوصى لزوجته بجميع ما ملكت يداهُ .

اما هي فعندما فقدت زوجها المحبوب لم يعد لها ارب بالسكن في ارض ضمّت عظامهُ . فعادت الى ايطاليا وانضمت الى الاهل والاصدقاء فصادفت بينهم كل ترحب واكرام . وكانت تميل اليّ بنوع خاص وتستحسن كل الاعمال التي ابديها . فاطلعتها ذات يوم على مقاصدي السياسية واني عضوٌ في جمعية سرّية يترأسها غاريبالدي الرجل العظيم وزير فرنسا وان غاية هذه الجمعية ليس الاّ

المدافعة عن ايطاليا وبذل النفس والنفيس في سبيل حريتها وجعل حكومتها جمهورية فاستصوبت افكاري ووعدتني بالمساعدة متى حان الوقت . غير ان حزنها الشديد انهك قواها واذبل زهرة حياتها فلحقت بزوجها وذلك بعد موته باشهر قليلة وقد سلمتني ثروة ولديها وعهدت اليَّ في تربيتهما على المبادي الانكليزية بحسب وصية زوجها الاخيرة .

وبعد وفاتها ارسلت الولدين الى مدارس كلية في انكلتره فكانا يصرفان معظم السنة هناك ويأتيان ايطاليا ايام العطلة وذلك لعدم وجود اصدقاء يأنسان بهم . فتمكنت منهما طباع الانكليز وعوائد الايتاليان معاً . اما انا فلم انكث بوعدي لشقيقتي ولا حنثت بيميني بل كان دأبي الاهتمام بولديها والمحافظة على اموالهما الى ان ازفت الساعة التي بها وقعت ايطاليا في ضيق وعسرٍ مالي هددها بالخذلان والذل والقهر .

فلم يعد بامكاني امساك الدراهم عن الجيوش المستغيثة باهل الغيرة ومحبي الوطن . فانفقت الالوف من ثروة ولدي شقيقتي في هذا السبيل ولم ابقِ سوى دريهمات قليلة تكفيني الى ان يبلغا سن الرشاد . وقد فعلت ذلك دون ان اجاهر به لدى احدٍ من الناس ورفضت جميع ما استحقيت من الوسامات والقاب الشرف من رئيس الحزب الذي كنت اقاتل معه بحمية لاني لم احسب ذلك الاَّ فرضاً واجباً على كل وطني . فلو قُدّر ان أُقتل حينئذٍ وانتصر بعد ذلك حزبي لما قام احد يطالب بحقوقي فتندثر اعمالي ويتلاشى ذكري . وعندما بلغ انطونيوس الثانية والعشرين من العمر ارسل من انكلترا يطالبني بثروته فوعدته بالموافاة حالاً . وكنت اضرب اخماساً لاسداس لا ادري بما اعتذر اذا سئلت عن المال وحينئذٍ لا يكون نصيبي سوى السجن اذ لا يلبث انطونيوس بعد ان يتحقق

فقد المال ان يستنجد بالعدالة فيقتص مني · اما بولينا فلبثت في المدرسة الى ان بلغت الثامنة عشرة وعند ذلك اتت ايطاليا وقد وشحها الصبا بثوب من الجمال عزيز المثال فضلاً عما كانت عليه من الذكاء وسموّ الادراك · فكنت مطمئناً من نحوها لانها عريقة بهذه الصفات التي تؤهلها من احد الاغنياء وبذلك تحصل على السعادة · ولا يبقى عليّ حينئذٍ سوى التخلص من اخيها وهناك الطامة الكبرى · فبعد ان مضى عليها سنتان في ايطاليا · طلبت اليّ بالجاجة ان تذهب الى اخيها في انكلترا · وكنت في اثناء هاتين السنتين قد تعرّفت بما كيري الذي كان من حزبنا · واستصحبتهُ بالحروب فكان يقاتل بغيرة وبسالة لانه كان يصبو الى الحرب وتتوق نفسه للقتال · وكان يأتي بعض الاحيان لزيارتي فيتظاهر بالاحتشام لا سيما بحضور بولينا · فكان يطنب بمدح نفسه ويدعي بعلو المنزلة ويتكلف بكل حركة يظن انه يستجلب بها رضى بولينا التي كانت تمقته قدر ما تحتقره · امـا انا فما كنت لاتحمل منه ذلك لولا احتياجي الشديد لذراعه القوية · ولما لم يعد بامكاني السكوت عن مطالبة انتونيوس بماله رحلت مع بولينا الى انكلترا وقد لحق بنا ما كيري وكان لا ينتر عن ملاطفتها واستمالتها ولكن اتعابه ذهبت ادراج الرياح · ومع ذلك فانه لم يقنط من الحصول عليها فتقدم من اخيها حين وصولنا الى انكلترا واظهر رغبته في ذلك · فتبحك انتونيوس على جسارته ثم بين لهُ عدم اهليته لها · فكاد يتميز ما كيري من الغيظ ولم يرَ وسيلة تقرّبه من بولينا سوى الانتقام من اخيها زاعماً انها لا تلبث ان تجيب طلبه بعد ان ترى نفسها بدون نصير · وقبل ان يفترق عنه بيّن لهُ حقيقة الحال التي صار اليها · وانه اصبح صفر اليدين لاني خنته وتصرفت في ثروته · فعندما سمع انتونيوس ذلك اسرع اليّ وعيناه متقدتان

وطلب اليّ ان ادفع لهُ ما بقي من المال · فامهلته الى المساء ريثما انهي الحساب

وهكذا خلوت بنفسي واخذت افكر باقرب الطرق التي يمكني بها الفرار من وجه انتونيوس فلم اجد اوفق من ان انسب اليـه الجنون بعد ان اتواطئ مع طبيب آخر من حزبنا لاعطاء الشهـادة بذلك · ثم ارسله الى البيمارستان حيث لا تطلق حريّته حتى يتنازل عن حقوقه · وهكذا ذهبت الى صديق لي يدعى بيتروف لاطلعه على مقاصدي · وبينما كنت سائرًا التقيت بما كيري فاعلمني بما جرى له مع انتونيوس وانه يودّ الانتقام منهُ · فقلت لهُ انك تكون اعظم مساعدٍ لي في هذا المشروع · · · وهنا انقطع صوت سينيري وفاض دمعه كالسيل ثم نظر اليّ وقال · العنّي يا مستر فوكهان فاني مستحق ان اتحمل كل انواع الاحتقار · لاني مجرم · ولكن يشهد الله باني لم اقصد قتله البتة بل كنت اود من صميم قلبي ان يحيا ذاك الفتى الذي قضى ضحية الظلم والغدر · وما كنت لاسكت عن شكاية ماكيري لولا خوفي من انهُ يفشي اسرار جمعيتنا لدى الحزب الملكي الذي كنا اضدادًا لهُ بل لكل ملك مطلق ·

ثم عاد لاتمام حديثه فقال · وعند المساء حضر انتونيوس وشقيقته الى منزلي وكنت حينئذٍ مجتمعاً مع ثلاثة اشخاص منهم الطبيب وقد عرفت القصد من احضاره مع اثنين آخرين وهما ماكيري وشخص آخر افهمتهما ان يثبا عليه حينما يجداه في حالة الغضب الشديد من جراء فقد المال ويوثقاه ثم يحملاه الى مأوى المجانين · وعندما دخل انتونيوس نظر الى رفاقي بازدراء فعلمت المغزى من تلك النظرة ولكنني تجاهلت عنها والتفت الى بولينا قائلاً · يمكنك ايتها العزيزة ان تخلي لنا المكان برهةً وجيزة لاني اريد ان اخاطب اخاكِ على حدة

– لا لزوم لذلك كما اظن ولكن اذا كانت هذه ارادتك فسأفعل · قالت

ذلك وانثنت راجعة الى غرفة اخرى محاذية لغرفتنا وجلست قرب البيانو ثم جعلت توقع بعض الالحان بصوت رخيم. وبعد قليل قلت لانتونيوس · ان ما استدعيتك لاجله هو المخابرة بشأن ثروتك وثروة شقيقتك التي اؤتمنت عليها·

— حسن ولكنني لا ارى داعياً لحضور الغرباء بيننا في وقت كهذا

— ولكنهم ليسوا غرباء كما زعمت بل اصدقائي المخلصون كما وانهم سالكون في نفس الطريق التي انا سالك عليها والتي اريد ان اخاطبك عنها·

— ولكنني لا اريد ان رجلاً كهذا يعلم باسراري· قال ذلك باحتقار واشار الى ماكيري اما هذا فلم تفت اعينهُ البراقة تلك النظرة · فاحمرَّ وجههُ وتقدم نحونا متمهلاً وقد ستر يدهُ بذيل جبتهِ غير ان انتونيوس اعرض عنهُ بازدراء ثم جلس على كرسي وقال :

اريد من الآن وصاعدًا ان تكون بولينا وثروتها تحت مطلق عنايتي ومن ثمّ لا يطمع بها احد الاوغاد كهذا الرجل الايتالياني صديقك···· هذا كان آخر ما نطق بهِ ذلك المسكين · ولم يكن الاَّ كلمح البصر حتى علت صدرهُ يد ذاك الخبيث فنظرت اليه نظرة تعني انهُ لم يحن بعد وقت امساكه ولكنهُ كان قد سبق فاغمد خنجرًا في صدر المسكين فاذاقهُ كأس الحمام·

ولما ابصرت بولينا من الغرفة الثانية ما حلَّ باخيها انقطعت عن الغناء وصرخت صوتاً مزعجاً وسقطت مغشياً عليها فبادر بيتروف لسد فيها خوف ان ينمَّ علينا انينها المتواصل ورمى عليها قطعة من القماش ثم استدعى تيريزا فلبثت بجانبها كل الليل·

اما انا فبقيت كالصنم لا ابدي حراكاً بينما كان ماكيري واقفاً بجانب فريستهِ والخنجر لم يزل بيده يقطر دماً···· وفي تلك الدقيقة دخل رجل

فظن الجميع انهُ رسول الانتقام فتقدم ماكيري يريد ان يبطش به فاوقفتهُ كي استوضح كلمات ذلك المسكين بقوله انهُ اعمى ·

وعندما تاكدت صدق مدعاهُ اسقيتهُ كأساً من المسكر اضاع منهُ الرشد ثم ارسلت بيتروف فاتى بعربة اغريت سائقها بالتخلي عنها بضعة دقائق وبالحال حمل بتروف الاعمى الى العربة وابتعد به مسافة ميلين عن شارع هوراس ثم عاد فارجع العربة الى حوذيها وانضم الينا·

وفي اليوم الثاني اشعت الخبر في المدينة · ان قد فاجأ المستر مارك مرض شديد وكان الطبيب بيتروف يأتي في كل يوم لعيادته

وبعد اسبوع نعيناهُ للاصدقاء وكان الجسد حينئذٍ ملفوفاً بالاكفان وموضوعاً في نعش داخل غرفة خصوصية · وبعد ان انتهت فروض التعزية ذهبنا به الى ايطاليا وواريناه قبر والدته ونقشنا على الحجر اسمهُ وتاريخ موته وبذلك أمنَّا كل خطر ·

اما بولينا فكنت قد تركتها مريضة بين يدي تيريزا خادمتي الامينة التي قد احاطت علماً بكلما توقع · وعندما نقهت من المرض ارسلتُ فطلبتُ اليها ان تأتي مع بولينا الى ايطاليا · وعندما اجتمعت بهما رأيت ان جريمة ماكيري افقدت الشاب الحياة والابنة العقل ·

غير ان بولينا كانت تنتقم مني بدون قصد او علم بذلك بنظراتها الباردة التي لم تكن سوى اسهم تنفذ في فؤادي فتعدمني الراحة واخيراً لم يعد بوسعي الوقوف امام تلك الضحية فبذلت جهدي بالابتعاد عنها · فاقمت في غرفة قريبة من غرفتها واوصيت الخادمة ان تعتني بها جدًّا وتذهب احياناً بها الى النزهة · ولكنها لم تأنس بالسكن في ايطاليا بل كانت تطلب بالحاجة ان تذهب الى انكلترة

اما ماكيري فكان لم يزل لهُ امل بالاقتران بها حتى وفي الحالة التي هي فيها زاعماً انها لاتعي شيئاً مما مضى فما يمنعه من ذلك · غير اني مع كلما اتيت من المنكرات وما اقترفت من الذنوب لم اتجرَّد من الاحساس الشريف ولذلك لم ارض عن زواج ابنة شقيقتي الى قاتل اخيها · فارسلتها الى انكلترا تصحبها تيريزا وبذلك امنت عليها غائلة ماكيري الذي كان كثيرًا ما يتوعدني بانتشالها من تحت حمايتي والزواج بها سرًّا · وهناك قُدّر انك رأَيتهــا واعلنت للخادمة تشوُّقك للحصول عليها · وارسلتهــا تعلمني بذلك وكنت حينئذٍ في جينوى فلم اتأَخر عن المجيء والاجتماع بك وعندما رأَيت كلفك الشديد بها لم يمكني رفض طلبك وانا على تلك الحال · فهذا مما هيج غضب ماكيري وجعله ينفث عليَّ سمَّ شكايته

وعند وصوله الى هذه العبارة شعرت بان حملاً ثقيلاً قد تزحزح عن صدري وحسبتها المرَّة الثانية التي كنت بها كفيفاً فشفيت

الفصل الرابع عشر

﴿ هل تتذكرني ﴾

وبعد ان انهى حديثه جلس برهةً صامتاً وعيناه شاخصتان الى الارض ثم نهض وقال · هل تجد عذرًا يا مستر فوكهان

– اني اشفق عليك ·

– هل ترجح شفاء بولينا ·

– ارجو ان اجدها بحالة حسنة

– اذاً فاخبرها عن الحالة التي رأيتني فيها فلا ريب انها تتعزى نوعاً اذ ترى ان الله قد انتقم لابخيها . والآن يجب ان اذهب . قال ذلك وخطا نحو الباب حيث كان الحارس بانتظاره وقبل ان يخرج قلت لهُ . اعلمني اذا كان بوسعي ان اخفف عنك بعض الاتعاب . فتبسم ببرادة وقال . يمكنك ان تنفعني بدريهمات قليلة . فلم اتقاعد عن اجابة طلبه . ثم سألته اذا كان يحتاج لغير ذلك . فشكرني واراد الخروج فاستوقفته قائلاً . كيف تنتهي بك الحياة . وهل تلبث على هذه الحال عشرين سنة

– سيذهبون بنا قريباً الى مدينة نيرتشك في اقصى داخلية سيبريا حيث نشتغل بالمعادن . – افٍّ لهذه الحالة التعيسة . الا يوجد طريق للفرار منها

– لا ولكن ارجو ان انال حظوة في عيني الرئيس اذا اجتهدت في العمل عامين فقط وبعد ذلك ربما ينقلني من الاعمال الشاقة الى تطبيب المرضى المسجونين . قال ذلك بصوت منخفض . .

وعند ذلك ناداه الحارس بالخروج وقبل ان يبارح الغرفة قال . اسالك حاجة اخرى . وهي ان ماكيري لا بد ان ينال جزاءهُ فهل لك ان تتكرّم باعلامي عن محاكمته ونتيجة الحكم عليه اذا كنت لم ازل في قيد الحياة فهذا مما يخفف آلامي اذ يكون قد أُنتقِم لي منه . وخرج بدون ان ينتظر جوابي وهو يقول . استودعك الله يا مستر فوكهان واطلب منك الصفح فاننا لا نلتقي بعد ثم توقف قليلاً بعد ان رفع يده اشارة للوداع . ودخل السجن وهكذا توارى عن عيني الى الابد . وفي الحال ذهبت الى القائد فارلاموف واثنيت عليه وشكرت همته وذهبت مسرعاً حيث كان الدليل والجوادان بانتظاري واذذاك لم يكن ليعيقني امر عن الرجوع الى الوطن وبولينا

وفي مدة خمس وثلاثين ساعة وصلت نوفكورد ثم ركبت القطار وسرت الى موسكو ومنها الى بطرسبرج حيث شكرت السفير ثانية · وهناك اخذت تحريرًا من بريسلاً تخبرني به ان بولينا قد نالت الشفاء التام وهذا بعض ما قالت «انها تمو كزهرة نضرة وتظهر بها نفس اخلاق وشعائر سيدي جلبرت»

فكان قلبي يرقص لهذه البشرى طربًا · وما كنت لاصدق قط بوصولي الى منزلي ومشاهدتي امرأتي المجبوبة بحالة طالما تمنيت ان اراها بها · فهل تتذكرني يا ترى · وكيف يكون الملتقى · وهل تعلم اخيرًا ان تحبني · ايكون هذا اللقاء فاتحة اتعابي او خاتمتها ·

واخيرًا وصلت الى الوطن وسررت بمشاهدة ابناء جنسي وانتعشت نفسي باستنشاق هواء انكلترا ثم اتجهت بقلب خافق نحو منزلي وقد توهمت ان تلك المسافة الباقية اطول كثيرًا من السفر الذي قضيته · وحين وصولي الى باب الحديقة ابصرت بولينا داخلاً والى جانبها برسيلاً وهي جالسة قرب صخر تتفجر منه المياه فتسقي من حوله ازهارًا عطر اريجها الفضاء · وفي يدها كتاب ذاهلة عنه وعيناها الجميلتان شاخصتان نحو شجرة قد ارسلت اغصانها ظلاً يخترقه من خلال الاوراق رقطٌ من اشعة الشمس الذهبية منتشرة على ثوبها الارجواني تتماوج كلما حركها النسيم بما يجعل بولينتي المحبوبة بل زوجتي المعبودة اشبه بكوكب يسطع في الفضاء في ليلة ظلماء · فتقدمت نحوها متمهلاً وقد اخذ مني الارتعاش واشتدَّ خفقان قلبي · اما هي فلما شعرت بوطء اقدام التفتت نحوي وحدقت بي برهة ثم صرخت ·هذا هو · وبالحال نهضت واقفة ولبثت في مكانها تنتظرني دون ان تحوّل نظرها عني · فدنوت منها وصافحتها قائلاً هل تعرفينني يا بولينا · فاجابت ولسانها يتلجلج :

لقد حدثتني عنك بريسلاً مراراً

— الا تذكرين بانكِ رأيتني قبلاً

فزفرت زفرة طويلة وقالت : كثيرًا ما رأيتك بالحلم

— وماذا كانت تلك الاحلام

— اعذرني فلا اقدر ان اجيبك الآن فاني كنت مريضة ٠٠٠ من مدة ٠ طويلة ٠٠٠ وقد نسيت اكثرها ٠ولكنني سوف اذكر كلما مضى شيئًا فشيئًا

— أتسمحين لي ان اذكرك بها ٠

— لا ٠ ارجوك ان تمهلني الى الغد ٠فاني تعبة جدًّا وقبل ان تسير الى المنزل عثرت برقعة كانت قد تطايرت من الكتاب الذي بيدها فتأملتها مليًّا واذا بها رسمي فتعجبت لذلك وسألتها كيف تمَّ لها ان تصنع ذلك وهي لم ترني الاّ بالحلم ٠

قالت لا اعلم سببًا لذلك فان هذه الهيئة لم تبارح مخيلتي قط وكنت اراك دائمًا مشتغلاً بامور ذات اهمية ٠ فاخبرني هل فزت بامنيتك ٠

— نعم لقد فزت بالمرام واطلعت على كل شيءٍ

— اخبرني اذًا اين وضعوهُ ٠

— مَنْ تعنين بهذا القول

— اخي انطونيوس الذي قتلوهُ ٠

— لقد دفن بجانب والدتهِ في ايطاليا٠

— الحمد لله ٠ فسوف اصلي على قبرهِ يومًا ما ٠

— وهلاَّ تريدي الانتقام من القتلة ٠

— وماذا يفيد الانتقام ٠هل يعيدهُ الى الحياة ٠فضلاً عن انهُ قد مضى على

تلك الحادثة زمن طويل بينما كنت مريضة . فسينتقم لهُ الله منهم .

— لقد نال كل منهم جزاءهُ فاحدهم مات والثاني دهمهُ الجنون والثالث يرفل الآن بسجن سبيريا غير ان الرابع لم يزل حرًّا .

— سوف يتجرَّع نفس الكأس التي تجرعها رفقاؤهُ . فايهم هذا .

— ما كيري .

فقطبت حاجبيها ولم تعد تفوه بكلمة .

وبوصولنا الى المنزل قالت بتذلل وحزن . هل تذهب بي الى ايطاليا فابكي على قبرهِ . فوعدتها بذلك . فضغطت على يدي اظهارًا لممنونيتها وشكرها . ثم قالت . بعد ان اذهب وارى المكان الذي ضمَّ عظامهُ لا اعود من ثمَّ اذكر الماضي .

الفصل الخامس عشر

﴿ الخاتمة ﴾

ومضى علينا بعد ذلك عدة ايام دون ان يتفوَّه احدنا بهذا الموضوع وكنت حائرًا في امري لا ادري كيف يجب ان اظهر نفسي لبولينا وافهمها الحقيقة . اما هي فلم تفاتحني بامرٍ او تتعجب لوجودي دائمًا بقربها وكنا نصرف اوقاتنا بالقراءة تارة وطورًا بانشاء الاغاني على البيانو واحيانًا نسير للنزهة . فتتأبط ذراعي كأنها عالمة ان تلك اليد تخصها .

فيومًا ما بينما كنا جالسين وقت الغروب على صخر مرتفع يشرف على البحر وقد اخذت اشعة الشمس بالاصفرار التفتُّ يمنةً ويسرةً الى تلك السهول

الواسعة الاطراف التي كنت املكها واذا بها قد زينتها الطبيعة بانعكاس نور الشمس على اشجارها . فتأثرت لهذه المناظر اللطيفة وجعلت اتفكر بعظمة الخالق وكرمهِ فوجدت بانهُ قد متعني بالسعادة بعد الشدة ومنحني مالاً وافرًا ومقتنيات كثيرة . وهي اشياء يستحيل على كثيرين الحصول عليها ولكن ماذا يفيدني كل ذلك وبولينا لم تزل على حالها ضعيفة الادراك لا تهتم بي . فاني افضل ان اكون فقيرًا لا املك شروى نقير وتكون بولينا كما اريد . وعند ذلك فاضت مدامعي وشعرت باني ما زلت اتعس البشر فالتفت اليهـا وكانت شاخصة بي تتأملني بنظر حاد فكدت ابوح لها بكلما يجول في خاطري لو لم تبادرني بقولها .

اخبرني من انت ؟ ومتى وكيف عرفتني .. ولماذا كنت احلم بك وانا مريضة ؟ وكيف اتفق وجودي في منزلك .

— لقد طلب الي الطبيب ان اعتني بك مدة غيابهِ . فوعدتهُ بذلك ولكنه لا يعود لانهُ كما اخبرتك سابقًا قد قبضت عليه العدالة واودعتهُ السجن لانهُ كان شريكًا للقتلة .

فسترت وجهها بيدها كأنها تقصد اخفاء ذاك المنظر الهائل عن عينيها . فاردت ان اغير مجرى افكارها فقلت لها اخبريني الآن يابولينا كيف رأيتني بالحلم

— لقد ابصرتك واقفًا بجانبي في نفس الغرفة التي جرت فيها تلك الفاجعة . ولكني اعلم جيدًا ان تلك اوهام لا صحة لها . وبعد ذلك عدت فابصرت من خلال غيوم الاحزان وجهك فكانت تلوح عليهِ لوائح الجد والتعب وكأني بك تقول « انني ذاهبٌ لأبحث عن الحق » وهكذا كنت منتظرة رجوعك بفروغ صبر .

— الم تريني قبل ذلك .

فاجابت بصوت مرتجف · لا اعلم · لا تسألني · ثم تحفزت للقيام وهي تقول لقد خيم الظلام فهيَّا بنا الى المنزل · فتبعتها وبوصولنا الى البيت ذهبت توًّا الى غرفتها معتذرة عن عدم مقدرتها على مجالستي في السهرة كعادتنا · وقبل ان تلج الباب كلمتني بالايتاليانية « حيث ان بريسلاَّ كانت حاضرة » قائلة : جلبرت · هل يجب عليَّ ان انسى الماضي او احاول تذكاره · وانسحبت الى الداخل · اما انا فلم اكن باحتياج الى الرقاد فخرجت انزّه الطرف بالحديقة وكان النسيم بارداً امنعشاً والقمر يسطع بنوره الفضي فجلست على مقعد خشبي واذا ببريسلاَّ مقبلة نحوي وهيئتها تنبئ بكتمانها امرًا تودّ التصريح به · فقلت لها اذهبي الآن الى بولينا فربما تحتاجك ·

– نعم سوف تحتاجني ولكن ليس الآن ففي الغد ساخلو بها وافهمها كم انت معذب بسببها ·

– لا يا برسيلاَّ لم يحن الوقت بعد ·

– ولكنني متى اخبرتها كم تجشمت لاجلها من الاخطار وكم سهرت على راحتها واعتنيت بها فلا بد من ان تتذكر ذلك حالاً وحينئذٍ ترى نفسها مديونة لك بامور كثيرة وقد تعلو منزلتك لديها فلا يمضي زمن قليل حتى تبادلك عواطف الحب الاكيد ·

– لا · لا اريد ان اغتصب قلبها فآمرك الاَّ تفعلي ذلك ·

– طالما حفظت اوامرك ياسيدي فدعني غداً اعصى واحدة منها لاجل راحتك

– لا يا بريسلاَّ · لا يا صديقتي القديمة فانك بذلك تسببين لي كدرًا عظيماً

ثم تركتها وجعلت اخطر في وسط الحديقة وانا مضطرب الافكار وكنت اردد في ذهني كلماتهـا الاخيرة · وهي هل انسى الماضي او احاول تذكاره ·

فماذا تقصد يا ترى بهذه الكلمات · الم يفدها ذلك الخاتم انها ذات بعل · فمن يكون سواي وهي ترى نفسها في منزلي وقد تاكدت انني مطلع على كل اسرارها فهل علمت ذلك يا ترى وتجاهلت عنه · اذ لا ترى من نفسها ميلاً اليّ · نعم يمكنها ان تتخذ ذلك حجة لقلبها فاني قد اقترنت بها بينا هي فاقدة قوّة يمكنها ان تقبل او ترفض طلبي وجملة القول انني من تلك الساعة بدأت افكر ان اتعابي اخذت بالابتداء · واخيرًا عولت على ان اطلعها في الغد على كيفية ارتباطنا القريب ووقوعي في شراك سينيري واني بريءٌ من اللوم لاني لم اكن اعلم عن حقيقة حالها امرًا · وبعد ذلك اصغى لاستماع الحكم من بين شفتيها · فاما ان احيا سعيدًا او انفصل عنها الى الابد · لان ما من قوة تجذبها للبقـاء معي سوى الحبّ فاذا لم يكن لديها قلبٌ استحق الحصول عليه اكون اذذاك كالحمل الثقيل على عاتقها · فالاوفق ان ابتعد عنها واهبها قصري وما فيه واوكل عنايتها الى خادمتي وهذه احسن وسيلة لتوطيد راحتها ·

وبينا انا بالافتكار اذ وقعت عيني على وردة زاهية اللون فتأملتها مليًّـا واذا بها تشبه وجنتي حبيبتي فاسرعت لاجتنائها واتيت من جهة الغرفة التي كانت بولينا نائمة فيها ورميت بها من النافذة وربما صادف وقوعها على السرير ·

وعند الصباح اتجهت نحو غرفتها متهللاً وقد نبذت مخاوف الليل ظهريًّا · فالتقتني الخادمة عند الباب واعلمتني بخروجها الى الحديقة باكرًا فانطلقت الى هنالك واذا بها سائرة بتمهل ورأسها منخفض وقد ظهر على محياها الصبوح اشارة الذبول فكان وجهها مصفرًّا وعيناها غارقتين مما دل على انها لم تذق الرقاد كل ذلك الليل ·

فاقتربت منها وحييتها كالعادة · فردت تحيتي وهي تبتسم عن ثغر كالدر ·

ثم سرنا سوية · واول ما حاولت البحث على وردتي في يدها فالفيتها مجردة منها ومن ذلك الخاتم الذي كان يسطع في عيني كنجم الامل · وعند ذلك لم يعد بوسعي الشك بانها تذكرت كونها زوجتي وانها ترفض ذلك ولقد وضح لي جليًّا بهذه الاشارة عن افكارها بانها ترغب في حل العقد · فما لي ما اقولهُ بعد · لقد افحمتني بالجواب قبل ان ابدي الخطاب · فويلاً وتعساً لقلبي · انها لا تحبني · وقد لاحظت هي اني انظر الى يديها باستغراب وحزن عظيم ولكنها لم تكترث بذلك ·

وهكذا مضى بنا النهار دون ان نتحدث بهذا الموضوع · غير اني استوضحت منها تغييرًا عظيماً · فانها كانت حزينة جدًّا وتميل الى الانفراد لا تتكلم الاَّ فيما ندر ولم تعد تعتبرني كصديق بل كرجل غريب مستعملة الالقاب السامية وهذا مما قوى احزاني وسحق قلبي اكثر فاكثر ·

ومرَّت بنا بعد ذلك ايام كثيرة وفي كل يوم كانت تزداد فيها تلك الحالة تملكاً · واخيرًا لم يعد بوسعي الصبر وتحققت انها تود التخلص مني فطلبت الفرار · · · وبالحال اعددت امتعتي للسفر حيث لا اعود بعده · ولم يبق عليَّ سوى ان اودّع زوجتي الوداع الاخير بعد ان اطلعها على العلاقة التى بيننا · فذهبت الى غرفتها بقلب واجف ووقفت على الباب كذليل وقد تلعثم لساني وتحلب العرق من جبيني فلم اعد ادري باي عبارة افهمها مقاصدي ·

واخيرًا تقدمت نحوها بقدم الجبان واخذت يدها بين يدي ولفظت هذه الكلمات بصوت متهدج · استودعك الله يا بولينا · فانك لن ترينى بعد · · · وسابارح انكلترا · · · ثم خنقتني الدموع فتوقفت عن الكلام · اما هي فلم تجب بكلمة ولكني شعرت بيدها ترتعش · واردفت قائلاً · ان امورًا مهمة

تقضي عليّ بسرعة الذهاب · فعندما رأَت انني منتظر جوابها قالت بصوت ضعيف:
متى انت عازم على السفر ·
هذا كل ما فاهت به · فاجبتها وكادت تشق مرارتي · الآن · وما لي سوى سويعات قليلة اريد ان اصرفها بالتحدث معك فهل لك رغبة في مرافقتي الى الحديقة ·
– اذا كنت تريد ذلك
– بل اذا لم يكن لديك ثمة مانع · واعلمي ان ما ساحدثك به يختص بك وبمستقبل حياتك ·
– ساذهب ·
ثم نهضت لترتدي اثوابها وانا خرجت متثاقلاً وقد انهكتني الاحزان · فاتيت الى تلك الصخرة التي رأَيت بولينا جالسة قربها اول مرة بعد رجوعي من سفري الطويل · ووضعت امتعة السفر جانباً واضطجعت على الاعشاب النابتة بينما كان النسيم يهب بين الاشجار فيسمع لها حفيف يمازجهُ صوت المياه المنسابة قربي · ثم اطبقت جفني واستغرقت في بحار الافكار ولم انتبه حتى شعرت بيد لطيفة قد وضعت على كتفي · فالتفت واول ما وقعت عيناي عليه هو وجه بولينا القرمزي فاذا بها شاخصة نحوي وعيناها الجميلتان تنثر الدمع كلؤلؤ فوق ورد وجنتيها ·
خفق قلبي بشدة ولم اتمالك ان صرخت من فؤَاد مقروح · بولينا · بولينا · هل تحبينني ·
– هل احبك ؟
ثم رمت بنفسها بين ذراعيّ وهي تقول · نعم احبك يا زوجي العزيز ·

– متى علمت ذلك يا حبيبتي ·

اجابت وقد صدح صوتها كالموسيقى في اذني · من حين كنا جالسين على الصخر عند الشاطئ · وكنت حتى تلك الساعة جاهلة نسبتي اليك · ولم ادرِ الاَّ وقد عاودني تذكار الماضي فجأَة واتضح لديَّ كل ما كان مخفياً ·

— ولماذا نزعت خاتم العقد من يدك

— لقد مرَّت بنا ايام طوال دون ان تخاطبني بهذا الشان فظننت انك ندمت على هذا الارتبـاط اذ رأَيتني غير اهلة لهُ فوددت ان يكون حِسب مشتهاك · ولكني وان نزعته من يدي فقد حفظته قريباً من قلبي ·

قالت ذلك ونزعت من عنقها سلسلة ذهبية قد علق بها الخاتم ثم اردفت قولهـا · وعندما رأَيتك لم تطالبني بهِ تفاقمت احزاني وتأكدت ما كنت ارتاب منه · واما الآن فاذا كنت تراني اهلاً لهُ فانت وما تشاء ·

فتناولتهُ منها واعدتهُ ليدها الجميلة بعد ان كسيتها بالدموع ومن تلك الدقيقة ايقنت ان اتعابي قد انتهت وشمس سعادتي اشرقت ·

وفي اليوم الثاني قلت لها · هل لك ان نبارح انكلتره ·

– والى اين نذهب ·

– أَتسأَليني · بدون ريب الى ايطاليا ·

فتنهدت وشكرتني · وبعد اسبوع كنا في باريس · فقدراني تركت بولينا في الفندق الذي كنا نازلين به وذهبت الى السوق في بعض المهام · واذا بجمهور من الناس قد علت بينهم الضوضاء فتقدمت لاستوضح الخبر · فطرق اذني رنة سلاسل استلفتت انظاري فشاهدت ثلاثة اشخاص حفاة مقيدين تحيط بهم الجنود من كل الجهات · فسأَلت شاباً افرنسياً كان واقفاً على مقربة مني ·

مَنْ هم هؤلاء ؟

– قوم رعاع مفسدون ·

– الى اين ذاهبون بهم ·

اجاب هازًّا كتفيه باستخفاف · وهل غير السجن نصيبهم · وعندما اقتربوا مني رفع احدهم رأسهُ فتبينتهُ جيدًا واذا بهِ ماكيري بعينه اما هو فحينما رآني توقف عن المسير وجعل يتفرَّس بي وليس للخجل اثرٌ ظاهر على وجههِ ثم ابتدره احد الجنود بضربة من كفهِ فانقاد صاغرًا وهو يحرق الارم ويرفل بقيودهِ اما انا فلم يدرك قلبي شفقة عليه البتة وايقنت ان دم انطونيوس مارك كان يصرخ الى السماء بطلب الانتقام وقد اجاب الله سؤْلهُ ·

ولم يمضِ عشر دقائق حتى علا صفير العربة المختصة بنقل المسجونين اشارة للمسير وهكذا غاب عني دون ان اعلم سبب سجنه او نوع الحكم عليهِ · ولكنني لم اغفل عن وعدي لسينيري وحالما رجعت الى المنزل حررت كتابًا الى القائد فارلاموف ومنهُ الى سينيري بعد ان قصصت على بولينا ما رأيت ·

وفي اليوم الثاني زايلنا باريس ولم يمضِ ايام قليلة حتى كانت بولينا راكعة بجانب قبر اخيها تسكب عليهِ الدموع · وعندما انتهت من ذلك طلبت اليَّ ان اذهب بها من ذلك المكان · وكان وجهها حينئذٍ مصفرًّا بما لا يقدَّر · وبعد ان صرنا على الطريق قالت :

لقد بكيت كثيرًا فيما مضى ولكنني ابتسم فيما بقي · ولندع جانبًا ظلام الماضي وننظر الى مستقبلنا المنير باشعة الحب المقدس ···

وهكذا عدنا الى العالم الباسم الذي كان يؤَملنا بحياة جديدة وسعادة اكيدة

« انتهى »


Bibliotheca Alexandrina
04332926